

لجنة التأليف والترجمة والنشر

هـ ساد محمد عبد
مريم بنت
أحمد محمد

ضحى الإسلام

كتاب على طراز « لحر الاسلام » يبحث حروء هذا في الحياة الاجتماعية
والثقافات المختلفة في العصر العالمي الاول

تأليف

إبراهيم



مكتبة الآداب بالجامعة المصرية

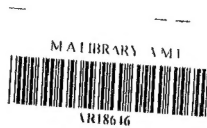


الجزء الأول

« الطبعة الثانية »

مطبعة الاعيتما وشارع حسن البكر صا جها محمود انخضري

١٣٥٢ هـ — ١٩٣٤ م



181 21 7
18454



CHECKED 2002

CHECKED 1996-97



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله .

لعل أصعب ما يواجهه الباحث في تاريخ أمة هو تاريخ عقلها في نشوئها وارتقائها، وتاريخ دينها وما دخله من آراء ومذاهب . ذلك أن مدار البحث في المسائل المادية وما يشبهها واضح محدود، وما يطرأ عليها من تغير ظاهر جلي . أما الفكرة فإذا حاولت أن تعرف كيف نبتت، وكيف تمت، وما العوامل في إيجادها، وما العناصر التي غذتها، وما الطوارىء التي طرأت عليها فعدلتها أو صقلتها، أعياك ذلك، وبلغ منك في استخراجه الجهد . لأن الفكرة أول أمرها لا مظهر لها نستدل به عليها، وقد تتكون من عناصر قد لا تخطر ببال، ويعمل في تغييرها وتعديلها عوامل في منتهى الغموض . والمذاهب الدينية قد يكون الباعث عليها غير ما ظهر من تعاليمها؛ قد يكون الباعث عليها سياسياً، وهي في مظهرها الخارجي مجردة من كل سياسة، وقد يكون الباعث لها افساد الدين فتتشكل بشكل المتحمس للدين، وقد يكون المذهب صالحاً كل الصلاح ولكن يحكيه أعداؤه فيشوهونه ويلعنون فيه فيفسدونه، فيقف الباحث حائراً ضالاً، يتطلب بصيصاً من نور يهديه، أو أثراً في الطريق سلكه من قبله فيجتديه .

وفوق هذا، فالأفكار متنوعة، والآراء متعددة، وقضايا كل عصر تخالف ما قبلها، ويراهم الباحث فيظنها أول وهلة جديدة لم ترتبط بما قبلها برباط، ولم تتصل به أية صلة، فيُعمل فكره فيها عسى أن يكون بينهما من قرابة أو نسب، وما قد يصل بينهما من سبب.

ففي سبيل الله ما يلاقى مؤرخ الفكر من عناء لا يتناسب وما يحصله من نتائج لا

سرت في «ضحى الاسلام» سيرى في «لجر الاسلام» رائدى الصديق والاخلاص للحق، فان أصبت لحمد الله على توفيقه، وان أخطأت فالحق أردت، ولكل امرئ ما نوى.

عنيت بضحى الاسلام المائة السنة الأولى للعصر العباسي (١٣٢-٢٣٣) هـ أعني الى خلافة الواثق بالله، فهو عصر له لون على خاص، كما أن له لونا في السياسة والأدب خاصاً، امتاز بقلبة العنصر الفارسي، وبحرية الفكر الى حد ما، وبدولة المعتزلة وسلطانهم، وتلون الأدب من شعر ونثر لونا احتشذى على كثر الدهور، واختلاف العصور. كما امتاز بتحويل ما باللسان العربى الى قيد فى الدفاتر وتسجيل فى الكتب، وما باللسان الأجنبى الى لغة العرب. وهو فى كل هذا يخالف العصور قبله والعصور بعده. مخالفة تجعله حلقة قائمة بنفسها، يصح أن تسمى، وأن تدرس، وأن تميز. على أنى أحياناً يدعو الى ايضاح الفكرة الى أن أربطها بما كان منها فى العصر الذى قبله، كما قد يدعو فى تسلسلها الى أن أتجاوزه الى العصر الذى بعده.

وقد رتبته أبواباً أربعة :

الباب الأول فى الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر، واجتزأت منها بما له أثر قوى فى العلم والفن.

والباب الثانى فى الثقافات المختلفة دينية وغير دينية.

والباب الثالث في الحركات العلمية، ومعاهد العلم، وحرية الفكر، ومزايا البلدان في تلك الحركات .

والباب الرابع في المذاهب الدينية، وتاريخ حياتها، وأشهر رجالها، وأهم أحداثها .

وكنيت أحزر أن يكون حجمه حجيم « فجر الاسلام »، فلما شرعت في تأليفه اتسع على موضوعه، وغمرتني مناحيه، وواجهت مسائل لم تكن خطرت لي، فتركزت البحث على سجيته، والقول على طبيعته، فإذا هو ضعف فجر الاسلام أو يزيد، فاضطرت أن أجعله جزمين، في كل قسم بابان .
وأقدم الى القراء اليوم بقسمه الأول، راجياً ألا يفرغوا من قراءته حتى أقدم اليهم قسمه الثاني .

على أني لم أقل في كل موضوع الاكثبه الأولى، ولم أنظر اليه الا نظرة الطائر، ولو حاولت أن أستوفي الكلام في كل فصل لكان من كل فصل كتاب. فان نجحت في إثارة الباحثين لنقده، وتصحيح خطئه، وتوسيع مباحثه، فذلك حسبي، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

أحمد أمين

٢٣ رمضان سنة ١٣٥١

١٩ يناير سنة ١٩٣٣

مقدمة الكتاب

للبركتور طر مسين

أراد ناقد من بصاد المشمل أن يثنى على قصة رافته ، وملككت عليه اغنامه ، وكان صاحب القصة له صديقاً حميماً ، فتوقع أن يلام في الشاء عليه ، ولكنه لم يتخرج من اهداء هذا الثناء الى صديقه في غير تردد ولا محعط وأعلن في صراحه - أعني - أن من حيانه الأصدقاء أن يتحد صداقهم وسلة الى وجود ما لهم من حق ، واحماء ما لهم من فصل ، وتحاملهم هذه المحاملة السلبية التي تدفعك الى أن تتردد وتحعط ، وتصدىم الهم ثناء متمعاً ساحماً ، حتى لا تهتم بالاعراق ، ولا توصف بالمخائنه وحتى لا تسوء طن قرائك بصييك من الانصاف ، وحطك من الاستغلال

رأى ذلك السافد « وأما أرى معه » أن هذا النحو من معاملته الأصدقاء حيانه مسكرة ، وظلم فيج وأنه في الوقت نفسه يوج من اتهام النفس ، والاسراف في سوء العظما فليس ينبغي للناقد أن يصدّر - فيما يرى من رأى - عما يقول الساس فيه أو ما يمكن أن يقولوا فيه ، وإنما هو مدبر لفسه ولعرائه بما يعهد أنه الحق الخالص ، سواء أراضى الناس أم سخطوا ، وسواء أوافق رأيه هو في القراء ، أم انحراف عنه

وعلى هذا النحو من الاستعداد عمدت دائماً الى الهد ، واحمدت ما استطعت ألا أظلم الصديق لصداقته ، ولا الخصم لخصومته ، وليس الظلم مفسوراً على أن بعض من العمل الأدنى أو العلى ، أو تنص من قيمته لأن

صاحبه صديق لك ، او حرب عليك . بل هناك ظلم أفتح من هذا وأشنع ، وهو أن تثق على من لا يستحق الشاء ، أو تغلو في حمد من لا يستحق الحمد الاممدار ، وان تحمد الخصم لانه خصم ، ولأنك تكره أن يقول الناس فيك حاصمه فبحر عن اصفاه وتحامل عليه

ولسب أريد أن أحوو صديقي « أحمد أمين » بالاسراف في البناء عليه ، ولا أن أحويه بالعص منه والتقصير في داته ، وأما أريد أن ألسى صداقته ، وأهمل - واو لحظة قصيرة - ما يبني ويبنه من مودة كلها صفو وإحاء استطعا أن يجعله فوق ما يتنافس الناس فيه من المنافع وأعراس الحياة ، أما أريد أن أصفه ، وأسهد لقد فكرت ، وهدرت ، وجهدت نفسي في أن أجد شيئاً من الغيب دى الخطر أصف به هذا الكتاب الذى أهدمه الى القراء فلم أحد ، ولم أوفق من ذلك الى قليل ولا كثير

ولس دى أن « أحمد أمين » قد فسد الى عمله في حد وأمانه وصدق ، وقدره عرسة على احوال المشقة والعباء ، والجرد من العواطف الخاصة . والأهواء التى نعب بالهموس ، فوق من ذلك الى أعظم حظ يستطيع العالم أن يطهر به في هذه الحياة

نعم ، وليس من دى أن « أحمد أمين » قد استقصى فأحسن الاستقصاء ، وقرأ فأحاد القراءه ، وفهم فأحسن الفهم ، واستدسط فوفق الى الصواب . ليس من دى هذا ولا داك ، وليس من دى أن « أحمد أمين » بعد هذا كله ، وبفصل هذا كله ، قد فتح في درس الأثر العربى ناباً وفه العباء والأدباء أمامه - طوال هذا العصر الحديث - يدنو منه تم يندئون عنه ، أو يظفونه فلا يُفهم لهم ، ووفق هو الى أن يصفحه على مصراعته ، ويظهر الناس على ما وراءه من حقائق باصعة . يدمع لها عقل الباحث والعالم والأدب ، ليس سىء من هذا دى أنا ! وإدالم يكن بد من أن نلام أحد لأن عالمياً مصرى قد

وفق الى هذا الفور المسمى ، وأهدى الى اللغة العربية كتابا لم يُنسب الى مثله ،
فليُسمَّ هذا العالم المصرى نفسه ، ولنعاقب « أحمد أمين » لأنه قد طهر
هذا الفور

لقد احبنا « أحمد أمين » لكتابته عنوانه هذا « صحى الاسلام » وهو لا
يقدر إلا أن الصحى يأتي بعد الفجر ، وأنه وقد أطلع « بحر الاسلام » بحب
أن يعمس فى صحاه أما أنا ، فكنت أفهم معه هذا المهم ، وأذهب معه هذا
المنذهب ، ولكنى لم أكذب أبداً معه قراءة الكتاب حتى أحذب أحسن شيئاً لم
أرد أن أحدث به الله ، مخافة أن يكذب طلى مصداق فى قراءه الكتاب ، ولكنى
مصداقاً ، ومضنياً حتى أعمما هذا الجزء الذى يندمجه الى القراءة فإذا هذا
الشيء الذى كتب أحسنه ررداد وصوحاً وحمالاً وفوه وإذا طلى يصدق شيئاً
فشيئاً حتى يصحح بقيا ، وإذا أنا مؤمن بإيمان لا نشوه التشك بأن هذا
الكتاب الذى أنا سعيد بتقدمه الى القراءة يُباقى على نار نوح الاسلام فى العصر
العاسى الاول بورا رائعا وصا . هو ، أهو أشبه شئ . سور الصحى

فالكتاب « صحى الاسلام » لأنه يدرس تاريخ الحياة العملية للسلام
فى القرن الثانى للهجرة ، وهو « صحى الاسلام » لأنه قد حلّى مسنده
الحياه وأطهرها للناس كأوضح ما يمكن أن يكون ، وكأجل وأهم ما يمكن
أن تكون ، وليس أدري أهمها أهى هذا الفور « أحمد أمين » لأنه قد حد
والخ ومضى فى الحد والالحاق ، حتى انتهى الى هذا الوقف ، أم الجامعة المصرية
لأنها قد اهتدت الى « أحمد أمين » ووكلت له ما وكلت من أنواع الدرس
وفوق الحب ، ولعل الخبر كل الخبر فى أن أصرف هذه الهيئة عن أحمد
أمين وعن الجامعة الى الدس بهرمون اللغة العربية ، وبهمهم أن يؤرخوا
آدابها ، ونسبكموها ما اسباب عليه من الكورالى كاتب مجهوله الى
الآن ، هؤلاء أحق بالهيئة لاجلهم سيسبرون منذ اليوم الى أعراضهم فى

طريق واضحة سهلة معدة ، يعمرها نور الصبح
لن تكون حياة المسلمين منذ اليوم كما كانت من قبل ، عامضة مصطربة
سجدة عنها مؤرخو الآداب بالمقرب لا بالتحقيق ، ويقولون فيها بالظن
لا باليقين . ذلك عصر قد انقضى وألغى منه وبين الدس سيؤرخون الآداب
ستار صمى ، ألقاه . أحمد أمين ، وأصبح الدس يوصلون الى تاريخ الآداب
قادرين منذ اليوم على أن يحققوا ويستيقنوا ، ويسيروا في منحهم على
بصرة وهدى .

ما اكبر ما كما نصق صدرنا بهذه الرموز العامضة التي كان بلحا إليها
مؤرخو الآداب حين كانوا يدكرون بطور الحياة الإسلامية - أيام بني العباس -
بفصل الاختلاط بين العرب وغيرهم من الأمم ، وبفصل اتصال العقل العربي
بالعقول الأجنبية ، وبفصل الترجمة والمبرمجين ، وبالفلسفة والمؤلفين كانت
هذه الألفاظ كلها رموزا الى الآن يدل على أشياء كثيرة ، ولكنها لا يدل
على شيء . تُصَوَّرُ أمام الباحثين صورة مختلطة مصطربة لا تحصى ولا تستقر ،
فهى داهية أبدأ ، حائرة أبدأ ، عامضة أبدأ تسعى إليها ، ولا تظهر بها أو
بصرفها عما السكت العقل الذى هو آفة حياتنا الأدبية فى هذا العصر
أما الآن فقد صطبت هذه الصور أحسن صبط ، وحليت أحسن تحلية ،
وأصبحنا اذا دكرنا بطور الأمة العربية أو الأمم الإسلامية فى القرن الثانى
للمحرره نعرف بل بحس حقيقه هذا بطور وه صدره ، والآمال الى انهمى
إليها ، وأصبحنا اذا دكرنا الحماة الاحتماعه للمسلمين فى هذا العصر لا يقول
كلأما مهنماً وإنما يقول كلأما يدل على ما يراد به أحسن دلالة وأحلاها ،
يدل على طبعه هذه الحياه وما يقوم عليه من اتصال بين الافراد والجماعات ،
على احتلاف الأحاسيس والذات والامرحه ، يدل على طبيعة الرواح الذى
كان يكون بين هؤلاء الناس وحلظ دماغهم حلظاً ، أو قل يرحها مزحاً ،

— ح —

يدل على طسعة الرق الذي يحا الشخصيات الفردية والاجتماعية لكثير من الأفراد والأمم، وصهرها كلها في مرحل واحد هو الدولة الإسلامية، فكأن منها شخصية جديدة كل الحدة، طرعه كل الطرافة، هي شخصية الأمة الإسلامية

نعم، ويدل على هذه الطسعات الى كان يتألف منها الجسم الاجتماعي للأمة الإسلامية، والتي كانت تنقسم فيما بينها الأعمال الكثيرة المختلفة، الى يسمح لها هذا الجسم لا لحياتها حسب بل لبرهه هذه الحياة وبرهها، ويأخذ فيها بأعظم حظ ممكن من الترف المادي والعقلي والشعوري جميعاً

وإذا ذكرنا الثقافة اليونانية، فإن نفهم منها منذ اليوم هذا المعنى المهم الذي يرمز اليه بالفلسفة أحياناً. ولكننا سنعرف بالوسط مقدار ما أخذ العرب عن اليونان، وكيف أخذوه ومن أين أخذوه، وكيف أساعوه أولاً، ثم تمتلوه بعد ذلك؟ وقل مثل هذا في الثقافة الهندية والفارسية. أسعق الله بل حبراً من هذا، فل أكثر جدأ من هذا، فما أعلم أن ناحساً عن تاريخ الأدب العربي وفق إلى تحقيق الصلة بين العرب والهند، أو بين العرب والعرب إلى مثل ما وُفَى الله «أحمد أمين»

وهو - بعد هذا كله - أول من سبط هذا في اللغة العربية سبطاً نظماً الى الباحث الذي سبلك إلى بحه طرق الحدود والصدق، لا طربى العت والصليل وإذا ذكرنا الثقافة المسيحية والثقافة اليهودية، فإن نفهم منها منذ اليوم ما كما نفهم من قبل، من أن اتصال المذيين اليهود والصارى قد أحدث من أولئك وهؤلاء صروناً البأثر العقلي العام

ولكننا سنعرف طسعة هذا الأير ومهنداره ومصدره، سم صبح أيد ما على مظاهر هذه الحياة الجديدة، فيما أرح المسلمين من أدب وعلم وفن أسطيع أن أقول ان «أحمد أمين، حينما انبذ لبألف هذا

الكتاب قد اتحد لأمة المحارب ، ووضع أمام عينه عرساً أقسم لسلطه ، أو ليعبدان عن إظهار الكتاب وهذا العرس هو تخلص الحياه العقلية الاسلامية في القرن الثاني من العموص والالهام ، وما زال هذا العموص والالهام حتى أحلاهما عن موهبهما ، وازرع منهما حياه المسلمين العقلية إلى منتصف القرن الثالث للهجرة . وكان يروى كل أسبوع ومعه طائفة جميلة رائعة من العنايم التي كان يكسبها في هذه الحرب الشاقة المصيلة ، فأواسمه بمعادته بالظهر ، واعتناظه بالعور

ولسب أحب أن يهدر أنى أعتمد في هذا الكلام إلى صروب المحارب وألوان التميل لأرض العول وأتقه ، ولكى أحب أن تستش أنى إنما أقول الحق حالاً من كارهيه ، رثاً من كل سمى . وهذا كان تأليف هذا الكتاب حرباً عسقة طويلة تملأ من المؤلفات من العموص والالهام . وكان المؤلف كلما تقدم خطوه وقف ينظم انبصاره ، ويصوغ ثمراته هذه الصبغة الجميلة التي سترها في فصول هذا الكتاب ، ويتأهب في الوقت نفسه لمحمه أخرى كمنبها موهبة أخرى ، وينصير بها انتصاراً جديداً

ومع أن المؤلف قد اتفق جهداً هوياً في أن يحتك مساركته فيما كان يحمل من عاء ، وبلغ من مسقة ، ويدوى من مراره الصبر والمصابرة ، ومطاوله المسائل المعصلة التي كانت تعرض له فأب واحد أثر هذا كله في فصول الكتاب ، من يرى المؤلف يسير في أباه نشبه المطء ، ويعرض عليك حرثات صله ، نسه أن يكون إعرافاً في الفصل ، ويعلدا للحاحط في حب الاستطراد ، ولكن انذب لهذا الطء ، واصبر لهذا الفصل ، وامض مع الكاتب في رفق وأباه ، فسرى أن ندحه هذا السات والصبر والرفق أقوم جداً بما كتب ، وأنفس جداً بما كتب ينظر ، وأن الكاتب لم يورط فيها بورطاً ، وإنما قصد إليها فصلاً ، وتعهد بها بعداً لأنه لم يكن

يستطيع أن يعدل عنها حتى يصحى بالأمانة العلمية والتحقيق الذى يعرضه
المحت الحدث فرصاً على العلماء

ولا تحف من هذا الطء . ولا نشفق من هذه المحاولة ، فإن يعترضك
ملل ، ولن يفل من حذك سأم ، ولن تنسى بالكلمات الحقة ، فقد عرف
الكاتب كيف يهون عليك طول الطريق إلى غايتك ، وكيف يدت أمامك
فى هذه الطريق من الزهر ما يستوى عيك ، وكيف يبشر حولك فى هذه
الطريق من الأصداء الخلو ما يجلب أدنك وأأ رعيم بأنك ستحتاج إلى
أن تبيد قراءه بعض الصحف وبعض الفصول ، وسترى أن الكاتب على
انطائه وأباته مسرع مسرف فى السرعة بعض الأحيان .

أنشهد لعد وفى أحمد أمين ، فى هذا الكتاب الى الاحاده العله والعسه
معاً استكشف الحياة العقلية الاسلاميه استكشافاً لم يسبق اليه ، ثم عرضها
عرضاً هو أعد شئ عن حفاء العلم وحموه ، وأدى شئ الى حمال
المن وعدوته

فلنعم القراء بفصول هذا الكتاب ، ولنعم المؤلف بما نعم به الطاهر
حين ينهى الى فور لا تسويه ثباته . ولكن هذه الحساء الحاده الحصنة
المسحه - فى تواضع ولن حاب - التى يجهاها « أحمد أمين » درساً بافعاً ، ومثلاً
صالحاً للذين يريدون أن يحوا فى مهضر حماه العلماء

طه حسين

فهرس الكتاب

الباب الاول — الحياة الاجتماعية في العصر العباسي الاول

- ١ مقررته — في المقارنه بين العهد الأموي والعهد العباسي في الحركة العلمية .
٥ الفصل الاول — سكان المملكة الاسلامية — العاصري الى تكويت منها المملكة —
مرانا كل عصر — اختلافهم في الآهواء والميول السياسية —
اختلافهم في الأدب — عملية الوليد — ميراث المولدين — الوليد
العقلي — التوحيد بين العناصر المختلفة .

١٧، الفصل الثاني — الصراع بين العرب والموالي — تغلب الشعور العقلي عند العرب
في الحاهلية — ظهور الشعور بالامة في الاسلام — العصية القليلة —
نعصب العرب على الموالى — مقسومة التناغم الاسلامية
للصدية — نوعها — نعصب الموالى على العرب — تاريخ العصيتين
في العصر الأموي — في العصر العباسي — اشكال الصراع — نبخته .
٤٩ الفصل الثالث — الشعوية — البرعات السائدة في ذلك العصر — رعة سادة
العرب — رعة سادة غير العرب — رعة المساواة — لفظ
الشعوية ومن أين أتت — بدء الشعوية — أوصافها — الأشكال
المختلفة التي حاربها الشعوية العرب — أثر الشعوبين في الأدب
في العلم

٧٩ الفصل الرابع — الرفق وأثره في الثقافة — الموقف القايوني للرفق في الاسلام —
مخاره الرفق — احلاف أنواع الرقي وميزة كل نوع — تعليم
الحواري — أثر الحواري في الثقافة والاهون — معاربه من الحرائر
والحواري .

١٠١ الفصل الخامس — حياة اللهو وحياة الحد — مقاربه بين الأمويين والعباسيين
في ذلك العصر — تاريخ الدرخ في اللهو في ذلك العصر — السباح —
المصور — المهدي — الرشيد — الأمن — المأمون — المعصم
والوائق — كلفه في الشراب والمداهب فيه — البيت العباسي
وأثره في الناس — مظاهر الرف — تحول الرف من الحجاز

— ل —

الى العراق - احلاف الناس في النعم والنؤس - ما أُنحه
الافراط في النعم والافراط في النؤس من دعوة الى
الاصلاح وميل الى الزهد - أساس الزهد - أثر هذه الظاهرة
في العلم والأدب والفن .

١٣٧ الفصل السادس - حياة الربدقة وحياة الايمان . الحرب من الربدقة والايمان
السبب في انتشار الربدقة في العصر العباسي - تاريخ الربدقة
في عهد الخلفاء العباسيين - المعاني المحملة التي كانت تدل عليها
كلمة الربدقة - الربدقة في الموالى والعرب - الدواعي الى الربدقة
كبره الاتهام بها حقاً واطلالاً - الحكم المعهني في الربدق -
الايمان - مثل أعلى من المؤمنين .

الباب الثاني - الثقافات في ذلك العصر

١٦٢ تمهيد - نظرة عامة في الثقافات المختلفة

١٦٤ الفصل الأول - الثقافة الفارسية . أساس انتشارها في العصر العباسي -

(١) الورارة - أكثر الورراء كانوا فرساً - ثقافتهم - استعانتهم
بالكتاب - طائفة الكتاب - ثقافتهم - أثرهم في الثقافة .

(٢) اصفال عاصمة الخلافة من دمشق الى العراق - أثره في الثقافة -

أثر الثقافة الفارسية في الثقافة الاسلامية - ١ - الألفاظ -

العلم والأدب - ما ترجم من الفارسية الى العربية - شقف بعض

العرب بالماض الفارسية ومترجمتهم لتعلمهم تأثير الفرس في الحياة

الاجتماعية وعلافة ذلك بالأدب - الافراط في اللهو والافراط

في الزهد - الوصفات - القصص - حمله العلم أكبرهم من

الموالى - مائة اس حليوى - الدعاء الى الثقافة الفارسية -

اس المجمع خير من مثل هذه الثقافة - ملخص حياته - تحليل

كتبه - الأدب الصنبر - الأدب الكبير - رساله الصحابة -

كله ودومة - كتاب الربدقة المسبوق اليه

٢٢٩ الفصل الثانى - الثقافة الهندية - بدء علاقة المسلمين بالهند - أثر اليهود في

الثقافة الاسلامية - في الاليات - الفرق بين الفلسفة الهندية
والفلسفة اليونانية - نظرية التناصح وأثرها في المسلمين -
السمسة وظهورها في العراق - مناقشة المسلمين للسمسة -
الرياضات الهندية وبأثر المسلمين بها - الأدب الهندي - بدء
علم الحو - أهم ما استفاد الأدب العربي من الهند - الألفاظ
الهندية - علم البلاغة عند اليهود - مقارنة بين البلاغة العربية
والهندية - القصص الهندي - الحكم الهندي - الشطرنج -
انتشاره بين المسلمين - بعض العادات والشرائع الهندية

٢٥٣ الفصل الثالث - الثقافة اليونانية الرومانية - مساحيا - انتشارها في الشرق -

اتصال المسلمين بها (١) مدرسه جندسابور (٢) مدرسة
حوران (٣) مدرسة الاسكندرية - حركة الترجمة في ذلك
العصر - الناعث عليها - تدرج اتصال المسلمين بموضوعاتها -
أثر الثقافة اليونانية في المسلمين - في الشكل - في الموضوع -
في الأدب - سبب ضعف تأثيرهم في الأدب

حيز من يمثل هذه الثقافة حتى س اسحق - حياته - أعماله .

٢٨٩ الفصل الرابع - الثقافة العربية - وادحيها - اللغة العربية - من قبلها من اللغات السامية

والآرية - موقفها اراء العلوم في العصر العباسي - أثر الموالي
فيها - اللحن - رحلة العلماء الى البادية ورحله الأعراب الى
الحضر - مقدار الثقة بما نقل من اللغة - تدرج تدوين اللغة -
الأدب العربي - روايه - الأدب البدوي والأدب الحضري -
مقدار اللغة مما نقل من الأدب - أثر الاسلام في انتشار
الثقافة العربية - احلاف الابحاثات التي انتهجها العلماء في
دراستها

يمثل هذه الثقافة المرد - تاريخ حياته - تحليل كتابه « الكامل »

٣٢٢ الفصل الخامس - الثقافات الدينية - اليهودية والنصرانية في المملكة الإسلامية

اليهودية - ثقافتها - الوراثة - نظر المسلمين اليها - تأثير اليهودية
ماليونانية - تسرب الثقافة اليهودية الى المسلمين - في التفسير -
في التاريخ - في المذاهب الاسلامية

الصرانية - الانجيل - نظر المسلمين اليه - أثرها في التفسير
في الحديث - في الفرق الدينية - في الأدب - الأديان وأثرها -
أثر الصرانية في عادات المسلمين وتعاليدهم .

الاسلام - مقارنه بين الأمويين والعباسيين في نشر الاسلام -
أسباب انتشار الاسلام - المكابون وأثرهم في نشره - عمل
الحلفاء العباسيين في ذلك - أثر الاسلام في الصرانية

الفرق بين صور الصدر الأول للاسلام وتصور العباسيين له
تأثير المذاهب الاسلامية في تصور الاسلام - الفرق بين
أسلوب القرآن وأسلوب المتكلمين - تأثير الفلسفة في الطر
الى الدن - تأثير الفلسفة في تعليم العلوم والادارة - نهوض
الاسلام في جميع مظاهر الحياة الاجتماعية .

٣٧٣ الفصل السادس - امتزاج الثقافات - محافظة كل ثقافة أول أمرها على محرارها

ثم تجمعها بعد في مصب واحد - اختلاف العلماء في الاستقاء
من هذه الجداول - عملية الامتزاج والعلماء الذين ساعدوا
عليها - أي الثقافات الأخرى كان أكثر تأثيراً ؟ - مناطق
العود - أثر الاسلام في عملية الامتزاج - خير من يمثل هذا
الامتزاج الحافظ ، وان منه ، وأبو حنيفة الديبوري

الحافظ - حياته - ثقافته - طبعه - أسلوبه - تأليفه - تحليل كتاب
السان والدين - كتاب الحيوان - أثر الحافظ فيما ألف بعده
من كتب الأدب .

ابن حنيفة - حياته - معارفه - الحافظ - تحليل كتابه - عيون
الأخبار - مطهر المعانيات المبرحة فيه - مطهر مناطق العوديه
أبو حنيفة الديبوري - حياته - ثقافته - أثره في عملية الامتزاج

الباب الأول

الحياة الاجتماعية في العصر العباسي الأول

مقدمة

يصور بعض المؤرخين الحالة — وقد سمّطت الدولة الأموية ، وقامت الدولة العباسية — تصويراً يحلّ اليك معه : أن هناك حدوداً فاصلة بين الدولتين ، وأن صفحة للتاريخ قد حُصت بانتهاء الدولة الأموية ، وأن صفحة أخرى بدئت بقيام الدولة العباسية . وأن ليس هناك كبير علاقة بين الأمة الإسلامية في عهدها الأول ، والأمة في عهدها الثاني . وهذا التصوير أبعد ما يكون عن الصحة ! وعلى الأخص من الباحثين الاجتماعيين ، والعقله فقد حدثت حوادث في صدر الإسلام وفي عهد الدولة الأموية — أحدثت بعمل عمالها — مد وحوادثها ، واستمر تأثيرها مع سقوط الأمويين ، وقيام العباسيين حد لذلك مثلاً . بعالم الإسلام فقد طلب بعمل وتبشر ، مؤثرة في البلاد المصوغة ومأثره ها . وكذلك الشأن في انتشار لغة العرب فلم

يكن قيام الدولة العباسية ، صفحة جديدة لهدس العاملين ، وإنما كانت تمهداً لامتدادهما - ومن أوضح المثل على ذلك عملية الامتراح بين الأمم الفاحشة والمفحوشة - عهد بدأت من عهد عمر بن الخطاب ، ووقفت وقفه صغيرة لما أصاب الأمم المعلومة من الدهش ، ثم بدأت تنحصر للنظم الاجتماعية ، من تراوح ، ودحول في الاسلام ، وتعلم للعربية ثم ظهور حيل حديدية يحمل الدم العربي والأحوى معاً ، بل يحمل مع ذلك حصائص الأمم المختلفة التي يكون مهادمه سواء كانت حصائص جسمية ، أو عقلية ، أو خلقية ، أو روحية . وأحد هذا الحيل في الظهور في عهد الدولة الأموية ، وظل ينمو ويعاين في الدولة العباسية - وكان من نتائج هذا الامتراح أن كل حس بدأ تعلم من الأحاسيس الأخرى ما يشعر بأنها آخذة منه خط أو فر . فالعرب يأخذ من الفرس والرومان حصائصهم ، والفرس تأخذ من العرب الدين ، واللغة ، وهكذا - وهذه العمليات طلت سائرة في العهد العباسي ، كما كانت سائرة في العهد الأموي

بل أستطيع أن أقول : إن الدولة الأموية لو قدر لها أن تستمر في الحكم الزمن الذي حكمته الدولة العباسية لظهر على يديها من الحركات العلوية والإصلاحات الاجتماعية ، قريب مما ظهر على يد العباسيين ، ودلينا على ما بهول

(١) أن الدولة الأموية نفسها وهي كانت الحركة العلوية ، والمذاهب الدينية ، والنظم الاجتماعية ، في آخرها أرقى منها في أولها فانتظمت تعاليم الجوارح ، ونشأ الاعتزال ، واعتقه بعض الخلفاء الأمويين ، ونظم حاملات الدروس في المساجد ، وأخذ العلماء يبحثون مسائل في الفدر ، وغير الفدر وناقشوا مع اليهود والنصارى وبدأت نواه الألف ، والترجمة ، وظهرت الكتابة الفقهية - إلى كثير من أمثال ذلك - ولو كان اتساع الحركة

العربية من عمل العباسيين وحدهم لكان آخر الدولة الأموية يشبه أولتها .
(٢) أن الأمويين أنفسهم لما انتقلوا إلى الأندلس ، وكوتوا فيها
بملكهم عاصرت العصر العباسي الأول ، لم يكن تشجيعهم للعلم وحركة
الرحمة والتأليف أقل كثيراً من عمل العباسيين وكذلك مدنتهم
وحصارهم وأكر فرق بينهما : نشأ مما أحاط بالعباسيين من مدسات
العراق القديمة ، والفرس ، واليونان ، وما أحاط بالأمويين بالأندلس ، من
مدنية لاتندة فأما المدل إلى الوسع في الحصاره ، ومما العلم ، والأحد وأوفر
خط من النظم الاجتماعية التي تليق بهم ، فكان خط الدوليين معاً

ذلك أن المملكة الإسلامية ، كانت من أول عهدها تسير متقلة في
أطوارها الطبيعية ، ويسلمها طوؤز إلى طور ، فينقل من طور تغلب فيه
السداه ، إلى طور من الحصاره ، ثم إلى طور آخر ، وهكذا . . . وحادت
الدولة العباسية ، والآمه سائرة إلى الحصاره بطبيعة ما يحيط بها من ظروف
فسارت في هذا الاتجاه . والخطأ كل الخطأ أن يُتهم أنها أوجدته من عدم !

نعم ! إن هناك عوامل ظهرت مع العباسيين — وبعضها من عملهم ، كمله
العود العارسي ، ونقل العاصمة من الشام إلى العراق وكان لهذه العوامل أثر
عبر قليل في نمو الحركة العربية والاجتماعية ، ولكن هذه الحركات كانت
حركات مساعده فقط ولو لم توجد لاستمر الأمة في سيرها إلى الحصاره
وان كان كون سيرها أنطاً فسلطة العصر العارسي كانت تنمو في الحكم
الأموي ، وعلى الأخص في آخره ، ولو لم يح لها فرصة الدولة العباسية لأصبح
لها فرص أخرى محملة الأشكال والعراقون كان أصبح أن يُجدهموا في
الحركة العربية — والعاصمة في الشام — بل نحن نرى بالفعل ، حركة الحرس
البحري وبلاطه الدينية بالبصرة تنمو ونهوى والحركة اللعوبه نمو
ونهوى ، يمثل أني عمزوني العلاء ، وقرينته عيسى بن عمر الثقفي — بالبصرة

أيضاً — في عهد الدولة الأموية . ولم يكن اتساع هاتين الحركتين في العهد
العباسي إلا أثر أهولاء وأمثالهم ، وتقدماً طليعياً نتج من نشاط تلاميذهم
ولكن مما لا شك فيه أن الحياة الاجتماعية — التي كانت تحياها الدولة
العباسية — لوبت العلوم والآداب بلون خاص . وحملت لها صفات خاصة
ما كانت تكون، لو استمرت الدولة الأموية في حكمها .
وهذا ما سيجاول وصفه في الباب الآتي وسيقصر من وصف الحياة
الاجتماعية ، على ما له أثر كبير في العلم والفن

الفصل الأول

سكان المملكة الإسلامية في هذا العصر

واضح أن الأمم تختلف في ميراثها اختلافاً كالذي بين أفرادها فهي تختلف في عاداتها، وتجارها، وفي مذهب تفكيرها، وكمالاتها، ودرجة عقلها، ومقدار ثقافتها، وحدة عواطفها، أو هذونها.

وفوق ذلك، يرى أن لكل أمة « أدناً » يختلف عن أدب الأمم الأخرى. وأدب كل أمة مترع من طبيعة أقاليمها، وتاريخها، وحالاتها، وملوكها وسوقها، وعقلاؤها وسعفتها، وصلحاتها ومخرمها، ومن نظامها السياسي، وعلى الخلة من كل شيء. يصل محتاتها.

يسطيع بعد ذلك أن يقول: إن المملكة الإسلامية في هذا العصر كانت مكوبة من أمم مختلفة فقد كان من أحرانها المغرب - حساً - ومصر والشام وحريرة العرب، والعراق، وفارس، وما وراء النهر. وكانت هذه الأمم تختلف فيما بينها كل الاختلافات إلى أساتها. وكلها حصص للحكم الإسلامي، وتكون منها جميعاً مملكة واحدة، وكان لكل أمة من هذه الأمم مزايا وصفات عرفت بها، فسهر العرب مثلاً بالقدرة على الشعر، حتى قال أحمد ابن أبي دؤاد: « ليس أحد من العرب إلا وهو بقدر على قول الشعر، طعناً ركب منهم، قل أو كثر، »^١ واشهر أهل السند، بالهشوية، والعلم بالعقائد، بهول الحاحظ: « إن السند لهم طسعة في الصّرف، لا يرى بالهشوية صنفاً إلا وصاحب كنيته سيني »^٢ واسرى محمد بن السكس أنارواح السندي فكسبه المال العظيم، وقلّ صيدلاني عبداً، إلا وله

علام سيدي، فبَلَعُوا أيضاً في الحيرة، والمعرفة بالعقائير، وفي صحة المعاملة، واحتلات الخُرُفاه معلما حسا^١، واشتهر أهل مرو، وحراسان بالجل حتى قال في العهد الفريد: «أجمع الناس على بجل أهل مرو»، ثم أهل حراسان قال ثُمَامَةُ بن أسير: «ما رأيتُ الدُّكَّ قط في بلدة إلا وهو يدعو الدَّحَّاحَ، وشُرَّ النَّحَّةِ إليها، ويُطْفِئُ بها، إلا في مَرَوْ» فإني رأيتُه يأكل وحده فعلمت أن لوهم في المأكَل ورأيت في مَرَوْ طفلا صغيراً في يده بيضة، فقلت له أعطني هذه البيضة! فقال: لست تُسَعُّ نذك فقلت أن اللُّؤْم، والمع فيهم بالطَّنْع الدُّرْك، والجملة الممطورة^٢.

واشتهر النيامون بالعش، والحجاريون، بالدَّل^٣ كما اشتهر العرافيون. والطَّرَف قال اسحق بن ابراهيم الموصلي:

إِنَّ قُلِّي بِاللَّيْلِ عَزَّارٌ مَعَ طَنِيٍّ مِنَ الطَّنَاءِ الْخَوَارِي
سَادِنٍ، لَمْ يَرِ الْعِرَاقَ، وَفِيهِ مَعَ طَرَفٍ الْغِرَاقِي، دَلُّ الْحِجَارِ
وعَدَدُ الْجَاخِطِ مَا أَكَلَ أُمَّةٌ فِي عَصْرِهِ فَقَالَ: «مِثْرُهُ سَكَنُ الصَّبِي»،
الصَّبَاءَةُ هُمُ أَصْحَابُ السَّنَكِ، وَالصَّبَاعَةُ، وَالْأَفْرَاعِ، وَالْأَدَاتِي،
وَالْأَصْبَاعُ الْعَبِيدَةُ، وَأَصْحَابُ الْخُرُطِ، وَالنَّحْبِ، وَالنَّصَابِرِ، وَالسَّحِ.
وَالْيُونَانُونَ يَعُوقُونَ الْعَالِلَ، وَلَا يَسْرُونَ التَّعْمَلَ وَمِثْرُهُمُ الْحَكَمُ وَالْأَدَابُ.
وَالْعَرَبُ لَمْ يَكُونُوا تَحَارُّوا وَلَا صَاعَةً، وَلَا أَطْنَاءَ، وَلَا حُسْنَاءَ، وَلَا أَصْحَابَ
فَلَا حَ، فَيَكُونُوا هَبَّةً وَلَا أَصْحَابَ رِعْ لِحُوفِهِمْ مِنْ صَعَارِ الْخُرَيْهِ.
وَالطَّلُوهَا الْمَعْسَاشُ مِنْ أَلْسِنَةِ الْمَكَائِلِ، وَرَمْسُ الْمَوَارِسِ، وَلَا يَرْفُوا
الدَّوَارِي، وَالْقَرَارِطُ حَسْبُ حَمَلُوا حَذَنَّهُمْ، وَوَجَّهُوا فَوَاهِمَ إِلَى قَوْلِ الشَّعْرِ،

١ الخوان حرة ٣٠٤ ١٣٤ ٢ الهاء الفر، حرة ٣ ٣٦١

٣ زهر الآداب حرة ١ ٢٢٣. ٤ ل عراز معج الدين قال أبو اله الصمعيان

٥ الهه وألف الهه اه وهماك ل آخرهما الاسم شمالي حب ذكره نابو

وبلّغه المنطق وثشقيق اللغة، وتصاريف الكلام وقفاة البشر، بعد قِفاة الأثر، وحفظ النسب والاهتداء بالحجج، والاستدلال بالآثار، وعرف الأواء، والنصير بالجل، والسلاح، وآلة الحرب، والحقط لكل مسموع، والاعشار بكل محسوس، وإحكام شأن المهاب، والمثالب. بلعوا في ذلك العاية وميره آل ساسان في الملك والسياسة، والاتراك في الحروب. ولس في الأرض كل ركي كما وصفا كما أنه ليس كل يوناني حكيمًا ولا كل صني في عاية من الحذق. ولا كل أعراني شاعرا، قائمًا ولكن هذه الأمور في هؤلاء أعم وأتم. واليهم أظهر وأكثر^١ وقال في موضع آخر في الكلام على الريح: «وهم أطلع الخلق على الرقص، والصرب بالطل، على الايقاع الموروي، من غير تأديب، ولا تعلم. ولس في الأرض أحسن خلوقًا منهم»^٢ «واشتهر الهند بالحساب، وعلم النجوم، وأسرار الطب، والخرط، والبحر، والتصاوير، والصناعات الكثيرة العجيبه»^٣.

كذلك كانوا يجهلون في الاهواء، والمول السياسة، يوضح ذلك: مارواه ابن قتيبة: «قال محمد بن علي بن عبد الله بن عباس لرجال الدعوة - حين احبارهم للدعوة، وأراد توجيههم - أما الكوفة وسوادها فهناك شعبه على اس أني طالب. وأما البصرة: فهجامة تدس بالكف، وتقول: كن عند الله المقبول، ولا تكن عند الله القاتل. وأما الخريبة فخرورية هارفة، وأعراب، كاعلاج، ومسلمون، في أخلاق الصاري. وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أني سيمان، وطاعة بني مروان، عداوة لباريخه وجهلا مثرأ كما. وأما أهل مكة والمدسة. فهذه علمها أبو بكر، وعمر. ولكن عليكم بحراسان فان هناك العدد الكبير والخلعة الظاهر، وصدور سليمة، وفولوا فارعه،

١ أظّر رسائل الملاحظ. ٤١ وما بعدها ٢ رسائل ٦٣ ٢ رسائل ٧٣

لم تَشَقَّ سَمَها الأَهْواءُ، ولم تَتَوَرَّعْها النُّجُلُ، ولم تَشْعَلْها دِبابَةُ، ولم يَعمِدْ فيها
فسادٌ، ولست لهم اليومَ همَّ العربُ، ولا فيهم كَيْتُ حارِبِ الاتِّباعِ بالسَّاداتِ
وكتُجَّالِ القِائلِ، وعَصِيَّةِ العُشَّائِرِ، ولم يَرالُوا يَدالُونَ، ويُمَيِّهُونَ،
ويُظَلِّبُونَ ويَظَلِّمُونَ؛ ويؤمِّلُونَ الدُّولَ وهم حُدَّ لهم أَحْسامُ وأُنْدانُ،
ومأك وكواهل، وهامات وَلَحَى وشواريبُ وأصوات هائله، ولَعاب
خِمةٌ يَخْرُجُ من أفْواهٍ مُنْكَرَةٌ ١.

كذلك كان في كلِّ أمةٍ من هذه الأممِ طوائِفٌ مُختلفةٌ لها شعائرٌ،
وعاداتٌ خاصَّةٌ، شِيعَةٌ يهودٌ حافظوا على تقاليدهم، وحرَّموا التَّراوُحَ إلا
مِهم، وبُصاري؛ تَمَسَّكُوا بشُعائِرهم وعاداتهم، وبخوس؛ يَقيمونَ هُنا كلَّهم،
ويوقِدونَ بَيراهم.

كما تَجدُ حِلافاً في الآدابِ وفُرُسَ لهم أدبٌ هو بَدِحةٌ تاريخهم،
وحمايتهم الاجتماعيَّة. وعَرافيونَ لهم آدابٌ قديمةٌ ورُتُوها مما اعتُورهم من
الدُّولِ. ومصريونَ لهم أدبٌ كذلك، وأدبٌ هِندى، وأدبٌ شامى،
وأدبٌ يونانى ورومانى

دع عنكَ الاختلافاتِ الإقليمِيَّةَ فامه تَعبشُ في حِل، وأخرى في
سَهْلٍ، وحوٍّ باردٌ شَدِيدُ البرودةِ، وحارٌّ شَدِيدُ الحرارةِ، وأمةٌ ساحليَّةٌ،
وأمةٌ صحراويَّةٌ وما يَستَبعُ ذلك من حِلافٍ بين الأممِ في العاداتِ،
والطَّبيعَةِ، والمَراحِ

كلُّ هذه الاختلافاتِ التي لم يَذكرْها إلا مُتسلِّةٌ قليله، كانتِ يَكونُ
المَملَكَةُ الإسلاميَّةُ في العَصْرِ العَباسِي الأَوَّلِ، وكانتِ ساحَتيها وعاءَ نُصْرٍ
فيه هذه المَوادُّ المُختلفةُ، وبِما عَملَ فيه كانَ بِما عَملَ الأَحْسامِ المُختلفةِ كِمَوايَا
وفد كانتِ هُناكَ عَواملٌ قَويَّةٌ ساعدتْ على هذا الامتِزاجِ المُهمِّها في الحِرَّةِ

الأول من كتابنا^١ ولكن لا بد أن نزيد هنا كلمة عن شيء كان ظاهر الآثار في هذا العصر . وهو « عملية الوليد » :

ويعنى بالوليد ، أن يتزوج رجل من أمة وامرأة من أمة أخرى ، فينشأ بينهما نسل يجرى في عروقه دم الأمتين وقد امتاز العصر العباسي الأول بكرة هذا الحل من الناس . وكان هذا التوليد ظاهرة قوية ، تنبع عن احتلاط الأحاس ، ومن نظام الرق والولاء الذي طُبّق عقب الفتح الاسلامي فقد أصبح النسل الاسلامي - وخصوصاً بيوت الخلفاء ، والأمراء ، والأعيان - « عصاة أمم » ينبثق من النسل ما يحمل خصائص الأمم المختلفة حد لذلك مثلاً نبأ أن جعفر المصور فقد كان في بنته أروى نبأ مصور الجفسي^٢ أولدها المبدى ، وجعفر الأكبر ، وأمة كرده كان المصور استنراها فسرهما ، فولدت له جعفر الأصغر وأمة رومة يقال لها « قالي » أولدها « صالحاً المسكين » وامرأة من بني أهيه أولدها بنتاً تسمى « العالده »^٣ هذا مع أن أبا جعفر المصور لم يسرف في التمسري اسراف من أتى بعده « وكان للرشيد رضاء ألي حاربه من المعتنات والخدمه في السراب ، في أحسن رى من كل نوع من أنواع الثياب ، والجوهر ،^٤ »
« ويقال : إنه كان للبوكل أربعة آلاف سرقة » ، وسأبني من ذلك السبي الكثير ، عند الكلام في الحوارى

كاتب هذه الحوارى المحفلة الأنواع ، تفرّع على الفاحش ، وتناع في أسواق الحاسن ومهتدى كما مهدى الطُرف اللطيفه وسمح كما سمح المال . وكاتب الخرائ من الأمم المحاميه ، يتزوج من غير حشمتها وكاتب هؤلاء وهؤلاء ينسبل نسبلاً عديداً ، وكان تسلم أكبر من نسل العربات

١ أظ كتاب بحر الاسلام الجزء الاول من ١ وما بعدها

٢ القاص ٣ ٢٩٨ ٣ أفاض ٩ ٨٨ ٤ مسعودى جزء ٣ ٨ ٣

الخالصات؛ لقلة عدد العربيات إذا نسب لغيرهن بل كان وتلوع الناس بالاختلاط بعرب العرب أقوى وأشد، وصلهم إلى الأمام أكثر منه إلى الخرائر ولذلك سميان (الأول) أن الجمال في كثير من نساء هذه الأمم المفضحة أوفر، والحسن أتم، قد صفهن الحصاره، وحلاهن العيم هذا إلى ما حسنهن به طسعة الأقليم، من بياض النشرة، وصهرة الشعر، وزرقة العيون، ونحو ذلك. (الثاني) ما أشار إليه الحافظ، من أن عادة البروح بالخرائر، كانت في عهده كمادتنا الآن لا ينظر الرجل إلى من يريد أن يروح، ولكن بوسط «الحاطه» يروى له من محاسنها ما نساء. وقد لا يتمى دونهما ودونه. هذا إن صدقته. وليس ذلك هو الشأن في الأمة، فهو يراها قبل أن يقدم على تملكها فال الحافظ «قال بعض من أحمج لعله التي من أحلها صار أكثر الإماء أعطى عبد الرجل من أكثر المهراب» أن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمل كل شيء منها، وعرف ما حلا خطوة الخلوة، فأقدم على اتباعها بعد وفوقها بالموافقة. والحررة إنما يستشار في حملها النساء، والنساء لا يبصرن من حمل النساء وحاجات الرجال، وموافقتهم، فلبلا ولا كبراً والرجال بالنساء أنصرت وقد تحسن المرأة أن يقول: كأن أيتها السبع أو كأن عمنها عن عزال أو كأن عبقها لم يرق فضة أو كأن شعبرها العافيد. أو هالك أسباب أخر، بها يكون الحب والعص.

ومن أفعال العرب المشهورة «الأمة تستترى بالعين، وترد بالغيث والحره عل في عو من صارت إليه، وقالوا: «عجت لئ ليس العصور، كيف نلس الطويل أو لئ ألقى سعره، كيف أعماه أو عجماً لئ عرف

الإمام، كفى يُقدِّم على الخرائر ١»

وقد اشتهر الأصماع المختلفة، بميلهم إلى أحاس مختلفة من النساء بحكم الحوار، وبحكم ما كانوا يأسرون ويسترقون « من ذلك أن أهل مصر أشبه النساء عندهم: الهدايا، وسات الهدايا، والاعوار^٢، والبن أشبه النساء عندهم: الخنثيات وبنات الخنثيات وأهل الشام أشبه النساء عندهم: الرومات وبنات الرومات وكل قوم فاما نستون حلتهم وستنهم الا الساد، وليس على الشاد قناس^٣ »

من هذا الاحاط الذي أستا طرفاً منه، نشأ حل جديد يحمل ميزات خاصة، حتى بعض الخلفاء أنفسهم كانوا من هذا الصنف والجنس ران سدة هي من حتر شبة؛ ولدت مومي الهادي، وهرون الرشيد، ابني محمد المهدى، وشاهسهرم^٤ بن فيروز بن يزدجرد بن شهریار بن كسرى انور، ولدت للوليد بن عبد الملك، يزيد بن الوليد الاقص، وابراهيم بن الوليد الخالوع^٥. ومروان بن محمد، ابن أمه كردية^٦ وأبو جعفر المنصور؛ أمه ربه اسمها سلامه. والمأمون، أمه أمه تسمى مراحل والمعصم، أمه أمه تسمى شجاع^٧ مازده والواثق، أمه أمه تسمى فراطيس. والمعتز، أمه أمه تسمى شجاع^٨ ومثل ذلك في العلبياء، والسعراء فال الأصمعي كان أكثر أهل المدنه

١ العهد الجديد جزء ٣ ٢٩٦

٢ في الفاموس، العوره بالهم نلاه ١٤ ان هراء، وبلا هاء ناحه العجم .

٣ رسال الخاط ٧٥

٤ حرشه نلاه قرب ماطا؛ قال أبو فراس

ان ررب حرسه أسدا فلکم خالب بها أمرا

٥ في كتاب اللان لا الفقه حاء ١٨ الام ساهمريد ولعل أصح ا

٦ رهر الآداب - هاسم العقد - جزء ١ ٢٢٢

٧ الطبرى جزء ٣١٨٩

٨ أظركنا المعارف لا منه ١٢٨ وما بعدها .

نكرهون الاماء، حتى نشأ منهم على بن الحسين، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله، فهاهنا أهل المدينة فقهاء، وعلماء، وورعاً فرعب الناس في السراري^١ حصع هذا الصنف من المولدين لقوا بين «الوراثه» وكسب من آثائه وأمهائه صواب خاصة وكان صغافاً بمتاراً والعرب من قدم آموها بأن الرواح بالاناعد، حبر من الرواح بالاقارب وروى في الخبر «اعتزوا لا تصؤوا»^٢ وقال الشاعر

فَتَى لَمْ تَلِدْهُ بِنْتُ عَمٍّ قَرَّبَتْهُ ، فَصَوَّى وَفَدَّ يَصَوَّى رَدِيدُ الْغَرَائِبِ
وقال آخر

أَلِدْتُ مَنْ كَانَ تَعْدَةُ الْوَيْهَةِ ، رَوْحٌ أَوْ لَادَ نَسَاتِ الْعَمِّ
فَلَيْسَ نَاحٍ ، مِنْ صَوَّى وَسَقَمِ^٣

وروا «أن عمر بطر الى قوم من فريس، صغار الأحسام، فقال مالك صغبرهم؟ قالوا «فرت أمهاسا من آثائنا قال صدقتم، اعبروا فترجوا في المعداء فأبحوا»^٤

والواقع أنه هذه النظرة المولدون في العصر العباسي، كانوا من أظهر العناصر، ولهم مراتب مختلفة، في أحسامهم، وعمولهم، وصناعاتهم، وذلك باختلاف أمهاتهم، وهول أحد الفواد ما في الدنيا أحد أشجع من أراء حراسان المولدين، ولا أفلك منهم^٥ ١ و هول الأصمعي مات العم أصبر، والغرائب أحب، وما صرت رؤوس الأبطال كاس الأعجمه^٦ ٢ «وسئل بعضهم عن ولد الرومية فقال صلفٌ مُعْتَجٌ، يحمل ول فولد

١ أ المعند جزء ٣ ٢٩٦

٢ معناه روجوا في المعاد الآيات، لا في الأقارب قاله الألسان وذلك أن العرب رعم أن ولد الرجل من فرا «بحي صاوأ، محما ٣ طهه ر ١٤٣

الصقنية قال طيِّعُ، رُبَّمَا قيل . فولد السوداء قال شجاع، سحى قيل : فولد الصغراء . قال هم أنجب أولاداً، وألين أحساداً، وأطيب أفواهها قيل فولد العربية قال أنجب، حسوداً الخ ويقول الخاطب « رأينا الجلاسى » من الناس - وهو الذى يحل من الحشيش، والبيضاء - والعادة من هذا التركيب ؛ أنه يجرح أعظم من أنوبه ، وأفوى من أصلبه ومثمرته ورأسا السرى من الناس - وهو الذى يحشش من من البيض ، والهند - لا يجرح ذلك السأخ على مقدار صحم الأنور ، وهوتسما ؛ ولكنه يحى أحسن ، وأملح ،^٢ ويهول فى العله ، فى مرة الصارى على اليهودى الشكل ، والعقل « إن الاسرائيلى لا روح الا الاسرائيلى فكأن العرائب لا تشوبهم ، وفجواه الاحاس لا نصرب فيهم »^٣

ان شئت ، فانظر فى كتاب الاعانى ، محد أن أكثر من سع من المعسات فى الحجار ، سم فى العراق ، فى العصر الأول العاسى من « مؤلذات المدينة » أو من تلامسدهن - ومولدات المدينة نساء تتحن من آباء عرب ، وأمهات من عبر العرب - أو شئت فانظر الى كثير من العلماء ، والادباء ، وبحرته أحاس آباءهم ، وأمهاتهم ، تحدهم من المولدين وقد رأيت شهرة مولدى حراسان ، ومولدى الأعجام عامه ، بالشجاعة ، وقديماً طهر باليمن عصر يمتاز سماهم العرب « الأنساء » وهم الذين أرسلهم كسرى مع سيف سدى بن لمتاحم يستجده على الحشيشه ، فصره ، وملسكوا اليمن وتدروها وتروحو فى العرب ، فقل لأولادهم الأنساء ، وعلت عليهم هذا الاسم ، لأن أمهاتهم من عبر حسن آباءهم^٤ ومن مشهورى العلماء من الآساء طاووس

١ محاصرات الاداء حر ١ ٧ ٢ كتاب الحيوان حر ١ ٧١

٣ رسائل الخاطب - على هامش الكامل - حر ٢ ١٦٩ و ١٧ والعاره هناك أول ،

٤ لسان العرب فى مادة « اس » .

اس كينسان ، ووهب من مُنَّة التائبين — عبر أن هؤلاء الاساء ، كانوا من
أب فارسي ، وأم عربية ممسة والمولدون في عصرنا العباسي كان أكثرهم من
أب عربي ، وأم أعجمية

وكما كان هناك « توليد » بين الأحسام ، كان هناك توليد عقلي فمقول
الساس من الامم المختلفة ، كان يتناولها اللقاح . والفارسي ، يحمل عقلا
فارسياً ، ثم يعسى الاسلام ، وسعلم اللغة العربية ، فينشأ مريح من العباس ،
تتولد منه أفكار جديدة ، ومعان جديدة واليوناني البصري ، أو الرومي
البصري ، أو العراقي اليهودي ؛ يعالط العربي المسلم ، ونة اذلان الرأي
والقصص ، والفكرة ، فنشأ من ذلك فكر جديد ، وهكذا — ومن ثم
كان « الأدب العربي » بمعناه الواسع الذي يشمل كل ثقافة ، ليس في
الحقيقة أدباً عربياً ، وإنما هو « مريح » طبع بالطائع العربي الاسلامي
فسمى أدباً عربياً ، ولذكر مثلاً يوضح هذا ذلك أنا نرى العرب في جاهليتها
أدبها ، أدب عربي بالمعنى الصحيح وهو ان اقتبس شيئاً مما حوله ، فقد كان
اقتباسه قليلاً حقيقياً أما الروح العالسة القوية في الروح العريسة فهو
يمثل الحناء العريسة أحسن تمثيل ، وبصور حناهم الاحياءة أم بصور ،
فيه حناهم ، وفيه طريفة صديقهم ، وفيه وصف حروبهم ، ولطوهم ،
وحديثهم ، ونداوهم فإذا نحن طهرنا الى العصر العباسي . وجدنا الناس ،
وحاصة الفرس الذين دخلوا الاسلام ، وكانت لهم علمه على مرافق الدولة ،
لم يعودوا بدوهم بدوهم الفارسي الشعر العربي الجاهلي ، وإنما بدوهم
ما أمهوا ، من التعلو في تنعيم الحلب ، والحر فظهر العباس من الأحف
الحراساني البنية ، وأبو نواس الفارسي الأم ، وتبعان دوهما الاول في عنقه
والثاني في جربانه هكذا كان للعربي الجاهلي شعر في الحب ، وشعر في الحر .

ولكن شتان بين حرياب طرفة، وحراب أنى نواس، وشان بين شوق
امرىء القدس، وشوق العباس، ونعشى فى ذلك قول الجاحظ: «كم بين
قول امرىء القدس - أهولُ وقدُ مبالِ الغميط - يساً معاً - وبين قول
على بن الجهم

سقى الله أسلاً صمماً، بعدَ هجعة، وأذنى فؤاداً من فؤاد مُعْدَبٍ
فدنا جميعاً، لو نراق رُحاحه من الرّاح، فمما ندما لم تُسرّب الـ
لم تكن الحصاره وحدها، هى التى أتجت هذا الفرق. ولكن كان من
أكثر العوامل فيه تراوح الأحاس، وتراوح الأفكار، كالتى كان فى الشعر.
فقد أخذ الفرس الورى العرى، والقافية العربية، والأسلوب العرى.
ولكن أحدوا بحاب ذلك، الخيال الفارسى والدوق الفارسى انظر الى
القصيد التى يقولها الحريرى يذكر بعدد ونصف ما اساهم من الفرس أيام
الحلاف بين الأميين والمأمون - والتى مطلعها

فالوا ولیم تلعب الرّمان بعداد، وتغر به عوارها ٢٤١
بحس نسف قصصى تمتع طويل، لالعهد للعرب به من قبل وانظر
أنواع الحكم الهدية الفارسية العربية - التى تتدها فى أحوال اس المجمع -
وانظر القصص الذى فى ألف ليلة وليلة، وكلله ودمسة وانظر أنواع
المقامات التى تحبب فى عمل البدع، والخرى. كل هذا وأماله: أنواع
لا يعرفها العرب الخلفس وإنما كاتب - من عرب سبك - ندهه عمما -
الولد الى أسرنا النبا وما كاتب يكون لو عاس العرب وحدهم أو الفرس
وحدهم ومثل ذلك يقال فيما ظهر من أنواع العاوم المخلطه، الى مسو صحها
فى فصول تالیه

١ محاضرات الأدباء، جزء ٢، ص ٦٨.

٢ القصيدة فى أرغ الطائرى جزء ١، ١٧٦. ولع ١٤٥ د.

والخلاصة أن السماح للعوول أنشح مخلوقات جديدة . لها مبرراتها الخاصة .
كما كان الشأن في تولد الاحسام

* * *

وبعد فمع هذه الاختلافات المتنوعة - التي أنشأ - كاتب هناك روح
واحدة يرفع على العالم الاسلامي . هي روح سرورية ، يوحد بين أفرادها
- مهما اختلف أحاسيسهم وأبواقهم - هذه الروح هي التي أحصعت الفلسفة
الديوانية ، لما دخلت في بلادها فأسعت عليها ثوباً من روحانياتها ، وإلهاماتها
وهي التي جعلت علماء التاريخ والاحتجاج يدركون خصائص مشتركة بين
الشرق تحالف تلك التي للعرب روح ورتها الشرقي من أحمال ، وساعد
على تكوينها بذاتهم الطسعية ، والاحتجاجية ، وجعلهم يندوقون عبر ما يندوفه
العربي ، ويدركون الانشاء على عبر النمط العربي ، كما جعلت لهم مديبات ،
تحالف - من وجوه كثيرة - المديبات العربية . حامت الأديان المختلفة من :
بودية ، ويهودية ، وبصراية فصنعت هذه الروح صعة خاصة صعة
لامادته ، تؤمن بالله فوق هذا العالم ، وترجو حنة ، وتحاف ناراً ، وترى أن
وراء هذه السعادة الدسوة ، والشمواب الجسميه ، سعادة أخرى روحية أفلها
حاج الاسلام ، ونسر سلطانه على الممالك الشرقية راد هذه الروح وفواها ،
وعمل في يوحدتها فقد كانت هذه الأمم المختلفة تصنع لقانون واحد
ولنظام في الحكيم واحد ، وتكلم بلغة واحدة ، ويدين أعليها بدين واحد
ورحلات العلباء في مذهبى القوة ، على صعوبه المواصلات والرحالون
ينادلون الآراء ، والمعتمدا ، ويدعون دعوات دينية وسناسية والحكام
يُرسكون من مركز الخلافة مروّس تعاليم واحدة في جوهرها
كل هذا يوحد بين الأمم المختلفة وكوّن مذهباً ما يصح أن يسمى أمه
واحدة لها : أدب واحد ، وثقافة واحدة ، وعلم مشترك

الفصل الثاني الصراع بين العرب والموالي

يظهر أن العرب في الجاهلية لم يكن لهم شعور قوي بأنهم أمة ! إنما كان الشعور القوي عندهم : شعور الفرد بقلبه ذلك . أنا إذا رجعا إلى ما رشح صحته من الشعر الجاهلي وحدنا مملوءاً بالشعور القبلي ، والعربي تمدح قبليته ، وتعنى بانصارها ، وتعدد محاسنها ، ويهجو القبيلة الأخرى من أجل قبيحها . ولكن هل أن نجد شعراً تتعنى فيه العربي بأنه عربي ! ونعجز فيه على غيره من الأمم . والسبب في ذلك واضح وهو أن العرب في الجاهلية لم يكرهوا أمة بالمعنى الصحيح . فلم يحدوا لغة ولا دماً ، وليس لهم آمال وطنية واحدة ، ولا ما هو شريطة إلى للأمة ، وهو وجود شخص ، أو هيئة يكونه من عده أشخاص ، لها قوة سمند أو امرها على كافة أفرادها ، وحلمهم على طاعتها ، وطبقة المعنسة القليلة التي كانت عندها أن ذلك

أصعب إلى ذلك ، أنه لم يكن هناك ما يجمع العرب على هذه المفكرة . لأنهم إذا نظروا هذا النظر لم يشعروا ذلك بعظمة . ولا خسر حقولهم . الفرس من ناحية ، والروم من ناحية أخرى ، وعلاقة العرب بهم ليست علاقته بشعر بالهوية . فهم - ياملون منهم عارياً ، ولكن ليست علاقته الد بالند بل علاقته المفسر بالعبي ، والضعف بالقوى ومن ناحيتهم ، وانهم إلى فارس والروم ورأى عليهم أن يضعفوا بنفسه -- ثم أورد بعض قصص قد يهضم ما يقول كالذي رواه المصطفى ع السكيتي من وفود العرب على كبرى ، وإيجار العبيان ، بالعرب ، وفصلهم على جمع الأمم

لا يستثنى فارس، ولا غيرها، وأن أمة لو قرب بالعرب لفصلتها (العرب) نعرها، ومنعتها، وحسن وحوها، وأسمها، وسجائها، وحكمة ألسنتها وشدة عهوها، وأنتها، ووفائها، الخ. «ولكننا نشك في هذا الخبر شكاً كبيراً فإنا لم نجد هذا الخبر إلا عن الكلبي، وهو مشهور بالوضع ولأن هذا الحديث لم نجد أحداً رواه في العصر الأموي مع أهميته، إنما رُوي عن الكلبي وحده، في العصر العباسي، هذا إلى أن ما فيه من الصعقة الغبية، دليل على وضعه — بل عندنا من الأحبار الصحيحة ما ينفسه، ذلك ما يقوله قتادة وهو من مشهورى التابعين، وهو كذلك عرى صميم، من سندوس قال عند تفسير قوله تعالى «وَكُنْهُمْ عَلَى سَهْمَا حُمْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِنْهَا ۖ» «كان هذا الخبر من العرب أدل الناس دلاً، وأشبهه عتياً، وأبدنه حسلاً، وأعزاه جلوداً، وأجوعه بطوناً، معكرومين على رأس خنجر بين الأسدين فارس، والروم لا والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يُحسدون عليه من عاش منهم عاس شعباً أو من مات رُدًى في البار أو يؤكلون، ولا يأكلون والله ما تعلم قبلاً يؤمئذ من حاصر الأرض، كانوا فيها أصغر خطأ، وأدق فيها شأناً منهم حتى جاء الله عز وجل بالاسلام فور ثكم به المكتات وأحل لكم به دار الجهاد، ووسع لكم به من الرزق، وجعلكم به ملوكاً على رفاب الناس ۝ ١١»

والعرب لما انتصرت قتلهم على هرفة من الخناس الفارسي يوم دى قار عذب ذلك غزاً عظيماً مع أنه ليس شيء دى خطر، فأنه هرفة لأنه أمة، عرصه للأهرام، ولكن العرب أحسوا بالفجر العظيم لاصبارهم كأهم ما كانوا توقعون أن يهرم حملة فارسه ؟، بل في نفس هذه القصص مسند قوى لما يقول وهو أن العرب لما اضرروا يوم دى قار، لم ينعوا نصره العرب على

الفرس، أما تعوا نصرة القسائل التي اشركت في الحرب وهم الشداون،
والعجيلون، والشكريون، ولم تحل في العباء روح عرسة عامة
ويجربا الطاري: أنه عندما أراد عمر فتح فارس نحو هوا من الفرس،
وعجوا كيف يستطيعون أن يحاربوه! يقول وكان وجه فارس من
أكره الوحوش لهم (الى المسلمين) وأثقلها عليهم، لشدة سلطانهم،
وشوكهم، وعزمهم، وفهرهم الأهم « وَرَوَى أَن الْمُنْشَى بِ حَارِثَةَ
تَكَلَّمَ بِهَا « يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا يَعْظُمَنَّ عَلَيْكُمْ هَذَا الْوَحْشَ فَإِنَّا نَدْتَحِجُّ بِهَا
فَارِسَ، وَعَلَيْسَاهُمْ عَلَى حَيْرٍ شَيْءٍ السَّوَادَ، وَشَاطِرُنَاهُمْ، وَلِبَاسُهُمْ، وَاحِرٌ
مِنْ قَبْلِهَا عَلَيْهِمْ، وَلَهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَا بَعْدَهَا ١١ »

فالذي يظهر لنا من هذا كله أن العربي في الجاهلية كان يعبر بعبيله
والمحمدة التي يفتخر بها هي التي يأتي بها أحد أفراد قبيلته، فلما رهن حاجب
اس زُرارة فوسه عند كسرى وَوَقَّى أَنَّهُ بِالرَّهْنِ أَكَانَ الَّذِي يَفْجَرُ بِذَلِكَ
فبيله تتم^٢، والذي يفجر بالشاعر أو الشجاع فبيله وَقَلَ أَن يَتَحَاوَزُوا
ذلك الى عد المكرمه، مكرمة أمة!

فلما جاء الاسلام، تكونت العرب أمة^٣، وكاب فيها حصائص الأمة الى
أسرها كلها، من اتحاد لغة، ودين، وميول، ومن وجود حكمومه على رأسها
وأعقب ذلك الانصار على أصحهم أمين كانوا في عصرها وهما فارس،
والروم ولكن مع هذا لم تسمح الروح القتالية فوجدت البراءة معا:
(رعيه العربي لببيله، ثم بطفه ثم فحده) و (رعيه للدم العربي، والأمة العربيه،
والجنس العربي) وسارت البرعتان حتماً الى حب في صدر الاسلام،

١ اربع الطارى جزء ٤ ٦١ •
٢ يقول أو عام، منح أاذف العجلي
ورادب على ما وطاب من ماب
عروش الدن اسرهوا دوس حاجب ١

وصرنا نسمع العربي يفخر بميلته في الاسلام، كما كان في الجاهلية، وزاد في الاسلام الافتخار بالحنس العربي، كالذي يقول:

إِنَّا مِنْ النَّهْرِ الدِّينِ حِمَاذُهُمْ

طَلَعَتْ عَلَى عَادٍ يَرْيَحُ صَرْصَرَ

وَسَلَسَ تَأَحَىٰ مَلِكٍ فَمَضَرَ نَائِقَةً،

وَاحْتَرَنَ نَابَ الدَّرْبِ لِأَنَّ الْأَصْفَرَ

فأما النوع الأول. وهو العصبة العلية، فالحوادث البارحة في العصر الأموي، والعصائد الأموية كلها تفسر هذه البرعة، ولا نفهم إلاها. ولتسئلك أمثلة للدلالة عليها: يقول رجل من بني أسد بن حزيمة مدح

يحيى بن حسان

أَلَا جَعَلَ اللَّهُ التَّمَايِينَ كُكُلَهُمْ،

فَدَيَّ لِقَسَى الْقَيْنَانِ، وَحَيَّ بْنَ حَسَانَ

وَأَوْلَا عُرْفِي فِي مِصْرٍ عَصْبَتِهِ

لَهْلُكْتُ، وَأَلْفَا مِنْ مَعَدٍّ بِنِ عَدْنَانِ

وَأَكَنَّ بَقِيَّةَ لَمْ تَطْلُبْ بَعْسَرِي،

وَطَائِفَ لَهْ بَقِيَّةِ بَائِسَا. وَحُطَّانِ

وروى المبرد عن شريح من الأزد قصة، عن رجل منهم أنه كان

طوف بالبد وهو يدعو لأبيه فهيل له ألا يدعو لأهلك؟ فقال

لها عمه ٢١

ودعيل يفخر بالنس، ويعدد مفاهم وترد على الكعيب افتخاره

ببرار في قصيدته بلع سبحانه بنت اولها

١ و الأدمر الروم. قال ابن سيدة لا أدري لم سموا بذلك

٢ الكامل ج ١ ١٩٨ .

أَفِيئِي مِنْ مَلَأَمِكَ تَاطَعَيْنَا كَمَا فِي الْيَوْمِ مَرُّ الْأَرْضِ بَعَثْنَا
 وفدد كر المسعودي : طَرَفَا من القصصتين ٢، وعقب ذلك بقوله
 « وَبَسَى فَوَلَّ السَّكَبَ فِي الْبَرَارِيهِ ، وَالْمَاسَةِ ، وَافْتَحَرَبَ بَرَارَ عَلَى الْيَمَنِ ،
 وَافْتَحَرَبَ الْيَمَنِ عَلَى بَرَارَ ، وَأَدْلَى كُلُّ فَرَبِيٍّ عَمَّا لَهُ مِنَ الْمَسَاقِ ، وَبَحَرَبَ
 الْبَاسَ ، وَثَارَبَ الْعَصِيَّةَ فِي الدُّوِّ وَالْخَصَرِ ، وَسَعِ ذَلِكَ أَمْرُ مَرْوَانَ سَ
 مُحَمَّدَ الْجَعْدِي ، وَبَعَصَهُ لِقَوْمَهُ مِنْ بَرَارَ عَلَى الْيَمَنِ ، وَاعْتَرَفَ الْيَمَنِ عَنْهُ إِلَى
 الدَّعْوَةِ الْعِمَاسِيَّةِ »

وكان عند كثير من ولاية العرب ، هذه البرعة السننة في الحكم ، وفيه
 حوله يرى أنه اذا وثى الرجل فقد وليب فيهله ، فلما ولي اس هبته العراق
 اعهدت فراره . أمها ولب الحكم فلما عرل ونبلى خالد س عند الله
 العسرى اسرأب أعماق فسرى ، ودب فرارة وقال الفرردى
 لعسرى لئن نأت فراره فوثة لسن حذب الأتام حنسمها فسرى
 وفى العصر العباسى ، لما نبلى معن س رائده السندى اليمى قبل مر أهلها
 بعصاً لقومه من راعة ، وعبرها من برار ، فكان عصمة س سالم - والى عمان ،
 والبحرس - ينقل من القنسين بعصاً لقومه من فحطان ، وكنداً لمعن لما عمله
 فى اليمن ٣

والأمنه على ذلك كبره - لا حصر لها - والذى هما فى موضوعا هما
 هو الرعه المانه وهى رعه العرب صد الماوى
 اعنى العرب الاسلام ، وسموا قوله تعالى إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ
 الْإِسْلَامُ « وَمَنْ تَدْعُ ، نَرِ الْإِسْلَامَ دَا فَاِنْ قَبِلَ مِنَّا ، وَهُوَ
 الْإِحْرَاقُ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ » وآموا - بأن الاسلام حبر الاديان وان الناس

١ وار الحاصره جزء ١ ١٧٧ -

٢ جزء ٢ ١٥٥ ٣ أظركم مودى جزء ٢ ١٥٥

حولهم في صلال وأهم حماء الاسلام، وحملة الدين القويم وأن عليهم دعوة الناس كافة، ليتحلوا عن دياناتهم الساقة ويدخلوا فيه وكان من بعد ذلك الجهاد، فطهروا بهارس ودكوا عرشها، وانصروا على الروم، وهرموا حشدها، واسموا على كبير بما في أبنائها وعلى الخلة، وقد رأوا أن سادة العالم كانت للفرس والروم فانتقلت ثغاة اليهم ! . وأن هؤلاء الفرس الذين كان العرب بالأمس يحشون بأنسهم أصبحوا تحب حكمهم ! هؤلاء الروم الذين كان العرب يمهون أن مسحوا لهم باب الشام، ومصر، ليتأخروا فيها قد هرموا، وفروا أمامهم الى عمر دارهم اكل هذا رفع من نفسه العرب، وعلا كثير منهم في ذلك فشعروا بأن الدم الذي يجري في عروقهم دم ممتسار، ليس من حنسة دم الفرس، والروم وأشباههم ! وتملكهم هذا الشعور بالسيادة، والعظمة، فطروا الى عنبرهم من الأمم بظرة السيد الى المسود وكان الحكم الأموي مؤسساً على هذا النظر ! والحق أن العرب في هذا لم يطمعوا الاسلام في تعاليمه ! فانه تعالى يقول « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » ويقول الذي صلى الله عليه وسلم « لَا فَصْلَ لِعَرَبٍ عَلَى عَجَمِيٍّ » إلا بالتقوى ! ، ويقول عمر « لو كان سالم مولى حديثه حلاً لوليت له ! » وإذا قلت العرب فليست أعنى جميعهم فقد كان هناك طائفة كثيرة، من حارم، ندين بعالَم الاسلام، وتحمل مقياس الفصل البدئي لا الدم « فقد كان على س أن طالب لا فصل سرناً على مسروق، ولا عرباً على عجمي، ولا بصانع الرؤساء، وأمراء القبائل وكان هذا من أكد الأسباب في تقاعد العرب عنه ! » وروى المدائني أن طائفة من أصحاب علي مشوا اليه، فصاروا أهله المؤمنين أعطى هذه الأموال، وفصل هؤلاء الاسراف - من العرب وفرنس - على الموالى والعجم واسموا من يخاف خلافه من

الباس — وإنما قالوا له ذلك، لِمَا كَانَ معاوية يصنع في المال فقال لهم
أنا مروني أن أطلب النصر بالخَوَز ١، ١٢ ولكن سواد العرب، وحكام بني
أمة، وولاتهم كاتب عدلهم هذه العصدة العربية فوة، يحمرون معها من
لم يكن منهم وكتب الأدب، وحوادث التاريخ، مملوءة بالشواهد على ذلك
بل حرر يقوم من بني العبر فلم يُصَيِّمُوهُ حتى اشترى منهم العري ١
فانصرف وهو يقول

يَا مَالِكِ بْنِ طَرِيفٍ إِنَّ سَعْيَكُمْ

رَفَعَهُ الْعَرِيَّ مُقْسِدًا لِلدِّينِ، وَالْحَسْبُ

قَالُوا نَدْعُكَ نَعَا فَعَلَبُكُمْ

نَعُوا الْمَوَالِيَّ وَاسْتَحْجُوا مِنَ الْعَرَبِ ١

قال المنذر ابن حِلَّة الموالى أنهت من هذا الباب لأنه حطهم،
ووضعهم، ورأى أن الاسادة بهم غير محسوسة ٢

وقال المنذر لاراهم بن الاشتر يوم جازرو وهو اليوم الذي قُتل فيه
عبد الله بن زياد أن عامه حديدك هؤلاء التَحْمَرَاء (ريد الموالى) وأن
الحرب ان صرَّسَتْهُمْ هربوا، فاحمل العرب على متون الخيل، وأرَّحل
الجرء أمامهم ٣

وروى الأعشى أن رجلا من الموالى حطت بنا من أعراب بني سليم،
وبروحها فركب محمد بن بشر الخارجي إلى المدسة، ووالها يومئذ ابراهيم
ابن هشام بن اسماعيل، فشكا إليه، فأرسل الوالى إلى المولى، فغرق بن المولى
وروحه، وصره مائى سوط، وحلق رأسه، ولحجه، وحاحيه ١

وقال محمد بن بشر .

فَصَنَتْ لِنَسَبِهِ وَحَكَمَتْ عَدْلًا ، وَلَمْ تَرِثِ الْحُكُومَةَ مِنْ نَعِيدٍ
وفيها يقول :

وَيَا الْمَائِسَ لِلْمَوْلَى سَكَتًا لِي فِي سِلْبِ الْجَوَاحِبِ وَالْجُدُورِ
إِذَا كُنَّا فَاتَهُمْ بِنَاتٍ كَثِيرَى قَوْلُ بَحْدُ الْمَوَالِي مِنْ قَرِيدٍ
هَؤُلَاءِ الْحَقُّ أَصْفُ الْمَوَالِي مِنْ أَصْحَابِ الْعَمِيدِ ١١٩
وكان الحجاج - أحد أركان الدولة الأموية - بعد هذه السياسة في سنة ،
ودفة ، فقد وصم أبدي السط بالمشراط وفي ذلك يقول الشاعر في مولى :
أَوْ كَانَ حَيًّا إِنْهُ الْحِجَاحُ مَا سَلِمَتْ

صِحِيحَةٌ نَدُّهُ مِنْ وَثْمٍ حَجَّاحٍ -

ولما نزل الحجاج واسطابني السط منه ، وكسب الى عامله بالصره
وهو الحكم بن أبوب - يقول . اذأناك كاني ، فاه من فمك من السط ، فاهم
معهده للسن ، والدنيا وكسب الله قد سمع السط ، الا من فرأ منهم
الفرآن ، وبقعه في الدس وكسب الله الحجاج اذا فرأ كمانى فارع من
فمك من الاطام . وهم من أيديهم ، لسمعوا عروك مان وسدوا فك
عرا سطا فافطعه والسلام ؟

وامر الحجاج أن لا يؤم بالكوفة الا بمرئى ؛ ولما نصص على سديد سن
حيدر وكان قد خرج مع ان الاسعب على الحجاج قال له الحجاج اما
فدم - الكوفة وليس يؤم بها الا عرى شعباك اما ما ١٠ قال . لي . قال
اقموا ولدك النصص فصيح أهل الكوفة وقالوا لا نصاح النصص الا لعرقى

١ الاغانى جزء ١٤ ١٥ ٢ شرح الاح جزء ٤ ١٣٣ .

٣ عاصرات الاداء ١ ١١٨ ٤ الله جزء ١ ٢٧ .

فاسق قصب أنا ردة من أنى موسى الأشعري، وأمره أن لا يقطع أمراً
دونك أقال: بلى قال أو ما جعلتك في ستمارى وكمهم من رهوس
العرب؟ قال بلى قال فما أحرحك على؟ الخ^١

ونقول الأصمهاى كاتب العرب الى أن عابد الدولة العباسية اذا
أقبل العربى من السوق ومعه شىء فرأى مولى، دفعه إليه ليجمله عنه فلا
يسمع، ولا السلطان يعبر عليه، وكان اذا لقى راكباً، وأراد أن يزل فعل،
واذا رعب أحد في تروح مولاه حطها الى مولاه دون أنها وحدها^٢

وطرب الموالى طرباً سديداً لما مدحهم حرير الحطبي، ثم قال فيه
فستجمعنا والعرو أو لاد سناقه أب لا تسالي مدته من بعددرا
فاجمعوا حوله تسلبون عليه، وسألو به كيف أب يا أبا حزره؟
وأهدوا له ما، حله^٣

بل احضر العرب طائفة المولدين - الذى ذكرنا طرفاً من - وعهم،
وحصائهم في الفصل السابق - وسموا اس العربى من الامه المحسن
قال في لسان العرب المحسن من الكلام ما بعدك، والمحسن العربى اس
الامة لأنه معب

قال ابن عديده «وكاتب هو أمه لا تسخلفى الاماء، وقالوا
لا يصلح لهم الـ، وعلو الأصمعى في علمه ذلك إن اس بروا
امهم (س و ل م) كما لا سم انه هم وإن هذا عر صحيح وإنما كانوا
مخونين ولا م ل ن ي أم، كانوا روال ملكتهم على داس
أم ولد. و ر ا م الى مالى الساس من مالى الأصمعى لأن قولهم

١ ام اب الاداء ١ ٢٢
٢ ا م ح ٣ ٢٩٧

١ ا م ح ١٠ ١٩٧
١ ا ط ر ط ١ ٦٥

هو الذى يمشى مع الواقع ، والمطلق الصحيح وسداسة بنى أمية كلها تؤيد ذلك فهم اذا اختاروا والى راعوا عريته . وادأ اختاروا قاصياً ، أو اماماً يصلى بالناس راعوا ذلك . ولسوا فى هذا يرجعون إلى صرب من الهميم كما برعم الأصمعى وقد لاقى سو أمية كثيراً من العنت لتعين حاله من عند الله القسرى والى على العراق . ولاى هو كثيراً من هو الشعراء لأن أمه أمة رومية . وأكر دلى على قصر . قول الأصمعى : أنهم وأوا فعلا يريد من الوليد ، وراهم من الوليد . مروان بن محمد ، وأمههم اماء ! ولو كانوا يعتقدون بالتحجيم ما ولوهم — اما الحكمة فى وليتهم أن الموالى بدوا يقوون فى آخر العهد الأموى ، فاضطر الناس لصرب من الخصوع أمام قوتهم وذهب أعرانى إلى سوار القاصى ، فقال أن أنى مات ، وبركى وأحأ لى - وخط خطان ناحية - ثم قال وهجياً لسا - ثم خط خطاً آخر ناحية - ثم قال كيف يقسم المال منا ؟ فقال المال بكم أثلاثاً أن لم يكن وارث غيركم فقال له لا أحسبك فهم إلا به تركى ، وأحى ، وهجياً لنا فقال سوار المال بكم سواء . فقال الأعرانى يأحد الهجن كما أحد ويأحد أحى ؟ قال أحل ! فعصب الأعرانى . وقال تعلم والله إنك قليل الخلال بالدهماء ! وحكى الخاطب قال « فل لعبد الكلاى وكان فصيحاً فقراً أنسرك أن تكون هجياً ولك ألف حريب ؟ قال لا أحب اللؤم شئ . فل قال أمير المؤمنين أن أمه قال أخرى الله من أطاعه أو يقول الراسى

إِنَّ أَوْلَادَ السَّرَّارِ كَمُرُّوا بَارَبِّ وَمَا
رَبِّ أَدْحَلِي بِلَاداً لَا أَرَى فِيهَا هَجْساً

وكتب محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب يُعتر
أبا جعفر المصور . « واعلم أي لسب من أولاد الطُّلَقَاء ، ولا أولاد اللعناء ،
ولا أعزَّفت في الاماء ولا حصصى أمهات الأولاد الخ » .
فالخى أن الحكم الأموى لم يكن حكماً إسلامياً ؛ يسوى فيه بين الناس ،
وبكافأ فيه من أحسن ، عرساً كان أو مولى ، ويعاف فيه من أحرَم ،
عربياً كان أو مولى ، ولم يكن الحكم فيه حُدْمَه للرعية على السواء . إنما
كان الحكم حُكْمَما عربياً . والحكام فيه خدمه للعرب على حساب غيرهم .
كأن بسود العرب فيه البرعه الجاهلية لا البرعه الإسلامية . فكان الخى
والباطل يحملان باحلاف من صدر عنه العمل فالعمل حق إذا صدر عن
عربى من قبله ! وهو باطل إذا صدر عن مولى أو عربى من قبله
أخرى ! - ولنا الآن نصد أن نبحث إذا كان الموالى أسعد حظاً تحت
حكم العرب منهم تحب حُكْمَهم الفرس أو الروم أو أتقى ؟ وذلك ما يهم
الباحث السياسى

ولا ندأ أن نكررهما ما سبق الإشارة اليه من أن هذا النظر القاسى
الذى وصفناه ليس نظراً عاماً كان عند العرب جميعهم . إنما كان هو النظر
السائد بين البدو والولاء . أما نظر المساواة فقد كان سائداً فى الأوساط
العلمية والدينية . فالعالم يُشْرِف بعلمه سواء كان مولى ، أو عربياً ومن
سادة البانعين من كانوا موالى ، والناس محوهم من الاحلال ما منحوا
العرب ، لا بفصل بينهم الا بالنسب ، والعلم فجند الزهرى ، ومسروق بن
الأحذع ، وشريح ، وسعيد بن المسبب ، وهما ذه ، من سادات البانعين . وهم
من العرب كما نجد الحسن البصرى ، ومحمد بن سيرين ، وسعيد بن حمير ،
وعطاء بن يسار ورعدة الرائى ، وابن حريج ، من سادة البانعين . وهم من
الموالى والناس - من عرب وموال - باخذون عنهم على السواء ،

ويفتقرون من حلقة أحدهم الى حلقة الآخر ، حتى ليرى الحسن البصري .
يقعد حلفاء بنى أمية ، وسعد يريد من المهلب ! ورى أن يريد وصحبه وبى
أمه وأصحابهم صلاّك مارقون ! ويقول : والله لو ددت أن الأرض أحدهما
حسباً جمعاً ! ثم رأى يريد من المهلب في رهط من قومه الى الحسن ، ويهم
أحدهم بعله . فيقول يريد . « احمد سيفك ! » فوالله لو فعلت لأهلب من معي
عليها ! « ولما مات تبع الناس كلهم جنازة حتى لم يبق بالمسجد من يصلى
العصر ، ولم يستكر الناس عمل الحجاج في فله الآلاف من العرب والموالي
كما استذكروا قتل سعيده بن حنبل وهو مولى لعلمه ودينه !

هذا الذى ذكرنا : هو الذى يفسر لنا ما يروى في كتب التاريخ والسير
من قصص مختلفة تدل على احتقار الموالي حسباً واحترامهم حياً وطق
الطائ لأول وهله أن ينهب بشاراً ، والحق أن لا تصارب وأن الأوساط
السياسية ، وأوساط أشراف القبائل ، وأوساط الدوا كانت تحجر الموالي
وأن الأوساط الدينية والعلمية ما كانت تعصب للحسن ولا دم وإنما
كانت تعصب للحسن والعلم وبقوتهم ما كانا

٨١١

كان يعامل هذه العصبة العرب —ه عصبة أخرى من الموالي وحاصه
الفرس وقد ملككم العتبات كيف علم العرب ! وعزّ بعضهم عن هذا
المعنى . أن حكم العرب لهم ضرب من سحر به العذر ! وكانوا يهجون على
العرب بمحذهم القدم ، وعزهم التالد ، وأهم أهل الحصاره العظمه ، ومن
عرفوا كيف نسوسون الملك ، ويدرون الحكم وأهم لما حكموا لم يكن
لهم الى العرب حاجة ، ولما حكم العرب لم يسيطعوا أن يحكموا الا بموئهم .

لم يكن عد الفرس رعة قليلة، ولم يكونوا يُعْمَلُونَ بالأنساب عناية العرب بها^١، إنما كانوا يتعصبون أحياناً للبلدان فقد كان أهل حراسان مثلاً من أشد الناس عصبه بعضهم لبعض وكاتب العصبه القويه عندهم العصبه للأمة وذلك طبعي لأنهم قطعوا - من عهد بعد - طور الداوه ويحصروا وكانوا أمه بكل معسداً الصبح ويدوا بهجرون على العرب في العهد الأموي - كالذي رأيت من شعر اسماعيل بن يسار^٢ - فقد كان نفعي دائماً محمد الفرس ودخل على هشام بن عبد الملك في حارسه فامسده فأمسده فمسده بهول فيها :

إني وحدك يا غودي بندي حور عبد الحماد ولا حوضي مبدى
أصلي كرم ويدي لا تُفاس به^١ ولي لسان كحد السيف مسموم
أحى محمد أفوام دوى حسب من كل فرم داح المثلث محمود^٢
حجاجي ساهه سلاح مرارة حرد سباق مامح مقاطع
من مثل كسرى وسابور الخود بها وانظر هُزَّان البحر او المعظم^٣
أسد السكاك يوم الروع إن رحهوا وهم أدلوا ملوك البرك، والروم
تسبون في حلق المادى ساهه مَسْبِي الصراحه الاسد اللامع^٤
هناك إن يسألني نأى أنا حر ثوبه هُزَّان عسر الحرام
فصعب هشام وقال أعلى به بحر وإتاي مسد فده مدح بها به لك

١ أ رعة مهال - ون ٢ ا ط ا ح ، د ل و . ر الاسم ١١١

١ معوم - عم رأساً اذا امتعاه العله

٢ حجاجي جمع حجاج هو ال ا ا ر ع في التكرم ، والزار ، جمع زرار وهو ز^٢ ن الله س ، والدها من الحلق الاحاب

٣ الهادي كل ساح من الحاء ، والماد ا ر ع ا ا ه والاسم جمع لهم وهو الهادي ا ه ا من الحلق والاس

وأعلاج هومك؟ عطّوه في الماء فعطّوه في البركة حتى كادت نفسه تخرج
ثم أمر بأحراجه وهو يشتر وبناه من وقته الى الحجار^١
ولكن هذه البرعة صدها الأمويون صدأ صدأ عسماً وعافوا عليها في قوة
وحجرات فتحوّلت من حجر ظاهر الى دعوة سرية، وكانت الدعوة العباسية
عبراً ما تقرر هذا كالدّى قريناه من قبل -- وهو أن هذه البرعة لم تكن
برعة الفرس عامة. فهم من دخل الاسلام الى أعماق نفوسهم. كمن سمساهم
من التابعين ولم يدسوا أن للفرس عليهم بعمه لا يقدر وهي أهمهم هكذا هم
الى الاسلام، واستمدنهم من صلال المحوسية الى هداية الوجدانية
في الأوساط العلمية والدنية كان الفرس لا يؤمنون بعربية، وفارسية
انما يؤمنون باسلام سوى من الناس أجمعين ولكن كثيراً من سواد الناس
ومن أشراف الفرس كانوا يكرهون العرب، وخاصة الحكام، والبيت
الأموي. روى صاحب الاعاني أن اسماعيل بن يسار استأذن على العَمَر
اس يريد من عبد الملك يوماً فحجته سماعه ثم أدن له، فدخل سكي
فقال العَمَرُ يا أبا فائد سكي؟ قال وكف لا أنكي وأنا على مرواني
ومروانية أني أحجبتُ عنك فجعل العَمَرُ يعمد الله وهو سكي فما
سكب حتى وصله العَمَرُ بحمله لها قدر، وخرج من عنده فحجته رجل
فقال له احبرني بذلك يا اسماعيل أي مروانية كاتب لك أو لا بك؟ قال
بعضاً اباهم امرأته طالي ان لم سكب أمه نعل مروان وآله كل يوم
مكان السدج وان لم يكن أبوه حصره الموب فعيل له قل لا اله الا الله
فقال: لعن الله مروان، ثم نادى الى الله تعالى وإبدالاً له من التوحيد،
واقامة له مُسماه^٢!

كره الموالى الحكم الأموي كراهه عممه فسعوا في اسماطه وقد

كاتب وحنة نظرم أن الأمويين لم يعدلوا في حكمهم لنا، وترفنا انتقال
 الأمر من حنمة الى حنمة فكان أمر الظلم على السواء اللهم الا
 اذا استنسا عمر بن عبد العزيز وهو قد، وليس في الامكان أن يحول الأمر
 من العرب الى الفرس، وكنوا هم الخاكس لأن السلطنة الكبرى لا تزال
 في يد العرب ولأنه اذا أثير هذه الدعوة جمع العرب وغير الفرس
 من الموالى علما فلدنغ أدا الى نقل الخلافة من يد الأمويين الى يد
 الهاشميين فجد الملوك مسعده لقبول الدعوة لأن الهاشميين عرب ولأنهم
 أقرب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأمويين، وهذا يسرع في
 قبول الدعوة، ويضعها صعبة دينة وأحرا فحين اذا عصدا الهاشميين،
 رأوا أنهم وصلوا الى الحكم بمعوننا، ونجحوا بنسبنا فيكون طاهر الحكم
 لهم وناطه لنا، نولى المناصب العالمة، وندير شؤون الدولة، ونترك لهم أمة
 الخلافة، ومظهرها الجارحي فلهم الشكل ولنا الجوهر لعل هذا كان
 أهم ما ندور في حلد المؤسسين من الفرس للدعوة العباسية « قال نصر بن
 سيار مخاطب البرانية والتماسة ويحذروهم هذا العدو الداخل عليهم بقوله
 أنلع ربيعة في مرق وإحزتهم فلعضوا قبل ألا نفع العصب
 ولنعصوا الحرب إن الفوم قدنعوا حرباً، نجرق في حافاها الخطب
 ما نالكم بلعجون الحرب ندكم كآن أهل الجحجا عن رأكم عثر
 وبركون عدواً قد أطاكمو نما نأشبت، لا درن ولا حسب
 دئماً ندون دنأ ما سمعتُه عن الرسول، ولم يرل به الكيب
 فمن نكن سائلاً عن أصل ديهيؤ فان ديهيؤ أن تشمل العرب ١

وأعلاج قومك؟ غُطَّوه في الماء . ففطَّوه في البركة حتى كادت نفسه تخرج . ثم أمر بأخراجه وهو يشتر ونفاه من وقته الى الحجاز^١ ولكن هذه النزعة صدها الأمويون صدأ عنيقاً . وعاقبوا عليها في قوة وجبروت . فتحولت من فخر ظاهر الى دعوة سرية . وكانت الدعوة العباسية . غير أننا نقرر هنا كالذي قرناه من قبل - وهو أن هذه النزعة لم تكن نزعة الفرس عامة . فمنهم من دخل الاسلام الى أعماق نفوسهم . كمن سميتهم من التابعين ولم ينسوا أن للرب عليهم نعمة لا تقدر . وهي : أنهم هكَّوهم الى الاسلام . واستنقذوهم من ضلال المجوسية الى هداية الوحداية . ففي الأوساط العلوية . والدينية كان الفرس لا يؤمنون بعربية . وفارسية إنما يؤمنون باسلام سوى بين الناس أجمعين . ولكن كثير آ من سواد الناس ومن أشرف الفرس كانوا يكرهون العرب . وخاصة الحكام . والبيت الأموي . روى صاحب الاغانى : وأن اسماعيل بن يسار استأذن على العُسر ابن يزيد بن عبد الملك يوماً لحجبه ساعة . ثم أذن له . فدخل يبكي . فقال العُسر : يا أبا فائد تبكي ؟ قال : وكيف لا أبكي . وأنا على مروانيي ومروانية أبى أحجبُ عنك . فجعل العُسرُ يعتذر اليه وهو يبكي . فما سكت حتى وصله الغمر بمحلاة لها قدر . وخرج من عنده فليحه رجل فقال له اخبرني : وبيك يا اسماعيل أى مروانية كانت لك أو لؤبكي ؟ قال : بغضنا اياهم . امرأتها طالني ان لم تكن . أمه تمان مروان وآله كل يوم مكان التسبيح . وان لم يكن أبوه حصره الموت . فقيل له : قل لا اله الا الله فقال : لعن الله مروان . تقربا بذلك الى الله تعالى . وإبداً له من التوحيد . وإقامة له مُقامه !^٢

كره الموالى الحكم الأموى كراهه عميقه فسموا في اسقاطه وقد

كانت وجهة نظرهم أن الأمويين لم يعدلوا في حكمهم لنا ، وترفضا انتقال الأمر من حليفه الى حليفه فكان أمر الظلم على السواء اللهم الا اذا استثنينا عمر بن عبد العزيز وهو قد ، ولس في الامكان أن نحول الأمر من العرب الى الفرس ، فكنوا بهم الحاكمين لأن السلطة الكبرى لا تزال في يد العرب ولأنه اذا أثبتت هذه الدعوة مجتمع العرب وغير الفرس من الموالى علينا فلندعُ اذاً الى نقل الخلافة من يد الأمويين الى يد الهاشميين فوجد القلوب مستعدة لقبول الدعوة لأن الهاشميين عرب ولأنهم أقرب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأمويين ، وهذا يُسرّع في قبول الدعوة ، ويصعها صعبة دينية وأخيراً فحين اذا عصدا الهاشميين ، رأوا أنهم وصلوا الى الحكم بمعونتنا ، ونجحوا بتدبيرنا فيكون طاهر الحكم لهم وناطه لنا ، بولى المناصب العالية ، ويدير شؤون الدولة ، وترك لهم أمة الخلافة ، ومظهرها الخارجي فلهم الشكل ولنا الجوهر . لعل هذا كان أهم ما يدور في حشائد المؤمنين من الفرس للدعوة العباسية « قال بصرى سيار يحاطب البرابرة واليمامة ويحذرهم هذا العدو الداخل عليهم بقوله أنسلع ربيعة في مَرَوٍ وإخوتهم فليعضوا قسلاً ألا يجمع العصب وليعضوا الحرب إن القوم قد عضوا حراً ، تُحرِّقُ في حافات الخطاب ما نالكم تلهجون الحرب ندكم كأن أهل الجحاح عن رأيكم عُرِب وتركون عدواً قد أظلكم بما تأشبت ، لا دس ، ولا حسب قدماً يديون دساً ما سمعتُ به عن الرسول ، ولم يزل به الحكيم من يكن سائلاً عن أصلٍ ديهُمُو فإن ديهُمُو أن تُثقل العرب ١

وكتب ابراهيم الامام لاني مسلم الحراساني: « ان اسمطعت ألا تدع
حراسان أحدًا سلكم بالعربية الا قتلته فافعلوا وأياما علام تابع حسنة أشبار
تتمه فاقته، وعليك بمصر فابهم العسود والقريب الدار، فأيد حصر ادهم،
ولا تدع على الأرض منهم ديناراً »

كانت حراسان مهد الدعوة العباسية، وكانت قطرا عطيا، يلعب نحو
صعيف ما يطلق الاسم عليه الآن وقد تولاهوا أمراء من العرب من مصري
ويعاني فكانوا يحكمون سبكا عربيا، بل قسما. فأصبح ذلك دار الحقة بين
العرب والفرس أولا وبين النجاش والمصريين ثانيا فالأردون
يمثلون النجاش، ويتم وفاس يمثلون المصريين وكل يعمل لرعايته،
والعلة فادا بولاهما ثمانى واسى النجاش وحدهم، وحق من شأن عربهم،
والعكس والفرس من هؤلاء وهؤلاء صانعون تولى حراسان المهلب
ان أنى صخرة وآله عهدا طويلا، وهم أردون - أى يمانون -
فكانت السلطة مدهم وحكموا حكا عربيا، فلما وكانوا في مدهى الزروة،
والعى فكانوا يمدون النجاش أولا، ثمالهم ونجاشهم فال المدائى: د ناع
وكل يريد من المهلب بطحا ساءه من معلى بعض أملاك دار من الف
درهم فباع ذلك يريد. فقال له يريد ترك ما يقالين أما كان في غائر الاررد
من نومه ٥٥٥ ٥٥٥ ٥٥٥ وكان عمر (من سمد العري) بعض يريد (اس المهلب)
وأهل نده وهول: هؤلاء حصاره ولا أحب مالمهم ٥٥٥ ٥٥٥ ٥٥٥
وكان ناعيا اى (مصرنا) ٥٥٥ كرت له أمراء الصائل لادلاله الناحم واسناته
هم واسطاله عاهم، ٥٥٥ وأخيرا بولى حراسان مصر من سبار وكان مصرنا
كذلك وهكذا أربع سنين لاد. حمل في حراسان إلا مصرنا، ٥٥٥ وأمثاله
ساعت الدلائل من النجاش والمصريين

١	رح الح ١	٣٠٥	١١ - كاك ٢	٣٠٥	١٣	٢٠٤	٢٠٤
٤	رح الح ١	٣٠٩	٥١ - ادون ٣	٩٧			

فلما شعروا باجتماع الفرس عليهم فكروا ان يجمعوا كلمتهم ، ويوجدوا صفوفهم ، فقد رأينا نصر بن سيار يئنه العرب الى أن الفرس تريد أن تهلك العرب ، فأولوا أن يتحد العرب ؛ كما اتحد الفرس . بل نرى ان الأمر قد وصل الى أكثر من ذلك . « فقد توادعت قبائل العرب من ربيعة ، ومضر واليمن على وضع الحرب ، والاجتماع على قتال أبي مسلم الخراساني »^١ . ولكن أبا مسلم وقومه بدهائمهم ؛ أجتجوا نار الفتنة بين قبائل العرب من جديد . « فجعل أبو مسلم يكتب الى شَيْبَانٍ الخارجي يذم اليمانية تارة ، ومضر أخرى ويوصي الرسول بكتّاب مضر ؛ أن يتعرض لليمانية ليقروا ذم مضر . والرسول بكتّاب اليمانية ؛ أن يتعرض لمضر ليقروا ذم اليمانية »^٢ ويرسل أبو مسلم لعليّ بن الكرمانى - أحد زعماء اليمانيين - من يقول له : أما تأنف من مصالحة نصر بن سيار . وقد قتل بالأمس أبالك وصلبيّه ؟ ما كنت أحسبك تجامع نصر بن سيار فى مسجد تصليان فيه ! »^٣ - وأخيراً بعد حوادث ودسائس نجح أبو مسلم « وتقدم نصر بن سيار الى أبى مسلم يلتبس منه أن يدخل مع مضر . وبعثت ربيعة وقحطان الى أبى مسلم بمثل ذلك . فتراسلوا بذلك أياماً ، فأمرهم أبو مسلم أن يقرّ عليه وفد الفريقين ، حتى يختار أحدهما ففعلوا . وقدم الوفدان ، وسمع أبو مسلم وشيعته الخطب فى ذلك » ثم أعلن أبو مسلم اختياره . فقال : « قد اخترنا علىّ بن الكرمانى ، وأصحابه من قحطان ، وربيعه . . . فنهض وفد مضر ، عليهم الذلة والسكابة »^٤ .

اجتمع على الدولة الأموية اليمنية ، والربيعية ، والعجم . وكان فى

١ ابن خلدون ٣ : ١٢١ . ٢ ابن خلدون ٢ : ١١٩ .
٣ الطبرى ٩ : ٩٧ . ٤ تجميد القصة بطولها فى تاريخ الطبرى ٩ : ٩٧ .

القباء^١ - وهم القادة، والرماء الذين حاربوا الدولة الأموية - كثير من العرب. منهم، فحظة الطائي. وكان من أعظم العرب نفوذاً في قومه وقد حط في أهل حراسان يحقر العرب، ويعظم الفرس، في لحظة عربية. وكان فارساً أكثر من الفرس أنفسهم إذا يقول: يا أهل حراسان هدم البلاد كانت لأناكم الأولين، وكانوا يُبصرون على عدوهم لعدولهم، وحسن سيرهم؛ حتى تدلوا، وطلبوا. فسخط الله عز وجل عليهم؛ فانتزع سلطانهم، وسلط عليهم أدل أمة كانت في الأرض عندهم، فعلوهم على بلادهم واسترقوا أولادهم، فكانوا بذلك يحكمون بالعدل، ويوفون بالعهد، ويبصرون المطاوع، ثم بدلوا وعيروا، وحاربوا في الحكم وأحافوا أهل البر والتقوى من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فسلطهم عليهم ليتقمم منهم نك، لكونوا أشد عقوبة، لأنكم طاموهم بالنار،^٢ وبعد أن أدى العرب عملهم بكل أبو مسلم بهم وقتل رعاياهم

* * *

سقطت الدولة الأموية، وقامت الدولة العباسية، وبالفرس بعض أنفسهم لا أمتهم كاملة. فأمنيتهم الكاملة أن تقوم دولة فارسية بملاوكها، وعمالها ولكن ما نالوه ليس قليل الخطر، فالخلفاء العباسيون مقتنعون أن دولهم قامت على أكتاف الفرس وكذلك العلماء والمؤرخون. فداود بن علي، يحبط فيقول: يا أهل الكوفة، يا والله ما رأينا معطوياً من مهور بن علي حقاً حتى أتاح الله لنا شمساً أهل حراسان، فاحمناهم حصاً وأطاح بهم حصاً، وأطاح بهم دولنا، وأراكم الله ما كنتم ته تطرون والله بشوهم، فاطهر منكم الخلفاء من هاسم وحص وحوهم وأدالكم على أهل

١ حاشية المصنف: وما فيهم في الطارى ٩ ٩٨

٢ داود بن علي هـ عم أبي جعفر المنصور

٢ طارى ٩ ١٦

الشام الخ^١، وأبو جهمر المصور يقول: «يا أهل حراسان! أتم شيعتنا، وأنصارنا، وأهل دعوتنا»^٢. ويقول الجاحظ: «دولة بني العباس أعجمية حراسانية، ودولة بني مروان عربية أعرابية»^٣. «وكانوا يسمون باب حراسان في بغداد باب الدولة، لاهبال الدولة العباسية من حراسان»^٤. وأوصى المصور ابنه قبل وفاته فقال «وأوصيك بأهل حراسان حبراً فاهم أنصارك، وشعثك، الذين بدلوا أموالهم في دولتك ودماهم دولك، ومن لا يفرح محبتك من قلوبهم؛ أن تحس إليهم، وتتجاوز عن مسئتهم، وتكافئهم على ما كان منهم، وتحلف من ماب منهم في أهله وولده»^٥. استمتع هذا علنة الفرس، وبهوذهم. حتى عند المؤرخين من أهم خصائص هذا العصر قوة النفوذ الفارسي، وضعف النفوذ العربي ولكن إلى أي حد غلبت العرب؟ وهل كان نفوذ الفرس في الدولة العباسية كنفوذ العرب في الدولة الأموية؟ وهل انتهى بذلك الصراع بين العرب والموالي؟ الحق أنه لم يكن كل ذلك، فالحلفاء العباسيون عرب هاشميون - ولو من قبل الآب - وهم يهجرون بذلك، ويعادون من أكر ما قههم. وهم أن حفظوا للفرس معوتهم، فلن يسوا عرب منهم، ويوم يشعرون بأن الفرس راحوهم في سلطاهم؛ نكأوا بهم كما نكأ المصور نأى مسلم. والرشد بالرامكة والمأمون بالفصل من سهل. فالفرس في العصر العباسي الأول كان لهم نفوذ كبير. ولكن ليس معنى هذا انعدام نفوذ العرب. كاتب أعظم المصائب كالوزارة في يد الفرس، ولكن كان الخليفة عربياً هاشمياً، وكان له فواد من العرب كما له فواد من الفرس، وكان له ولاية من العرب، وولاية من الفرس شند المصور كانوا أفساماً أربعة

١ طبرى ٩ ١٢٧ . ٢ مسعودى ٢ ١٩ .

٣ البيان والبيان ٣ ٢٠٦ . ٤ مسعودى ٢ ١٨٣ . ٥ طبرى ٩ ٣١٩

بمبیه ، ومصریه ، ورّعیّة ، وخراسانیّة ١ . — وفي اليوم الذي وتّى فيه المأمون طاهرا الشرطة وتّى جماعة من الهاشميين كورّ الشام ٢ وقد ولى المصور محمد ابن خالد بن عبد الله القسري الحرّ من ٣ وولاية الرشيد للأمصار كان كثير منهم عرباً ٤ واشتهر في هذا العصر من أمراء العرب وقوادهم سعيد بن سلم الباهلي ، ومن بن رائدة الشنناني ، وأبو ذؤيب العجلي ، وروح بن حاتم بن قبيصة والمهلب بن أبي صُهره ، وثمّامة بن اثّرس ، إلى كثير من أدبائ هؤلاء .
كل هذا ، يجعلنا نقول : ان الانقلاب العامي حمل كلمة العرس راححة ولكنه لم يدم السكينة الأخرى العربية . وهذا ما جعل الصراع يستمر في هذا العصر . فلم ينع في البحار

رى في هذا العصر أن الناس لا يراون يبرعون الى البحر بالنسب العربي ، والولاء العربي . حتى ارى أنا مسلم الخراساني صطع لنفسه نسباً عربياً فيرغم أنه من نسل سَياط بن عداس بن عباس ٥ وكتاب الاعاني يحدّثنا ان اسحق الموصلي وهو ما هو من العرب من الرشيد ، باطر مع ابن حاتم محصره الرشيد فباع الطاء فسد ابن حاتم فصلى اسحق إلى حارم بن حزيمة (وهو عربي) فتولاه ٦ ، وانتهى إليه . فقبل ذلك منه فقال اسحق

إذا كنت الأحرارُ أصلي ، ومبصّي ،

ودافع صمّي حارم وان حارم

عطسُ نأب سامح ٧ : — اُول

١ اي الدّرنا فاعدا ، عبر قائم ١

١ صري ٩ ٢٨٢

٢ صري ٩ ٦٤

٣ الخو ساري ١٣٨

٤ انظر الاي ١ ١١٢

٥ صري ٩ ١٣٧

٦ اي صاب اب كعب اسحق ١٠٠ لي له

٧ انظر الحكاه في الامام ٥ ٥٦ وادب الامم ١ ٨١

هذه القصة : تدلنا دلالة واضحة على حاجة الأعاجم في هذا العصر
 - حتى الأشراف مهم - إلى الالتئام إلى العربى بالولاء ، ليحتمى به ويدافع
 عنه ويحكي الأعاجم أيضا أنه كان لعلى بن الحليل صديق فارسى ، فعاب مدة وقد
 أصاب مالا ، ورفعة ثم عاد إلى السكوة ، وادعى أنه من تميم فقال يهجوهُ .
 يَرْوَحُ بِنِسَةِ الْمُؤْتَى ، وَيُصْغِحُ بِدَعَى الْعَرَنَاتِ
 فَلَا هَذَا ، وَلَا هَذَا كَلَّ بَدْرَكَه إِذَا طَلَمَا
 إِلَى أَنْ يَقُولَ يَشْمُ الشَّحَّ وَالْقَصُوفَ مَكَى يَسُوْحَتِ النِّسَاءُ
 فَصَارَ نَسَمًا نَالِقُوفَ مَحَلْفًا ، حَافِيًا حَسِيًّا
 إِذَا دُكِرَ الرَّبْرَابِكِي وَأَبْدَى الشَّوْقَ وَالظَّرَابَا
 وَلَسَ صَمْرُهُ فِي الْقَوْفِ مِإِلَا التَّنِيسِ وَالْعِنَا ١٢
 ويحكى في موضع آخر أن والده بن الحنابل كان يدعى النسيب إلى العرب
 فقال فيه أبو الغتاهيه

أَوَالْبُ أُنَبَّ فِي الْعَرَبِ كَمَلِ السَّمْعِ فِي الرُّثْبِ
 هَلِمَ إِلَى الْمَوَالِي الصَّيِّدِ فِي سَعَةِ وَفَى رُحْبِ
 فَأُنَبَّ سَا لِعَمْرِ اللَّهِ ، أَسْهَ مَلِكُ الْعَرَبِ ١٣
 وادعى رجل النسبة إلى العرب فقال نَسَارُ
 أَرْفَعُ بَعْمُ وَإِذَا حَرَكْتُ نَسَبَتَهُ فَانْهَ عَرْنِي مُرَّ فَوَارِرِ
 وَقَوْلِيهِ إِنْ عَمْرَأَ فَأَعْرِفُوهُ عَرْنِي مِنْ رَحَاحِ
 مَطْلَمِ النِّسْبَةِ لَا يَعْرِفُ إِلَّا بِالسَّرَاحِ

١ في الفاموس ، البربر الاول من ثمر الاراك

٢ القصيدة ما بها في الاعاني وقصيدة أخرى ملها في هذا المعنى ١٣ ١٨

٣ القصيدة في الاعاني ١٦ ١٤٩٠

وقال محمد الموصلى .

أَبَ عِنْدِي عَرَبِيٌّ ، لَيْسَ فِي ذَلِكَ كَلَامٌ !

عَرَبِيٌّ ، عَرَبِيٌّ عَرَبِيٌّ ، وَالسَّلَامُ !!

شَعْرَ أَحْفَانِكَ قِصُّوْهُ مَ ، وَشَيْخَ ، وَثَمَامَ !

أفألم كان العرب قد دخلوا في هذا العصر ، وحقر شأنهم على الوصف الذى يصفه بعض المؤرخين كانت هذه الحركة - أعنى حركة الانتساب الى العرب والاعتزاز بهم - تلغ هذا المبلغ ،

أما الذى نشاهده كذلك ان الحركة العربية دفعت بحركة أخرى فارسية ، وان الصوت الخافت الذى كما سمعناه من مثل اسماعيل بن يسار ، في العهد الأموى يعاقب عليه . اصبح الآن شديداً ، قوياً حراً . ورى شاراً رعيم هذه الحركة يفجر مرة بحراسان ويقول

وَهَجَاتِي مَعَشَرَ كُلِّهِمْ حَقِي دَامَ لِمِ دَاكِ الْحَقِيقِ

لَيْسَ مِنْ حُرِّمْ ، وَلَكِنْ عَاطَهُمْ شَرِّى الْعَارِضِ وَهَدَّ سِدَّ الْأَفْقِ

مِنْ حُرَّاسَانَ ، وَبَنَى فِي الدُّرَى ، وَلَبْدَى الْمُسَعَاةِ فَرَعَى وَهَدَّ تَمِيقَ ٢

ويفجر مرة بالعجم ويقول

وَسُتُّ فَوْماً هَمَّ حَسَّةٌ يَقُولُونَ مِنْ دَا ، وَكَبُّ الْعِلْمِ !

أَلَا أَيُّهَا السَّائِلُ حَاهِدًا لِعَرَفَى أَمَا أَبْهُ الْكُرْمِ !

مَتَّ فِي الْكِرَامِ بَنَى عَامَرُ ؛ فَرَوَعَى وَأَصْلَى فَرِاشَ الْعَجَمِ !

ويقول ذلك أُمَامَ المهدي ، فلا يعانده كما فعل هشام بن يسار بل

يسأله من أى العجم أنت ؟ فيقول من أكثرها فى الفرس ، وأشدّها
على الأفراس ، أهل طحارستان
بل كان يسراً من الولاء . ويقول
أصبح مولى ذى الحلال ، وبعضهم
مولى العريب ! نخذ بفصلك فافهم
مولاك أكرم من تميم كلها .
اهل الفحال ، ومن قریش المشغرا
فارجع الى مولاك غير مدافع .
سحان مولاك الأجل الأكبر !

بل كان يدعو الموالي إلى سد ولائهم للعرب فيروى الأعاني أن رجلاً
من بني زيد شريف قال لسار وياسار أفد أفسدت علينا موالينا
تدعوهم إلى الاسماء مسا وترعهم في الرجوع إلى اصولهم وترك الولاء
وأب عن راكي الفرع ، ولا معروف الأصل ! فقال له نشار والله لأصلي
أكرم من الذهب ، ولفرعي أركي من عمل الأزار ، وما في الأرض كلب
يود أن يسلك له نسيه^١ .

وقال له عري ما للموالي والشعر ؟ فقال يهجو العرب
أحين كسبت بعد العري - حرا وبادمت الكرام على العمار ؟
هاجر يا ابن راعيه وراع ، بن الأحرار ، حسبك من حسار !
تربع^٢ بخطبة كسر الموالي ، ويسيك المكارم صيد فار
وكتب إذا طمئت إلى فراح ، شركت الكلب في ولع الإطار^٣

١ أعاني ٣ ٥١ . ٢ ربع ريد ٣ الاطار ما حول الب

وتعدو للقاء يدريها ، ولم تعقل يدريها الديار ١
وتنشج الشمال للأنسها ، وترعى الضأن بالبلد القمار ٢
ولشمار كثير من هذا الضرب ، يدلنا على ما نقول أنه كان رعيم الحركة
العدائية للعرب كما يريد ما كان له ولأمثاله من حرية - في شواء العرب -
لم يكونوا يمهّدونها في العصر الأموي
وكثير ادعاء الناس للانتساب إلى كسرى كذلك حتى قال سحطه .
وأهل القسرى كلهم يسمون لكسرى ادعاء ! فأين السبط ٣

بما لا شك فيه أن نفوذ الفرس قد قوى في عهد العباسيين الأولين ،
وكان هذا النفوذ يرداد يوماً فيوماً
قد كان استخدام الموالى في العهد الأموي بادرأ ، وكان قنابل المصاعص .
فقد استخدموا - مثلاً - رجاء بن حبوة ، وكان مولى كندة واستخدم
عمر بن عبد العزيز مولى ، وجعله والياً على وادي القرى فعوت على ذلك .
ولكن ما كان شاداً في العصر الأموي صار هو المألوف في العصر العباسي .
ابتدأ المصور يكثر من استخدام الموالى يقول السيوطي : « إن المصور
أول من استعمل مواله على الأعمال وهدمهم على العرب وكثير ذلك بعده
حتى رآه رياسة العرب ومذاقاً » ١ وليس معنى هذه العبارة أن أحداً
قله من خلفاء بني أمية لم يستعمل مولى قط وإنما المعنى أن المصور أحد
استعمال الموالى منذأ له وفاعده ، ورأسهم على العرب وهو هذا المعنى أول
من فعل ذلك ، والحجشياري في كتابه تاريخ الورداء يروي لنا ما يفهم منه

١ بدرها ١ بالحدود والاربع مائة ٢ أنى ٣ ٣٣

٣ محاصرات الاداء ٢٠٢٣٠٢ ٢ أربع الحماة ١٥

ان أكثر من تولى الأعمال للبصير موالى^١ ونقول المسعودى فى المصور إنه
أول حليفه استعمل مواليه ، وعلبائه ، وصرّهم فى مهماته ، وقدمهم على العرب
فاتحدت ذلك الحلفاء من بعده - من ولده - سنة : فسقط ، وبادت العرب
ورال بأسها ، وذهب مراتبها ،^٢ وتروى الطبرى : أنه كان للبصير خادم
أصغر إلى الأدمية ، ماهر لا بأس به فقال المصور يوماً ما حنسك ؟ قال
عربى نا أمر المؤمنين قال ومن أى العرب أب ؟ قال من حوالان ، سئلت
من المن ، فأخذ عدو لنا فحسبنا فاسترقف ، فصرّت إلى بعض بنى أمية ،
ثم صرّ إليك قال أما انك نعم العلام ولكن لا تدخل قصرى عربى
يحكم حرمى . أخرج عافاك الله فذهب حيت شئت ا^٣ ويروى الأغانى
أن أبا جحلة وقف على باب أبى جعفر ، واستأذنه فلم يصل ، وحلب
الحراسانية تدخل ، وتخرج فتقرأ به ، فيرون شجراً أعزاً حلفاً فبعثون
به فقال له رجل عرفه كيف أبى ناأبا جحله ؟ فأشأ يقول
أصبح لا تملك بعضى بعضا تسكر العروق الأصباء^٤ أصبا
كما تسكى الأرحى الرصا كما كان ساني رصا
فقال له الرجل وكيف ترى ما أبى فيه هذه الدولة ؟ فقال
أكثر خلق الله من لا يرى من أى خلق الله حين تلقى ؟
وحلة تفسر سم تطوى ، وطلسان يشترى وتعل
لعبد عبد أو لمولى مولى اوحى رب المال اماذا نلقى ؟^٥

١ اطر الجببارى ١٣٩ و١٥٣ و١٥٥ و١٥٧

٢ المسعودى ٢ ٤٠١ ٣ طبرى ٩ ٣١٦

٤ الأصبا المصنعا

٥ الأغانى ١٨ ١٤٨

١ ولكن لمع هذا كله استخدم المنصور بعض العرب . فقد ولّى سلم بن قتيبة الباهلي البصرة كما ولّى مولى كوز البصرة ، والابنكة ١ . ورأيت قبل أن جند أبي جعفر كانوا عربا وعجماء .

فلما جاء الرشيد : زاد نفوذ الفرس بفضل البرامكة ، وقد كانوا المصيرفين للدولة وشؤونها . فاستتبع نفوذهم نفوذ جنسهم ، واتخذوا لذلك سياسة محكمة . منها : ما يرويه لنا الطبري : أن الفضل بن يحيى (البرمكي) اتخذ بخراسان جنداً من العجم سماهم « العتاسية » وجعل ولائهم لهم (للعباسيين) وأن عدتهم بلغت خمسمائة ألف رجل ، وأنه قديم منهم بغداد عشرون ألف رجل . فسماوا ببغداد : « الكرنج » ، وخلف الباقي منهم بخراسان على أسماهم ودقاتهم ٢ .

وزاد نفوذهم كذلك في عهد المأمون فقد انتصر العرس بصره ثانية

١ عيون الأخبار ١ : ٢٩٠ . ٢ طبرى ١٠ : ٦٢ . وقد ساعد على هذا الموضع من الولاء جديد ، ظهر في هذا العصر ، ولم يكن معروفه من قبل . وهو عبر أنواع الولاء التي شرحناها في « حر الاسلام » ذلك هو ما يسميه ابن خلدون : « ولاء الاصطباغ » ١ وذلك أن الخليفة يجد قوماً من الفرس ، أو الترك مثلاً عندهم شرف الانساب اليه ، وإلى دوله . ويسجد لهم في القيام بشؤونهم والحرب . ويحرق عليهم الأوراق فيبسون مواله ، وموالى دوله . كما استخدم العباسيون الاولوب بن برمك ، وبني بوخت من الفرس ، فأطلق عليهم . موالى الدولة العباسية وكانوا يعمل المعصم بالترك . وهو معنى لم نلاحظه في دوله بنى أمية لم يكن لدولتهم موال هذا المعنى — على ما اعاد — وهذا النوع من لولاء راد عود الفرس أولاً ، والترك ثانياً ؛ لأنه كان يريد عددهم ، وقومهم ، وكان يشعرون أن الاوله دولتهم ، وأن لهم سلطاناً على الرعية — مداً من سلطان خليفهم . وقد رأينا ما فعلنا عن الطبرى أنه في مرة واحدة كان خمسمائة ألف فارسي موالى للعباسيين — وهذا عبد الوالى الذين كانوا يؤسرون في قرون . يرى من هذا كيف سمر العرب الموالى .

كالتى كانت بين العباسيين والامويين لأن أغلب الفرس تعصب للامامون ،
وأكثر العرب تعصبوا للأمير فعندت علة الامامون نصرته فارسيه
طهفور يذكر لنا فى تاريخه « ان العجم كانوا يركون ومعهم القسسى ،
والنشاب ، بين يدي المأمون »^١ ويروى الطبرى « أن رجلاً تعرض
للأمون بالشام مراراً فقال له يا أمير المؤمنين ! انظر لعرب الشام
كما نظرت لعجم أهل حراسان فقال « المأمون » أكثرى على يا أبا أهل
الشام ! والله ما أرسلت فيسأ عن طهور الخيل ؛ الا وأنا أرى أنه لم يق فى بنت
مالي درهم واحد ! وأما الذين هوالله ما أحسنها ولا أحسنى قط ، وأما فصاعة
فبادتها تنتظر السمانى وحروجه فكون من أشياعه ، وأما ربيعة ، فساحطة
على الله مند بحث الله منه من مصر ، ولم يحرج انبان الا حرج احدهما شارياً .
اعرب فعل الله بك »^٢

فلسا جاء المعتصم احل الترك محل الفرس فكل الترك بالفرس
والعرب جميعاً ، كما سنبصيح ذلك عند الكلام على العصر الثانى ان شاء الله

* * *

كان ليهود الموالى ، وخاصة الفرس مظاهر عدة
(١) ان قصور الخلفاء ملئت بالموالى يستخدمون فى أعمال شتى ،
وبيوت الحرم ملئت بالخصيان وقد أخذ المساكين ذلك عن الديريطين ،
ولم تكن هذه العادة معروفة عند العرب
(٢) فصر المراكى الكثرة كالورارة على العرس تقرساً
(٣) يهود العادات ، والبقايلد الفارسية كاحياء يوم البيروز ، وليس
القلنسوة

(٤) انتشار الثقافة الفارسيه وسمر له ناباً خاصاً .

* * *

لم يستسلم العرب لقوة الموالى ونهدهم بل قاوموا وكان بين الحاديين صراع عنيف حياً ، وهادئاً ، واتخذ هذا الصراع أشكالاً مختلفة مثلاً يعتمد الصراع على الدس عند الخليفة فيكيد العرب للموالى ، ويكيد الموالى للعرب ومن أجل هذا كان تشكيل الخلفاء بالوراء من حين إلى حين حتى قال قائلهم :

اب الوزير ورر آل محمد أودى من يشاك كان وريرا

وكان تاريخ الوراء سلسلة نكبات ، وليسنا نستعد أن كثير أمها كان سببه ما يشعر به الخلفاء - تحت تأثير الدسائس - من نفوذ الفرس ، وقوة سلطانهم واستبدادهم بالأمر دونهم يقول ابن خلدون « وأما نكبات البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة ، واحتياجهم أموال الخبايا ، حتى كان الرشيد يطلب السير من المال فلا يصل إليه فعليه على أمره ، وشاركوه في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه ، فعمط آثارهم ، وبعد صلتهم ، وعمرروا مراتب الدولة وحططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واختاروها عن سواهم من وراثة وكتابة ، وقيادة وجحانة ، وسيف وقلم » ، ويقول « إن البرامكة مدحوا بما لم يُمح به حليفتهم ، وأسسوا لعقائهم الخواثر الصلاب ، واستولوا على العرى والصناعات . حتى آثروا البطالة ، وأحسدوا الخاصة . فسكف بهم وجوه المسامسة والحسد ، ودب إلى مهادهم الوثير من الدولة سفار السعاة ، حتى لم يكد كان ، ومخطئة - أحوال جعفر - من أعظام الساعين عليهم » .

وبدأش يعمر من حارم العرى مع الفصل من نيل المراسى من يدى

المأمون فيحسن الفصل نقل الخلافة إلى العلويين . فيقول نعيم للفصل
« انك انما تريد أن تربل الملك عن بنى العباس إلى ولد علي ثم تحتال عليهم
ثم تصير الملك كسروياً ،^١

وكثير ممن تولى المناصب الكبيرة من الفرس ، كان يسكن من استطاع
من العرب كالذي كان من الأفسس وأنى دلف العجلي فقد كان الأفشين
أعظمها من « أشروسه » ناسا الصعري ، وكان قائد جيوش المعصم ، وكان
يكبر العرب من أعماق نفسه ، وكان يقول إذا طهرت بالعرب شدحت
رؤوس عظمائهم بالذئوس^٢ وسأني له ذكر عند الكلام في الزبدقة .
وأبو دلف العجلي عري من رار وكان يعيش عيشه عرية . كريماً شجاعاً
ممدحاً ، وبانه مفتوح للشعرام والأديام والسؤال ، وماله مقسم عليهم ، وكان
أحد فواد المعصم أيضاً ، وكان سيد أهله ، ورئيس عشيرته من عجل وعبرها
من ربيعة . وكان شاعراً ممدحاً شجاعاً بطلاً معيياً^٣ .

فحدثنا النوحى في كتابه « الفرج بعد السده » أن الأفشين هم يقتل
أنى دلف وصهده بالحدند ، وأحلبه على طلع من يديه بقرعه ويحاطبه
بأنده عصب ، ويهم بقله ! فيعلم احمد بن أنى دواد (وهو عري وقاصي المأمون
والمعصم) فيسرع إلى الأفشين ويدخل عليه من عبر أسندان خيفة أن
يعجل عليه ويقول له « إن أباً دلف فارس العرب وشريفها ؛ فاسد مه وأنعيم
عليه فان لم تره لهذا أهلاً فهذه للعرب كلها ، وأنت تعلم أن ملوك العجم لم
ترل تفصل على ملوك العرب ! ومن ذلك ما كان من كسرى إلى العباس حتى
مؤذكة وأب اليوم بيه العجم فأنعم على تتريف من العرب بالعفو عنه^١ »
فيأني ذلك الأفشين ثم يشعر أن أنى دواد ممكاته عند المعصم حتى يستطيع

١ الجهسارى ص ٣٩٧

٢ الا وس شدته بالعصا الى في رأسها عجره ، الامان والد ٣ ٣٣

٣ مسعودى ٢ ٢٧٧

أن يتكلم على لسانه فيقول للأشعثين إلى رسول أمير المؤمنين إليك
وهو يقول لا تحدث في القاسم بن عيسى حدثاً فإنك إن قتلته قتل به ١
وذهب إلى المعتصم فأخبره الخبر فأقره عليه وبذلك نحأبو دلف سيد العرب
من سيد العجم ١١ وكان أحمد بن أبي دؤاد من ناحيته أخرى يستحدم مصبه
ومعصى حوائج العرب ١ فيقول (للمعتصم) فلان الهاشمي، وفلان القرشي،
وفلان الأنصاري، وفلان العري، ولا يزال يسلط حتى تقضى مطالبه ٢
وشكل آخر من شكل الصراع - وهو الصراع الأدنى الذي كان
معروفاً في العصر الأموي - وهو الافتجار بالانساب من طريق الأدب -
كالذي كان بين عبد الله بن طاهر (الفراسي) وبتجر بنسبه في الفرس،
ويرد عليه محمد بن يزيد (العري الأموي) يتجر بالعرب فقد قال عبد الله بن
طاهر قصيدة يمجسها بمآثر أبيه وأهله ويمجس بقبائلهم الأميين يقول فيها

أَقْصِرْ عَمَّا لَمْ يَحْفَ بِهِ فَهَرَاغِي عَمَّكَ مَتَّعُول

أَنَا مَنْ قَدْ تَعَرَّبِي نَسِي سَأَقِي الْعَرَّ الْهَامِلِيل

ومنها وأنى من لا كفاء له من يُساوِي بحده؟ قولوا

ومنها انظر المخلوع كليلة وحواله المعاوليل

فَوَيْ وَالرَّبِّ مَصْحَمُهُ عَالِ عَمِهِ مَلِكُهُ عُول'

فَادِ حَنْشًا نَحْوِ نَائِلَةٍ صَاغِي عَمِهِ الْعَرَصِ وَالطَوِيل

من حراسان مصمتة بهم كَكَيْوتٍ صَمَّهَا عِيل'

١ انظر الفصحة تأليفها في كتاب الفرج ١٠ المجلد ٢ ٢٨

٢ انظر الفصحة في المجلد ٢ ٢٩٤

وهبوا لله أنفسهم لا معازيل، ولا ميل^١

ويقول محمد بن يزيد : « لما بلغتني هذه القصيدة امتعنت للعرب ، وأنفتحت .
أن يفخر عليها رجل من العجم لأنه قتل ملكا من ملوكهم بسيف أخيه .
لا بسيفه . فيفخر عليها هذا الفخر ويضع منها هذا الوضع ، فرددت عليه .
قصيدته ، ومطاعها :

لا يرُعك القال والقيل كل ما بلغت تضليل

يا ابن بيت النار موقدُها ما لحاذيه سراويل

من حسين من أبوك ومن مصعب غالتكمو غول

نسب في الفخر مؤتسب ، وأبوات أراذيل

قاتل الخلويع مقتول ، ودم المقتول مطول

ومنها ما جرى في عود أثباتكم ماء مجد فهو مدخول

قدحت فيه أسافله فأعاليه مهازيل

ويقول قائل من الفرس :

بهايل غريم من من ذؤابة فارس إذا انتسبوا لا من عرينة أو عكلا

همو راضة الدنيا ، وسادة أهلها إذا افتخروا لاراضة الشيا والابل

فيقول آخر عري

لا تغتر أنك من فارس في معدن الملك ودبوانه

لو حدثت كسرى بذات نفسه صفعتنه في جوف ابوانه

١ القصيدة موجودة بعضها في الفرج بعد الشدة ١ : ٧٤ وهي مملوءة بالتهريب ، والقصيدة مختصرة في الأمان ١١ : ١٣ .

وهناك شكل ثالث من أشكال الصراع ؛ هو الصراع العلمى وسنعرض له بعد .

كانت نتيجة هذا الصراع هزيمة العرب ، وغلبة الموالى . ولكن يجب أن نقرر أن هزيمتهم التامة كانت فى الناحية السياسية والادارية . فأما دينياً ولغوياً فقد انتصر العرب فلم تستطع المجوسية أن تسير الاسلام . ولم تستطع لغات الموالى أن تضع من شأن لغة العرب بل خدمتها وعملت على ترقيتها من نواح مختلفة . وظل الموالى الذين يخدمون أغراضهم السياسية ، وينجحون فيها يخدمون فى الوقت نفسه الدين واللغة - يضعون قواعدهما ، ويضبطون شواردهما - وحركات الزندقة التى كانوا ينفثونها من حين لآخر أخذت فى قوة . وان كانت قد تركت أثراً ضئيلاً - كما أن سعى بعضهم لاحتلال اللغة الفارسية محل العربية . لم يصادف فى عصرنا الذى نؤرخه آذاناً سميعة . وظلت اللغة العربية هى اللغة الرسمية ، وهى لغة الدين ، ولغة العلم ، وأقبل الموالى على تعلمها ، واجادتها اجادة تقرب من اجادة أهلها . وحسبك دليلاً : أن أبا مسلم الخراسانى كان يجيد العربية ، ويفهم أراجيز روبة^١ . وأن أكرم الكتاب المجيدين فى العربية فى هذا العصر كانوا فرنسا . وأن الأصمعى يحكى عن عصره : أن مما يخل بالمروءة التكلم فى مصر عربى بالفارسية^٢ .

١ الأغانى ١٨ : ١٢٣ .

٢ عيون الأخبار ١ : ٢٩٦ .

الفصل الثالث

الشعوبية

يستطيع بعد الذي ذكرنا في الفصل السابق، أن يقول أن عصرنا الذي
نؤرخه، كان تسود فيه ثلاث برعات
(البرعة الأولى) تذهب إلى أن العرب خيرُ الأمم، ولهم في ذلك حجة،
نحماها فيما يأتي

(١) أنهم عاشوا حياتهم متمعين باستقلالهم، فهم في جاهليتهم حاوروا
دولتي الفرس والروم، وكللها مادوح الملاد وأسس ملكا عظيما، وكللها كما كان
له من الحيد والعدد والعدة ما لا يحصى كثرة. ومع هذا فلم تحرؤ كللها أن
تمس استقلال العرب، وأن تطأ أديم، بل مملقوهم، واستعانوا باللاتحميين
في الجيرة، والعساسين في الشام ومصرهم المال، وهدموا هم الديار لمحموم
من عارات عرب الحرية عليهم فهم كانوا أحوج إلى العرب من حاجة
العرب إليهم!

ولم يسأ أصحاب هذه البرعة أن يعتقدوا أن رهد الفرس والروم في
أرضهم، وعدم إقدامهم على احصاءهم؛ مشؤة أن أرض الحرية ليس فيها
من الجبرات والثروة ما يُطمع! بل اعتقدوا أن انصراف الفرس والروم
عهم إنما كان لنسجاعة العرب وإقدامهم وصبرهم، وأن لهم من أرضهم
منعة تجعل حرمهم حرب عصاناب، لا يستطيع الحش المطعم أن يخاريهم في
أنشكال حروبهم، ولا أن يقف أمامهم
وأما في اسلامهم؛ فقد حافظوا على استقلالهم، بل وأصاعوا استقلال

الفرس ، وأصعوم لحكمهم ، كسروا جيوش الروم ، وطردهم من
أملأكم !

(٢) أن لهم صفات حلبية امتاروا بها ، فهم أكرم الناس لصنف ،
وأجدهم لمستصح ، يعبر أحدهم ناقته التي لا يملك سواها للطارق يبرل به ،
وهو ممسك بعمان فرسه ؛ كلما سمع هتته^١ طار إليها وهم أوفى الأمم ، تتكلم
أحدهم الكلمة فسكون صكاً ، ولباحاً لله لآخره في ينحى حماره حتى لمحتكم
فيه حارّه حكم الصبي في أهله ، وهم على ذلك فاده الأمم في الديار ، وحسن
التعبد ، وهم معدن الشعر ، ولهم في حسن البديهة ، وقول الأمثال السائرة وإبداع
الكلام ما ليس لغيرهم ، وهم أحفظ الناس لأنسابهم فليس أحد منهم إلا يعرف
نسبه ، ويُسَمَّى آثاره ، وإذا انتسب أحدهم إلى عمر آثاته عرفوا أنه دَعَى ،
حفظوا أنسابهم ، ونسوا على ذلك أحسابهم !

(٣) بنسبهم بساً الإسلام ، ورسول الله من أنفسهم ، وهم الناشرون له
بين الأمم ، والداعون إليه ، والجامعون لدعوته ، فكل من أسلم من العجم
في عقبه منه من العرب لا تقدر ، هم الذين أتقدوه من دسه القدم ، وهم
الذين أخرجوه من الشرك إلى الواحد وهم الذين اصطافوا نار الحروب
لهذا ، وهم الذين ولوا أنفسهم لحمايته !!
هذه هي أهم حجاج الداهية إلى هذا الرأي .

وروي أن حماسة اسرعوا المارء ومعهم أن المفتح فسألهم أي
الأمم أفضل ، فخط بعضهم إلى مص ، فقالوا لعله أراة أصله من فارس !
فقالوا فارس فقال أن المفتح اسبوا بذلك ! هم ملكها كبراً من
الأرض ، ووجدوا عظماء من الملك وعادوا على كبر من الجبي فما
استطوا شيئاً معهم ، ولا ، عوا نافيكم في نعمتهم قالوا فالروم

(١) الهمة صوت الصرخ لا راء

قال. أصحاب صعدة قالوا فالصين. قال: أصحاب طرفة قالوا الحمد قال أصحاب فلسفة. قالوا السودان قال شر حلل الله الخ قالوا فقل قال العرب فصيحوا قال ابن المقفع انى ما أردب موافقتكم ، ولكن اد فاتى حطلى من السب فلا يهوى حطلى من المعرفة ان العرب حكمت على غير مثال مثل لها ولا آثار أثر ، أصحاب إبل وعم ، وسكان سحر وأدم ، يتحد أحدهم بقوة ، ويفصل بمجوده ، ويشارك في منسوره ومسوره ، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ، ويعمله فيصير حجة . ويحسن ما يشاء فيحسن ، ويفتح ما يشاء فيفتح ، أدبهم أنفسهم ، ورفعهم همهم ، وأعلمهم قلوبهم وألستهم . وافتتح الله ديبه وحلافته بهم الى الحشر . من وضع حهم حير ، ومن أكر فصلهم خضم^١

وروى لاس المقفع أيضا أنه قال ، وقد جرى ذكر الشعر وفصيله « أى حكمة تكون أبلغ أو أعرب أو أعجب ؛ من علام بدوى لم يريها ، ولم تنسج من طعام ، يستوحش من الكلام ، وهرع الى البشر ، وتأوى الى القصر والرباع والطاء ، وقد حاط العيلان وأيسر الخائن ، فاذا قال الشعر وصف ما لم يره ، ولم يعرفه ، ولم يعرفه ثم ذكر بحاسن الاحلاق ومساوئها ، ومدح ويحجو ويدم ، ويعاب ويشتم ، ويقول ما كتبت عنه ، وروى له ويبقى عليه^٢ » ونحن مع شكنا في هذه الرواية عن ابن المقفع لأسباب ليس هذا موضعها ، فانما ندعها لآنها بمثل هذه الرعة^٣

ونقول الحافظ « لئس في الأرض كلام هو أمتع ، ولا أجمع ، ولا آف ، ولا ألد في الاستماع ، ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة ، ولا أفيق للسان ، ولا أحوذ تقوى للسان من طول سماع حديث الأعراب القلاء الفصحاء ».

١ المقعد للربد ٢ ٥ ٢ رهر الآداب — على هامش المقعد — جزء ٢ ٢

٣ من أدله الوضع ، أن العبارة الاسمية وردت في مجموعته الرسائل طبع الحواش من كلام لأبي هلال العسكري ٤ رهر الآداب ٢ ٢

وهذه النزعة كان يمثلها أشراف العرب وتذوئهم، كما كان يمثلها قوم من العجم أسلموا اسلامًا عميقًا، وأحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعماق نفوسهم، وأحبوا العرب لأن النبي منهم، ولأنهم أسلموا على أيديهم. (البرقة الثانية) تذهب إلى أن العرب ليسوا أفضل من غيرهم من الأمم، ولا أية أمة أفضل من أية أمة. «والناس كلهم من طيبة واحدة، وسلالة رجل واحد». وإنما التفاصل بين الأفراد لا بين الأمم «وليس بفصل الناس فيما بينهم بأنهم واحسانهم، ولكن بأفعالهم وأخلاقهم، وشرف أنفسهم وتعددهم». ألا ترى أن من كان دقة المهمة، سافط المروء لم يشرف وإن كان من بني هاشم في ذوائها، ومن أمة في أرومتها، ومن قس في أشرف وطن بها؟ إنما التكريم من كرم أفعاله، والشريف من شرف همته^١ ينف هؤلاء موفعا - على السواء - بين الأمم - فلا عرى أفضل من أعصى لأنه عرى، ولا أعصى أفضل من عرى لأنه أعصى - وليس العربية ولا الأعجمية عاملا من عوامل التفاصل إنما عامل التفاصل الدن وحده عند قوم، والشرف وسمو الخلق عند آخرين^١ وفي هذا المعنى جاء القرآن الكريم «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» وفي الحديث «ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالقوى» و«المؤمنون متكافأ دوائهم، ويسعى بينهم أدانهم، وهم يد على من سواهم» ويقول المأمون «الشرف نسب. فشرف العرب أولى بشرف العجم من وضع العجم بشريهم، وشرف العجم أولى بشرف العرب من وضع العرب بشريهم^٢، وإن قتيبه بعد أن دافع عن العرب وأبان فضائلهم على غيرهم من الأمم، عاد وقد

أكل ذلك وقرر المساواة فقال في آخر كتابه « تفصيل العرب » « وأعدل
القول عدى ، أن الناس كلهم لأب وأم حُلِقُوا من تراب ، وأُعيدوا إلى
التراب ، وحرّوا في بحرى الدول ، وطُرأ عليهم الأقدار فهذا نسهم الأعلى
الذى يُردع به أهل العقول عن التعظيم والكبرياء والفخر بالآباء ، ثم إلى
الله مرجعهم فتمقطع الأنساب ، وتنطل الأحساب إلا من كان حسبه القوى
أو كاتب مائته طاعة الله »

وحجة هؤلاء أب في كل أمة الطيب والحدث ، ولكل أمة محاسنها
ومساوئها ، وحبير ميراث تورى به الأعمال الدين أو الحلقى وليسوا يستطيع
ذلك في الأمم إنما يستطيعه في الأفراد فمرد حبير من فرد بدينه أو بحلقه ،
ولاشئ غير ذلك . وهذا الصنف من الناس يسمّون « أهل التسوية »
أبى الدين يسوتون بين الأمم ، ولا يجعلون فصلا لأمه على أخرى ، ويمثلهم
أكبر المتدينين والعلماء من العرب والعجم ، لأن روح الاسلام وقواعده
تؤيد هذا المذهب

(الرعه البالية) يميل إلى الخطأ من شأن العرب ، وتفصيل غيرهم من
الأمم عليهم وحجتهم في ذلك

(١) أن العرب ليسب لها أمة ميره ، على حين أن كل أمة لها ميره تفخر
بها فالرومان تفخر بعظم سلطاتهم ، وكثرة مدائنهم ، وعظم مدنتها والهند
تفخر بحكمتها وطبها ، وكثرة عديدها ، وأهبارها وثمارها . والصين تُرهبى
بصااعها ، وفوقها الجميلة ، وما إلى ذلك . ولا يجد العرب تبارا سوى بصارع
ما ذكرنا حذب في أرض اوندواوه في عايش كانوا في حاضيتهم يقولون
أولادهم من الفهر ، ولا يسعير لهم حال من العرو والساب ، يفعلون

المكرمة الصغيرة كاطعام حائض ، وإعانة ملهوف فيملئون الدنيا بها شعراً
وشرّاً ، وينهون بذلك خيراً !

(٤) قالوا : ثم يكون الفجر ؟ ان الملك ؟ فأين ملك العرب من ملك الفراعنة
والعالمة والاكاسرة والقيصرة ؟ أو من سليمان الذي أوتي من الملك ما لا
يسعى لاحد من بعده ؟ أو من ملك الاسكندر وقد نابع مطنح الشمس
ومعربها أم بالسوة ؟ فجمع الانبياء من عبر العرب ما حلا أربعة ،
هودا وصالحا واسماعيل ومحمدا أم بالصاعه والعلم ؟ فالعرب أضعف
الأمم في ذلك شأن ، وأعظمهم بداً ، وأجدهم عقلاً أم بالشعر ؟ فلم يهرد
العرب به فليوبان شعر مورو من مهي وللرومان شعر كذلك أم الحطّ
والبيان ؟ فللهرس واليوبان والرومان حطب بحره ، وراي ساحر فما الذي
يعجرون به بعد ذلك ؟ ١٢ يعجرون بالكرم والوفاء ؟ وقولهم في ذلك
أطول وأعرض من فعلهم ١٢ ويعتجرون بالانساب وقد كانوا في جاهلهم
لا يتقيدون نوع الرواح المعروف في الاسلام بل كان من أنواع رواحهم
شيوخ المرأة من عدة رجال ١ وكانوا في حروبهم يسنن بعضهم نساء بعض ،
ويستمتع بها من عبر رواح ، فكيف يدري أحدهم أنها ١

(٣) وان خرم بالاسلام فليس الاسلام دين العرب وحدهم بل هو
دين الناس ، والاسلام نفسه حارب برعتكم ، فهدم العصبية الجاهلية ، وحمل
مقياس الشرف التقوى فالدين يديا وبسكم ، والدنيا تحس أحطى بها وأعرف
مراياها وأكبر نساء في شؤنها

وتمثل هذا الصف - من يحجرون العرب ، ويصعون من ساءهم ونسودون
كل أمة عابهم - من طلوا على دينهم القديم ، أو أسلبوا ، ولما دخل الإيمان في
قلوبهم ، أو علمت عليهم النعمة الوطنية فكبروا من العرب أنهم أراوا
ملكهم ، وأصابوا الله ملاهم

هذه هي الرعات الثلاث التي كانت في ذلك العصر وعلى هذا النحو كانوا يتجادلون وقد أطلق على أصحاب الرعتين الآخرين اسم «الشعوبية» وكان أحق الناس بهذا الاسم الطائفة الثانية لأنهم يقولون «الشعوب» أى يقولون بأنه لا فرق بين الشعوب من عرب وغيرهم في الشرف والحسنة وكان أمامهم أن يتسموا باسم مشتق من «المساواة» أو باسم مأخوذ من الشعوب يدل على أن الشعوب سواء، فاختاروا الثانى وسماها «الشعوبية». ولذلك يقول في العقد المرند «الشعوبية وهم أهل التسوية» ويقول في الصحاح «الشعوبية فرقة لا تفصل العرب على العجم» ولكن لا بد أن نراهم أطلقوا هذا الاسم على الصنف الثالث أيضاً فلو قرأنا ما كتب الحافظ، وصاحب العقد وغيرهما وحدنا اسمهم اناسقوا في تسمية المعادين للعرب «الشعوبية» والظاهر أن تسميتهم هذا الاسم بأحزرت عن تسمية أهل الدسوية به كما أحزرت الفرقة الثالثة عن الفرقة الثانية تاريخياً، فطبعى - وقد كان العرب متعلين في العصر الأموى، وكانت البرقة الأولى على أشدها وفوها وسلطانها - أن يبدأ الموالي فعولون بالمساواة فقط وكل أميلهم أن يطفروا بذلك، حتى اذا أشد الخذل، وأحسن الموالي قوتهم وسلطانهم أيام الرشيد والمأمون، ظهرت البرقة الثالثة تضع من شأن العرب، وترفع من غيرهم فانسحب اسم «الشعوبية» عنهم وصار يطلق على أصحاب الرعتين معاً، بل وحتى صار أكبر ما يطلق على الصنف الثالث قال في اللسان «والشعوبى هو الذى يصغر شأن العرب، ولا يرى لهم فصلا على غيرهم»

يسند ما ذكرنا أن لفظ الشعوبية مأخوذة من الشعوب جمع شعب وهو حيل الناس، وهو أوسع من القبيلة، وأشمل قال الربرس تكبار «الشعب، ثم القبيلة، ثم العبارة، ثم البطن، ثم العهد، ثم الفصل» وعلى

هذا فالعرب شعب ، والفرس شعب ، والروم شعب وهكذا - وقد ذهب قوم إلى أنها مأخوذة من الشعوب في قوله تعالى « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » وقالوا إن المراد بالشعوب بطون العجم ، والقبايل قبائل العرب - وهو تفسير في نظرنا غير صحيح ، وأوضح دليل على ذلك أن العرب لم تكن تهمه حين يرول الآية فقد نقل الساطرى آراء كثيرة من الصحابة والتابعين في تفسيرها وكلها تدور حول أن المراد بالشعوب النسب البعيد ، أو البطون . والقبايل دون ذلك - والذي يظهر أن تفسير الشعوب بالعجم ، والقبايل بالعرب تفسير شعوي وضعه أعجمي ، واستطرد منه إلى القول بأن العجم أفضل من العرب ، لأن الله قد همهم في الذكر قال ابن قتيبة « وبلغني أن رجلا من العجم . احمج بقول الله عز وجل يَا أَيُّهَا النَّاسُ الْآيَةَ وقال الشعوب من العرب ، والقبايل من العرب ، والمقدم أفضل من المؤخر وقد كتب أرى أهل السوية يحتجون بهذه الآية ، وقد علطوا من وجهين أحدهما ، أن تقديم الذكر لا يوجب تقديم الفصل قال الله عز وجل يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، فَهَدِمَ الْجَنُّ عَلَى الْإِنْسِ ، والانس أفضل من الجان والوجه الآخر ، أن العجم لنسب بالشعب أولى من العرب . وكان قوم كثيرا واشتاعوا فقد صاروا شعوبا

من الجائر أن يكون اسم الشعوب أ - من الشعوب بعد أن فسرت الآية بهذا التفسير - ولكنه يكون من تكرار على أساس خطأ - وأرجح أن اسم العنوة لم يسعمل الا في العصر العباسي الاول ، بدلان طيس (الاول) ما أسلفنا وهو أن هذه الرعة التي يحاول مناءه العرب أو تحمدهم لم يجد سكلا فويأ واصحا يصح أن يطابق على معناه اسم الا في هذا العصر ، أما قبل ذلك فقد كانت رعة حققة لاستطاع الظهور ، وإذا ظهرت أحمره والحاجة إلى

الاسم انما تكون بعد أن يتخذ المبدأ شكل عقيدة عامة أو حزب (الثاني) ،
 أنا لم نر من أطلق هذا الاسم على هذه النزعة في العصر الأموي ، نعم إن
 الأصفهاني في الأغاني قال : ان اسماعيل بن يسار كان شعوبيا ، ولكن من
 الواضح أن الأصفهاني وهو عباسي سمي اسماعيل بالاسم الذي يستحقه لمّا رَفَعَ
 شأن العجم - وتغنى في ذلك بشعره أمام هشام بن عبد الملك ، وليس المعنى
 أن اسماعيل بن يسار عُرف بذلك الاسم في عصره . وذلك كما عدّوا سَلَمَانَ
 الفارسيّ متصوفاً ، مع أن قائله لم يقل بأن اسم الصوفية عُرف في عهد سلمان .
 كذلك روى عن مسروق : « أن رجلاً من الشعوب أسلم فكانت تؤخذ منه
 الجزية ، فأمر عمر ألاّ تؤخذ منه » ومسروق تابعي كان في العصر الأموي .
 وقد فسّر ابن الأثير الشعوب في هذا القول بالعجم ، وقال في اللسان : « ويجوز
 أن يكون جمع الشعوب - وهو الذي يصغر شأن العرب - كقولهم اليهود
 والمجوس في جمع اليهودى والمجوسى » ونحن نستبعد التفسير الثاني ، لأنه صادر
 من متأخرين ، وقد فسروه بما عرفوه بعد عصر مسروق ، والذي نراه : أن
 مسروقاً أراد أن رجلاً من الشعوب الأخرى غير العرب أسلم وإذن
 لا يكون فيه دليل .

وقد يستأنس - على ما نقول - بأن أكثر أسماء المذاهب التي وضعت
 في صدر الدولة الأموية ؛ لم تكن فيها باء النسب كالخوارج ، والشيعية ،
 والمُرَجئة ، والمعتزلة ، ولم تُؤلَف هذه النسبة الا في آخر العهد الأموي ،
 أو صدر العصر العباسي ، كالجهنمية ، والقدرية ، ثم الراوندية ، والخُرّمية ،
 والشعوبية - وأقدم ما وصل إلينا من الكتب التي استعملت لفظ الشعوبية ؛
 كتاب البيان والتبيين للجاحظ .

يمكننا أن نستنتج من دراستنا للشعوبية النتائج الآتية :

(١) ان دعاة الشعوبية بدؤوا دعوتهم مستندين على تعاليم الإسلام نفسه :

فهو لا يفصل شعباً على شعب ، والعقوبة أو المَثُونة عنده إنما وصفت على الأعمال لا على الأحاساس ، وقد يكون العبد الرقيق ، والسَّطى الدليل ، عبد الله في أعلى عِلَّين ، وسيدُه المنكأثر بأهله وولده وماله أسفل سافلين ، ثم تدرجوا من ذلك الى تحقير العرب وشؤونهم ، وبيان ميرة الأمم الأخرى عليهم . وساعدهم على ذلك ما كان للفرس من نفوذ ظاهر في الدولة العباسية

(٢) أن الشعوبية لم تكن عقيدة محدودة النطاق ، لها شعائر طاهرة مُعَيَّنة كما يقول في المداهب الدينية ، فإنا نستطيع أن نقول إن هذا شافعي ، وهذا حنفي فيمكننا أن نحدد وجه الخلاف ، وبين المروق في الشعائر وغيرها كما نستطيع أن نقول إن هذا من أهل السنة والجماعة ، وهذا معرل فيدرك ذلك ولكننا لا نستطيع أن نعمل هذا في الشعوبية لأنها رعة أكثر منها عقيدة ، فهي أشبه بالارستقراطية ، والديمقراطية بل هي في الحقيقة نوع من الديمقراطية يحارب ارستقراطية العرب ، لذلك لا نستطيع أن نحصر معيها ، فهم في كل بلد ، وفي كل قطر ، ومن كل جنس كما لا نستطيع أن نحصي من يرفعون الى الديمقراطية ، أو الاشتراكية

(٣) بما ساعد على هذه الرعة الشعوبية ، لها تساد الرعة الوطنية ، والعصبية الدينية فالعرب أرادوا استقلال فارس وحكموا مصر والشام والعرب ، وأهلها لدنوا عربا فاستمع ذلك أن كثر من الفرس كانوا يحبون الى مسلمتهم واستقلالهم ، وكثيراً من نصارى الشام ومصر كانوا كرهوا العرب المسلمين الدس أحوا الروم الصابري عن بلادهم ، ويتهون أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم وإن كان لابد أن يحكموا من أهل دينهم

نعم إن من دخل في الاسلام من الفرس وأهل مصر والاندلس كانوا أهل حدة في هذه الرعة الوطنية . ولكن لم يكن كلهم قد دخل الاسلام

الى أعماق هوسهم ، وتملك مشاعرهم الى حد أن تغلب الرعة الدينية
الرعة الوطنية

(٤) يمكن أن نستنتج مما تقدم . أن الشعوبيين كانوا أصفاً محضين ، مهم
فرس ، ومهم ببط ، ومهم أندلسيون وقد صنعت شعوية كل
صنف من هؤلاء صنعة خاصة ، والفرس صنعت صنعة وطنية تدعو الى
الاستقلال ، واتحدت في بعض الأحيان شكل ردة وإلحاد ، والبط ظهرت
في شكل عصنة للأرض ووراءها ، وتفصيل معيشة الحرث والزرع على
الصحراء ومعشيتها . والقط ناروا ثورات محلفة على العرب ، وأرادوا
طردهم من بلادهم . وكان آخر ثورة كبيرة في عهد المأمون ، فلما هزموا الحثوا
الى السكينة « أعمال الحيلة ، واستعمال المسكر ، وتمسكوا من النكاية بوضع
أيديهم في كتاب الحراح »^١ وفي الأندلس طهر ابن عرسية ، ووضع
رسائله في الشعوية ، ورد عليه كثير من العلماء .

(٥) هذه الشعوبية كانت درجات محلفة بتدنى معتدلة هادئة ، وبتنهي
مطرقة عذبة . يرى قوماً مدلس مالوا الى نسو به العرب بعزم كإرب ،
وآخرين حنوا من شأهم ، وسلموهم كل مريه ، كما يرى قوماً فرقوا بين
العرب والاسلام . فهاجوا العرب من حيث هم أمه ، ولم يعرضوا للاسلام
بمكره . بل صرحوا بأن الاسلام دين الناس جميعاً لا العرب وحدهم .
وكثير من حكياء قوهم في دم العرب كانوا من هذا الصنف ، بل يصح لنا أن
نعد ابن خلدون شعوباً بهذا المعنى ، فقد حكى ما لحص رأيه في العرب في
الجزء الأول من « فجر الاسلام »^٢ وهو رأى في أشد العنف والقسوة على
العرب وحضائهم ، قلّ أن يرى شعوباً مظهرًا وصل الى ما وصل اليه في
صراحته وتشدته . واكتمه في رأيا كان مسالماً حقاً حر التذكير في حدود الدين ،

على حين أنا رى قوما آخرين لم يعرفوا بين العرب والاسلام، وأدبهم كراهيتهم للعرب الى كراهيتهم لكل ما جاء عنهم، ومن ذلك الذين . وقد حتى الحاحط عن قوم من هؤلاء . فقال : وربما كانت العدواة من جهة العصبية . فان عامة من ارباب الاسلام إنما جاءه ذلك من الشعوبية ، فادأ أن بعض شديداً أن بعض أهله ، وإن أن بعض تلك اللغة أن بعض تلك الحرية . فلا تزال الحالات تنقل به حتى تسلم من الاسلام ادكاتب العرب هي التي حارب به وكانوا السلف^١ . وقد دعب هذه البرعة فوما الى أن يتبرءوا من الشعوبية إذ هي باب الى الإلحاد .

(٦) نلاحظ شيئاً من الوفاق بين بعض تعاليم الحوارح والشعة والمعتزلة فالحوارح كما علب يرون أن الخلقة لا تشتط فيه أن يكون فرشياً بل ولا عربياً والذي أرى أن هذه البرعة مهم لا يقصد منها تحقير العرب ، وإعلاء شأن غيرهم وكيف يكون ذلك وأكثر الحوارح كانوا عرباً خلصاً وهذا الرأي صدر عنهم حين الخلاف بين علي ومعاوية ؛ والشعوبية لم تتكون بعد ، فالظاهر أن رأيهم هذا صدر عن احتداد تحت ، دعا اليه محض الرعة في إصلاح أمور المسلمين . وأما المعتزلة فهري المسعودى يقول : « وقد رعم جماعة من المسكلمين مهم صرأر بن عمرو ، وثمامة بن أنسرس ، وعمر بن عثمان الحاحط ؛ أن النمط حبر من العرب^١ » وهؤلاء الثلاثة من رموس المعتزلة . وأرى أن رأي المسعودى . وبعه في ذلك « حولد ريهي^٢ » خطأ ، ويظهر لى أن خطأهما جاء من أن صرأراً وأختناه دهبوا إلى أنعدما ذهب اليه الحوارح فلم يصرخوا على أن يقولوا ان الخلاف لا يلزم أن يكون في فرس ولا في العرب بل قالوا . ان عبر العرى ولو

١ الحوارح جزء ٧ ٦٨ وإمازه في الأدب سبعة و١١ - ١٢ - ١٣

٢ أنظر في ذلك كتاب جداريهي « Muh unme d unsche Studien » وقد عدد فيه فصلاً ممتعاً في الشعوبية اسمداً . كما رأى ١٤

مبدأ أولى من القرشي لأنه يسهل حلعه إذا حار وطمح ودليلاً على ذلك ما حار
 في شرح النووي على مسلم: «ولا اعتداد بسجادة صرار من عمرو في قوله أن
 غير القرشي من السط وغيرهم يقدم على القرشي لئلا كان حلعه أن عرص
 منه أمر»^١ وقد فهم القاهنوني من هذا أن صراراً وصحبه يوصلون السطى على
 العري وهو فهم غير صحيح بل هو على العكس، يرمى في وصوح إلى القول بأن
 العري أسرف وأن المصلحة أن يولى غير المعتز بعصديته ليسهل حلعه، وذكر
 السطى على أنه مثل في الحسنة^٢ والخاص - بوجه خاص - من الصعب عده
 شعوباً، فقد أبى في كتابه «البيان والتبيين» للرد على مطاع الشعوبية،
 وسبقه رأيهم. مما يدل على إحلاص فيما نقول - نعم إنه ألف رسالة في
 فصل الموالى وعدد مناقبهم. ولكنه ذكر ذلك على لسانهم، وقد صرح بأنه
 ألف هذه الرسالة أمام المعتصم حالت الأتراك، وذكر أنه إنما ألفها لا ليخلص
 بها بعض الحدود على بعض^٣ وقد كانت الخلافة أذاك على خمسة أقسام
 حراساني، وتركي، ومولى، وعري، ومولى^٤ وأما ألقاها رؤا في تلومهم
 أن كانت محله، وليريد في الآلهة أن كانت مؤتلفة^٥، وليحدث من المناهض
 يدسون الدسائس ليوعروا الصدور، وهرقوا القلوب ويقول «إن كان
 لا يمكن ذكر مناقب الأتراك إلا بذكر مثالب سائر الأجناس فترك ذكر
 الجميع أصوب، والاصرار عن هذا الكتاب أحرم»^٦ وعلى الجملة فقد
 صرح فيه «أنه يرمى إلى تعديد مناقب الترك من غير أن يتعرض لدم غيرهم»
 ولكنه لم يسطر عليه فجمع به أحياناً إلى بعض الترك على غيرهم في بعض
 الأمور، ولكن من العسير عد هذا القدر شعوبية
 على أن الحافظ في نظراً لم يكن يعبر عن رأيه في مدح الشيء ودمه بل

١ جزء ٤ ٢٦٥ ٢ رد بنوي ما كان من إعداده إلى الدولة العباسية

٣ رسائل الحافظ ١٧ ٤ المصدر ٤٢٢ .

كان يدم الشيء ويمدحه احادة لدعوة كبير ، أوعنه في اطهار مقدرته اليباية
على تصوير الشيء بصورتين متباينتين ، فان نحن اعتمدنا على القرائن في
كمات البيان والتبيين أدل على نفسه ولذلك رجع أنه ليس شعوبياً

وأما التشييع فقد كان عشن الشعوبية الذي يأوون اليه ، وستارهم الذي
يستترون به وسيأى طرف من ذلك عند الكلام في الشيعة

(٧) يذهب اس فتنة الى أن الدين اعة هو الشعوبية هم سبيله الناس
وعواظهم فقول : ولم أرى هذه الشعوبية أرسخ عداوة ، ولا أشد بصاً
للعرب من السقيلة ، والختشوه ، وأوباش السط ، وأساء أكررة القرى فأما
أشراف العجم ، ودووا الأخطار منهم ، وأهل الديانة يعرفون ما لهم ، وما
عليهم ، ويرون الشرف نسباً ثابته ، ولكن يظهر أنه افصر على من يتظاهر
بالشعوبية ، وهؤلاء كانوا كما ذكر اس فيديه أما الأشراف فكانت حركتهم
سيرته حققة لا يحرمون أن يظهروا بها لكبر مراكرهم ، وحشية من
الشك فيهم عند الخلفاء فهم يؤيدون - من وراء حجاب - هذه الحركة
ولا يراها ان قتية وأما الله وقد ذكر اس فتنة أن من ذهب مذهب الشعوبية
« قوما تحلوا بحايه الأدب فخالسوا الأشراف ، وفوما اتسموا بمسهم الكرامة
فهرنوا من السلطان فدخلهم الانفة لأدائهم ، والعصاة لأقدارهم من أؤم
معارسهم وسب عاصروهم من ألقى نفسه بأشراف العجم ، واعبرى
الى ملوكهم وأساترتهم ، ودخل في باب فسح لا حجاب عايه ، ونسب
واسع لأمدافع عه ، ومنهم من أقام على حساسية نافع عن لؤفه ، ويدعى
السرف للعجم كلها لكون من دوى الحرف ، ويظهر بعض العرب بدعها ،
ونسرع بمجوده في مائها ، واطهار مثالها ، ويحرف الكلام في مفاها ،
ولباسها بطق ، وجمها أنف ، وأساترها ، لمج عايها ، فان هو عرف خبر أسبره ،

وان طهر حقره ، وان احتمل التأويلات صرعه الى أمحبها ، وان سمع سودا
نشره وان لم يجده تَحَرَّصَهُ ١ .
فالحق ان الشعوية لم تسكن في السقيلة وخدم ، وهؤلاء السقيلة لم يكونوا
الأحدين برماها ؛ وانما كان معهم كثير من الطبقة المعلمة الرافية ، وان لم
يرقى نسبها الى الملوك والأشراف ، وهؤلاء هم الذين كان لهم الأثر الشعوى
في الأدب والعلم - كما سترى - ومن وراء هؤلاء وهؤلاء طبقة بلعب أعلى
المناصب في الدولة فكانوا يمدُّونهم سرا بخاهم وبماهم ، وقد أنف علائق
الشعوى كمانا في مثالب العرب ، فأحاره طاهر بن الحسن عليه ثلاثين الفا .
وإذ كان هؤلاء العقلاء الماكرون ، هم رؤساء هذه الدعوة ، كانت حرهم
عليه أدسة ديبية ، أكثر منها ثورات طاهره

بلعب هذه الحركة أوحثها في القرن الثالث الهجرى ، وساعد على ذلك أن
الحلفاء العباسيين تعصوا للإسلام ، ولم يعصوا كثيراً للعربية ، فحاربوا الرقة ،
ولم يحاربوا - في شدة - البرعة العجمية وذلك طسعى لأن أكثرهم - كما أنسا -
وإندون - ولقى العرب من العجم غنى شديداً ، فالوراء أكثرهم عجم ،
والدسائس تدس في القصور لأصعاف شأن العرب ، وإذا نار العرب في
حرسهم أو في الأطراف بكل هم فواد العجم وحبونهم أشد تسكل ، وفي
أعماق نفوسهم شعور بأنهم يتفهمون مهم من يوم القادسية ، ولم يكن شعور
البرك الذين حلهم المعهم أحسن حالا من شعور الفرس ، وكثير الشعر في
هذا القرن والذى بعده من الأعاجم الذين علبوا العربية فحجروا بنسبهم ،
ويعبرون نفوسهم ، فافسح ذلك سببا من رُزْد كما رأيت وسعد ذلك الخ
الشاعر المسهور قال في الأعاني : وكان سديد السبب والعصه على العرب

يقول . ما للعرب علينا فصل ، جمعنا ولأياهم ولادة ابراهيم عليه السلام ،
وأسلبنا كما أسلبوا ، ومن قتل منهم رجلا ما قبل به ، ولم نجد الله عز وجل
يفصلهم علينا إذ جمعنا الدين ١ ،

ويقول قائلهم

فلست نشارك إيوان كسرى لتوصيح أو لحومل فالدحول
وصت في الغلا ساع ، ودث بها بعوى ، وليت وسط عيل
وكان ، الحرثي « الشاعر المشهور تكبر في شعره من الاعتزاز بالنسب
الفارسي والتخبر من شأن العرب فيقول .

إلى امرؤ من سرّة الصعد ألسى عرق الأعاجم ، جلد أطيب الحبر

ويقول :

أبالصعد نأس إذ تجرّ في حمل ١ سفاها ومن أحلاقي حازني الحمل
فإن تجرى يا حمل ، أو تتحمل فلا خرا إلا فوقه الدين والعقل
أرى الناس شرعائي الحياه ، ولا يرى لقر على قبر علّة ، ولا فصل
وما صرّني أن لم تلدي يبحار ٢ ولم تستعمل حرم على ولا عكل
إذا أب لم تحم القديم حادث من المحدث لم يبعك ما كان من قبل

ويقول

ونادب من مرو ولاح ووارسا لهم حسب في الأكرمين حسب
فاحسبنا لا دار فوى ورساة فكبر مهم ناصري وطيب
ولأن أساسان كسرى سهر مر ٣ وحافان لي لو بعلين نسب

١ كى محمد عن العرب

٢ خار ، وحم ، وعسل أماء ١٠٠٠ عرسه

ملككم نارقات الناس في الشرك، كلهم لسا تابع طوع القياد حبيب
 نسومكمو حسماً ، ونقصى عليكمو مما شاء مما محطى. ومصيب
 فلبا أنى الاسلام وانشرت له صدور به نحو الانام ثيب
 تبعنا رسول الله حتى كأنما سمنا علينا بالرجال تصوب
 ويقول المتوكلى وكان من بدماء المتوكل

أنا اس الأكارم من نسل حتم وحار إرث ملوك العجم
 ويحيى الذى ناذ من عرهم ، وعقى عليه طوال القدم
 وطال أوتارهم حهره ، من نام عن حقهم لم أم
 معى علم الكاسان ٢ الذى به أرتحى أن أسود الامم
 فقل لى هاشم أجمعين ، هلبوا إلى الخلع فل الدم
 ملكناكم عموه بالرماح طعنا وصرنا ، سيف حذم
 وأولاكم الملك آؤنا ، ما إن وفيم نشكر النعم
 فعودوا إلى أرضكم بالحجار لأكل الصناب ، ورعى العم
 فان سألوا سرير الملوك بحد الحسام ، وحرف العلم ٣

* * *

وفد شعر العرب بظهوره ومفهمهم ، ولكن لم يستطيعوا دفع التترعيبهم ، وبحد
 فى كثير من الشعر فى ذلك العصر والذى بعده طلا من الحسرة والالم ، وفد
 ذكرنا طرفا من ذلك فى الفصل السابق . ونرى هذا المعنى واضحاً بعد فى شعر
 المتنشى فألم - وفد رار شعب تونان بهارس من صعب - اللغة العربية بها فمقول

١ رد حم ج د ملك الفرس
 ٢ الكاسان (حاه) حداد دارسى ربح علم النور وفد وردى الأصل
 ٣ محم الأداء ١٤ ٣٢٣ الكا ان وهو خطأ

مَلَّاعِبَ حَيَّةٍ لَوْ سَارَ فِيهَا سَلِجَانٌ لَسَارَ يَتَرَحَّانٌ ١
ويقول: ولكن القى العرنى فيها عرِبُ الوحه واليد واللسان
ويقول فى قصيدة أخرى:

وَأَمَّا النَّاسُ بِالْمُلُوكِ، وَمَا تُفْلِحُ عُرْبٌ مَلُوكَهَا عَجَمٌ
لَا أَدَبَ عَدَمٌ وَلَا حَسَبٌ وَلَا عَهْدٌ لَهُمْ وَلَا دَمٌ
بِكُلِّ أَرْضٍ وَطَنُهَا أُمَّمٌ تُرْعَى بَعْدَ كَأَمَّا عَمٌ
نَسَحَّشُ الْحَرْثَ حِينَ يَلْبَسُهُ وَكَانَ تُزَيِّ يَطْفُرُهُ الْعَلَمُ ٢

٢ * ٢

والآن نعرض للأشكال المختلفة التى حارب بها الشعوب العربية
فقد عمدوا الى مربية العرب الطاهرة التى يعتزونها بها ، وهى البلاغة ، وقوة
الخطابة وحضور الندية ، فأحدوا ينتصوهم فى ذلك من نواح مختلفة
كان العرب اذا حطبوا أكثروا من الاشارة بأيديهم ، يمثلون بها أعراسهم
ويستعيون على ذلك باصباح المعنى ، وقوة التأثير فى السامعين ، وكثرا
ما يستعملون فى اشارتهم المحصورة [وهى ما يمسكه الانسان بيده من عصا ،
أو مفرقة أو عكازة أو فصص] وكثرا ما كانوا يثيرون فى حطب السنام
بالمحصرة ، وفى حطب الحرب بالقسى وأحيانا كانوا يتكئون أثناء حطبتهم على
القسي ، وكثرا ما يلبسوا للخطابه ربا خاصا ، وصعور العمامة وصعاً
يدل على أنه هم للخطابه فجماءت الشعوبية تراءى لهم فى ذلك وتقول
أى ارتباط بين الكلام والعصا ، وبين الخطبة والفوس وهما الى أن
يشعلا العقل ، وتصرفا الخواطر ، ويعرضان الدهن أنسه وليس فى
حبلهما ما تسجد الدهن ، ولا فى الاشارة هما ما تحب اللفظ ، وقد رعم
أصحاب العمام أن المعنى اذا صرط على عنائه قصر عن المعنى الذى لا يصرط
على عنائه ، وحملُ العصا بأحلاف المدادس أشه ، وهو يحماه الاعراب

وعُسْخِيَّة أهل الدو ، ومُراوِلة إقامة الابل على الطرئى أشكل ، وبه أشبهه^١ ،
وقد رد عليهم الخاطى فى كتابه البيان والبيان ، وأورد لذلك بأناحاص سباه
وكتاب العصا ، من أحل ذلك ، كما عابوهم فى جوهر الموضوع فقالوا : ليست
الخطاة ميرة امترتم بها وحكمكم بهى شىء فى جميع الأمم حتى إن الرمح مع
عابوتها ، وفساد مراحتها لتطيل الخطب وأخطب الناس الفرس لا العرب ، ولهم
فوق خطبهم التأليف فى صناعة البلاعة ، ومعرفة العريب ككلمات كاروب^٢ ،
ومن احتاج إلى العقل والأدب والعلم بالمراتب والعبر والمثلات ، والألفاظ
الكريمة والمعاني الشريفة ، فليطرق إلى سر الملوكة (ملوك الفرس)^٣ بل
أين معانيكم ، وحكمكم وخطبكم وطريقة تفكيركم بما للفرس واليونان والهند؟
وأين كلامكم الخافى ، وأصواتكم الغلظة من طول اعتيادكم محاطة الابل ، بما
لمؤلا من معنى دقيق ، وللفط رشيق ، وصوب رقيق^٤ وقد قارن الخاطى
بين بلاعة الفرس والروم ، وبلاعة العرب . فقال ان الأولى صادرة عن
تفكير وروية ، والثانية صادرة عن بديهة وسرعة حاطر .

كذلك عابوا العرب فى آلائهم الخريبة فسجروا من رماحهم ، ومن عُترى
حولهم ومن قبايتهم الصماء مع أن الخوفاء أحفب سملاً ، وأشد طعة ، ومن قلبه
الخبرة فى تنظيم حيوشهم ، فلم يكونوا يعرفون الميمنة ولا المنسرة ، ولا القلب
ولا الحياح ، ولا يعرفون من آلات الحرب العرّاده ولا المخاضى وقاروا بين
حالة الجنس العربى والجنس الفارسى فى تطعمته وفى آلائه ، وأبانوا ما للأول
من حفارة ، وما للثانى من عظم ، وفاب الشعوذة أن هذه المصاربه أحمر
لشأهم ، وأوصع لمكانهم ، فهؤلاء العرب نآلائهم الساذجة الحقيرة سحقوا
الفرس نآلائهم الصالحة العظيمة ، وحوشهم المنطمة الكبيرة^٥ .

١ الناب والبيان ٢ المصدر مسه

٣ اطر فى ذلك الجزء الثالث من البيان والبيان

٤ اطر فى ذلك الجزء الثالث من البيان والبيان

وبوع آخر من مسالك الشعوبية، وهو أهم في هذا العصر أكثر من التأليف في مناقب العجم فسيعد من حميد السجستاني، كان كاتباً شاعراً مترسلاً عذب الألفاظ، وكانت يدعى أنه من أولاد ملوك الفرس، وكان شديد العصبية على العرب، وألف كتاب «انصاف العجم من العرب»، وكتاب «فصل العجم على العرب وافصحها»^١ ويرى ابن النديم يقل عن كتاب اسمه «مناظر العجم»^٢ وفي معادل ذلك يضعون الكتب في مثال العرب، كالهيم بن عدي - وهو من أشهر العلماء بالأخبار والرواية، حائس المنصور والمهدى والهادي والرشد، وقد وضع عدة كتب في المثال منها «كتاب المثال الصغير» و«كتاب المثال الكبير» و«كتاب مثال ربيعة» و«أسماء بعايا فريس في الجاهلية، وأسماء من ولدن» ويتصل بهذا كتاب له، اسمه «كتاب من تروح من الموالي في العرب»^٣ وكذلك سهل بن هارون صاحب «باب الحكمة» قال فيه ابن النديم «كان حكيماً فصيحاً شاعراً، فارسي الأصل، شعوى المذهب، شديد العصبية على العرب وله في ذلك كتب كثيرة»^٤ وقد وضع رسالته المشهورة في النحل. ولعل ذلك منه رعة شعوبه. لأن العرب كانوا يتمتعون كثيراً بالكرم، ويعتدونه من أكبر مناقبهم، كما اشتهر الفرس بالنحل فوضع سهل هذه الرسالة يملأ فيها قيمة الكرم والنحل، وبعد الكرم ردله والنحل فضله وروى له صاحب زهر الآداب أنباء تدل على شعوبته، يقتحروا بفارسية ودم العربية، ويعارضون بين يته في ميسان وبن آخر عرب فيقول

أحلب بذا فوق رايه
فرع السحوم كأنه يحم
كسب سحر وسط محم
بفائل الخملان والهم؟^٥

١ فهرست ابن النديم ١٢٣ ٢ ألفه سنة ٤١

٣ فهرست ٩٩ و ١ ٤ فهرست ١٢

٥ هامش العدد ٢ ١٥

وألف عِلَازِبُ الشعونى - وأصله من الفرس - كتاب « المَثَلَاتِ »
 فى المَثَالِ « قال ابن الدِيمِجِ إنه هُتِكَ فى العرب ، وأُطهر مَثَالِها ، ويحتوى
 على مَثَالِ هَرِيش ، ومَثَالِ تَمَمٍ مَرَّةً ، ومَثَالِ بَنى أسَدٍ بن عبد العَرُى
 ومَثَالِ بَنى محروم ، وعددُ القَناطِلِ كُلِّها وذكر مَثَالِها ١

وألف أبو عبيد مَعْقَرُ بن المُنْشَى ، وهو من أشهر العلماء فى البحر
 والأخبار ، وكان أصله من يهود فارس - كسأ كثيرة تعرض فيها للعرب
 منها « كتاب لصوص العرب » وكتاب « أدعاء العرب » كما ألف كتاب
 « فِصائل الفرس » ٢ وقال فيه ابن حُلَكان « وكان يكره العرب وألف فى
 مَثَالِها كما ٣ وقد صور له ابن قُتَيْبَةَ نوعاً من الطعن الذى كان يستعمله
 أبو عبيد فقد عمد إلى مفاخر العرب فتهكم بها كانوا يهجون نفوس صاحب
 ويعتزون بوفائه فصاحك عليه واستصحك الناس منه ، واستسحق فعل
 صاحب ، وحساسة عوده ، وقلة ثَمِّه ، ويدكر قول الشاعر
 أيا الله عبد الله ، والله مالك ، وبالله دى البردين ، والعرس الوردى !
 فيقرأ بالشعر ، ويعجب فى سحرته من المدح بأن أنها ذو بردين وفس
 ورد ، وهما فى ذلك يملوك فارس ويحاجها ، وأن أروبر كان يرتبط تسعة
 وخمسين فيلاً على مرانطه ، وتخدمه ألف حاربه ، وفى حجرته إلى لسرف
 منها على الداخل عليه ألف إماء من ذهب ٤

وكتب المَثَالِ هذه - على ما ظهر - عمدت إلى ماصد عن كل فله من
 بيت يعبر به ، أو عمل يؤاخذ عليه ، أو حريمه أو كنها أحد أفرادها فميدتها
 وأداعتها للسهير بالعرب جميعاً كما أن كتب مهاب العجم ومفاخرها عمدت

١ الفهرست ١٥ و ١٦

٢ الفهرست ٥٤

٣ ٢ ١٥٥

٤ انظر رسائل الإمام ٢٧١ وما بعدها

إلى ما استحسن من عادات الفرس، وعظمة ملوكها، ونظام جيوشها، وسياسة
ملكها فشادب نه ولم يصلها شيء من هذه الكتب - على ما أعلم - كالم يصلها
أى كتاب ألف في بيان دعوى الشعوبية، وإنما وصل إليها نصف من أقوالهم
وآرائهم، أهمها ما ورد في كتاب السان والتين للحاحط، وما ورد في العقد
العريد لاس عدويه، وما نقله ابن قنينة في كتابه (العرب)

والظاهر أن أكبر سبب في صناع هذه الكتب أن المسلمين عدوا هذه
البرعة الشعوبية رعة ضد الاسلام وجرحوا من نقل الكتب المؤلفة فيها،
وتقرئوا إلى الله ما أعدامها ويرى المحاصون من الميال إليها كما فعل الرمحشري
في أول كتابه المفضّل . فقد حمد الله « اد حمله على العصب للعرب ،
والعصية لهم ، ورأه من الانصواء إلى لعيب الشعوبية »

ولم يقتصر هؤلاء الذين ذكرنا من علماء الشعوبية على وضع كتب
المثالب بل يظهر أنهم وضعوا في الأدب قصصاً كثيرة تؤيد حاسمهم وقد
اختلقوها اختلاقاً ، وكانت هذه أخطر على العرب من الحرب الطاهرة .
لأن بقصصاً أصعب ، والوقوف على بطلانها أعسر . ويمكننا أن ندرك أنهم
لخأوا في ذلك إلى نوعين (النوع الأول) الوضع وهو أن يصنعوا القصص
الشديدة في شرح الآيات أو الأمثال ، ويخلفوا القصة اختلاقاً كما فعل
أبو عبيد في شرح المثل « حان ما يابى على الصغرى » ، فقد هل الكرى في كتابه
« الدنه على أوهام » أنى على القالى في أماليه « حكاية في ذلك عن أنى عبيد لا
يستطيع ذكرها لشاعرها^١ وروى الطشم من عدى قصة طويلة سلخص في أن
رحلا من رُوح برل يحيى من عى عامر فخر حب اله حاربه ، فقال من أبى؟
قال : من يميم . وقد كرب له أريأتاً في دم يميم ، فقال لها لسب من يميم بل أنا

١ ما يابى أى ١٠ مرجع له حنه على من صغر .

٢ السنة ٧٧

من قبيلة عَمَلٍ، فعملت ذلك، وما زال الرجل يذكر القائل هذلة قبيلة،
وهي روى الآيات في دمها حتى استند القائل ولما انتسب إلى بني هاشم
قالت أتعرف الذي يقول :

بني هاشم عودوا إلى حَلاَّكم فقد صار هذا التمر صاعا ب درهم !
عان فلتمو : رهط السى محمد فان البصاري رهط عيسى بن مريم ١٩١
والحكاية كلها على ما يظهر من وضع الشعوية . أو من وضع الهيثم بن
عدي نفسه ، روى واصعها الى ذكر مثالب القبائل العربية .

(والنوع الثاني) نسبه الشيء إلى عبر فائله ، وهو طريق سلوكه لافساد
الأدب العربي ، وإصااعه معاملة حتى لا يكون للعرب أدب موثوق به .
وتلك أكبر بعيه لهم ومن الأمثلة على ذلك أن يقول أبو عميدة في
البتين الآتين

هَيَّوْكَ لَسَوَّكَ أَسَارَ دَوُّوْكَ كَرَمِ سَوَّاسِ مَكْرُمَةٍ أَسَاءِ أَيْسَارِ
إِنْ يُسَاوِ الْخَيْرَ يُعْطُوهُ وَالْجَيْرَ وَانْجَرُوا فِي الْحَبْدِ أَذْرِكْ مَهْمُ طَبْ أَحَارِ
أهمما للفرندس الكلاني يمدح بني عمرو العويين فذكر الأصمعي
علمه ذلك ، ويقول محال أن يمدح كلاني عموا لما بينهما من العداوة !
ولو خصصا الأدب في ضوء هذه الطريقة ، لو جردنا الشيء الكثير الموضوع
للحظ من العرب ، وافساد الأدب ، مما لا يستطيع أن يستقصيه ها
« كان في هذا العصر ثلاثة ، هم أئمة الناس في اللغة والشعر وعلوم
العرب ، لم ير قبلهم ولا بعدهم مثلهم عنهم أحد حلث ما في أيدي الناس من
هذا العلم بل كله وهم : أبو زيد الأنصاري ، وأبو عبيدة ، والأصمعي ! » وقد

١ عبد الحكيمة طاولها في مروح الذهب لله - ودي من ١٧٥ — ١٨٠ في الجزء الثاني
٢ أنظر السنة ٧٢ و ٧٣ ٣ المهر ٢ ٢ ٢ .

اشترى أبو زيد مخطوط العريب من اللغة، وبالمحو، وتنازع الرئاسة الاثنان
الآحران، ويظهر أن الأصمعي يحكم عريبته ~~كان~~ يتعصب للعرب، وكان
يتشدد فيما يروى فلا يحبر إلا أصح اللغات، وكان لا يحب في القرآن،
ولا في الحديث خشية الخطأ^١، وكان لا يقول في شيء رأيه. وكان لا يفسر
شعر أمة هجاء^٢، كأنه كان يرى أن ذلك من دينة^٣ أو كأنه يرى أن في الهجاء
خطأ من المجهو أو قيلته، وفي ذلك مساس بالعربية، وكان يمتار عن أن
عبدية بحس القائه، ولطف نعمته — أما أبو عبدية فظهر أنه كان أوسع
علما، وأكثر ثقافة، يعرف تاريخ الفرس لغارسنه، والثقافة اليهودية
لهوديه آثاته، والثقافة الإسلامية لأنه نشأ فيها. ولكنه لم يكن بحس التعبير
كالأصمعي. وكان حز الرأي يفسر القرآن رأيه، فيؤاحده الأصمعي على
ذلك^٤، وليس للعرب حرمة في نفسه، إذ ليس يعري بل في نفسه الكراهة
لهم، فهو يطلق لسانه في هجوهم، وذكر مثالهم. وقد استعوى الناس نسعة
اطلاعه، كما استعوى الناس الأصمعي بمصاحبه وحسن مائه. قال الحافظ
لم يكن في الأرض حارحي ولا إجماعي أعلم بجميع العلوم من أبي عبدة^٥
وفالوا « أن طلبه العلم كانوا إذا أتوا مجلس الأصمعي اشتروا العري في سوق
الدر، وإذا أتوا مجلس أبي عبدة اشتروا الدر في سوق البعير الآن الأصمعي
كان حسن الاساد والرحر فله لدرى الأحبار والأسعار حتى بحس عبدة
القبح، وإن العائنه مع ذلك عنده فله. وإن أنا عبدة كان معه سوء
عبارة مع فوائد كثيرة، وعلوم حمة^٥ — ويظهر أن كلا من الأصمعي
وأبي عبدة كان في عصره يمثل فكرة 'الأصمعي' يمثل العربية، والاعصب
لها حب العرب وإحلالهم والإشادة بذكرهم. وأبو عبدة، يمثل فكرة

٢ المصارف ٢ ٤

٤ ١ حلكان ٢ ١٥٤

١ الزهر لا وصى

٣ ١ حلكان ٢ ١٥٥

٥ ١ حلكان ٢ ١٥٦

الشعوبية، والحث عن معايب العرب والتشهير بهم. وكان كلُّ رعيّا يلتف حوله من يؤيدون فكرته، ويباصرونه ويتعصبون له؛ العرب حول الأصمعي. والفرس حول أنى عبيدة، فرى اسحق بن ابراهيم الموصلى، وهو فارسي يقول للفضل بن الربيع

عليك أنا عبيدة فاصطبه فار العلم عبد أنى عبده
وفداه، وآثره عليه، ودع عنك القُرَيْدَ بن القُرَيْدَةَ^١

ويقول أبو العرح الأصفهاني إن اسحق الموصلى «كشف للرشد معايب الأصمعي، وأحبره بنقله شكره وبخله وصعته نفسه، وأن الصليحة لا تتركو عبده، ووصف له أنا عبيدة بالثقة والصدق والسماحة والعلم، وفعل مثل ذلك للفضل بن الربيع، واسعان به، ولم يزل حتى وضع مرة الأصمعي، وأسقطه عنهم، وأبعدوا إلى أنى عبيدة من أقدمة^٢، ويحد أنا ابواس، وبرعته الفارسية لا تنكر. يقدم أنا عبيدة على الأصمعي، ويقول أما أبو عبيدة فاهم أن أمكنوه رأ عليهم أخبار الأولين والآخرين، وأما الأصمعي فمسل يطرحهم بعبائهم، ويحد الأصمعي من ناحية أخرى بدم البرامكة، ويقول

إذا ذكر الشترك في مجالس أصوات وحوه بنى رَمَك
ولاب تلبت عنهم آية أتوا بالأحاديث عن مرْدَكِ

وأبو عبيدة نسيده يذكر الفرس، ويؤلف كتاب «فصائل الفرس»، ويؤلف كتاباً في أخبار الفرس يصف فيه طبقات ملوكهم من سلف وحلف، وأحارم وحطهم وتسعب أسامهم، وما نبوه من المدد وكرّوه من الكؤر، واحتقروه من الأهار، وأهل السواتب منهم، وما وسم به كلُّ فرس من السهارة وغيرهم^٣.

١ بنى الأصمعي ٢ الأغاني ٥ ١٧ ٣ المسعودي ١ ١١٣ .

ومن آثار الشعوبية أنهم لوثّوا مارووا من تاريخ الفرس لونا زاهيا
ججيلا ، ونسبوا الى ملوكهم الحكم الرائعة ، والسياسة الحكيمة ، وكسوة أبهة
وعظمة بالغوا فيهما ، وزعموا أن الفرس من ولد اسحق بن ابراهيم
عليه السلام ، والعرب من ولد اسماعيل بن ابراهيم ، واسحاق بن
سارة الحرة واسماعيل ابن هاجر الائمة ، فهم أفضل من العرب لأنهم بنو
الأحرار ، وأما العرب فينبو اللئخنا . وهى دعوى غير صحيحة علميا ، وإنما
وضعت ليرفع الفرس من شأنهم وليفتخروا بها على العرب كما ، زعموا أن
سابور سى ذا الأكتاف لأنه أوقع بالعرب فى العراق وخلع أكتافهم^١ .
وأغرب من ذلك ما اخترعه شعوبية النبط من حديث نسبوه الى على
ابن أبى طالب ، فقد روى أن رجلا سأله فقال : أخبرنى يا أمير المؤمنين
عن أصلكم معاشر قريش . فقال : نحن قوم من نبط كوثى ، وروى عن ابن
عباس أنه قال : نحن معاشر قريش من النبط من أهل كوثى اوفى رواية
أخرى عن على أنه قال : من كان سائلا عن نسبنا فائنا نبط من كوثى^٢ ، وقد
أتعب العلماء أنفسهم فى تفسير هذه الأحاديث فقال بعضهم إنهما أرادا أن
أباهما ابراهيم عليه السلام كان من نبط كوثى ، وقال قوم إنهما أرادا التبرؤ
من الفخر بالأنساب ، وقال قوم ان كوثى اسم من اسماء مكة ، ولو أنصفوا
لأراحوا أنفسهم من تأويل هذا الهذيان .

واستغل الفرس سلطان الفارسي استغلالا عظيما ، قرّو^٣ له من الزهد
والحكمة والعلم ما لم يرو لأى صحابي آخر حتى جعلوا عمّره فوق أعمار
الناس فقيل انه أدرك عيسى عليه السلام ، وروى أبو الشيخ فى طبقات

١ انظر رسائل البلاء س ٢٦٥ . ٢ مسعودى ١ : ١٢٣ .

٣ انظر الأحاديث فى لسان العرب ٢ : ٨٧ . ومجموع ياقوت فى مادة « كوثى » ، وكوثى
بلدة بسواد العراق .

الاصمهايين أن أهل العلم يقولون عاش سليمان ثلاثمائة وخمسين سنة، فأما مائتان وخمسون فلا يشكون فيها ١١١ ورووا عن رسول الله صلى عليه وسلم أنه تلا هذه الآية « وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ » فقالوا من يستبدلنا ؟ مصرّب صلى الله عليه وسلم على مكيب سليمان . ثم قال هذا وقومه ، والذي نفسى بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثأر لاثأرنا لاله رجال من فارس وهو الذى قل فيه سليمان منا أهل البيت ، وهو الذى أشار على النبى صلى الله عليه وسلم بحجر الجندق ومن ذلك الحين عرف العرب كيف يستعملون الحادى فى الحروب ، فهم فى ذلك مديون للفرس وعلى الحملة فقد ابحده الفرس وسلبه لسان عظمتهم ، وأن لهم فصلاً كبيراً على المسلمين * وكان للشعوسة محال فسيح فى الحديد فقد وصعوا الاحاديت الكثيرة فى فصل الفرس وأسندوها الى الثقافات من الصحابة والتابعين ، مثل ما روى أن الأعاصم ذكرت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « لَأَنَا أَوْثَقُ مِنْكُمْ » وفى رواية « لَأَنَا نَعَصُكُمْ أَوْثَقُ مِنْ نَعَصِكُمْ » ٢ وفى حديث آخر « سَأَتِي مَلِكٌ مِنْ مُلُوكِ الْعَجَمِ فَيُطَهِّرُ عَلَى الْمَدَائِنِ كُلِّهَا الْإِدْمَشَقَ » ٣ وفى حديث « لَا تَسْأَلُوا فَارِسًا مِمَّا سَسَّهَ أَحَدٌ إِلَّا اسْتَبْغَمَ مِنْهُ عَاحِلًا أَوْ أَحْلًا » ، « وَرَأَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَأَنَّهُ رَدِفَهُ عَمَّ سُودٌ ، فَرَدِفَتْهُ عَمَّ بَيْصٌ ، مَا يَرَى السُّودَ وَهِيَ لَكَبْرَتُهَا فَأَحْبَرُ النَّبِيُّ بِذَلِكَ أَنَا نَكِرَ فَقَالَ السُّودُ الْعَرَبُ وَسَلَمُونَ ، وَالْبَيْصُ الْعَجَمُ يَسْلَمُونَ بَعْدَهُمْ حَتَّى مَا تُرَى مِنْهُمْ الْعَرَبُ لَكَبْرَتِهِمْ » فقال صلى الله عليه وسلم بذلك أحبرنى

١ الاضاه لان حجر ٣ ١١٣ ٢ وقد رووا أن الى صلى الله عليه وسلم أملى كساً على من الله صلى الله عليه وسلم فادى سليمان وجعل ولاءه له ، وأرجح السكيات فى حادى فى السنة الأولى الهجرة ، وقد ورد الخطب اما ادى هذا السكيات ، بدأ دفعاً فافطره فى الجزء الأول صفحة ١٧ ٣ المرجع منه ٣ ١٢٧

الملك سحرًا^١، ومن هذا القليل ما وضعوه من الأحاديث الكثيرة حول
الامام أنى حبيفة الفارسي الأصل، يرمعون: أن النبي صلى الله عليه وسلم أشار
بها إليه أو بهنّ عليه كالذي روى: لو كان العلم معلقاً عند الثريا لتناوله رجل
من فارس، وكالذي روي: أن آدم افتخر في وأنا افتخر برجل من أمي
اسمه بهمان، وكسبته. أبو حنيفة هو سراج أمي ورووا. أن النبي صلى الله
عليه وسلم قال: ان سائر الأنداء يفتخرون في، وأنا افتخر بأبي حنيفة، من
أحبته فقد أحبني، ومن أبغضه فقد أبغضني^٢

والحق أن العرب ومن تعصب لهم قابلوا عملهم بمثله، فوضعوا
الأحاديث الكثيرة في تفصيل العرب، ووجوب حبهم، مثل: «من عشنّ
العرب لم يذحل في شماعي ولم تله وتذني» ومثل «إذا احلب الباس فالحق في
مصر»، ومثل أحثوا العرب ثلاث لآني عري، والقرآن عري، ولسان أهل
الحنة في الجنة عري». ومن أظف ذلك أنهم رويوا حديثاً للنبي صلى الله عليه
وسلم مع سلمان الفارسي نفسه، ذلك أن رسول الله قال يا سلمان لا تنعصني
فتمارق دينك قال، فلب يا رسول الله كيف أنعصك وبك هداي الله أقال
لا تنعص العرب فنعصني الحج^٣، وبالعالم الاسلام الى تدعو الى المساواة، وتعلم أن
العصل لس الا بالقوى بأني مدح الفرس أو العرب أو أنه أمة لحسنها
وبكاد يجد أصع الشعوب في كل علم حتى في الفقه، فلو رأب مثلاً باب
الكفاءة في الرواح لرأب أن الأئمة أنفسهم لم يؤر فهم الفقه أي أثر،
فالامام مالك العري لم يعتبر الكفاءة، وعنده أن العجمي تروح العرب من
غير أن يكون للولي حتى الاعتراض، ومذهب أنى حبيفة الفارسي يعتبر

١ غاصرات الاداء لا صغاف ١ ٢١٩

٢ اطرا ن غاصرات ومانته ١ ٥٤ و ٥٥

٣ اس منه في رسائل الاماء ٢٩٣

ألكهامة، فالقرشيون * أكهامة لبعض؛ وليس غير القرشي كهؤلاءهم، والعجمي ليس كهؤلاء العربيه. ولكن سرعان ما تجد نظرية توصف على ساط الحث يهدم بها الجزء الأكبر من العصبية العربية. وهي « شرف العلم فوق شرف النسب » قال قاصيخان « الحسيب يكون كهؤلاء للنسب فالعالم العجمي يكون كهؤلاء للجاهل العربي، والتألوة لأن شرف العلم فوق شرف النسب »^١ وقالوا « وكيف يصح لأحد أن يقول إن مثل ابن حبيبه أو الحسن البصري وغيرهما من ليس بعربي لا يكون كهؤلاء ابن قرشي جاهل أو لب عربي يوال على عقبيه ١٢ »^٢ ويطول بنا القول لو عددنا أثر الشعوبية في كل علم

وما نأسف له أن الشعوبية أزهت في عصر تدوين العلوم. وكل حركة علمية كانت بعد أنما أنسب على ما دوت في هذا العصر العباسي الشعوبي، ولم يكن لنا علم متدوّن قبل ذلك، وهذا يجعل استكشاف الآثار الشعوبية صعباً عاماً. فلو كان لدينا تاريخ مدون في العصر الأموي لفهمنا كيف تلاعب به الشعوبيون في العصر العباسي، ولو كان لدينا تاريخ للفرس موثوق به دوت أنباء حكم الفرس لأدركنا في وضوح كيف حمل الشعوبيون، ولو كان العرب في العصر الاسلامي الأول وصعدوا كتباً في الأساطير ومنافها ومالها ووصلت اليها عرفنا ما احتلقه الشعوبيون عليهم لأفساد أنسابهم، والخط من أنسابهم، وهكذا في كل العلوم. ولكن فتر أن متدوين العلم بسطوه الشعوبية، فكان ذلك من سوء حظ العلم. ولذلك أحهد العلماء أنفسهم في تعرف أسرار الشعوبية وحماهاها وأثارها في العلم، ولا زال الملدى أمامهم فسيحاً، والحب في مهده

في المأوط لاسرخسي « أن سبه ان الوري كان من العرب وواضع ورأى الموالى أكهامة له، وإن أأحهه كان من الموالى وواضع ولم ير منه كهؤلاء العرب » ٥ ٢٢

١١٠٠٠٠ ٢ ٤٩٨ ١ المصدر سنة ٤٩٩

ومع هذا فقد كان للشعرية جانب حسن ، فقد أنتت الشعرية وكل شيء
للعرب يُمَجِّد ، من نسب عربي ، ولغة عربية ، ورأي عربي ، وعادات
عربية . فأخذ الشعويون - يعرضون هذا للنقد ، والتحليل ؛
عرضوا أنساب العرب للنقد كالذي فعل أبو عبيدة مع غلوه ، فكان
يرد على قوم ينتسبون للعرب فيُبيِّن أن النسبة كاذبة مختلقة ، وفي كتاب
الأغاني عن أبي عبيدة من هذا الشيء الكثير ، وعرضوا اللغة العربية للنقد ،
فسيدويه في كتابه في النحو يُخطئ في العرب في بعض أقوالهم ، ويدعي العرب
أن البلاغة ليست إلا فيهم ، فيرد الشعرية بأن هناك أمماً أخرى لها بلاغة ولها
خطب ، ولها حكم لا تقل عما للعرب ، وينهون على أن عادات العرب ليست
المثل الأعلى للعادات ، ففيها الحقير المردول والجيد المحمود - كل هذا النقد
وأمثاله استتبع نتيجة جيدة من بعض الوجوه . وهي : عرض ما للأمم الأخرى
من كل ذلك لتكون المفارقة أتم ، فُعرض الكلمات الفارسية بجانب الكلمات
العربية ، والحكم الأجنبية والبلاغة الأجنبية بجانب البلاغة والحكم العربية ،
والنظام الفارسي والآدب الأجنبي بجانب النظام والآدب العربيين ، ونحو
ذلك وهذا - من غير شك - مفيد للعلم والعقل -

نعم ! لو وقفت الشعرية عند هذا الحد ، فلم تهتجوا على العرب
بقبح محاسنهم مساوى ، والشهير بهم بالحق حيناً ، وبالباطل أحياناً ، ولم
يحاولوا إفساد الدين بالزندقة ، وإفساد العلم بالكاذب - لو وقفوا عند ذلك
لأحسنوا - ولكنهم أفرطوا بنحسروا كثيراً وكرهوا ومقشوا كثيراً .

الفصل الرابع

الرفيق وأثره في الثقافة

فل أن نتكلم في الرفيق وأثره ، يجب أن نذكر في كلمة موجزة موقفه القانوني في المملكة الإسلامية ، وبعبارة أخرى ما كان يطبق من الأحكام الإسلامية عليه .

تقضى تعاليم الإسلام - أو على الأقل - المبادئ التي استلزمها الأئمة من أصول الأحكام ، وحرى عليها العمل حتى عصرنا الذي نؤرخه بأن وسبب الرق وقوع الكافر أسيراً في يد المسلمين عند الحرب ، فإذا حارب المسلمون الكافرين فمن أسر من المخاربين مهم حار للإمام أن يسرقه ، كما يجوز له أن يسرق أهل البلد الذي فتح في الحرب ، رحالاً كانوا أو نساء^١ وهذا الكفر والوقوع في الأسر هما سببا الرق . ولا يشترط لأجل تمام الرق بقاء سنه ، فلو وقع كافر في الأسر فاسترق ثم أسلم لا يرول عنه الرق^٢ . وهذا الرقيق يُعدُّ مالاً ، شأنه في ذلك شأن المتاع فمن استرق في الحرب عد حراً من العيمة كالآلات الحربية ، وكاللقود والخليل وعلى الحملة مثله كمثل كل شيء مقوم وقع في يد الهاتحين ، وشأن هذه الأنشاء - أن الامام ينقلها إلى دار الإسلام ، ثم يأخذ خمسها يصرفه في الصالح العام من إعطاء للمسكراء والمساكين ، وصرف في وجوه البر المحملة . وأما أربعة الأحاس فتورع على من اشترك في القتال ، والرفيق يفعل به ذلك ، وخمسه للصالح العام والباقي يقسم على العائدين وقد منسروا عند القسمة على المخاربين

١ انظر ما كتبناه في ذلك في الجزء الاول من بحر الاسلام ١٠٢

٢ التحرير ٢ ١٨

بين الفارس والراجل ، وبنسابة أخرى بين الخيالة والرحالة . فجعل للفارس سهمان في قول بعض الفقهاء ، وثلاثة في قول بعضهم ، وللراجل سهم واحد . على هذا الجملة الذي أنسا كان يورّع الرقيق .

وإذ كان الحرب في صدر الاسلام تكاد تكون دائمة ، وكان البصر للبسامين يكاد يكون متلاحقاً مطرداً ، والسلاح الممحوحة والأمم المعلوبة لا تكاد تعد ، أمكساً أن يتصور كم كان الفرق لا يخصص كثرة ، وكيف كان مختلفاً مسوعاً تنوع الأمم التي اشتمك معها المسابون في قتال . وإذ كان أنسا كم يورّع الفرق فهم اكف انتشر بين المحاربين ، ودخل في ذلك مهمهم . وإذ كان الرقيق بعد مالا ، وبحرى عليه كل العهود المالية من بيع وشراء ، وإحارة ورهن ، أمكاً أن يهمهم أنه لم يقتصر على المحاربين بل كان في مسابول أذى الناس جميعاً ، وكان له سوى يشترى منه من شاء ونسخدمه كما شاء .

* *

هنا من الباحية المالية ، وأما علاقه الرجال بالاماء من الباحية الجنسية وجملها فيما يأتي

هناك سدنان لخلان المرأة للرجل عقد الزواج ، وملك البين ، فأما عقد الزواج فلا يحل للرجل الحر أن يزوج أكثر من أربع ، أعى أنه لا يحل له أن يكون ، على دمه في وف واحد أكثر من أربع زوجات ، ولكن يحل له أن يطلق من ، ويتزوج غيره بعد انقضاء عدته . وهذا هو قول أكثر الفقهاء ، وإن كان لبعضهم أقوال أخرى لا يحل لها . وهذا الحكم عام سواء كان الزوجات الأربع حرائر أو أماء . وكل الذي ذكره الفقهاء في هذا الموضوع أنه لا يحل أن تعدد الرجل عهد رواج على أمه إذا كان متزوجاً حراً ، ولكن العكس يصح ، فيجوز له أن يزوج سره على أمه وقد

لوخط في ذلك أن زواج الأمة بعد زواج الحرة امتنان للحرة، وحرص لشرفها وعزتها .

والأمر الثاني مما يُحل المرأة للرجل «ملك اليمين» أعتى ملكية الرجل للأمة، قال تعالى «فَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَادُ فَوَالِدُهَا أَوْ مَلَائِكَةُ أَيْمَانِكُمْ» والذين هم ليرزوجهم حافظون إلا على أولادهم أو مملكتهم أيمانهم فإنهم غير ملومين» من ملك حرة حار أن يتسراها، وهي حل له سواء كان متزوجاً أو غير متزوج، وسواء كان متزوجاً واحدة أو أربعاً ولا يتعد الرجل في ذلك بعدد فيحل له أن يتزوج إلى أربع، وأن يملك من الخواري ويسرى ممن ما شاء من العدد وإن كثيراً

من أحل ذلك كان السبت الاسلامي فيه - عالياً - راحة أو رוחاء، وكان محابهن عدد من الخواري قد سراهن رب البيت

وكثيراً ما كان تقع الخلاف بين الحرائر والخواري السراي، وذلك طبعي، - حتى ذهب بعض اللغويين إلى أن تسميتهن بالسراي كان سندس العيرة، نقل اللسان عن بعضهم أن السرية الأمة التي يتسراها صاحبها - مرسونة على غير قياس إلى السر، وهو الإجماع، لأن الإنسان كثيراً ما سراها ويستترها عن حربه» وكثيراً ما يتسل الرجل الواحد الحرائر والخواري فيمحر أولاد الحرائر على أولاد الخواري، ويعتزون بأنه لم يحر في عروقهم دم رقبي، كالأبي كان من الأمس والمأمور، فكلاهما ولد الرشيد، ولكن أم الأمس روجه حرة، وأم المأمور حرة سُرته، وقد صرنا قبل أمثالا من هذا الغسل بدوب الحلفاء وسلمهم المذموم، وكانت بدوب غيرهم من الرعية مثل يوتهم في هذا الباب

وهذا الرقيق الذى أساء - من رجال وساء لا يَسْتَرِدُّ حَرَّتَهُ إِلَّا بَأْسَ
تَعْتَمِدُهُ مَالِكُهُ - وقد عهد العقهاء بأن أطول دلا للعق، أن أنوا فيه الألفاظ التى
تكون بها العتق، وما يعرض له من أشكال، والذى يهتما منه الآن . كقبة فى
« أم الولد » ذلك أن الأمة إذا ولدت من سيدها سميت « أم ولد » وقد
رفعوها فوق مرله الحارية إلى لم تله منه، ومحوها حقوقاً لم تسلبها غيرها،
أهمها: أنه لا يصح لمالكها (وهو مسئولها) أن يدهها، ولا يهبها
- وعلى ذلك حرى جمهور الفقهاء - وليس لها حق حلال لمالكها حتى يموت فاداً
مات صارت حرة، بحرى عليها كل أحكام الحرائر . أما الأولاد الذين
حاموا منها فأحرار

هذا هو الوضع القسانى لمسألة الرقيق، والطام الذى كان يسود فى
عصرنا الذى نؤرخه، وهو قد لا بد منه لهمم التأنج الأدسة والعليسة
والاحتياعة .

وقد كان المسلمون والنصارى واليهود على السواء فى تملك الرقيق، ولكن
النسرى لم يكن نظاماً مسروفاً عند اليهود والنصارى، وإن ارتكبه بعضهم
حروفاً على القسانون فقد رروا أن أنا حصر المصور أهدى طاه
حور حرس من بحسوسح النصارى ثلاث حوار حسان روهيات مع ثلاثة
آلاف دينار، وردت الحوارى فسأله المصور لم ردد - قال أنا معسر
النصارى لا يروح أكثر من امرأة واحدة ما أم المرأة، ولا بأحد غيرها
ولكن من أمة أخرى رور - لاحظ أن « طيباوى » رئيس الخائفى
ددهم « حرهم كالم عوف العتاي (وكان بصرا) » عد ما ناعسه أنه اتحد
النصارى، وقد عوف الخائفى وحلف لئن فعل لئليس

وروى القِطَبي : أن البصارى عاتوا يُوحَنَّا بن ماسَوْنَه على اتِّخاذ
الحوارى . وقالوا حاله دينا ، وأنت شَمَّاس ! فاما كتب على سديا ،
واقصرت على امرأه واحدة ، وكتب شماساً لنا ، وإنما أحرَّح نفسك عن
الشماسين ، واتحدت ما بدا لك من الحواري فقال لهم : إنما أمرنا في موضع
واحد ألا نتحد امرأين ولا نؤس هن حمل الخالميق . أولى أن نتحد
عشرين ثوباً من روحنا الشقي في اتِّحاد أربع حوار ؟ فقولوا لنا انتمكم : أن
يلزم هوابين ديه حتى يلزم معه فان حاله حاله ٢١
وفد كانت المملكة البربطة تحرَّم على من لبس بصراساً أن يملك روفقاً
بصراساً ، ولكن المسلبين أباحوا لليهود والبصارى أن يتلبسوا الأرقاء ولو
كانوا مسلبين .

انتشرت تجاره الرقيق في المملكة الاسلامية في ذلك العهد ، كما انتشرت
في غيرها من الممالك ، وكان في بغداد شارع يسمى « شارع دار الرقيق »
اسم في الفسحة بين الامين والمأمون ، وبكاه ساعر في فصدية طويلة آخرها .
ومهما أنس من شيء نَوَّى هَاقَّ ذاكرُ دار الرقيق
وفد سُمِّي تاجرُ الرقيق « حَتَّاساً » وكان في الاصل يطاول على نافع
الدواب ، واسم في ذلك العصر كثير من الحساسين في بغداد ، وسبب شهرتهم .
ماظم من حوار حسان نأوى البهائم الحراء والأدباء ، منهم بالكُرَّح حُساس
يكى « أنا عُمَيْر » كان له حوار فيان لم طَرْف ، وكان من حوار به حاريه
تسمى « عَنَّاذه » هوَّها عند الله محمد بن الدواب فحول

لو تَسَكَّسَ «أبو عُمَيْرٍ» قليلاً لَأَتَيْناه من طريق العيادة
 وقضنا من العيادة حقاً وطرنا في مَقَلَّتِي «عَبَّادَه»^١
 ومهم أبو الخطاب الحساس، كان له حارية معينة تعرف بذات الحال،
 كان يهاها ابراهيم الموصلي^٢، ومهم «حرب بن عمرو الثقفي» كان محاساً، وكان
 له حارية معينة وكان الشعراء والكسابة وأهل الأدب بعدد يختلعون اليها
 يسمعونها، ويُسَقُّون في مِرْلَه المَقَات الواسعة، ويَتَرَوْنَه ويَهْدُون له وفيها
 وفيه نقول أشجع

أَشْجُو الَّذِي لَا قِنْتُ مِنْ حُسْبَا وَنَعَصَ مَوْلَاهَا إِلَى الرَّبِّ^٣
 مِنْ نَعَصَ مَوْلَاهَا وَمِنْ حُسْبَا سَقَمَ بَيْنَ الْمُعْصِ وَالْحَبِّ^٤
 فَاحْتَلَجَا فِي الصَّدْرِ حَتَّى اسْتَوَى أَمْرُهُمَا فَاغْتَسَمَا قَلْبِي^٥
 تَعَجَّلَ اللَّهُ شِفَايَ هِهَا وَعَجَّلَ السُّفْمَ إِلَى حَرْبِ^٦

ومر «أبو دلالة» بحساس يبيع الرقيق، فرأى عنده مهن من كل شيء
 حسن فأنصرف مهموماً، ودخل إلى المهدي، فأنشده قصيده يفصل فيها الحاسة
 على الشعر مطلعها

إِنْ كُنْتُ تَبْعِي الْعَبَشَ حُلُوقاً صَافِئاً وَالشَّعْرَ أَعْدَنَةً وَكُنْتُ نَحَّاساً^٧
 وَلَنْ كَانَ الْمُسْتَهْتَرُونَ مِنَ الْأَدْنَاءِ نَعْمَطُونَ الْحَاسِينَ عَلَى نَحَاسَتِهِمْ^٨
 من العقلاء كان بكره هذه الحرفة ويمقتها دخل ناس على معاوية، فسألهم
 عن صناعتهم فقالوا: «مع الرقيق»، قال ناس الحارة: «كتمان نفس ومؤونه
 صرس»^٩

وكان على تحار الرقيق عامل من عمال الحكومة شرف على أعمالهم،
 ويراف تحارتهم يسمى «قيم الرقيق»

١ أعادى ٢ ٤٤ ٢ أعادى ١٧ ٥ ٣ أعادى ٩ ١٢٨
 ٤ أعادى ١ ٢٥ ٥ أعادى ٢ ٢٧

كان هؤلاء الأرقاء أنواعاً مختلفة منهم السود . وكان أهم أسواق ذلك
الصف مصر وحبوب حريرة العرب وشمال أفريقيا ، وكانت القوافل تأتي
هم وبالذهب من الحبوب ، وكان الثمن العادي للعبد في منتصف القرن الثاني
حول مائتي درهم . وقد رووا أن كاهوراً الاحشدي الحبشي الذي ملك مصر
قد بيع في أول أمره سنة ٣١٢ هـ ثمانية عشر ديناراً لأنه كان حصياً^١ ، وفيه
يقول المتنبي لما عصب عليه

مَنْ عَلَّمَ الْأَسْوَدَ الْمُحْصَى مَكْرُمَةً ؟ أَقَوْمُهُ أَلَمْ يَضُرُّ أَمْ آثَاؤُهُ الصَّيْدُ ؟
أَمْ أَذُنُهُ فِي يَدِ الْحَاسِ دَائِمَةٌ أَمْ قُدْرُهُ وَهُوَ بِالْقَلَسَيْنِ مَرْدُودُ ؟
وذاك أن الفحولَ اليَصَّ عَاحِرَةٌ عَنِ الْجَمَلِ فَكَيْفَ الْحِصْيَةُ السُّودُ !

ومهم النص ، ومن أشهرهم الأتراك والصقالبة وقد كان الناس يفصلون
الصقالبة على الأتراك ، كما يدل على ذلك حمله للجوارمى وردت في كتاب
يُسمُّه الدهر « ويُستحدم التركي عند عتبة الصقالي »^٢ وقد كان أهم مركز
لتجاره الرقيق الأبيض مدينة سمرقند ، وقد اشتهرت باصدار أحسن الرقيق
من هذا النوع ، وعظمت تجارتها في المملكة الإسلامية ، وفي أوروبا ، وكان
تجاره في أنحاء أوروبا من اليهود^٣ .

وهذا كان لكل نوع من أنواع الرقيق مبررات خاصة يعرف بها ، فالهذبات
عربى والوداعة ، وليس الخشب والهدوء ، وحسن رعاية الطفل ولكن سرعان
ما تعرض لها الدول وإمارة الرقيق من رجال اليهود تدبير المنزل ، والمهارة
في الصناعات اليدوية . ولكل هذه عروسة للربح الفجائي في زمانه ،

١ Mer في كتابه Die Renaissance Des Islams

٢ سنة ٤ ١١٦ وطلبي الصقالبة على الأحسان إلى ذلك من باعنا إلى حدود القسطنطينية

Mez ٣

وأغلب ما محب الرق الهلدي من « قهجار » واشتهرت السنديات بالخصر
الجل والشعر الطويل واشتهرت مولدات المدينة (يعنى الاماء اللاتي
سأن بالمادة ورتن فيها) بالدلال والميل الى السرور والمكاهة والمجون
ومحبس الاستعداد للسوع في العاء ، وعرفت مولدات مكة بنفذة المعصم
والمفصل والعيون الناعسة والامة البرية (المعرية) لا تارسي في حسن
الاناس ، وهي لدعائه حلقها وليس عركتها صالحة لان يعود بهما الفهم بأى
نوع من العمل والمثل الأعلى للجارية - كما قال أبو عبيد الدلائل - . أن
تكرن من أصل يرى فارب ، ولادها ، وهي في الثالثة من عمرها ، ومكثت
ثلاث سنين في المدينة ، ومثلها في مكة ، ثم رحلت الى العراق في السادسة
عشر من عمرها لتتقف مقامه ، فإذ لعب في الخامسة والعشرين كات قد
جمع بين حوده الأصل ودلائل المديبات ، ورفقة المكتبات ، وثقافة
العراقاب .

« والسودانيون كانوا يعمررون الأسواق وقد عرفوا قلة الساب والانهمال ،
كما عرفوا الميل الى الضرب على الدف والرقص ، وهم أحسن ساقا ، اص
أسنان لكثرة لعابهم ، ويعاون عادة نال الاط وحشونة الملابس »
، والحسبات عرف بالضعف والترهل والاستعداد للأمراض الصدر ،
وهي على العكس من السودانيات لا تحسن العاء ولا الرقص ، ولكن هن
فوياب الخليل ، وصنع للعبة أهل الاعيان عاب ،

« والتركية مصاء النسر ، على حط سائيم من جمال وحسان ، ولها عسان
صغيران سداسان ، وهي في الغالب ندية أميل الى الضهر ولود ، كريمة بطعة
تحد الطهى ، ولكن لا يوبى بها ولا يعتمد عليها »

« والامة الروميه مصاء النسر في حمرة ، ناعمة الشعر ورفاء العيين ، طاعة
مستعدة للشكل بما يحيط بها من حاروف ، محاصه ثمة ، والاندالومي سيدا رير

المزل، ويحب الطعام، ويميل إلى القصد في الاتفاق ويحيد القبول الجملة «
« والأرمن شر الحس الأييص، بنتم حمده ولكن أقدامهم فسحة،
لا يعرفون بالعمة وتفسو فيهم السرفة، حشونة في طباعهم وحشونة في كلامهم
إذا أنت ترك الأرمي ساعة بلا عمل عمد إلى الأذى يرتكبه، وهو إنما يعمل
للخوف، فيجب أن يحمل له العصا دائماً، وتعنفه لعمل ما يريد^١ ».

لذن كان الرقى وعلى الأحص الخوارى محلفات الانواع، همديات
وسيدات، ومكنات ومديات، وسودانيات وحشبات، وبركات ورومات
وأرمات — وقد شبه الخاطب أصفاء الرقى عند الحاسن بألوان الحتام
فنه الصمالة بالحم الأييص، وسه الرخ بالحم الأسود الخ^٢.

وهذا ما جعل قصور الخلفاء والأمراء والأعيان مأوى لرقى من أمم
معددة، محلف في الطباع والامداد واللعاب. فالطبرى يحدثنا: أن المأمون لما
عصب على الفصل قبله أربعة من علمائه عاب المسعودى الأسود، وفسطاط
الرومى، وفرج الديلى، وموفق الصقلى^٣ وفسما أن المتوكل كان له أربعة
آلاف سرّية، من مختلف الأحاس طبعاً، ودخل أحمد بن صدقة على المأمون
في يوم السبت^٤ وبن يده عشرة ووصفة حلماً روميّات مزرب قد ترين
بالديباح الرومى، وعلّق في أعقابهن صلبان الذهب، وفي أيدهن الخوص
والريون فقال له المأمون: ويلك ما أحمد قد فلت في هؤلاء أنا ما فعتى
فيها تم أسدنى :

١ رجحها هه القطعة ولحصاها من كتاب ١٢٥٢ السابق وهو ما أعين رسالة ألفها ابن
طلان « في سراء الرقى » وهى محفوظه في مكتبة برلين ولم نعث لها على أصل عربى في مصر
٢ الخوان ٣ ٧٥ . ٣ ابن خربز ١ ٢٥٠ ٤ مسعودى ٢ ٨ ٣
٥ وم ١١ ما بين عدد لا صارى

ظِيَاءُ كَالذَّائِبِ
سَجَلَاهُ السَّعَانِ
وَقَدْ زَرَقَنُ أَصْدَاغَا
وَأَقْبَلُنْ بِأَوْسَاطِ
مِلَاحٍ فِي الْمُقَاصِبِ
عَلَيْنَا فِي الزَّائِبِ
كَأَذْنَابِ الزَّرَازِيرِ
كَأَوْسَاطِ الزَّائِبِ

فغناه. ١. فلم يزل يشرب، وترقص الوصائف بين يديه أنواع الرقص. ٢. والرشد يمدحه مروان بن أبي حفصة بقصيدة، فيعطيه مالا ويعطيه عشرة من رقيق الروم، ٣. وكان لمحمد بن شفوف الهاشمي ثلاثة غلمان مغنين، اثنان صقليان؛ خاقان وحسين؛ وكان خاقان أحسن الناس غناء. وكان حسين يغني غناء متوسطاً وهو مع ذلك أضرب الناس. وكان الغلام الثالث يقال له حجاج حسن الوجه رومي الغناء. ٤.

وكان لبشار جارية سوداء يقول فيها:

وَعَادَةُ سَوْدَاءَ بِرَاقَةٍ كَالْمَاءِ فِي طَيْبٍ وَفِي لَيْنٍ
كَأَنَّمَا صِيغَتْ لِمَنْ نَالَهَا مِنْ عَنَبٍ بِالمِسْكِ مَعْجُونٍ
وَكَانَ لِأَبِي الشَّيْصِ الشَّاعِرِ جَارِيَةٌ سَوْدَاءُ وَكَانَ يَتَعَشَّى بِهَا وَفِيهَا يَقُولُ:
يَا ابْنَةَ عَمِّ المِسْكِ الذَّكِيِّ وَمَنْ لَوْلَاكَ لَمْ يُتَّخَذْ وَلَمْ يَطْبُ
نَاسِبُ المِسْكِ فِي السَّوَادِ وَفِي الرَّيْحِ فَأَكْرَمَ بِذَلِكَ مَنْ نَسَبُ
وَكَانَ لِابْرَاهِمَ بْنِ المَهْدِيِّ جَارِيَةٌ رُومِيَّةٌ تَكْنُسُ الْبَيْتَ. وَلَا تَحْسَنُ
العُرَّة. ٦.

وكان للمهدي جارية نصرانية، تعلق في صدرها صليباً من ذهب^٧ إلى

١ أعاني ١٩ : ١٣٨ ٢ طرى ١٠ : ١١٤ ٣ الأعاني ١٥ : ٥٣
٤ أعاني ٣ : ٢٦ ٥ أعاني ١٥ : ١١١ ٦ أعاني ٩ : ٧١٠ ٧ الطبرى ١٠ : ٢٠٠

كثير من أمثال ذلك - فأتى أن البيوت ما كانت تحلو عالماً من رفيق حارية أو علام، وأهم من أحاس محملة، وديانات محملة، وثقافات محملة، وقد رأيت فيما قصصاً أن الحلفاء والأعيان تركوا للماليكهم حرية الديانة، فقد تكون الحارية بصراية تلبس الصليب والربار، وتلبس لبسها القوي وتكلم بلغتها ولا تحبس العربية، ولهذا من السائح ما سببه عليه

أتى العباسيون إلى تعليم الحواري - على اختلاف أنواعهم - أتباعاً قوياً، وأكثر عايتهم كانت تعليمهم العباء، فقد انبسر العباء في هذا العصر انتشاراً عظيماً، وعُد حاجة من حاجات الإنسان الضرورية، فترى المعين والمعينات في المحال العامة وفي الشوارع وفي قصور الحلفاء، وفي بيوت الأعيان والفقراء، وبمساق دوق الناس في العباء بمواً عربياً وملئت المكتبات بالحكايات عنه، شعف الناس به حتى لمع على الحسر فيجتمع السامعون حوله ويخاف من سقوط الحسر منهم^١، وحتى كان بعضهم يكاد يقطع العمود برأسه من حسن العباء^٢ ولم يجرح الحلفاء ولا أولادهم من احتراع الأصوات والاعى بها. فصاحب الأعاني تحدثنا أن الواثق والمستنصر كان لهما أصوات يعى بها، وكانا يتحدثان ذلك^٣ وعقد فصلاطو ولا يمتعا لأولاد الحلفاء وصعتهن في العباء، وكان لعلسة لبس الحليفة المهدي ثلاثة وسبعون صوتاً (دوراً) ويحدث أحمد بن أبي دواد القاضي فيقول كتب أعيب العباء وأطعن على أهله فخرج المعصم يوماً إلى السمة ناسية في حرفة يشرب، ووجهه في طلي فصرت إليه فلها هرب منه سمعت عباء حترى، وشعلني عن كل شيء فسقط سوطي من يدي، فالتفت إلى علالي أطلب منه سوطه فقال لي: هذ والله سقط

١ أعاني ١٨ ١٢٧ ٢ أعاني ١٥ ١٥٦ ٣ أعاني ٨/١٦٢

٤ ٧ - ٣٥ وكذلك في الجزء التاسع

سوطي، فقبل له فأى شيء كان سبب سقوطه؟ قال صوت سمعته شعلى عن كل شيء فسقط سوطي من يدي، فإذا قصته قصتي ا قال وكنت أنكر أمر الطرب على العما، وما يستقر الناس منه، ويعلم على عقولهم، وأنظر المعتصم فيه؛ فلما دخلت عليه يومئذ أخبرته بالخبر فصحك وقال هذا عني كان يعنى.

ان هذا الطويل من آل حمص، نشر المجد بعد ما كان ما، فان تب عما كتب، اطربا عليه في دم العما سألته أن يعده ففعل، وفعل، وابع في الطرب أكثر مما ينبغي عن عيرى فأناكره، ورحم عن رأيي منذ ذلك اليوم.

دعاهم الشعف بالعماء الى معلمه الخوارى للتمتع بعائش ومطهر من معاً، ويعلم العما اسد مع علم الأدب، لأن الناس في ذلك العصر كانوا يتعون بالشعر العرب الفصيح هل شعر عمر بن ابى ربيعة، وشار. ومسلم بن الوليد، وأنى العماهة، والممة لا يحسن أن تعنى هذه الأشعار إلا اذا حفظت كثيراً من الشعر، وأحاديث مخارج الحروف وأطالعت على كثير من الادب. بل رأينا أحاديث كثيرة عن معياف كن يعين مما يحتر عن من شعر ووصوب قول أبو دلامه من شعر له.

هدى رساله سمع من بنى أسد يهدى السلام الى العما في الصحف بخطها من حوارى المصنر كاسية قد طالما صرت في اللام والألف وطالما احلفت صمأ وساتية الى معلمها بالالوح والكتف حتى اذا جهد الدان واملا ما اوحى به على الاسراف والقرف.

١ أمان ٩ ٥٥ ٢ اكف ٢٠ من كانوا ٤٠٠ قال الفراء ٣
٣ الف من حرف الـ اركه

وقد كان ابراهيم الموصلي معى الرشيد على ما يظهر من أكثر الناس نشاطاً فى تعليم الحوارى وتثقيمتهم، ومن أسبقهم فى التوجه الى ذلك، يتحدث اسه فيقول « لم يكن يعلمون الحارثية الحساء العاء وإنما كانوا يعلمونه الصغر والسود وأول من علم الحوارى المسمات أنى، فانه بلغ بالقان كل ملع، ورفع من أقدارهم، وفى ذلك يقول أبو عبيدة الشاعر وكان يهوى حارثية يقال لها « أمان »، طلب مولاهما فيها ثمما كبراً.

قلتُ لما رأيتُ مَزَلَى أمانٍ فَدَ طَبَعَى سَوْمُهُ سَاطِعِياً
لا تَحْرِى الله الموصلى أنا السسحاق عبا خُسرأ ولا احسانا
حانا مرسلاً نوحى من الشى طان أعلَى به علياً القيانا
من عتاه كانه سكرات الحسب بضئى القلوب والآدانا
والق هو (ابراهيم الموصلى) ويريد حوراء شركة اشراء الحوارى،
وتعليمهم العاء، والمشاركة فى ربحهم^٢

* - ٤

نشر هؤلاء الحوارى نوعاً من الثقافة كان لادامته فى مثل مدينة العباسيين وهو لادامته فى كل مدينة وأعزى بذلك الى ون الخيلة، وما تبعها من رقى فى الدوق المي فقد كان محاسب الحركة العامة فى ذلك العصر حركة أخرى لا تفل عبا سناً وهى الحركة الغيبة من عاء وصور ورقص، والحق أن الناس شعروا إزدالك شعوراً فوياً بالجمال، وهن شعراًؤهم - وخاصة مسلم اس الولد، وأنا بواس - فى وصف الجمال والولوع^٤ وفراء^٥ من غير مالم كما قال أبو نواس

للحس في وحشاته ندَّع^١ ما إن يَمَلِّكُ الدرسَ قاريها
ويحكى العاحظ أن من رأى الديك والدحاجة يشربان الماء ، وكان
عطشان ذهب عطشه من قمع حسو الديك والدحاجة ، ومن رأى الحمام
يشرب الماء وكان ريان يشتهي أن يكون فيه في الماء لجمال سُرته^٢ وهذا - من
غير شك - يدل على شعور الجمال قوى ، وكان العنابي يعد جمال كل مجلس
أن يكون سقفه أحمر ونساقه أحمر ، ويقول نشَّار :

هيجان عليها حُمُرة في ناصها رروى بها العيين والحس أحمر^٣
وشعروا بحال المعنى كما شعروا بحال الصورة فأكثرُوا من القول في جمال
الروح وجمال الحديق فيقول نشَّار

وكان رَجَعَ حديثها وطمع الرِياص كُسيين رهرا
وكأن تحت لسانها هاروت يَهْتُ فيه سحرا
ويقول :

ويَكْثُرُ كُثُورُ الرِياص حديثها تروق بوجهه واصح وقوام
والحق أن الخواري كُنَّ أكبرَ عامل ، في سُر الشعور الجمال ، وما
تبعه من حمية ، وأن الناس في العصر الذي نُرجه لم يكتفوا
بالخواري من ناحية جمالهن الحنفي ، بل شعفوا من ناحية الجمال التي
أنصأ ليجمعوا بين الجمالين ، كانوا يملكون إلى العشاء وإلى الرقص ، وإلى
التمس في الملئس ، وإلى غير ذلك من صروب الفن ، فأحدوا بعلوم الخواري
هذه الفنون ، وسرعان ما تحول النوع فيها من الرجال إلى الخواري ، وأحد

نوايغ المغنين بلقنون جواريمهم الخاتمهم وأصواتهم وطرب
فأبراهيم الموصلي يعلم جواريه فنّه حتى يحسنه ، وعبد الله بن
الغناء علماً تاماً ؛ فيصنع الأصوات بلقنها لجواريه ، والمغنون
حزبين : حزب القديم ، وحزب الجديد ؛ فينقسم الجوارى إلى
من أخذن الفنّ عنهم ، وامتلا كتاب الأغاني بتراجم الجوارى
عريب ومُتيم وبذل وذات الخال وفريدة وأمثالهن ، وعقد الف
في نوادرهن وميزة كل منهن ونوع تفوقهن —

والآن نذكر طرفاً من أنواع الفنون التي نشرتها :

فأول ذلك : الغناء وقد غمرن العراق بالغناء الجيّد ، وما
ومجّون . وقد كان هؤلاء الجوارى في هذا على نوعين ، جوار
للخاصة فالخليفة له جوار يغنيهن ، والأمراء والأغنياء كذلك —
هذه الجوارى حباً في التجدد ، وفراراً من الاقتصار على صوت
وهناك نوع آخر وهو : قيان عامة وأكثر ما يكون أن نغ
فيعرضهن للغناء في مجال يأوى إليها الفتيان لسماعهن ، والانفاق
نماذج ذلك ما حكاه لنا صاحب الأغاني عن ابن زامين : فقد
بالكوفة . وله جوار مغنيات أشهرهن اسمها سلامة الزرقاء ،
مُقيّين بالكوفة ، يجتمع في بيته الفتيان للسمع والشراب . وبقو
قنيانته الشعر . ومن كان يخاف إليه روح من حاتم المساء
الأشعث ، ومن بن زائدة ، وإن المفعف وأمثالهم يسمعون و
سعة ، وبتشدون أشعار الغزل . ولما خرج ابن رامبن حاجا
الشعراء لزوجته ، ووصفوا لوعظهم من فرقة مجلسه كما وصفوا
الذين كانوا يغشون بيته ، من ذلك قول أحدهم :

أية حال بنا ابن رامبن حال المحبين المساك

تَرَكَهُمْ مَوْتَى وَلَمْ يَتَلَقُوا قَدْ حَسَرُوا مِنْكَ الْأَمْرَيْنِ
وَسِرَّتْ فِي رُكْبٍ عَلَى طُنَّةٍ رُكْبَ تَيْهَامٍ وَيَمَّاسِ
يَا رَاغِي الدَّوْدَ لَقَدْ رُحْنْتُمْ وَبِلَكَ مِنْ رَوْعِ الْحَيَيْنِ
فَرَّقْتَ حَمْعًا لَا يَبْرَى مِثْلَهُمْ مِنْ دُرُوبِ الرُّومِ وَالصَّنِ ١

وفي الحق أن هذا النوع من الحوارى أثر أستاذى نشر العلاجه والمحون
ومن قرأ رسالة القبان المنسوبة للحاحط ، أو قرأ وصف « الوستاء » فى باب دم
القيان فى كتابه « المؤيدى » أدرك ما كان لمن أثر برى طله فى شعر الشعراء
الحليين فى ذلك العصر ، وما كان أكثرهم ٢ — ويعلى الحاحط فساد هؤلاء
الفتيات بقوله « وكيف تسلم القصة من القصة ، أو يمكنها أن تكون عقيمة ؟
وأما تكسب الأوهام ، وتعلم الألسن والأحلاق بالمدشأ ، وهى إنما تنشأ من
لذن مولدها إلى أوان وفاتها فيما يصدك عن ذكر الله من هو الحدب . ،
ومن العلواء والمحال ، ومن لا يسمع منه كله حد ، ولا ترجع منه إلى ثقة
ولا دن ، ولا صيانة مروءة ، وروى الحاذقه من أربعه آلاف صوت
فصاعداً ، يكون الصوت فيما بين النيتين إلى أربعة أبواب ، عدا ما يدخل فى
ذلك من الشعر إذا صر بعضه بعض كان من ذلك عشرة آلاف بنت
ليس فيها ذكر الله الا عن عمله ، ولا ترهيبه عن عذاب ، ولا ترعيب فى
ثواب ، وأما ما كتبت على ذكر العسق والصورة والسوق ، ثم لا تنك
من الدراسه لصاعها ، مكره عليها بأحد من المطارحين الذين طرحتهم كله
تخمس . وهى مصطوره الى ذلك لأنها ان أهمها بقص ، وان لم تعد
مها وقص ، وكل وافق فالى بعضا أقرب ٣

١ الأغاني ١٣ ١٢٧ وما بعدها . ٢ المرى من ٩٥ وما بعدها

٣ رسالة الهان ص ٧٢

وغير هذا نشر الجوارى أنواعاً من الظرافة . قلدهن فيها الناس ، وجروا على أثرهن ، كحب الأزهار وتمشقها ، فيحدثنا « الأغاني » ، أن « مثنياً » جارية على بن هشام « كان يعجبها البنفسج جداً ، وكان عندها أثر من كل ريحان وطيب ، حتى أنها من شدة إعجابها لا يكاد يخلو من كمها الريحان ، ولا تراه إلا كما قطف من البستان »^١ ، وفطن الناس إذ ذاك الى دلالة الأزهار على المعاني فيقول شاعرهم :

أهدت اليه بَنَفْسَجًا يُسْلِيهِ تُبْلِيهِ أَنْ بَنَفْسَهَا تَقْدِيهِ
فارتاح بعد صباية وكتابة ورجا لحسن الظن أن تُذْنِيهِ

ويقول آخر

سُرَّ بِالْأَسِّ الَّذِي أَهْدَتْ لَهُ نِمَّ لَمَّا أَهْدَتْ الْوَرْدَ جَزِيعَ
ذاك أن الأس باق ، دائم ولأن الورد حيناً ينقطع

ونوع آخر ظريف انتشر بينهم ، وهو كتابة الأشعار الرقيقة والجلظ الظرفية تطريزاً على الأقصة والآردية والآكام ونحوها . « قال الماوردي : رأيت جارية ونحن عند محمد بن عمرو بن مسعدة . . . عليها قميص مكتوب في وشاحه :

أغيب عنك بُودٌ لا يُغَرِّه نَأَى الْمُحَلِّ ، وَلَا صَرَفٌ مِنَ الزَّمَنِ
وعلى طراز الرداء :

أَقَلَّ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا سُرُورًا مَحَبٌّ قَدْ نَأَى عَنْهُ الْحَبِيبُ

وقال : ورأيت جارية لبعض الهاشيمين . يقال لها عُزْرَيْبُ ، عليها قميص موشح بالذهب ، مكتوب في وشاحه :

وَأَنَّى لِأَهْوَاهِ مُسَيِّئًا وَمَحْسَنًا وَأَقْضَى عَلَى فَايٍ لَهُ بِالَّذِي يَقْضَى

لَحَقَى مَتَى رُوحُ الرِّصَا لَا يَبَالِي وَحَتَّى مَتَى أَيَّامُ سُحُطِكَ لَا تَمُتِي
وَكَيْسَ عَلَى الْعَصَائِبِ، وَمَشَادَ الطَّرَرِ وَالِدَوَائِبِ، وَالرَّيَابِرِ وَالْمَسَادِيلِ
وَالْوَسَائِدِ وَالنَّسُطِ وَالْأَسْرَةِ وَالْكَيْلِ وَالْعَالِ وَالْحَقَافِ، وَبِالْخِجَاءِ عَلَى الْأَهْدَامِ
وَالرَّاحِ^١

وَبَحْجُ هَؤُلَاءِ الْخَوَارِي فِي إِشْعَارِ النَّاسِ بِالْقُرْفِ، وَالْإِبْرَامِ حَدُودِهِ، حَتَّى
أَصْبَحَ لِلطَّرَفَاءِ عَرَفٌ حَاصٌ فِي الرِّى وَالطَّرِ، وَالطَّغَامِ وَالشَّرَابِ، وَمَا إِلَى
ذَلِكَ، وَحَتَّى أَحَدُ «الْوَسَّاءِ» هَذَا الْعَرَفِ وَدَوْنَهُ قَانُونًا لِلطَّرَفَاءِ فِي كِتَابِهِ «الْمَوْشَى»
وَلِسَاءِ بَرَجِ الْعَصْلِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ لِلْخَوَارِي فَإِنَّ لِمَوَالِيهِمْ أَيْضًا أَنْزَارًا لَا يَذْكُرُ
فَارَاهِيمُ الْمُوصِلِي وَأَمْثَالُهُ مِنَ الْمَعِينِ هُمُ الَّذِينَ عَلَّمُوا الْخَوَارِي عِبَادَهُمْ،
وَلَقَبُوهُمْ أَصْوَاهِمُ، وَالطَّبَقَةُ الرَّافِيَةُ هِيَ الَّتِي أَوْحَتْ إِلَى الْخَوَارِي صُرُوبَ
الطَّرَافَةِ، وَابْتَكَى بِمَا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّهُ فَدَكَانَ لِلْخَوَارِي الْعَصْلُ فِي نَشْرِ هَذِهِ
الْقُبُورِ الْجَمِيلَةِ مِنَ طَبَقَاتِ الشَّعْبِ الْمُخْتَلِفَةِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَكْثَرَ وَلَوْعَا هُنَّ،
وَأَشَدَّ تَعَلُّدًا لَهَا، وَأَمِيلَ لِلاتِّحَاقِ بِمَا يَسْتَحْسِنُ

وَكَانَ لِلْخَوَارِي فَصْلٌ آخَرٌ وَهُوَ أَنَّهُمْ مِنْ أُمَّمٍ مُخْتَلِفَةٍ كَمَا رَأَيْتُ.
فَهَذِهِ بَنَاتُ وَتَرْكِيَابُ وَرُومَاتٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَقَدْ كَانَ كُلُّ صِغْفُورٍ يُحْبَكُ وَقَدْ
تَكُونُ عَادَاتُهُ أَوْ كَادَتْ، فَالرُّومَاتُ تَحْمِلُ عَادَاتِ قَوْمِهَا فِي الْعَمَاءِ وَصُرُوبِ
الطَّرَافَةِ وَهَكَذَا هِيَ الْأُمَّمُ ثُمَّ أَيْسَ الْمَعَالِمَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ فَتُشْرِنُ عَادَاتِهَا،
وَوَقَعَتْ أُمَامُهَا عَلَى عَادَاتِ غَيْرِهَا، فَجَمَعَ ذَلِكَ كُلَّهُ لِعَامِلِ الْإِسْحَابِ،
وَمِنْ أَحْلَ ذَلِكَ كَانَ الْعَمَاءُ عَمَاءُ حَآ، وَهَذَا مَا يَسِيرُ الْبِرَاعِ الشَّدِيدِ الِذِي
حَكَاهُ الْأَعَانِي مِنْ طَائِفَةِ نَعَصَبِ الْفَدِيمِ، وَأُخْرَى تَتَنَصَّبُ لِلْجَدِيدِ، وَمَا
الْقَدِيمِ إِلَّا مَا أُهْلِفَ مِنْ عَمَاءٍ مُعْتَدٍ وَأَمْثَالِهِ مِنْ مَعْنَى الدُّوَلَةِ الْأُمُورِيَّةِ، وَمَا
الْجَدِيدِ إِلَّا مَا أُدْخِلَ عَلَيْهِ مِنْ عَمَاءِ فَارِسِيَّةٍ وَرُومِيَّةٍ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْقُبُورِ

١ شَكَرْنَا مِنْ ذَلِكَ فِي كِتَابِ الْمَوْشَى

ومن آخر كان للحواري أثر كبير فيه ، كآثرهن في سائر العصور الخيلية .
ذلك هو « الأدب » ، ويرى أن للبرأة في كل أمة ، وفي كل عصر فصلا
على الأدب من ناحيتين « الأولى » ، ما شيره في نفوس الرجال من عاطفة قوية
تحدث في صدورهم ، وتخرج على ألسنتهم شعراً رقيقاً وأدناً متمماً « الثانية »
مشاركة المرأة الرجل في احراج القطع الفنية والأدبية في المواضيع التي تمس
شعورهن . وهن عليها أقدر !

كان هذا هو الشأن في العصر العباسي ، ويظهر لنا أن « الحواري »
كن أنشط من « الخرائز » في النوعين معاً ، أعنى في ناحية الاشياء الأدبية ،
وفي ناحية الانبعاث الى الشعراء . ويرجع السبب في ذلك الى النظام الاجتماعي
اذا ذلك ، فقد كان الناس - كما قلنا قبل عن الجاحظ - يعارضون على الخرائز
أكثر مما يعارضون على الحواري ، ويحبون الحرية ويشددون في تحميمها ،
وإذا أراد أحد أن يتزوجها بعثت مخاطبة ، تنظر إليها ، وتصف للرجل بحاسنها
وعيوبها ، أما هو فلا يراها الا بعد الزواج . ولكن الجارية شأنها غير ذلك
فهو لا يعترضها كما يعترضه الحرية ، سمى سافرة الى حد بعيد يحكم أنها في كل
وقت عريضة لأن ساع وسرى ، وهى تقضى للرجل حوائجه ، وإذا أراد
أحد من عامة الناس أن يستمتع لعشاء ، أو يلهو بالنسب في بيوت المقربين
فهو اللاتي يعدن مبله إلى السجاع ، ورعته في اللهو ، وهن - بحكم سهورهن -
اللاتي يقع عليهن نظر الناس ، أما الخرائز فلا ينع عليهن الا نظر أفاهن ،
لذلك كان طبعاً أن الأدباء والشعراء عدون أدبهم وسعيرهم الحواري
أكثر مما يعدونه بالخرائز - ومن ناحية أخرى مهدى الرجال ، عليهم
الحواري - كما يظهر - أكثر من عبادهم تعلم الخرائز . ودعاهم إلى ذلك
الساحنة الجارية ، فقد رأيت أن علم الجارية وأدبها كان يقوم في سوى الرفق
ما أكثر مما هو مذهبها ، وأن الجارية إذا قومت بماتى دينار جاهدته قومت

بأسعاف ذلك معسّة أو أدسة، والمال في كل عصر هو قوام الحركات الاجتماعية، أما الخرائز فلم يكن يُعنى بتعليمهن وتربتهن إلا طئقة قليلة، وهى طئقة الاشراف ومن فى حكمهم وقليل ما هم وسب آخر: وهو أن الناس كانوا يرون أن الحوارى هن ملهى الرجال فحاول العائثون بأمورهن أن يرفوا هذه الملاهى بكل ما يظلمه اللاهون، ورأوا أن الحارثة اذا كانت معنية أدبية موسقية شاعرة كان ذلك أعمل فى قلوب الرجال، فلم يألو جهداً فى تحقيق مطالبهم.

نعم نجد كثيرأ من الخرائز اشتغال بعض العلوم، ولكن أكثر ما اشتغل به كان الباعث عليه ديبأ ككثير من المحدثات والمتصوفات. ولكن هذا ليس موضوعا هما، انما موضوعا الاشتغال بالعلوم، والحوارى - من غير شك - فى هذا الباب كى أكثر وأظهر.

مصدق ذلك أنا نجد - من الباحية الانشائية - كثيرا من الحوارى أدبات متمسبات، لا ينداسن فى ذلك الخرائز «يهول الأعاذى فى عسريت» كتاب معنية محسنة. وشاعرة صالحة الشعر، وكانت مديحة الخط والمذهب فى الكلام، ومهاية فى الحسن والجمال والطرف وحسن الصورة، وحوده الصرب وابقان الصعقة والمعرفة بالنعم والأوار، والرواية للشعر والأدب^١ ويقول فى «مُسْتَم» «كانت صغراء مولدة من مولدات البصرة وهما نشأت وتأدب وعب، وأحدثت عن «اسحاق الموصلى» وعن أمه من هله. وكانت من أحسن الناس وحها وعناء وأدبا، وكانت تقول الشعر لنفس مما يسبحاد ولكنه يسبحس من ميلها^٢ أو تقول فى «دائس» - حار - يحيى بن خالد البرمكى -: «كانت من أحسن الناس وحها، وأطرفهم وأكاملهم، وأحسنهم أدبا وأكثرهن رواية للعباء والشعر».

ومن الناحية الأخرى - كان الحوارى أكثر إيماء للشعراء بمعنى الشعر السبب الذى بدأ ، فبشار يعشق حارية يقال لها « فاطمة » سمى بها تعى فهو سها ، وقال فيها الشعر ، كما قال الشعر فى حارية له سوداء . وحياة دِعِل الحراعى ، ومسلم بن الوليد - صريح العوانى - مملوءة بما حدث لهم مع الحوارى والشعر فبين ، وأبو نؤاس كان يهوى حارية اسمها « حسان » وهى حارية لآل عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى ، وكانت جميلة أدبية تعرف الأحبار وبروى الأشعار ، يقال : أن أناس لم يصدق فى حمة امرأة غيرها وقد أكثر فيها من بدائع شعره وشعب العباس بن الأحف بقور ، وكانت حارية لمحمد بن منصور فأقنى فى شعره فيها بالمتع هذا قليل من كثير مما ملئت به كتب الأدب من شعر وقصص ، وبما كان بين الفة ان والشعراء والأدباء وبين الحوارى فى ذلك العصر ولئن اعتبط الأدباء مما أنتجه هذه الحالة الاجتماعية من شعر رقيق ، ومن بديع ، فإن رجال الدين والحشاش ساءهم ما ربح عن ذلك من طو حليج ، واستهزأ بتبج وأحد الاولون يحون الناس على الاستمتاع بهذه الحياة وحتى ثمارها ، وأحد الآخرون يبعون على الناس طوهم وثورهم ، ثم يفترون من هذا كله إلى الزهد فى الحياة ، والمهرب من لذائدها ، كما سنعرض ذلك فى الفصل الى

الفصل الخامس

حياة الله وحياة الجد

هل كان الناس يعيشون في ذلك العصر عيشة ترف ونعيم، وطمع ومحون، أو عيشة جد وعفة؟ وهل كان الخلفاء العباسيون الأولون يتحرون أوامر الدين وبقيدون بها، ولا يحتمون إلا بما أحل الله كما يصورهم بعض المؤرخين، أو هم انحلوا من كثير من القود وأسرفوا في اللهو كما يصوره آخرون؟ وهل كانت حالة الشعب رحيمة سعيدة أو نائية شقية؟ وما أثر ذلك كله في العلم والفن والأدب؟ ذلك ما نحاول الإجابة عنه في هذا الفصل.

إذا نحن نظرنا نظرة عامة لمارس بين الحياة الأموية، والحياة العباسية وحدنا الأولى أقل تكلفاً، وأكثر سداحة، وأدنى على الدوق العرفى البدوى السسط. وأكثر ظاهرة براها أن سطره العصر العرفى في العهد الأموي صعبه مهد الصعة، وجعلته إذا أراد البرف والنعيم تحس من برف الأمم الأخرى ونعيمها، ولم يأخذ كما هو بخلافه. ثم هو بعدل فيه حسب دوفه وموله ويجعله شدياً آخر عريياً لا فارساً صرفاً، ولا رومياً صرفاً رأوا الموائد الفارسية، وأدخل الخلفاء والأمراء على موائدهم نوعاً من التخصس ولكن لم يكن العرفى البدوى إذا دخل على معاوية أو عبد الملك تشعر بأنه في حق آخر بعد كل البعد عما يعرفه

روى ابن خلدون أن الخجاج أو أم في احتة ابن بعض ولده، فاستحضر بعض الدهاقين يسأله عن ولائم الفرس، وقال: أحبر في أعظم صنيع

شهدته فقال له : نعم أيها الأمير ، شهدتُ بعض مَرَارِية كسرى ، وقد صنع
 لأهل فارس صنعا ، أحضر فيه صحاف الذهب على أحوثة الفضة - أربعة
 على كل واحد - وتحمله أربع وصائف ، ويجلس عليه أربعة من الناس ،
 فإذا طعموا أتعوا أربعهم المائدة بصحائفها ، ووصائفها فقال الحجاج يا إعلام
 البحر الحرر وأطعم الناس ، كآبه كره ذلك واستعظمه ، وناعن دوقه
 العرى ، وعده خفجه كاذبة وأبهة لا يستسيحها ، فمر من ذلك إلى عادات قومه
 وكذلك شأهم في الدواوين ، وصروب الحصاره الأخرى . وتلى الحملة ،
 والدوى العرى وأصبح كل الوصوح في العهد الأموى والبنو العباسية من دمشق
 ومكة والمدينة - أعى من الباحة الاجتماعية لا السياسية - علاقة مديدة .
 يتفهمون كل الفهم ، ويتداوون كل الدوى ، والاسلام مفهوم لديهم في
 بساتنه وتقاليده على نحو أحسن مما فهم به في العصر العباسي
 أمّا العباسيون فلم يكن شأنهم كذلك ، لئس كان الأمويون يتقانون إليهم
 بعض العادات مع صعبها يصعبهم ، والعباسيون كانوا هم الذين يتقانون بخلافهم
 إلى العادات الجديدة والتقاليد الجديدة ، حد لذلك مثلا : الدور - كان
 عيداً للفرس فبدأ ، ولم يسمع في العصر الأموى أن كان له شأن ذو بال - ولكن
 العباسيون اتخذوه عيداً قومياً يحفواون به حفصاتهم بعد الفطر - ويدارون فيه
 بالهدايا والعصائد ، ويجلس فيه الخلفاء للثقة . وفل ميل ذلك في الأرياء
 فانسرب العباسية والطولية ، وصروب الأرياء العباسية اتخذ القضاة القلاص
 العظام ، واتخذ الخلفاء العظام على القلاص وثقة وإي العظمة ووعوها تنعاً
 لظهورها كما كان يفعل الفرس ؛ فالحكام عمة ، وللفهها عمة ولا عتاين عمة ،
 والأعراب عمة . واكل قوم رى ، فلفهها رى ، ولأصحاب القضاء رى ،
 وللشرط رى ، وأصحاب السلاطين على مراتب واكل مرتبه رى ؛ فهم من

يلبس المِطْمَعة، ومهم من يلبس الدُّرَّاعة، ومهم من يلبس « البار كند »
- وكانت الشعراء تلبس اللونى والمَقَطَّعات، والأردية السود - وقد كان
شاعر في هذا العصر يتربا برى الماصى فهجاه بعض الشعراء^١

والخلفاء الأمويون اذا وهبوا فاما كاتب أكثر حوائثهم الابل، أحداً
بمذهب العرب وبدواهم أما في دولة بنى العباس خوائثهم كاتب أحمال
المال وتحب الساب، والحيل مراكبها^٢ وعلى الحملة فقد انقل الناس في
العهد العباسى الى عادات الأمم الأخرى وتقاليدهم، وأفرطوا في ذلك كل
الافراط - على العكس من النهى الأموى - ومن ثم انقطعت الصلاب
الاجتماعية والمساكلا من المسلمين في العراق والمسلمين في حرية العرب
أو كادوا ويحدونا الاعاى حديثاً طرهما عن ناهض من ثومة، وهو شاعر
بدوى حاف، من الشعراء في العهد العباسى شهد حملة عرس في حلب
فدار عقله وأحبل فكره مما رأى مما لا عهد له به في البادية، عجب وأفرط في
العجب من الاحتفاء بالعروس، ومن ألوان الملابس، ومن ألوان الاطعمة
والسراب، ومن آلات العناء الفارسية، حتى أمس الناس في الصبحك من إمعانه
في العمله^٣ ولقد كان يُحَسِّنُ حقاً لو شهد حملة العرس هذه في بغداد.

أفرط قوم من الناس في هذا العصر في اللذائذ يتجرّونها، ويتعصون في
الاستماع بها، وكلما ماتوا بوعا انهكروا بوعا، وادا أحدوا همدون نشط
الدعاء تسبحونهم على الاعراق فيها، والأحد بأكثر حظ منها ونحن اذا
تدعينا ناريخ الدولة العباسية في هذا الباب وحدا أن الدولة كاتب يسير

١ اطر السكلم على الرى وأواعه في الدان والميس ٣ ٦٥ وبها بعدها .

٢ ا ح حلبون ١ ١٢٥ . ٣ افرأ الفقه جامها في الاعاى ١٢ ٣٦

خطوات متدرجة إلى هذه العاية ، وأن كل خليفة كان يعلو - عالما - درجة في سلم الترف والعيم عن قبله ، وأنما لو خططنا رسميا يابيا لانتحه صاعداً ناسمرار في عصر كل خليفة تقريباً ، والناس في كل عصر - وخاصة في هذه العصور - تنع لامامهم

بدأت الدولة العباسية ، وحوطها أعداء كـ يرون من أمويين وصائهم ، ولما احتير الخلافة السفاح ثم المصور عصبت كثيرون من النب العباسي نفسه ، وعصبت شيعة علي ، فكان لابد لاقسام الدولة من حلفاء حادين عبر لاهن ، يصرفون كل وقتهم في تأسيس الدولة ، واصطباع المواين . وكبح حجاج الثائرين ، وسبك دم الحارحين حتى اذا انتهى هذا الدور ، ومهدت الأمور ، وقتل الحارحين ، واستكان أمثالهم ، هدأت الدولة . فكان أمام الخليفة الذي أتى بعد وقت من الفراغ والهدوء يجد فيه متسعاً لشي من اللهو والترف والعيم ، ولكن ليس يجد كل وقته ، فعليه ، طيم داخل المعاشكة بعد أن كان أكبرهم من قبله موحها الى تطيم الأمور الحارحه ، حتى اذا اسدب الحارح والداخل حاء حلفاء ، وقد حرت الأمور في نصاها وسساربت الى الأسس التي شيد الأولون بناها ، ورأى هؤلاء الحلفاء المال الكثير يخي الهم في سعة ، من حراء ما وضع الأولون من حماه للحارح ، وطيم للداخل وهووا وأمرهوا في العيم ، وكان من وقتهم متسع لذلك كله !

كان يمثل هذه الأدوار عماما الجاهل العاين ، وارتعهم ساهها على ما يقول ، فأبو العباس السفاح - أولهم - كان مؤرخاً للحد والعلم ، على صروب اللهو يقول : « إنما العجب من ترك أن يرداد سلبا ، ويحار أن يرداد جهلا افعال له أبو بكر الهذلي ما تأويل هذا الكلام بأمر المؤمنين ، قال ترك شماليه ملك وأما الأحكام ، ويدخل الى امرأه أو حاربه فلا يرال نسمع سحفا ، ويروي نصفا ، ولما تروح أم لدا حلف لها ألا تروح عا ، ولا ناسرتي ،

وحاول بعض المقرئين إليه في حلافته أن يوسوس إليه، ويشير ملاذة وشهوته
بذكر الخواري وأنواعهن فلم يعالج^١ وكانت حياته حياة سمك للدماء^٢
وقضاء على المعارضين

ووليّه المصور وهو رجل الدولة العباسية ومؤسس بنيها، والذي وصى
على أعدائه وأعدائها من أهل بيته، ومن غيرهم، فلم تكن له في اللهو مجال
روى الطبري عن يحيى بن سليم قال: «لم يُرَ في دار المصور لمو قط ولا
شيء يشبه اللهو واللعب والعنت إلا يوماً واحداً، فأتانا أنا له يقال له
عبد العزير (نوفى وهو حدث) قد حرح على الناس فتكناً قوساً ممعماً بعمامة،
مردياً رداء، في هيئته علام أعرا، راكماً على فعود، بين خول القيس فيهما
مقل وبغال، ومساوذك وما يهده الأعراب، فمحب الناس من ذلك وأكروه
فعبس العلام الحسرى، وأتى المهدي بالزُصافه فأهدى الله ذلك، فقبل المهدي
ما في الخو القيس، ومالهما دراهم، وانصرف العلام، فعلم أنه ضرب من عنت
الملوك^٣ وترى من هذا أن الناس أسكروا العمل، على بساطته ولطافه لأنهم
لم يألوا شيئاً من اللهو - وسمع المصور حلبة في داره. فقال: ما هذا؟ قالوا
حادم جلس بين الخواري، وهو يصرف لمن بالطيور، وهن يصحكن فقام
حتى أسرف عليهم فرآهم فلما بصروا به تفرقوا، فأمر فصرف رأس الخادم
بالطور حتى تكسر الطيور، ثم أمر الخادم فمع^٤. وكان حارماً لا لهو
له، يشعر بالتسعة ويصطلح بها ولما سمع شعر طريف من عجم العنبرى.

إرب وان لا سَع لا يؤنسها عمرُ الشَّاف ولا دهن ولا تار
متى أحر حائفاً أمْسَ قسّار حه وإن أحيى آه آ تفلق به الدار

١ اغر المسمودي ٢ ١٧ وما بعدها ٢ مسمودي ٢ ٤٠
٣ صرى ٩ ٢٩٤ ٤ طرى ٩ ٢٩٤

ان الامور اذا اوردتْها صدرتْ **إب** الامور لها وِرْدٌ وإِصْدَارٌ
قال : أنا أحق بِنَيْتِهِ منه ، وأنا الذى وصف لاهو وكأنت لا تزال به نقيّة
من بداءة ، ومييل الى النسيطة — بلعه أن عبد الله من مصعب من الربير قد
اصطنع مع حارية تعنيه لشعر له فيه عرل ، وفيه استهتار فقال المصور .
لكنّ الذى يعجبني أن يحذو فى الحادى اللّيلة لشعر طريف العبرى فهو آلف
وأحرى أن يحذره أهل العقل ، فدعا حاديا يحذو له ، وألقى عليه شعراً فى
الحجر بمكارم الأحلاق فحذاه به فقال المصور هذا والله أحب على المروءة ،
وأسمه بأهل الأدب ، ثم دعا الرّبع وقال أعطه درهما ؛ فقال : يا أُمير المؤمنين
حدوثٌ يشام من عند الملك فأمر لى بعشرين الف درهم ، وتأمر لى أت بدرهم
فقال : إنا لله ، ذكرت ما لم تحب أن تذكره ، وصعب رجلاً طالما أحد مال الله
من غير حله ، وأهله فى غير حقّه ، ياربّيع أشدّد يدك به حتى يردّ المال ،
فما زال الحادى يبكى ويسمع حتى كف عنه ^١

وهو كذلك لا تحب السُّراب ، ولا تُسرَّب على مائدة به شراب ، وإمّا
قدم تحتسّرع الطّبيب عليه أمر المصور بطعام يعدى به فلما وضع المائدة
بين يديه طلب شرباً فقبل له : لا تُسرَّب على مائدة أُمير المؤمنين فقال
لا آكل طعاماً ليس معه شراب ، فأحضر المصور بذلك فقال دعوه ^٢

ثم هو لا يسرف فى عطاءٍ لحادٍ ولا لتاعز ولا لمادح ، ويؤت أولاده
إذا أسرفوا فى العطاء ، ولا تتعالى فى ثوب ثلثه ، ولا مائدة بمداله ، إمّا هو
مقتصد فى كل صروب الحياه ، معصد حتى فيما أحل الله ، وربما علا فى
الافاضاد علوّ من بعده فى الاسراف — لقد رعوأ أن أمة المعرفة لما حلت
به رأب أمها وصعب أسداً سجدت له الأسداء والحنى ، أنه لولا أن له همه أسد
يعاف الصبائر ، ولا يسئل لهُ من تدبر ما لا يطاع أن يؤسس هذه المملكة

ويخلفها لمن أتى بعده مصروطة محكمة ، لا تختار منه إلا أن يحفظ ما ورث .
أسلم المصور البلاد ، وهي وحده لم يشد عنها إلا الأندلس ، وهي هادئة
مطمئنة لا تؤذن بفتن ذات نال ، والخرائن مملوءة بالمال والعرب من
سكان المملكة آحدون في الأيكاشن ، قد ضعف سلطانهم وبغودهم ، والموالي
بظار دودهم ليحصر بهم في حريره العرب بدواً كما كانوا في الحاملية ، ويحاولون
محل العادات العربة عادات فارسه ، وحل الساطة في العاش العري العقدة
في العيش الحصري وعلى الحملة فقد طرأ دور آخر محمد فيا الحليفة والناس
على أثره وقتاً للزراع والخدمة ، ومصدراً حصياً للزرف والنعيم
أحد الناس يسعرون بعد موت المصور بشي من الراحة ، وقد أجهدوا
أنفسهم في عهده بما بطله تأسيس دولة من مشقة ، وتدليل صعوبات حمة ،
وملوا الافراط في الحد والافساد اللدس انصف هما المصور ، وبطلوا
الحياة فيها سعة في المسال ، وطرف من النعيم ، فوجدوا ذلك في الحليفة
المهدي ، وفي الحق ؛ أن السنوات العشر التي حكمها كالب حسراً من حناة
الحد والحفاف والعمل في عصر المصور ، وحاة الزرف والنعيم في عصر
الرشيد ومن بعده

كان المهدي سعيّاً كريماً فتشقى الناس من سخط المصور لقد حلف
المصور أربعة عشر مليوناً من الدنانير وستمائة مليون درهماً فخرها المهدي
في الناس سوى ما حنى في أيامه ، وكثرة المال - في كل حل وفي كل عصر -
داعيه الزرف والنعيم ، واللاهو واللعب ، ومن ثم أحد الناس يمدرون فصله
الكرم بقديراً أعلى مما كانوا يمدرونه في عصر المصور ، وأحدوا يمدون
الجل دماً سبيعاً ، ومُصوّق على الحلاء فصصاً فيكملة لادعة ربما كان من
آثارها وضع الحافظ لكتاب « الحلاء » .

اجتمع في المهدي حب للفنون الجميلة ، وميل شديد إلى الكرم لجرى الناس على أثره ، وأنفقوا الأموال على الفنانين فرقى الفن ، وبدأ ينتشر بين طبقات الشعب ، أخذ المهدي يجلس للمغنين ، ويسمع غنائهم بعد أن كان أبوه المنصور يستلذ الحدا . فيحدثنا الأغاني . أن المهدي كان يسمع المغنين جميعاً ، ويحضرون مجلسه فيغنون له من وراء الستارة لا يرون له وجهاً ، إلا فليح بن أبي العوراء « فقد سأله في بيتين أن ينادمه فأحضره مجلسه بين أهله ومواليه ، فكان فليح أول من عاين وجهه في مجلسهم »^١ ويقول صاحب كتاب أخلاق الملوك « كان المهدي في أول أمره يحتجب عن الندماء متشبهاً بالمنصور نحواً من سنة ، ثم ظهر لهم فأشار عليه « أبو عون » بأن يحتجب عنهم فقال « المهدي » : إليك عني يا جاهل إنما اللذة في مشاهدة السرور ، وفي الدنو من سرّي ، فأما من وراء وراء فما خيرها ولذتها ؟^٢ ، وأثاب على ذلك الأموال الكثيرة ، على عكس أبيه ، فقد كان المنصور لا يثيب أحداً من ندماؤه وغيرهم درهما ، فيكون له رسماً في ديوان ، ولم يُقْلَعْ أحداً من كان يضاف إلى مأسمة أو ضحك أو هزل ، موضع قدم من الأرض أما المهدي فكان كثير العطايا ، يواترها ، فل من حضره إلا أغناه^٣ ، وحسبك بالمهدي أنه تخرج في قصره ولداده زينة الدنيا ، وبهجة عصرهما في الفارف والغناء .

ابراهيم بن المهدي وعليّة بنت المهدي .
وكان كذلك يحب القيان . ويحب الحديث عن النساء في غير دعارة ، ذكر الجاحظ : « أن المهدي كان يحب القيان وسباع النساء وكان معجباً بجارية » يقال لها « جوهر » كان اشتراها من مروان الشامي ولد فيها شعر^٤ .
وقد اتفق صاحب الأغاني والطبري على أنه لم يكن يشرب النبيذ ، ولسكنه

٣ المصادر ٣٤٠ ٣٤٠ ٣٥٠

٢ أ لاق الملوك من ٣٤

أغاني : ٤ : ٩٩

٤ البيان والدين : ٣ : ٢٠٨

في هذا أيضا خطا خطوة أخرى وراء أنى حمير، فقدر أيا المصور لا يشربه ولا يسمح لأحد أن يشربه على مائدته، أما المهدي فيذكر الطارى أنه ما كان يشربه ولكن لا تحرجا بل كان لا يشتهي، وكان أصحابه يسربون عنده بحيث يراهم، وكان وريره يعفون من داود يعطيه في ذلك، ويأمن عليه في جسمه عن السماع، واستقامته البدن، ويهدده بالجلد عن مصلته. والمهدي يحتاج أن عبد الله اس حمير كان نسمع^١

كذلك كان المهدي مثرفا في ملابسه ومأكله. نُحْمِلُ الله التلحج الى مكة وهو يحج وكان أول حليقة فعل ذلك.

والحق أن المهدي - على ما يظهر - كان معذلا في طوره وترفه. ولكن ما كاد يرُحَى للناس العيان في هذا السبل حتى استظنوه، وأفرط فيه المستهترون ولم يعرفوا عند حد، لم يحرثوا في عهد المصور أن استهتروا لأنه صرت لهم مثلامن نفسه الخلد والحرم، فلما رأوا المهدي بخطو خطوه حروا هم وقفروا. ونُئِى الناس في عهده بنشاريت فيهم عبرة له المكشوف - ونفته بهم شعره الداعر، ويملا البلاد بالحث على المعارلة، حتى صبح الأشراف الى المهدي من شعره مثل تريد من مصور حال المهدي، وطلبوا إليه أن يقف هذا السيار لمتا حافوا على نساتهم وساتهم، فمدحل المهدي حينئذ، ونهى بنشارا عن العزل فقول.

فد عشب من الرياح والراح والسمير في ظل نخاس حسن
وفد ملأت البلاد ما من فُعمُور الى القروان فالين^٢
شعرا تصلى له العواشي والشمس صلاة العواش للوأس

ثم هباني المهدي فانهضت نفسي صليح الموقق الآسن
 فالحمد لله لا شريك له ليس ناق شيء على الرمن
 ومع هذا ظل في حمت يبعزل من طريق حتى ويحتجى من المهدي
 فيقول يا ممطرأ حسأ رأيتك من وجه حارية قد يشته
 بعثت الي تسومني ثوب الشباق وقد طويته
 والله رب محمد ما إن عدت ولا أويته
 أمسك عسه ورتما عرص الملا وما أنته عنه
 إن الخليفة قد أنى وإذا أنى شئنا أنسته
 وهبني الملك الهما م عن النساء فما عصنته
 بل قد وقفت، ولم أصع عهدا، ولا وأنا وأيتته
 وأنا المظن على العدى وإذا علا الحمد أشترفته
 وأميل في أنس الديسم من الحساء وما أسهمته
 ويشوئي بك الحبيب إذا عدوت، وأن تفته
 حال الخليفة دونه فصررت عه وما فاقته
 ويقول

دقت الهوى حنا فلبس رائر شامى ولا صهراء ما فرقة القمري
 ترك المهدي الأنايم وصالحها وراعت عهدا بها اس بالحسري
 ولولا أمير المؤمنين محمد لهاب فاما أو إكان يا فطري
 لعمري لهذا أقرب نفسي خطيته فما أنا بالمرداد وفرا على وفري
 ثم نال المهدي حسن صوت ابراهيم الموصلى فمر به إليه، ويكون هو

أول من يعلى شأنه ، ثم يعلم أن الموصل يشرب ويسهر ويريد على ملارمته ، وترك الاستمرار ، فلا يستطيع الموصل ذلك فصربه ويحسبه -- يقول ابراهيم الموصلى إن المهدي دعاني يوما فعاينني على شرف في منار الناس ، والتدلل معهم فقلت يا أمير المؤمنين إنما تغلب هذه الصناعة للذي وعشرك لاخواني ، ولو أمكنني تركها لتركها وجميع ما أنا فيه لله عز وجل فعصب المهدي عضوا شديدا ، وقال لا تدخل على موسى وهرون أئمة فوالله لئن دخلت عليهما لأفعلن ولأفعلن فقلت : نعم ثم بلغه أني دخلت عليهما ، وشرنت معهما وكانا مستهترين باليد فصرتي ثلثائة سوط ثم قيدني وحسني^١ في الحفصة إن المهدي فتح للناس باب اللهو ، ورسم لهم حدايقهم عنده فتحتقروه ، وحاول أن يفهم عند الحد الذي رسمه بارتفاع العقوبة على من تجاوره فلم يستجح

* * *

انتقل الناس بقله أخرى من حجب السرف في الترف في عهد الرشيد ، ويرجع ذلك الى أسباب منها ما كان من النشوء الطبيعي للامه وكان من انصاف أمورها ما راد نروها ، ومكسها من أن تعيش عيشة باعثة فقد حكى ابن خلدون أن دخل المملكة في عهد الرشيد كان في كل سنة ٧٠١٥ قطارا^٢ والقطار في حسابه عشرة آلاف دينار ، ويكون مجموع ذلك سبعين مائتا ومائة وخمسين ألف دينار وهي مائة صالحة ، تدلها منها بولع فيها على عى الدولة وتمسكها من حياه النعم .

والسبب الثاني عظم سلطان الفرس في عصره وعلى رأسهم الرامكة ، والفرس من قديم يعرفون المال الى اللهو والسورور ، والافراط في حب

النبيذ، وقد كانت الديانة الزرادشتية تبيح شرب النبيذ بل تجعله من شعائرها، ولا يزال النبيذ كما يقول الأستاذ « براون » الى اليوم ظاهرة قوية في الحياة اليومية للفارس الزرادشتية - كان الفارس قديماً يفرطون في شرب النبيذ، وكانوا يفرطون في سماع الغناء، وكانوا يفرطون في فنون كثيرة من اللهو الطيب، واللهو الخبيث. فلما عاد سلطانهم في الدولة العباسية، وخاصة في عهد الرشيد والمأمون نشروا مع نفوذهم حياة الأكاسرة، وما كان فيها من حضارة ولهو وعيش - نقلوا جذم من نظم سياسية ونحوها، ونقلوا لهوهم من نبيذ ومجالس غناء وغزل، وما إلى ذلك.

وسبب ثالث : يرجع الى طبيعة « الرشيد » نفسه وتربيته، فيظهر لى أنه كان شاباً حاد العاطفة؛ ولكن ليس من هذا النوع الذى يستسلم كل الاستسلام لشهوته، بل هو مع ذلك قوى النفس، جندى بالغريرة والتربية، طالما قاد الجيوش وشرقى وغرب - هذه الحدة في العاطفة، وقوة النفس ونضارة الشباب أظهرته بمظاهر مختلفة، يُوعظ فيتأثر بالموعظة الى أن يجش بالبكاء، ويسمع الغناء فيطرب له كل الطرب، يسمع ابراهيم الموصلى يغنى، ويرصوماً يزمر، وزلزلاً يضرب بالدف، فيدعوه الطرب أن يتكلم بكلمة فيها شيء من عدم التورع الدينى، يقول: يا آدم لو رأيت من يحضرنى من ولدك اليوم لسركم بندم على قوله فيستغفر الله! - تمت عنده العاطفة الدينية، وامت بجانبها أيضاً عاطفة الفنون؛ فهو يصلى، ويكثر من الصلاة، وهو يسمع الغناء فيستجيده، والشعر فيطرب له، تتجه عواطفه الى جهات مختلفة فيصل فيها الى نهايتها، يسمع قول أبى العتاهية :

خازنة الطرف الطموح أيتها القلب الجموح
لدى رعى الخسير والشر ذنوب وزنوح

هل المطلوب يدب توتة منه يصوح؟
 كيف اصلاح قلوب امما هن فروح
 احسن الله ما اب الخطايا لا تفوح
 سيصير المرء يوما حسدا ما فيه روح
 بين عني كل حتى علم الموت يالوح
 كما في عملة وال سموت بعدو ويروح
 لبي الديسا من الدند يا عموق وصموح
 رحن في الوشي واصد محن عليهم المصوح
 كل تطاح - من الدهر - له يوم تطوح
 نح على نفسك يامس كين ان كنت روح
 لتوتن واب عمه رت ما عمر روح

فسيك ونسحب ١. ويرضى عن الترامكة، فعجب بهم كل الانحاب،
 وقر بهم كل القرب، ثم يعصب عليهم ويسهر الحساد عواطفه عليهم، فيسكل
 بهم كل السكل، ويعجبه الغناء فقرت اراهم الموصلى تفر منه للعباء والقصة،
 ولا يسأل عن مال ينفقه متى استطاع المعنى أو الشاعر أن يصل الى موضع
 غير منه انجابه، يعجبي حمله لصاحب الاعاني نصف ما الرشد، مثل حبر
 مل فوه عاطفه إذ يقول «كان الرسد من أعر الناس دموعا في وف
 الموعظه، وأشددم عسما في وف العصب والعطفه» ٢ من أجل ذلك لا يحب
 أن يراه مددا سديد الدين يصلي في الاوم مائه ركعه، وأن تراه حسا
 عصونا يسهك الدم لسيه لاسحق سمك دم، وطرونا يملك الطرب عليه
 بهمه ومشاعره، وهذه صفات من الجهل أن، صور احبها عبا في شخص واحد

تقرأ كتاب الأعاقى وجرح منه في كثير من الأحيان على صورة الرشيد
يحيى اليك معها أنه عاكف على اللهو والطرب، لا عمل له إلا أن يسمع
العباء، ويخالط الدماء، ويثيب الشعراء، وله العذر في ذلك، لأنه لم يؤلف كتابه
تاريخاً نصف فيه أعمال الخلفاء المختلفة، ويقولونهم بما أنبأ من حسام وسيناب؛
إنما ألّف كتابه في العباء، من الطبيعي أن يقصر قوله على هذا الصرب وما إليه؛
كما يقصر كتب طبقات النحاة واللغويين كلامها على العلماء من الناحية النحوية
واللغوية، وإذا كان هناك خطأ من ناحيته من فهم أن العباء وحده يمثل حياة
الرجل المختلفة البرعاب

وتقرأ ابن خلدون فيقصر بصورة على الناحية الخلدونية والدينية ويذهب
إلى أن الرشيد لم يكن يعاقب الخمر لأنه كان يصحب العلماء والأولياء، ويحافظ
على الصلوات والعبادات، وصلى الصبح في وقته، ويعزو علماً ويحج علماً،
وستدل أيضاً أنه كان من العلم والسداحة بمكان، لعرب عهده من الله، ولم
يكن منه ومن حده أنه جمع بعيداً من هـ وإنما كان الرشيد يشرب ندى
المر على مذهب أهل العراق وماويهم فيها معروفة، وأما الخمر الصرفة فلا
سبيل إلى اتهامها بها، ولا تقلد الأحبار الواهية فيها، فلم يكن الرجل يبحث
يُوافعُ محرّماً من أكر الكفار عند أهل الله، ولقد كان أولئك الهوم كاهنهم
مخافة من ارتكاب السرف والبرق في هلاسه من ورثته، وسائر هـ أولاً هم
لما كان أعمامه من هـ وبه الادوة وسداحة الدين التي لم يفارها هـ^١

ومن مع انبعاثه إلى الرأي مع ابن خلدون في أ، إلا أنه لم يترك الخمر،
إنما الله وف هـ أهـ سرب البدن، فإساقه مع على ما سـ جاصل من قوله
من أنه كان مخافة من السرف والترف وأنه كان عيشه سادحة، وأنه
لم يوافق محرّماً فهذا أيضاً أفراد في الهندس لا أدنا عاهه هـ الرشيد،

خصوصاً وأن أدلته في هذا النوع أدله خطائية ، ففرب عهده من المصور لا يستوح أن يعيش عيشته ، وقد صرح هو مراراً بأن الترف والنعيم في عصر الرشيد كان أكثر منه في عصر المصور ، ولو كان قرب العهد يكتفي في الاستدلال ؛ لما رأينا الأمن - وهو قرب العهد من الرشيد - يسر سريته والعجب أنه عقد فصلاً طويلاً يتعرض فيها لوصف الحصار والنعيم والترف في أيام الرشيد والأمن والمأمون وتقسيمهم في المطاعم والمشرب والمجلس ، وهو هو الذي وافق « المسعودي » و « الطبري » على ما حكياه في إعراس المأمون بـ « نوريان بنت الحسن » ، وأن المأمون أعطاها في مهرها لئله رفاها ألف حصاه من الباقوت ، وأوقد شموع العبر في كل واحدة مائة من الباقوت لها فرشاً كان الحصر منها منسوحاً بالذهب ، مكللاً بالثمن والباقوت الخ الخ ٢ هل هذا ليس سرفاً في الترف ؟ وهل قرب عهد المأمون من الرشيد كقرب عهد الرشيد من المصور جعلت الناس يعيشون عيشة السداحة كما يقول ؟ الحق أن ابن خلدون محط في وصفه عصر الرشيد بالسداحة ، وأنه وفوه كما كانوا من السرف والترف ، والحق أيضاً أن ابن خلدون صور حاشاً صحباً من حوالب الرشيد في صلاته وتقواه ، ولكن لم يكن هذا كل حوائه ، فله جانب هو الذي وصفه الأعاني ، وإن عذراً الأعاني لما ندأ فلسنا نعد ابن خلدون ، وهو مؤرخ عليه أن يذكر نواحي الرجل المحللة ! وكأن ابن خلدون فهم أن الذي يصلي مائة ركعة ، ويحاسب الفصل بن عباس لا يأتي منه أن يحاسب بحال هو (سمع) في العاء ، ويظهر فيها مظاهر الترف على أتم وحوها إن كان فهم ذلك كان خطأ ، والطبعة الانسانية لا تأباه وفي رأينا أن الرشيد كان يحد قمص في الحد ، ثم نامو مع في الابهو خصوصاً لحدة العاطفة مع المول المحتلله

قال أبو البختري وهب بن وهب القاضي : كنت عند الرشيد يوماً واستدعى ماء مردأً بالثلج ، فلم يوجد في الخزانة ثلج ، فاعتذر إليه بذلك ، وأحضر إليه ماءً غير مثلول فضررت وجه الغلام بالكوز ، واستشاط غضباً . فقلت له : أقول يا أمير المؤمنين وأنا آمن ؟ فقال : قل ، قلت : يا أمير المؤمنين هدر أيت ما كان من العير بالأمس - يعنى زوال دولة بنى أمية - والدنيا غير دائمة ولا موثوق بها ، والحزم ألا تعود نفسك الترفه والنعمة ، بل تأكل اللين والجشع ، وتليس الناعم والحشن . وتترت الحار والقار . ففجى بيده وقال : لا والله لا أذهب الى ما تذهب اليه ، بل ألدس النعمة ما لم يستنى فاداً نابتنى نوبة الدهر عدت الى نصائى عمر حواره^١

حاء الأمين فزاد في اللهو نغمة بل مبعات — ومهما قال محققو المؤرخين من أن كثيراً من الأخبار وضعت في عهد المأمون ليشويه سمعة الأمين ، والخط من شأنه ، وتبرير ما فعل به . فان ميله الى الافراط في اللهو والشراب والعلمان بما لا يسهل انكاره .

روى الطبري قال : لما ملك محمد (الأمين) ... طالب الحصان واتاعهم وعلى هم ، وصترهم لحاونه في ليله ونهاره ، وقوام ضعاها وشرابه ، وأمره . وبه . ورفض النساء الحرائر والاماء حتى رُمى بهم^٢ في ذلك يقول بعضهم :

لهم من عمره تنظر ، وسخر نهاره نبرت الجند يس
وما للعاساب لديه حسط سوى التقط بالوحى العوسا
اذا كان الرئيس كذا سمها فكيف صلاحاً بعد الرئيس ؟
فاو علم المقسم بدار طوس لمر على المقيم بدار طوس

١ رجح الشيخ لسان المذ ١ ١٢١ وفي الأثر عدت الى صائى عمر حواره

٢ في الأدب سن ٣ الطبرى ١٠ ٢١٥ و . الم . م . طوس أماء اشهد

وَرَوَى أَيْضاً: أَنَّهُمَا مُتَّكَ وَحَّهٖ إِلَى جَمِيعِ الْبُلْدَانِ فِي طَلَبِ الْمُتْلِفِينَ، وَصَمَّهٖ
إِلَيْهِ وَأَحْرَى لَهْمِ الْأَرَاقِ، وَنَافَسَ فِي ابْتِغَاءِ فُرْهِ الدُّوَابِ وَأَحَدَ الْوَحُوشِ
وَالسَّاعِ وَالطَّيْرِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ وَاحْتَجَّ عَنْ أَحْوْثِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَقَوَّادِهِ،
وَاسْتَخَفَّ بِهِمْ، وَفَسَمَ مَا فِي بَيْتِ الْأَمْوَالِ، وَمَا تَحْصِرُهُ مِنَ الْخَوْصِ فِي
حَصِيَّاتِهِ وَحِلْسَاتِهِ وَمُخَدَّثَتِهِ وَأَمَرَ بِدَاءِ مَخَالِسِ لَمَسَرَّاتِهِ، وَمَوَاصِعِ حُلُوتِهِ
وَلُحُوهِ وَلَعْبِهِ وَأَمَرَ بِعَمَلِ حَمْسِ حَرَافَاتٍ فِي دَحَلَةٍ عَلَى حَلْقَةِ الْأَسَدِ
وَالْفِيلِ وَالْعُقَابِ وَالْحَيْثِ وَالْفَرَسِ، وَأَنْفَقَ فِي عَمَلِهَا مَا لَا عَطِيَا وَفِيهَا قَالَ
أَبُو بَوَّاسٍ مَدَامُحَهُ ١ — وَيَصْغُرُ وَرَرُهُ الْفَصْلُ مِنَ الرَّبِيعِ يَقُولُ « يَوْمَ يَوْمِ
الطَّرِّ تَانِ ٢، لَا يَهْكُرُ فِي رِوَالِ بَعْمَةٍ، وَلَا يَرْوَى فِي أَمْضَاءِ رَأْيٍ وَلَا مَكِيدَةٍ
قَدْ أَلْهَاهُ كَأَسُهُ، وَشَعْلُهُ قَدْ حَنَّهُ، فَهُوَ يَجْرِي فِي طُورِهِ، وَالْأَيَّامُ بَصَرَ عِ فِي هَلَاكِهِ،
قَدْ شَمَّرَ عِنْدَ اللَّهِ (الْمَأْمُونُ) لَهُ عَن سَاقَةٍ، وَفَوْقَ لَهُ أَصْنَبَ أُسْمِهِ، رَمِيَهُ
عَلَى بَعْدِ الدَّارِ بِالْحَنْفِ الْبَاقِدِ وَالْمَوْتِ الْقَاصِدِ، قَدْ عَنَى لَهُ الْمُنَايَا عَلَى مَتْنِ
الْحَيْلِ، وَنَاطَ لَهُ الْإِلَاحُ فِي أَسَةِ الرَّمَاحِ، وَشَقَّارِ السِّيُوفِ » ٣.

حَاءُ الْمَأْمُونِ بَعْدَ الْأَمِينِ وَلَكِنْ لَمْ تَكُنْ شَهَوَاتِ الْمَأْمُونِ وَمَلَاحِيهِ
كَشَهَوَاتِ الْأَمِينِ وَمَلَاحِيهِ. لَوْ الْأَمِينُ لَوْ شَابَ عَرَّ رَأَى سُلْطَانًا وَمَالًا،
وَلَيْسَ لَهُ عَقْلٌ نَاصِحٌ فَانْهَقَ كُلَّ وَفَى فِي أَرْوَاءِ شَهَوَاتِهِ وَأَمَّا الْمَأْمُونُ فَحَلَّ
حَتَمَ كَيْفَ الْحَارِبِ، وَعَلِمَهُ - مَا فَاسَى مِنَ الْأَهْوَالِ فِي الْحُرُوبِ وَمَا تَحْتَاحَهُ
الْمَمْلَكَةِ مِنْ حَلْقِ حَدِيدٍ - الْحَرَمَ وَالْبَصَرَ بِالْأُمُورِ، ثُمَّ كَانَ لَهُ مَلَادٌ عَقْلِيَّةٌ تَشْعَلُ
وَفَتْهُ، فَهُوَ يَحِبُّ الْكِتَابَ وَيَحِبُّ الْفَلَسَفَةَ وَيَحِبُّ الْحَدَثَ فِي الْمَسَائِلِ الدِّيْنِيَّةِ
وَالْفَقْهِيَّةِ، وَحَوْلَهُ الْعُلَمَاءُ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ سَاحَتْهُمْ وَيَحَادِّثُهُمْ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَلْمُو
طُوعًا قَهْمًا فَيَسْرِبُ الْبُغْدَ وَيَقِيمُ بَعْدَ فِدْوَمِهِ بَعْدَادَ عَشْرِينَ شَهْرًا لَا يَسْمَعُ

١ طبري ١ ٢١٥ ٢ الطبراني دونه كلفه ٤٠ ٣ طبري ١ ١٥٧

٤ طبري ١ ٢٥٦ وطامور ١ ٣٢

ثم يسمع^١ وكان يزين مجلسه^٢ ويغنيه اسحق الموصلي ، كما كان أبوه ابراهيم الموصلي يزين مجلس أبيه الرشيد ، قربه المأمون وأعلى شأنه ، وكذلك قرب اليه عمه ابراهيم بن المهدي وكان مبدعا في غناؤه .

وكان الناس قد تجمروا غصص البؤس أيام الفتن بين الأمين والمأمون ، وخرت بغداد ، وعم البؤس والشقاء فما عادت السكينة حتى شعروا أنهم في حاجة أن يعوضوا ما فقدوا ، فلموا وأفرطوا .

هذه ناحية من نواحي القصور شرخناها لما كان لها من أثر كبير في الفن والأدب . ولها نواح أخرى مختلفة . فناحية سياسية ليست تهمنا في موضوعنا ، وناحية علمية من تشجيع العلم ، وانفاق المال في سبيله ، وعقد مجالس للجدل والمناظرات ، وبذل الجهد في تحصيل الكتب ، وإنشاء دورها والعمل على ترجمتها ، وكان من أعظم الخلفاء أثرا في ذلك المنصور والرشيد والمأمون ، وهذه الناحية سنوضحها عند الكلام في الحركة العلمية .

١١٨

واذ كثر القول في الشراب ، وروينا ما قال ابن خلدون من أن بعض الخلفاء كانوا يشربون النبيذ لا الخمر ، وشاع أن فقهاء العراق يرون حلا للنبيذ ، وكان لهذا القول أثر في الأدب ؛ كان لا بد لنا من كامة في الشراب .

كثر الشراب عند العرب . وتعددت أنواعه . وقد كانوا يأخذون من جاورهم من الأمم الأخرى أنواعا من الشراب ، وألوانا من عاداته فقد أخذ أهل الشام عن الروم نوعا من الخمر ممزوجة بالعسل ، ونقلوا اسمه الرومي وهو الرَسَّاطُون Rosafoun ، ولم يكن يعرفه عرب الحجاز^٢ كما أخذ بعض الأمويين عن الفرس شرابا اسمه « الهفتنج » كانوا يشربونه سبعة أسابيع

١ انظر لسان العرب في مادة رَسَّطَ .

أغاني ١٠٦ : ٥

في بعض مبارل القمر فشره الوليد بن يزيد كذلك^١
وهكذا كان للأمم أشرية وعادات في الشراب أخذت تنسب إلى المسلمين،
هلبا حاء العباسيون تفسوا في أنواعه، وفي محالسه والمبادمة عليه .
وفى الاسلام يحارب الخمر، ويحرم السكر، ورب الـآية « إِنَّمَا الْخَمْرُ
وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَرْزَاقُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْغَدَاةَ وَالْعَصَاءَ
فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُمْ
مُعْتَبِرُونَ »

ومع هذا يرى أن أسئلة أثرب حول هذه الآية السكر منه ما المراد بالخمر
أهى عصير اللعب وحده، أم كل مسكر حمر؟ وما هو القدر المحرم؟ أكل شيء مما
يسكر كثيره فقلله حرام، أم بعض الأنواع يحل فقلله؟ وطهر في عالم الفقه
مسألة البند هل يحل أو لا يحل، وما القدر الذى يحل؟ وطهر هذا الخلاف
من عهد الصحابة فمن بعدهم، ورأيا عمر بن عبد العزيز في العهد الأموى يشعر بخاطر
هذا الخلاف في البند وصرره، فصدر كتابا إلى الأمصار يحرم فيه البند^٢ إلى
أن كان عصر الأئمة فكان منهم الخلاف السابق، فذهب الأئمة الثلاثة مالك
والشافعى وأحمد بن حنبل إلى سد الباب سائنا، ففسروا الخمر في الآية السابقة بما
يشمل جميع الأنسنة المسكرة من نبيذ الخمر والربب والشعير والذرة والعسل
وعبرها وقالوا: كلها تسمى خمرأ، وكأها محرمة. أما الإمام أبو حنيفة ففسر
الخمر في الآية بعصير العنب مسندا إلى المعنى اللغوى لكلمة الخمر وأحاديث
أخرى، وأداه احتجاده إلى تحليل بعض أنواع من الأنسنة كنبذ الخمر والربب
إن طُح أو طُح وشرب منه قدر لا يسكر، وكسوع تسمى الخلطين، وهو
أن تأخذ قدراً من تمر ومثله من ربيب فصعها في إناء ثم يصب عليها الماء

ويتركها رما وكذلك بيد العسل والبن، والبر والعسل^١ ويظهر أن الامام
أنا حية في هذا كان يتبع الصحابي الخليل عبد الله بن مسعود؛ فقد علمت من
قبل^٢ أن ابن مسعود كان امام مدرسة العراق، وعلمت مقدار الارتباط بين
فقهه أي حية وابن مسعود، ودللتنا على ذلك ما رواه صاحب العقد عن ابن
مسعود من أنه كان يرى حل النيد حتى كثرت الروايات عنه، وشهرت
وأديعت واتبعه عامة التابعين من الكوفيين، وجعلوه أعظم حججهم وقال
في ذلك شاعرهم

مَنْ دَا جُرْمُ مَا الْمُرْنُ حَالَهُ فِي حَوْفِ حَابَةِ مَا الْعَاقِدِ
أَنِ الْأَكْرَهُ تَشْدِيدَ الرَوَاةِ لَهَا فِيهِ، وَيُجَنِّى قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ^٣

على كل حال كان هناك حدال شديد بين الفقهاء في النيد كالذي كان بينهم في
الغناء، فأن أن ليلى يحرم النيد ويحادل فيه أنا حية، وأبو حية يرد عليه،
وعبد الله بن إدريس كان الوحيد بين فقهاء الكوفة يحرم النيد ويرد عليهم
ويردون عليه الخ، ولما كان كثير من فقهاء العراق يرون حل النيد اشتهر
العراقيون بحل النيد فقال شاعرهم

رَأَيْتُ فِي السَّمَاءِ رَأْيَ حَجَارِيٍّ وَفِي السَّرَابِ رَأْيَ أَهْلِ الْعِرَاقِ^٤
وانتقل هذا الحدال إلى الأدباء والشعراء، وأخذوا يتلاعبون بهذه الآراء،
فقال بعضهم: «أباح أهل الحرمة الغناء وحرّموا النيد، وأباح أهل العراق

١ رجعا في هذه الأحكام إلى روح الووى على مسلم ٤ ٣-٢٢ وادعى ٤٥ وما بعدها
٢ من الاسم من ٢٢ ٣ الفقا ١٥٣ ٤ اد اعما وكا اسالاره لان ده
وقد سر في محلا المنس وبعل صاحب العقد ٤٥

٥ ومع أن كرا من فقاء العراق كما يرون حل النيد كما ورد من سرته وفي
ذلك يقول من «لان أبول في ١١ مرارا كما « حاله من أن أبول « مره واحده
هو حرام - ولأن آخر من العلماء عظمى المباحه في من أن أ ب « « العث

النبيذ وحرّموا العباء فأوجدونا في الرحصة فيهما عند اختلافهما الى أن يقع الاتفاق^١، وقال ابن الرومي،

أَتَاخَ الْعِرَاقِيُّ النَّبِيذَ وَشَرِبْتَهُ وَقَالَ حَرَامَانِ الْمُدَامَةُ، وَالشُّكْرُ

وَقَالَ الْحِجَارِيُّ الشَّرَابَ وَاحِدٌ فَحَلَّ لَنَا مِنْ نَسْ قَوْلَيْهِمَا الْجَمْرُ

سَاحِدٌ مِنْ قَوْلَيْهِمَا طَرَفَهُمَا وَأَشْرَبْنَاهَا لِأَفَارَى الْوَارِثِ الْوَرْدُ^٢

وعلى الحملة فإن كثيرا اتحدوا هذه الآراء شكاً في يصلون بها الى أعراضهم،

ولم تكن هي الباعث على شربهم، فإهم لم يبقوا عند النوع الذي حلّوه،

ولا التقدير الذي أناخوه فليس من فقيهه أناخ أي نوع من النبيذ الى حد

الاسكار؛ ولكنها حلافة الأداء، وتطرف الشعراء

أما أبو نواس وشيعته؛ فلم يركبوا الى هذا الصرب من الخيل بل جاهدوا

بها مع الاقرار بتحريمها، وقال رعيهم (أبو نواس)

فَانْ قَالُوا حَرَامٌ قُلْ حَرَامٌ وَلَكِنَّ اللَّذَّاتَ فِي الْحَرَامِ

وقال: أَلَا فَاسْقَى حَرّاً، وقيل هي الخمر ولا تسقى سراً اذا أمكن الجهر

» »

فلقد الأعياء والخاصة قصور الحلفاء، وعاشوا عيشة ندح ونرف، بل

رادوا في لهوهم، لما تقتضيه طسعة محال الحلفاء من حشمة ووقار لا يلزمهما

غيرهم من الأعياء

فقد كثر أولاد الحلفاء وأقاربهم، وأخصى ولد العباس من رجال وساء

وصغار وكبار، فكان عددهم أيام المأمون ثلاثة وبلائون ألباً^٣ وكانوا بمتارين

في رفعتهم وحماهم، كان يقال انتهى حمال ولد الخلافة الى أولاد الرشيد

ومن أولاد الرشيد الى محمد وأبي عيسى، وكان أبو عيسى اذا عزم على

الركوب جلس الناس له حتى يروه أكثر مما يجلسون الخلفاء^١، وقد أولع كثير من أفراد هذا البيت بالغناء والفنون الجميلة؛ فعليسة بنت المهدي كانت من أحسن الناس وأظرفهم، تقول الشعر الجيد، وتصوغ فيه الألحان الحسنة^٢، وأخوها إبراهيم بن المهدي «كان من أعلم الناس بالنغم والوتر والايقاعات وأطيبهم في الغناء، وأحسنهم صوتاً»^٣ ثم أبو عيسى بن هارون الرشيد المشهور - كما أسلفنا - بجماله «كان من أحسن الناس وجهاً وبجالة عشرة، وأجملهم وأحدثهم نادرة وأشدهم عبثاً»^٤ وسبب موته: أنه كان يحب صيد الخنازير فوقع عن دابته فلم يسلم دماغه^٥.

وتبعهم في ذلك أولاد الخاصة، فقد كان حفيد الفضل بن الربيع - وزير الرشيد - وهو عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع مغتنياً ماهراً، وما جنت مستهتراً يصطبغ في حدائق الزرجس، ويعيش عبثاً لهو وخلاعة. وأمثالهم كثيرون يطول ذكرهم وسرت العدو من أولاد الأغنياء إلى الطبقة الوسطى فكانوا يحتذون حذوهم، ويسيروا على منهاجهم.

تفتنوا في فن العمارة، وأجادوا تشييد القصور، ووصفها ابن الجهم فقال:
صَحْنُونُ تَسَافَرُ فِيهَا الْعَيْنُ وَتَحْشُرُ عَنْ بُعْدٍ أَفْطَارُهَا
وَقَبْلَهُ مُلْكُ كَانَ النُّجُومُ مَ تَصْنَعِي الْيَسَا بِأَسْرَارِهَا
وَقَوَّارَةً تَنَارُهَا فِي السَّمَاءِ فَلَبِستَ تَقْصُرُ عَنْ تَأْرِهَا
إِذَا أَوْقَدْتَ نَارُهَا بِالْعِرَاقِ أَضَاءَ الْحِجَازِ سَتَا نَارِهَا
تَرُدُّ عَلَى الْمِزْنِ مَا أَنْزَلْتَ عَلَى الْأَرْضِ مَسْوَوبٍ أَفْطَارُهَا
لَهَا شُرَفَاتُ كَأَنَّ الرِّبْعَ كَسَاهَا الرِّيَاضُ بِأَنْوَارِهَا

ويصف أحدُهم شيئاً من قصر الواثق فيقول: لم يزل الخدم يُسلمونني

١ أعاني ٩٦: ٩ ٢ أعاني ٨٣: ٩ ٣ أعاني ٩: ٣٥ ٤ أعاني ٩٦: ٩
٥ أعاني ٩: ٩٧ ٦ اطر رجه في الأعاني ١٧: ١٢٧

من حدم إلى حدم، حتى أفضيت إلى دار ممر وشه الصحن، ملئسة الخيطان
بالوشى المنسوح بالذهب، ثم أفضت إلى رواق أرضه وحيطانه ملئسة مثل
ذلك، وإذا الواثق في صدره، على سرير مرصع بالجوهر، وعليه ثياب
منسوجة بالذهب، وإلى جانبه «فرجة» حاربه، عليها مثل ثيابه، وفي حجرها
عود الخ،^١

وبالغوا في الموائد وتنسبها وألوان طمومها، فوصف العثماني الشاعر
ما أكل على مائدة محمد بن سليمان بن علي فقال

حاوروا بغيري لهم ملئون نأت يسقى حاصر السئون^٢
مضومع أكرم دى عصرون قد حسنت بالشكر المطعون
ولتوتوا ما نشتت من تلوس من بارد الطعام والسجين
ومن سرايسيف ومن طردين ومن هلاليم ومصبص حو^٣
ومن أورو فائق سمين ومن دحاح فت بالعين
فالشحم في الطهور والظنون وأنشعوا ذلك بالخوزين
والحنص الرطب واللوزين وفككموا بعين وتن
والرطب الاراد والمهررون^٤

ويقول أبو الغتاهه دُعِبَ إلى بيت بخاري (أحد المعين) خُفْمُه، فأدخلى
ناتاً بطما فيه فرش خفيف، ثم دعا بمائدة عليها خير سميد، وحل وقل وملح،
وحدى مشوى فأكلنا منه ثم دعا لسمك مشوى فأصننا منه حتى اكتملنا،
ثم دعا بخلاوا فأصننا منها وعسلنا أيدينا وحاورنا بها كهة وربحنا، وألوان

١ أعاني ٣ ١٨٤ ٢ الفرق خبر حواره مضمومة إلى وسطه سوى ثم روى سما
ولسا وسكر ٣ السرايسف أطراف الأصابع المبرمة على الخن، والظردن نوع
أشبهه الأكر، والمهلام طعام من لحم عجل غداه مرق السكاج المبرد المصق والمهوس لم
مع في الخل مد صحنه، والمون المائل إلى السواد ٤ الاراد والمهرون وعان من المبر

من الأبندة فقال اختر ما يصلح لك منها ، فاحترت وشربت ،^١ وكان ذلك قبل أن يرهّد

وقل ما تشئت في محاليس اللهو والشراب ، وما كان يحرق فيها من حلاعة
ويحون امياك بوصفها كتاب الأعاني ، ودواوس الشعراء مثل نشار ، وأنى
بواس ومسلم بن الوليد^٢
أولعوا بالعناء وتمسوا فيه ، وأندعوا في محالسه من ملح وتسادُر
وشراب ، وغير ذلك ، ودهسوا فيه مدّعين حديد وفديم وتعصب كل فريق
لمذهب^٣

ولعوا بالبرد والشطّرح وعلّوا فيهما^٤ ، وعدّوا تربه الحمام ، وتعالوا في
أثمناه^٥ وتهارشوا بالديوك والكلاب^٦ - ولعب أبوواس بالكلاب زماناً
حتى عرّف منها ما لا تعرفه الأعراب^٧ . وابتشر القهار حتى في حانات
العقراء^٨ وأولعوا باللقش والتصوير فكثّر رسم الصور على الكأس كما في
شعر نشار وأنى بواس ، ورثى أبوالتثليل مسرحة له مصورة بصوراً تدبّعاً
كسرها ككش له^٩ . وأعرنوا في الهدايا يوم البرور يدعون فيها قشاً
وبصوراً ، ورفصوا فكان اسحق بن ابراهيم الموصلي يحيد الرقص ، واشتهر في
عصره بالرقص حماه^{١٠} وأحوا النساء وأكثروا الخروح إليها والأرهار
ربون بها مواعدهم وسعزلون في لونها وعيقها^{١١} الى كثير من أمثال
ذلك

١ أعاني ٣ ١٨ ٢ بطر وصف اسحق بن ابراهيم - أعاني ١٧ ٢٤ وبس
٣ رامس ١ ١٣٦ وما مدعاوه ١١٢ - أعاني ٣ ٧ ٢٥
٤ الممدودي ٢ ٤٥٦ ٥ - أعاني ٣ ٩١ ٦ أعاني ١ ٧ - ون ٢ ١
٨ حواء ٥ ١١٥ ٩ أعاني ١٣ ٢٧ واطرر الآداب ٣ ٣٠
١٠ أعاني ٥ في ترجمه اسحق ١١ أعاني ١٢ ١٣

كثير النعيم . وكثير العصر الفارسي العريق في المدينة ، الممّعة في الترف ، وكثير الجوارى يتخلّس من الأصقاع المختلفة ، وكثير الجمال وسقر ، اذ لم تكن عاملة الاماء يطأ لئس بحجاب ؛ فقويب البرعة الى اللهو والحلاعة والخبون التي وصفنا ، وشعر قوم من الشعراء بهذه البرعة من الناس أمثال بشار وصرّيع العوانى وأنى نواس ؛ فقدادوا رماهم وأطموها ، وسهلوا السبيل لها إن سكر القوم وشعروا بالحاجة الى أبيات من الشعر تُروى عاطفتهم ، وترين لهم عملهم ، وتحملهم على المصى في شرهم ؛ رأوا في شعر هؤلاء إرواء لعلتهم ، وإن تشكّروا في فتاة أو غير فتاة ، فشعر الشعراء كهيّل أن يحدوا فيه بعبثهم في صرخ من القول غير كفاية ، ونشار يخصّص يومين في الأسبوع للبتطراف من النساء يأخذن عنه شعره المالح ، ويشترنه في الناس ! فلا عجب إن رأينا الحياة لاهمة لاعة ، ورأينا شعر الشعراء في ذلك العصر الا القليل منهم داعراً فأحرأ

وهنا ظاهرة واضحة ، وهو أن هذا العراق الذي كان في العصر الأموي حادثاً إذا قيس بغيره من السام والحجاز أصبح الآن في العصر العباسي لاهياً ، بل هو مخط أظار اللاهين ، وسائر الأمصار اما تقتبس من طوه ! والسبب في ذلك أمور أهمها - على ما يظهر - سثنان

(الأول) المال فالعراق كان مصب أموال المملوكه الاسلاميه العبة - بحكم أنه مركز الخلافة - والمال كل شيء في اللهوية حبه كان فالرفق والشراف والعناء وما الى ذلك اما تكون حبه يكون الرف ، واما تكون الرف حسب كون المال ، والعراق أكبر اللدان مالا ، وأعزها حاهماً وكل مانع في من - ومنه الأدب - اما تهق سوفه في العراق ، ومن يح في غيره ولم يرحل اليه تحيل ذكره ، وصاع فيه فأى مع مسهور لم يكر ، في العراق ؟

وأى ناعمة في الشعر لم يكن في العراق؟ وأية حارية امتارت بحمال أو عاء
لم تكن في العراق؟

والسبب (الثاني) أن العراق كان أكبر بلاد الله حليطا، فقديمًا تعاقبت عليه
أمم محله، ومدينيات متتابعة، وفي العصر العباسي كان حاضرة الخلافة، وكان
مَقْصِدَ الأمم، وكان مسكن العصر الأستقراطي من الفرس، وكان محطَ
الرحال من الهند والروم وغيرهم، وكان يحلب الله أحاسن الرفق من كل
حسن، ولهؤلاء جميعا تاريخ في اللهو، وإيمان في الحصاره، وتفنن في الترف
فلما حازوا بالعراق، ووجدوا السبل بمهده، عَرَصَتْ كُلُّ أمة قديمها، وأنواع
حصارها، وكان من ذلك معرض عام لأحد العراقي من كل شيء مده محط وافر،
وأحدث اللدان الأخرى من العراق مَدَسَّ

ولكن من الخي أن يقول إن هذا الوجه الذي وصفه ابن خلدون
بالناس جميعهم، فما كانوا كأنهم أعياء ولا كأنهم هاريس وما كان ذلك لأمة
من الأمم في أي عصر من العصور، وما كان العالم الإسلامي كله هو العراق
وملاهيته، ولا كان العراق كله يحا هذه الحياه — فإن أمة فرأت كرات
الأعالي، ودملت في صحفه من صرب من اللهو الى صرب، أو فرأت ديوان
أبي واس فرأ — أكبره حمراً ومحو أ، فلا تطن أن ذلك ل حال العصر
بأجمعها إنما هو مثل احده واحد من بواحيها المده ووجوها المتخامه،
وعند الأعالي أنه ألف في طيات المده، والمعون في كل عصر مده طان الاو
ورده المحزون

على أن أريد أن نُدسه على امر فطن لاس خلدون وعو وضع الأنداز
الكاد في الملايمرا الى الكراء فكانوا الجوب في أحوار الملاهي
لجروهم عليها، ولكن سواهم من وراء ذلك مالا أو حاهما أو حوها

لم تكن أموال الدولة موزعة توزيعاً متقارباً، ولا كانت المروءة من الطبقات فروفاً طميعة، أما كان هناك هوات سحيفة بين الطبقات، وكثير من مال الدولة ينفق على قصور الخلافة والأمراء ورؤساء الأحماد، وعمال الدولة وهم ينفقون منه خيراً على المقر من أدباء وعلماء ومعتس وخوارج وأتباع، وطبقه تحار ومن اليهم. وهؤلاء في درجة من الثروة دون الأولى. وعامة الشعب يشعرون بهم الفقر والؤس كانت تعداد تعجب أرباب الأموال لما يجدون فيها من عيش رعت وهامة

وبعير

أعابت في طول من الأرض والعرض
كعداد داراً أنها حمة الأرض ؟
صفا العيش في تعداد واحصر عوده
وعيش سواها غير صاف ولا عص
نطولها الأعمار اب عليها
مري: وبعض الأرض أمرأ من بعض

فأما الفقراء ودوو الحاجة فصاف عليهم تعداد بما رحب، ولم يستطيعوا العيش فيها ولا المقام بها

بعداد دار طمها آحد تسميتها مي أنتماني
تصلح للبوسر لا لامريء لب في فقير وإفلاس
لو حلتها قارون رب العري أصبح ذا هم ووسواس
هي الى نودد لكتبتها عاجلة للطابع الكامي

وأرى المكاسَ برزة وأرى الصُّرورة فاشة
وأرى عُمومَ الدهرِ را نجةً تَمُرُّ وعاديه
وأرى البتامة والأرا ملّ في السيوبِ الحاليه
من تيّنٍ راحٍ لم يزل يسمو اليك وراحه
يشكون مخبدةً بأصواتٍ صغافٍ عاليه
برحونٍ رفةً كي يروا بما لقوه العافيه
من يُرتجى للناس عيرك العيون الباكيه
من مُضَيَّاتٍ حُوعٍ تسمى ونصبح طاوليه
من يُرتجى لدفاعٍ كرتٍ مثله هي ماهيه
من للمطلون الخائعا تـ وللحسوم العاريه
باسـ الحلائف لا فهد تـ ولا عديمـ العافيه
اب الاصول الطيبا تـ لها فروعٌ راكيه
ألفبُ أحماراً السك من الرعيه شافيه ١

* * *

كان المال عرصة أن يأتي في طرفه عين، ويذهب في طرفه عين، ذلك
لأن عطاء الحلفاء والأمراء والولاء إذ ذاك كان لا ينفع عند جد، ومصادرهم
للأموال لا ينفع كذلك عند جد، وقد يعجب أحدكم نعمة المعنى، أو نبت
الشعر أو الكلمة الطيبة، أو الخواص الحسن قسبُ الألوفاً وقد نكره ذلك
فهدير الدم، ويصادر المال !
وصف العتاني هذه الحالة في عصره فقد سئل لم لا تهرب أذنك

الى السلطان ؟ فقال : لا تني رأيت يعطى عشرة آلاف في غير شيء ، ويرى
من السور في غير شيء . ولا أدري أى الرحلين أكون ا ، والمفصل الصتي
يدعوه رسول المهدي ، فيحاف ويتوهم السعاية به . ثم يتظهر ويلبس ثوبين
استعداداً للبوت فاداً مثل بين يديه سلم فرد عليه ، فلما سكن حاشته سأله
عن أى بيت فالتة العرب أخر ؟ ثم سأله مسائل أخرى ، فلما أحسن الجواب
سأله عن حاله فشكا اليه ذنبه فامر له بثلاثين ألف درهم ٢ وحكى الملاحظ
في كتابه الجوان أن أنا أوب المؤري ياتي وزير المصور بنا هو خالس في
أمره ومبه إذ أتاه رسول أنى جمع فامقع لوبه ، وطارت عصافير رأسه ،
وذعر دُعرا بهض حذونه . واستطار فؤاده ، ثم عاد طلق الوحه ، فتمعجسام
حاله ا ولما له انك لطيف الخاصة ، قرب المنزله ، فلم ذهب بك الدعر
واستقر عك الوحل ؟ فقال سأصرب لكم مثلاً من أمثال الناس ، رعموا أن
البارى قال للديك ما في الأرض شيء أذل وفاء منك ا قال كيف ؟ قال :
أحدك أهلك نبضه فخصوك ، ثم حرج على أيديهم ، فأطعموك على أكمهم ،
حتى اذا كبر صرب لا يديو منك أحد إلا طرت هاها وهاها ا وصحج
وصحيت ، وأحدث أنا من الخيال فعلتوني ، والقوى ، ثم تحكى عى فأحد
صندي في الهواء فأخيه به الى صاحبي ا فقال له الديك انك لو رأيت من
البراه في سعادهم مثل ما رأيت من الديوك ، لكنت أبره مى ولكمكم
أتم لو علم ما أعلم لم تمعجوا من حوى مع ما ترون من تمك حالى ٣
ولما قتل المأمون الفصل من سهل عرصب الوراثة على احمد بن أبى خالد
فأنى وقال لم أر أحدا برص للوراره وسلب حاله ؛
« وكنا يرمون الأخبار الى المأمون ولولم يصح العبدول ، وبعول

١ الم طرف ١ ١١٢ ٢ الفصه المذكوره طوفا في الأساقى ١٤ ١١٦ وما بعدها
٣ الجوان ١٣٢٢ ٤ طعور ٢١٥

صاحب الخبر ، لو لم رفع إلا ما شئت بالعدول لم يتهياً ذلك في السنة الا مرة أو مرتين ، ١.

وذئى محمد بن الحرث بن نُسَجْرٍ الى الواثق في يوم لم يكن يُدْعَى فيه فقال داخلي فرع شديد وحجب أن يكون ساع قد سعى في ، أو بليه قد حدث في رأى الحليفة على ، ومقدم بما أردت « الخ وكانت النتيجة أن عثاه فأمر له بعسرة آلاف درهم وتحوت ٢

ووسئى رجل يقال له « الفصل بن عمران » الى أبي جعفر المنصور ، وكان المنصور جعله كاتب اسمه جعفر وولى أمره ؛ وشئى به أنه يعث جعفر ، فبعث المنصور برحله وأمرهما أن يقتلا الفصل حيث وحده ، وكسب الى جعفر يعليه ما أمرهما به وقال لا تدفعا الكتاب الى جعفر حتى تفرعا من قبله ، فصرنا عثقه ! وكان الفصل رجلاً عصفاداً ! فصل المنصور : إن الفصل كان أراً الناس بما رمى به ، وقد عثب عليه فوحته رسولا وجعل له عشرة آلاف درهم إن أدركه قبل أن يقتل ! فقدم الرسول قبل أن يحب دمه ، وقد استذكر ذلك جعفر وقال لمولاد سويد « ما يقول أمير المؤمنين في رجل رحل عفيف دين مسلم فلا حرم ولا حايه ؟ فقال سويد . « هو أمير المؤمنين يفعل ما يشاء وهو أعلم بما يصنع » الخ ٣.

• • •

أنتحت هذه الحاية الى وصفها من رفاهية قوم وبؤس آخرين ، وطوقهم وحدث آخرين ، حركتين طاهرتين في تاريخ هذا العصر (أولاهما) ظهور فرقة المظوغة للسكر على الفساق ببغداد ، يقول الطبري في سبب ظهورهم إن فساق الحرسة ، والشطار الذين كانوا ببغداد والسكرح

١ ظهور ٦٨ ٢ أعان ٣ ١٨٤ ٣ إنرا الحكاه بطولها في الطبرى ٩ ٣١٧
٤ الحره بمغلا في الحيات العربى من مدنه ببغداد سبب الى حرب بن عداثة صاحب حرس المنصور

آدوا الناس أدى شديداً وأطهروا العسق، وقطع الطريق، وأخذ العلبان
والنساء من الطرق لا سلطان يجمعهم، ولا تُقدَّر على ذلك منهم، لأن
السلطان كان معتز بهم وكأوا بطانته فلا يقدر أن يجمعهم من فسق يركونه؛
فلبا رأى الناس ذلك، وما قد أطهروا من الفساد في الأرض والظلم والبعي
وقطع الطريق، وأن السلطان لا يعبر عليهم فام صلحاء كل ركن، وكل درب
فشي بعضهم إلى بعض، الخ

وكان لهذه الحركة رعيان، لكل رعيم رباح، فأما أحدهما وهو خالد
الديوشهر رباحه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولكنه لا يشور على
السلطان، فهو يطلب الإصلاح، ويؤلاه في حدود الطاعة للحكومة،
والزعيم الآخر سهل من سلامة الأنصاري، رباحه الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر كذلك، والعمل بكتابات الله وسنة. ومما لفته من حاله، كأنه من
كان، سلطاناً أو غيره ويقول الطبري إنه سعهما خلق كثير وكان كل من
أحب سلهما عمل على باب داره رباحاً حصراً وآخر ونصبه عليه السلاح
والمصاحف - وكان ذلك سنة ٢٠١ هـ سنة ٢٠٢ هـ وقد انتهى أمرهما بالقص
عليهما وحسبهما^١

وظاهر أن الذي دعا إلى هذه الحركة كما يقول ابن خلدون «نواهل أهل
الدين والصالح على مع العساق وكف عادتهم» وقد استمرت هذه الحركة
تسودحاً وتحمداً، مما جاء بهم فرقة الحنابلة بدعو كذلك للأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر بما طول ذكره

(ثابتهما) حركة الرهد - ذلك أنهما نسوا من العبي، ورأوا أن
يوسعهم لا يطاعهم للفرب من دوى الله، أو حاولوا ذلك فهاجوا إلى
الصناعة يروصون أنفسهم عليها، وقالوا إذا لم يكن ما يريد فأردم يكون

١ انظر السكام عليهم في الطريق حره ١ من ٢٤١ و ٢٤٨ ومعه من الحلاوت ص ١٣٤

وقوماً عافيت بهوسهم ما رأب من شهوات لاحد لها، ورأوا أن البس
إذا ناب ما طمحت تفجأ أمامها شهوات وشهوات وللوصول الى كل
شهوة مناعب وعقبات، ففصلوا أن قمعوها، وقالوا مع العائل
وما البس إلا حيث تحلها العي فان أهمأت ناقب وإلا استقت
أو مع الآخر

والبس راعة إذا رعتها وإذا ردت إلى قليل تقسح
وقوماً يسوا من حب، أو صدموا صدمة عسفة في مصب أوحاه أو مال؛
فلم يجدوا إلا الرهد يركون الله ويأسون به، ويتأسلون به عما فقدوا
وكثيراً رهدوا ندساً لما في الرهد من حقة المؤونة، وسهولة الحساب،
يقولون كما قال محمد بن واسع « نعجى أن يصيح الرجل وليس عنده عداة،
ويسى وليس عنده عشاء، وهو مع ذلك راص عن الله، صرخوا بهوسهم عن
الشهوات، وأكثروا من ذكر الموت والقور، وعدوا أنفسهم في الموت،
وآثروا ما يبقى على ما بهى، ورفضوا أن يمدوا أيديهم لأحد عطاء من حافية
أو وال، وقبعوا بالقليل، كالذى فعل إبراهيم بن إسحق الجزنى؛ عاش أكثر
عمره على كسر يانسه وملح، وربما عدم الملح، ورفض أن أحد ألف دينار
عنت بها إليه المعتصد، وأفق مرة في شهر رهضان كاه درهماً وأربعة دوايق
ولصفا ١

كل هذه الأصناف، كان منها في العصر الذى ورحه وكما كان تشار
وأبو نواس وأصراً هماً؛ أبون برة اللهو، وصرهون نارها، كان أبو العلاء
يعتبر عن برعه الرهد، ويروى عنه الراهدس فان قال أبو نواس في الدعوة
الى اللهو

حَزَبَتْ مَعَ الْهَوَى طَلَقَ الْجُوحَ وَهَانَ عَلَى مَا نُورُ الْقَسَحِ
وَحَدَّتْ أَلَدَ عَارِيَةَ اللَّيَالِي قِرَانَ السَّعْمِ بِالْوَتْرِ الْفَصِيحِ
وَمَمْنَةً مَيَّ مَا شُبُّ عَدَّتْ مَتَى كَانَ الْحَيَامُ بَدَى طُلُوحِ
تَمَسَّحَ مِنْ شَابٍ لَيْسَ يَبْقَى وَصَلَ بَعْرَى الْعَبْوَى عَرَى الصُّبُوحِ
فَالْأَوَّلُ الْعَاقِبَةُ رَعِيفٌ حَبْرٌ يَأْسُ تَأْكُلُهُ فِي رَاوِيَةٍ
وَكُورُ مَاءٍ بَارِدٍ نَشْرُهُ مِنْ صَافِيَةٍ
وَعَرَفَةٌ صَيِّقَةٌ تَمَسُّكُ فِيهَا خَالِسَةٌ
أَوْ مَسْحَدٌ مَعَزَلٍ عَنِ الْوَرَى فِي نَاحِيَةٍ
تَدْرُسُ فِيهِ دَهْرًا مَسْدَدًا نَسَارِيَةٍ
مُعْتَرَاً مَنْ مَضَى مِنَ الْقُرُونِ الْحَالِيَةِ
حَبْرٌ مِنَ السَّاعَاتِ فِي قِيَامِ الْقُصُورِ الْعَالِيَةِ
تُعْقِمُهَا عَقْوَةٌ تُصَلِّي سَارَ حَامَةٍ
وَهَسْلَةٍ وَصِيَّتِي مُجْتَرِيَةً خَالِسَةٍ
طَوَى لِمَنْ يَسْمَعُهَا تِلْكَ لَعَمْرِي كَافِيَةٍ
فَاسْمَعْ أَصْحَ مَشْهُقٍ يُدْعِي أَنَا الْعَتَايَةَ

والناس يبدعون أيهما أشعر، أو بواس أم أبو العتايه، ولسوا يصلون
أحدهما في الحقيقة استناداً على الناحية الفنية، وإما كلاهما يمثل رعة خاصة،
وكل فريق يفصل من عسر عن نفسه وحتى رعته

كان للحالة الاجتماعية إلى ألمانها سائح عامية وأدبه ووجهه ؛
من ذلك أن عرارة الأموال في يد العلماء والولاء ومن إلهم، ووفره

عطايام وقلة الأموال في يد سواهم ، جعلت الفنون الجميلة ومنها الشعر ، لا تزهر الا في أحضان الخلفاء ومن اليهم ، وتذبل في غير جَوْهْمٍ - قد كان من المعقول ان يفيض شعور الرجل وتهيج عواطفه ، وتغلى نفسه ؛ فينطق بالشعر يهتدى من شعوره ، ويخفف من غلبانه ، لا يرجو من ذلك الا ارواء لعاطفته الفنية ؛ وهذا هو كل مسطوح في الثواب ! وكان من المعقول : أن يجيد الفنانُ إشباعاً لنهمه الفني ، في فقر أو غنى ، ورخاء أو شقاء ! ولكن يظهر أن قليلا كان عندهم هذا السمو الفني ، وأكثرهم رأى أن قليلا من الفن وأبيانا من الشعر اذا لوحظ فيها ذوق الممدوح - لا ذوقُ الفن - تدر عليه من الأموال ما لا يحلم به ، وهو إذا أرضى عاطفته وفننه عاش عيشة كفاف ، فاندفع يطلب هوى الخليفة أو الأمير ، وسال السبيل وجرى التيار كله ، الا القليل النادر - نحو القصور ، يبقون بأبوابها الأيام والشهور ، حتى يؤذن لهم ، وأصبح الشعراء والفنانون أداة من أدوات الزينة ، وطرفة جميلة تحلّ بها الدور والقصور ، ولهم في ذلك بعض العذر . فمن هؤلاء يرى من هو أقل منه - شعراً وفناً - يعمل بيتين أو ثلاثة في مدح أمير فينال عشرة آلاف درهم ، ثم تقوى نفسه وتسمو همته وترفع عن أن يسلك مسلكه ويجرى مجراه ؟ كذلك الشأن في الغناء ، يقول الأصفهاني : إن مجموع ما أخذ ابراهيم الموصلي من الرشيد كان أكثر من مائتي ألف دينار^١ ، ولا تكاد تقرأ صفحة من الأغاني حتى تجد فيها شاعراً يمدح ، وألوفا تمنح ! ومهما كان في هذه القصص من المبالغة فالأساس صحيح .

كان من نتائج هذا ، أن أصبح أكبر مجرى يصب فيه الشعر هو المديح ، وهو باب أبعد ما يكون - في نظرنا - عن الشعر الصحيح ، وتعاقب الشعراء يصوغون معانيه السائغة وغير السائغة ، حتى ارتشفوا آخر نقطة منها ، بينما

الأبواب الأخرى من وصف عاطفة سامية ، وتحليل لشعور بحال الطبيعة
وحال الزهور ، وبحو ذلك لم تمس إلا مساً رقيقاً

وكان من سائح هذا أيضاً ، أن مؤرخ الأدب والهن في هذا العصر يكاد
لا يؤرخ إلا العراقي ، فأما مصر والشام والجزيرة فأدبها أدب حفيف ، وفيها
لا يكاد يؤرخ له ، وكل تابع في شعر أو فن لا يجد مشترياً لسلعته إلا العراق .
وبرى أن الأدب ، أصبح يمثل هاتين البرعتين البارزتين حبر ممثّل ، برعة
اللهو ، وبرعة الرهد . فأما برعة اللهو فما قيل في الخمر والسيب وما إليهما
وتجد ذلك في دواوين الشعراء أمثال أبي نواس ومسلم بن الوليد وفي كتاب
الاعاني . وأما برعة الرهد ، فما قيل في الموت والبعث والحساب ، وما قيل في
حياة الرهاد وما أنور قولهم وفعلهم وعقدت العصور الطّوال تشرح
نفسيتهم وتروى حِكمتهم ، يرى الحاحظ في الجزء الثالث من كتاب
« البيان والتبيين » يصحح كتاباً يعسوبه « كتاب الرهد » يقول في أوله ، « بدأ
باسم الله وعونه بشيء من كلام النساك في الرهد ، وشيء من ذكر أحلامهم
ومواعظهم ، وصاربت هذه الأقوال والقصص تعدّي هذا الفريق من الناس
الذين رهدوا في الخساء ، وأصبحوا من المؤلّفين في الأدب بعدد ينسحبون على
مواله ، ويجعلون باب الرهد ركناً من أركان الأدب ، فاس فتية يخصص
كذلك باباً للرهد في كتابه « عنون الأحبار » ، وإن عند ربه في « القدر العبد »
وهكذا وبهرأ هذه العصور قترها ما مثل حياة هي على البقيص من اللهو .
أما العلم ، فمد كان هناك علم ديني ، وعلم دسوي . ان صح هذا
التميز . فأما العلم الدسوي من فلسفه وطب ورياضة وفلك ، فمد كما كذلك
في كتب الخلفاء والأمراء والأعيان ، وفلّ أن تجد عالماً في ذلك العصر في علم
من هذه العلوم إلا كان له أمر أو عى يُمدّه بمعونه ، ولذلك كانوا (نسباً) في
سعة من العيش

أما العلم الديني فقد كان الباعثُ عليه أحرورياً عالمياً، فيما وأرهر حارج القصور أيضاً، كعلم التفسير والحديث، ومن أجل هذا أنصأ لم يكن مو هذا النوع من العلم وإرهاره فاصراً على العراق، بل تحده حيث الباعث الديني، في كل قطر وكل إقليم، فإذا أنب أرّحت لعلوم القرآن وعلوم الحديث، أو علوم اللغة، أرّحت لمصر والشام والحجاز كما أرّحت للعراق، وتقرأ أراحم هؤلاء العلماء هري في أكثرهم فقراً مدقفاً، ونؤساً واصحفاً، ورصي بالقليل، وأمثلة ذلك لا تحصى

وسياً في عند الكلام في الحركة العلمية وصف ما كان لهؤلاء العلماء من حدّ في طلب، واحتمال نصّب، وسهر بعد، في فقر شديد، مما يدعو إلى الاعجاب، ويعد المثل الأعلى للحياة العلمية.

الفصل السادس

حياه الزندقة وحياه الايمان

كما قد رأينا في الفصل السابق، حياه فيها لهو ومجون، وبعم ورجاء، وحياه فيها حد ورهد وبؤس وشقاء، رى في هذا الفصل ألوأنا أحرى من الحياه، هي حياه العلب والعسل، والعاطفة والذس، هري صراعا بين الشك والزندقة والالحاد، وبين الايمان الخالص والاعتماد الصادق، وبجيتل البؤس وقرأ بارح هابن الحركين أتما في موهف قال مسجّر نسجدم ه كل وسائل الحروب، فحتّج ومكائد ووسائل سريه أحياناً، ولجوء الى السيف وسيفك للدماء أحياناً، وعمد محالس وممارعة بالحجج أحياناً، ثم الحرب سجال، يوم ينصر ه الملاحدون بما يشرون من سكوك وأوهام، وبما يصللون من ناشئة وشان. فان عجزوا طاهرا اسعملوا طريق العوايه سرا، تحب مطهر

التشيع، أو العيرة على الاسلام أو نحو ذلك، ويوم ينتصر فيه المؤمنون فيشكلون بالمجدين تمكيلا، ويوقعون بهم قتلا وتشريداً، ثم بما يؤلعون من كتب يهضون تنهيمهم، ويبتلون حجبهم

ولكن لم يُعن المؤرخون في تسجيل هذه الحرب ووقائعها، كما عوا تسجيل الحروب السياسية. إنما يعثر الباحث في ثايات الكتب على تنفم عشرة، قد يستطع - في عباد - أن يؤلف منها وحدة، ويكون مما سلسلة متصلة الحلقات. الرديفة - : يلاحظ في هذا العصر الذي تدرج به الرديفة، على

الأساسة، وكثرة اتهام الناس بها حقاً وباطلاً، وتنه الرأي العام الى هذا المعنى تنها دقيقاً، فهم يسمعون شعر الشاعر مُرَّعان ما يلقيون الى شيء فيه يهيمونه من أحله بالرديفة، أو يرون فعلاً صدر من انسان، أو كلمة قالها جذاً أو هزلاً، أو إشارة أشار بها فيرمونه بالرديفة^١

وبحس اذا قارنا بين انتشار هذه الكلمة في العصر الأموي، والعصر العباسي، وحدنا استعمال الكلمة في العصر الأموي قليلاً نادراً، وفي العصر العباسي فاشياً شائعاً، فمثلاً اتهم عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب الوليد بن يزيد بن عبد الملك بالرديفة في العصر الأموي، واتهم الوليد بن يزيد كذلك، ولكن هذا دليل نادر، أما في العصر العباسي فالأخبار بالرديفة مستقصية، والمهمون بها كثيرون

والسبب في ذلك أن الرديفة في بعض معانيها - وهو الشك أو الالحاد - إنما تقترب عادة بالبحث العلمي، وهو في العصر العباسي أنش وأظهر ذلك أن العلم الذي كان شائعاً في العصر الأموي، كان العلم الديني من سمع للجدت، وتفسير للقرآن الكريم، واستساق الأحكام الشرعية منهما. وهذه لا تبرز في القوس شكوكاً تعب على الرديفة، إنما الذي قد حير هذه الشكوك مذاهب

١ سا في بحر الاسامم الادوال المتأمله في اشقاف كلمة الرديفة فابظه من ١٢٨

الكلام، والحدال الديني حول المسائل الأساسية في الأديان، والبحث الفلسفي على النحو الذي يبحثه أرسطو وأفلاطون في المادة والصورة، والخرء الذي لا يتحرأ والحوهر والعرض، وما إلى ذلك وهذه الأشياء كانت فلييلة في العصر الأموى وهى وفيه حدأ فى العصر العباسى

وسب ثاى هو أن بعض الفرس رأوا أن اسقال الخلافة من الأمويين الى العباسيين لم يحقق مطالبهم، فقد انتقلوا من يد عنرية وهى البدا الأموية الى يد أخرى هى يد العباسين ومطمح بفوسهم أن تكون الحكومة فارسية في مظهرها وحميقها، فى سلطانها ولعنها وديها ورأوا أن ذلك لا يتحقق والاسلام فى سلطانه، فأحدوا يعملون لنشر المانوية والزرادشدية والمردكية طامرا إن امكن، وحمية اذا لم يمكن، فكان من ذلك نشو الرندفة

يصاف الى ذلك أن الدولة الأموية - كما قدما - كانت دولة العرب فالحكم فى أيديهم والمالك لهم، وولاتهم ورحالهم عرب والموالى أدلاء مصطلهون والعرب لا تعرف الرندفة كثيرا ولا تميل اليها، فهم مطمئنون الى ملكهم والى دينهم فلما أب الدولة العباسية اسعش الموالى وخاصة الفرس، وأصبح أكثر السلطان فى أيديهم، وعلوا على العرب، وقد كانت لهم ديات سابعة لم يسووها جميعها لما اسعقوا الاسلام، وكانوا لا يحرمون فى الحكم الأموى أن يسسوا بكلمة، وكان همهم الاول أن يتحرروا سياسيا لا دينيا فكانت دعوتهم السرية واحتماعاتهم وتدابيرهم للسياسة لا للدين والرندفة انما هى فى الدين لا فى السياسة، فلما سحوا واطمأنا وعانوا دأب بلعب فى رءوسهم الديانات القديمة والحديدة وكانت الرندفة

برى اسم الرادفة مقرونا بالمختان فى عهد أنى جعفر المصور، وذكر الطبرى أن المصور وخته مع محمد بن أنى العباس الرادفة والمخان، فكان فيهم حماد عرد، فأقاموا معه بالنصرة بظهر منهم المخون، وانما أراد بذلك أن

يعصه الى الناس^١ وكان محمد بن أنى العباس مرشحاً للخلافة ، فأراد من إخطائه بالرئاسة والمجان أن يكرهه الناس^٢ ، فيتسنى له أن يرشح ابنه المهدي ، ولعل ذلك كان سبباً في لب بطر المهدي الى الرادقة ، فقد كان قُرْب محمد ابن أنى العباس منهم مُستعداً له عن الخلافة ، فليتقرب هو الى الله وإلى الناس باصطهادهم^٣ !

على كل حال لم يُعرف عن المصور اعمان في اصطهادهم ، وكانت سياسته - على ما يظهر - دفع العن الطاهرة فقط . فلما جاء المهدي كاتب من أطهر المسائل في تاريخه ، بكتله بالرئاسة والمحص عنهم ، فقد عيّن رجلاً وكنّى اليه أمرهم سماء^٤ صاحب الرادقة^٥ يقول في الأعاني^٦ : لما رل المهدي البصرة كان معه محمد بن وهب صاحب الرادقة فدفع اليه ساراً ، وقال اصره صر^٧ اللب^٨ ٢

وقال في موضع آخر^٩ : أمر المهدي (عند الخبار صاحب الرادقة فصر ساراً^{١٠} ، وهذه^{١١} ، أول مرة نسمع فيها تعيين رجل خاص يعهد اليه أمرهم ، بحث عنهم ، ويسكلهم^{١٢} . وهول الطبرى في حوادث ١٦٧٤ هـ وفيها حدث المهدي في طلب الرادقة ، والحب عنهم في الآفاق وقتلهم ، وولى أدرهم^{١٣} : « سَمَر الكاؤادى »^{١٤}

ويعول المسعودى في المهدي : انه آمن في أول المائتين والمذاهبن عن الدين لظهورهم في أيامه ، واعلاهم باعقادتهم في خلافته لما انسر من كتب ماني ، وان ديسان^{١٥} ومرفيون ، بما فعله عبد الله بن المقفع وغيره ، وترحمه من الفارسية والهلالية الى العربية ، وما صنف في ذلك ابن أبي العوجاه^{١٦} وجماد نخرد ، وحنى بن رباد ، ومطيع بن إباس من تأيد المذاهب المانوية

١ طبرى ٩ ٣٨ ٢ اعاني ٣ ٧٣ ٣ أعاني ٣ ٧٢ ٤ طبرى ١ ٩
٥ في الاصل ابن ديسان ٦ في الاصل ابن الرحاء

والنصائية^١ والمرفوعية فكثير بذلك الرابدة، وظهرت آراؤهم في الناس وكان المهدي أول من أمر الخدّيين من أهل البحث من المتكلمين بتصفه الكتب (في الرد) على الملحدين من ذكرنا من الحاحدين وعبرهم، وأقاموا البراهين على المعاندس، وأزالوا شبه الملحدين فأوضحوا الحق للشاكس^٢، ادن قام المهدي بعماس نحو الرابدة، انشاء ادارة للبحث عنهم ومحاكمتهم، وانشاء هيئة علمية لمباطرتهم، وتأليف الكتب للرد عليهم.

وعلى الحملة فقد كان المهدي شديد الاهتمام بهذه الفئة، حتى لم ينس أن يصبح اسمه ادا فد الأمر أن يكملهم، فالطبرى يذكر: «أن المهدي قال لموسى - (هو اسمه الهادي) يوماً وقد قدم اليه رند ق فاستدانه فأنى أن توب، فصر عقه وأمر بصله - يابى إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصاه - يعنى أصحاب ماني - فامسأه فرفه تدعو الناس الى طاهر حسن كاحساب الفواحش، والهدى في الدنيا والعمل للأخرة، ثم يجرها الى تخريم اللحم، ومس الماء الطهور، ورك قبل الهوام تحرجاً وتحوياً، ثم تخرجها من هذا الى عداة اثنين أحدهما الور، والآخر الطلبة، ثم يديع بعد هذا كالح الأحيوات والناس، والاعتسال بالبول، وسرفة الأطفال من الطرق ليقدم من صلال الطلبة الى هداية الدور فارفع فيها الحشيش، وحرد فيها السب، وبقرب بأمرها الى الله لا شريك له؛ فانى رأيت حدك العماس في المام فلدى نسمين، وأمرنى بقبل أصحاب الاثنين فقال موسى - عد أن مصب من أيامه عسره أشهر - : أما واننا لن عشب لأولس هذه العرفه كإها حتى لا أرك منها عيباً تطرف ويقال إنه أمر أن نُسأله ألف حذع فقال ها انى سهر كذا ومات بعد شهرين^٣»

وقد أبق الهادي وصية أسسه، فكان يقبل الرابدة وروى الطبرى

في حوادث سنة ١٦٩: أن الهادي اشتد هذه السبه في طلب الرنادقة، فقتل منهم فيها جماعة، فكان من قتل منهم، يردان بن ناذان كاتب يقطين، واسه على بن يقطين من أهل الهروان. ذكره أنه حج فطر إلى الناس يهرولون في الطواف فقال ما أشبههم إلا نقر تدوس في السيذر وله يقول الغلاء اس الحداد الأعمى:

أيا أمير الله في خلقه ووارث الكعبة والمير
مادا ترى في رحل كافر شبيه الكعبة بالسيذر^١
ويجعل الناس إذا ما سغوا حجرا تدوس الر والدوسر^٢
وقبله موسى ثم صلبه^٣.

ولما ولي هارون الرشيد، سلك سبيل من قبله من الخلاء في تعقب الرنادقة فيحدثنا الطبري في حوادث سنة ١٧١ أن الرشيد في هذه السبه أمر من كان هارياً أو مسجحياً، عبر نهر من الرنادقة منهم يونس بن فروة، ويريد اس الفيص:

حتى المأمون، نلعه خبر عمره من الرنادقة من أهل البصرة، يذهبون إلى هول «ماني» ويقولون بالنور والطلبة، فأمر بحملهم إليه بعد أن سبوا واحداً واحداً، وكان يدعوهم رجلاً رجلاً ويسألهم عن دينهم فيجبرونه بالإسلام فيمتحنهم بأن يُظهر لهم صورة ماني، ويأمرهم بأن يساقوا عليها، وتبرأوا منها وأمرهم بدخ طائر ماء وهو الدرع، وقد أبوا ذلك فمسلهم.

وفي عهد المعتصم، كانت حادثة عظمى في تاريخ الردقة. وهي محاكمة «الآفسين» (قائد حيوش المعتصم) فانه لما شق عصا الطاعة اتهم بالردقة

١ ستر الطعام كومه والسدر موضعه الذي نداس فيه ٢ الدوسر بك حبه الروان
الذي في الحطة ٣ طبرى ١ ٢٣ ٤ طبرى ١ ٥ ٥ السمووى ٢ ٢٤٩

وألف محكمة لحاكمته كان من أعضائها ، محمد بن عبد الملك الزيات ، وأحدس
أبى دوداد وقد اتهم الأفشين بمحكمة تهم

١ — أنه عمد إلى رجلين كانا قد وحداً بيتاً فيه أصنام — فى اشروسة —
فأحرقا الأصنام منه ، وحولاه مسجداً ، وصار أحدهما إماماً للمسجد والآخر
مؤدباً ، فصرهما الأفشين كلا ألف سوط حتى عريت ظهورهما من اللحم .
وقد دافع عن نفسه ، بأنه كان بينه وبين ملوك السعد عهد أن يترك كل
قوم على دينهم ، فكان عمل الإمام والمؤدب تعدياً على ما التزمه من حرية
الأديان

٢ — وإتهم كذلك بأنه عثر فى بيته على كتاب قد رس بالذهب والحرير
والإبراج فيه كهر نالته

ورد على هذه التهمة بالافرارها ، وأنه ورث الكتاب عن آتائه ،
والكتاب فيه أدب من آداب العجم؛ وفيه كهر ، فاسمع بما فيه من أدب وترك
ما فيه من كهر ، ولم يكن بحاجة إلى مال حتى يجرّد الكتاب من حلته ، وليس
شأن الكتاب بعد ذلك إلا شأن كتاب كليلة ودمنة وكتاب مردك وهما
فى مابرل القصاة ، لم يعترض عليهما معترض !

٣ — واتهم أيضاً بأنه كان يأكل المحوقة ، ويرعى أمها أرطل لهما من
المدبوحة ، وكان يقلل شاة سوداء كل يوم أربعاء ، نصرت وسطها بالسيف ،
ثم يمشى بين نصمها وأكل لهما

وقد ردّ على هذا بأن من شهد عليه هذه الشهادة ، يعترف حصومه بأنه
ليس ثقة ولا مُعدّلاً ، وليس بين مبرل الشاهد ومبرل الأفشين باب أو كوة
يطلع عليه منها ويتعرف أخباره

٤ — وإتهم بأن أهل مملكة كائوا يكتسبون باللعنة الأشروسنة ما تسييره
باللغة العربية إلى إله الآلهة من عنده فلاس فلاس ، فإدا أبى بعد لرعون

اذ يقول : آتوا رثيكم الأعلى ١ ،

وقد أحاب بأن هؤلاء القوم كانوا يكتبون لأبي وحدي كذلك ، ولما قيل
أن أدخل في الاسلام فكبره أن أصعب بمعنى دونهم ، فتفسد على طاعتهم
٥ — واتهم - حامساً - أن أحابه كتب الى «قوهيار» أنه ليس من يبصر هذا
الدين الأبيض (يريد المحوسنة) الا أنا وأنت وتأتك - فأما نارك فقد قتل
نفسه بحمقه ، فان حالته لم يكن للقوم من يرمونك به عري ، ومعنى العرسا
وأهل الجنده والناس ، فان وجه اليك لم يبق أحد يجارنا الا ثلاثة ، العرب
والمغاربه ، والآراك ، والعري بميله الكلب ، اطرح له كسرة ، ثم اصرب
رأسه بالذنوس وهؤلاء الدباب يعنى المغاربة ايمانهم أكلت رأس ، وأولاد
الشياطين - يعنى الآتراك - فاما هي ساعة حتى بعد سبهم تم تحول عليهم
الحبل حوله ، فتأتى على آخرهم ، ويعود الدين الى ما لم يرل عليه أمام العجم
وحلاصة هذه التهمة العلمى محاوله قلب المملكة الاسلاميه ، ومحو
الحلقة ، ومحو الدين الاسلامى ، وإعادة المملكة العجمية كما كانت ، بلعتها
ودينها وسلطانها

وقد أسكر هذا الكتاب وقال ان عمل أخيه لا يارمه ولو صح لكان هذه
حيله من أراد أن أستميله حتى سقى ، ثم أتى به الحلقة لأخطى به عده
٦ — واتهم أيضا بتهمة ترك الاحتشام

فقال إنه خاف أن يقطع ذلك من حسنه فيموت ، وما علم أن في ترك
الاحتشام الخروح من الاسلام
فرد إلى الخس ، ومُنع منه الطعام والسراب الى أن مات ، ثم صلب ،
وأحرق بالدار ١ وقد مدحه أبو تمام أولاً بمدائح كثيرة منها .

لقد لبس الأفسسين قسطة الوغى محشاً بنصل السيف غير مؤاكل^١
وجرد من آرائه حين أضرمت به الحرب حذاً مثل أحد المناصل
وسارت به بين القنابل والقنأ عزائم كانت كالقنأ والقنابل^٢
وقد ظلمت عقبان أعلامه ضحى بعقبان طير في الدماء نواهل
ترأه إلى الهيجاء أول ركب وتحت صبير الموت أول نازل^٣
فلما صلب وأحرق عاد فذمه في قصيدة طويلة منها :

قد كان بواه الخليفة جانباً من قلبه حرماً على الأقدار
فاذا ابن كافرة يُبرث بكفره وجداً كوجد قرزدق بنوار
ومنها :

ما زال سر الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى سر الزناد الوارى
ناراً يساور جسمه من حرها لهب كما عصفت شق إزار
طارت لها شعل يهدم لفحها أركانه هدماً بغير عيار
فصان منه كل مجتمع مفصل وفعلن فاقرة بكل قفار
مشوبة رفعت لأعظم مشرك ما كان يرفع ضوءها للسارى
صلى لها حياً وكان وقودها ميتاً ويدخلها مع الفجار
يا مشهداً صدرت بفرخته إلى أمصارها الفصوى بنو الأمصار
رمقوا أعالي جذعه فكأبما وجدوا الهلال عشية الإفطار

١ المحش : الحديدة تحش بها البار أى تحرك ، وقال : هو محش حرب أى شجاع
٢ القنابل جمع قنبل الطائفة من الناس ومن الحبل ٣ الصبير : السحاب المتراكم
٤ الفاقرة الداهية ، والفقار جمع فقارة وهى عقدة الظهر

ويقول التبريزي « لم يكن الأفشين كافراً ولا منافقاً ، وإنما كان رجلاً من الفرس ، اصطفاه المعتصم لحسن طاعته وخدمته ، واعتمد عليه في مهام أموره ، حتى وكلَّ إليه مقاتلة تاتك الحرّمي فحصى إليه في ألوف وأسره غير أن الحساد أفسدوا ما بينهما ، فدكروا للمعتصم أنه مطبوع على خلافك . وقالوا للأفشين إن المعتصم قد عزم على القمص عليك ، فانقصر عنه حذراً من القمص عليه ، فحقق المعتصم - بانقصاصه - ما كان أحبر به عنه ، فأحده وأحرقه وصلبه . وقبل إن السب في ذلك هو أن أفي دُواد لا أمر جرى بينهما ، وليس هما موضع تحقيق ما اتهم به الأفشين فجعل ذلك البحث التاريخي . وإنما بهما هما مظهر الردفة ، وما وُحِّه الله من التهم ، وطريقة محاكمته .

”

وبعد ، فإذا كان يفهم من كلمة « الردفة » في هذا العصر الذي نؤرخه ، ومادا يعنون عند ما يهتمون رجلاً بالردفة ، ومادا كان الناعب عليها ؟ الحق أن كلمة « الردفة » لم يكن معناها واحداً عند الناس على السواء . فمعاها في أدهان الخاصة والعامة ؛ غيرُ معناها في أدهان العامة ، فأما العامة وأشاهم فكانوا يُطلقون على المستهتر الماحس « رديقاً ، فاراهم سسابة الشاعر كان يُرمى بالردفة ، ولم يكن يعرف أنه قول في الدين إنما كان يعرف أنه أنه كان خليعاً ماحاً طبت البادره ، يحب العلبان ويحبه المَحْتَال ، وآدم حميد عمر بن عبد العزيز : اتهم بالردفة لأنه كان خليعاً ماحاً ممة كما في السراب ، نشرب الجر فيعط في سرها ، ويحرق على أساءه - وهو سكران - أباي فيها سماس بالذس ، كأن يقول :

اسمعي واسق حليلى فى مَدَى الليل الطويل
لَوْثُهَا أَصْفَرُ صَافٍ وَهِيَ كَالْمَسْكِ الْقَتِيلِ
فِي لِسَانِ الْمَرْءِ مِثْلُ طَعْمِ الرَّحِيلِ
رَحْمَتُهَا يَسْمَعُ فِيهَا سَاطِعًا مِنْ رَأْسِ مِيلِ
مَنْ يَتَلَّ بِهَا ثَلَاثًا يَنْسَ مِسْجِدَ السَّيْلِ
فِي مَا نَالَ خَمْسًا تَرَكْنَاهُ كَالْفَيْلِ
لَسَ يَدْرِي حِينَ دَاكُمَ مَا دَبَّيْنَاهُ مِنْ قَيْلِ
إِنْ سَمِعِي عَنْ كَلَامِ الْإِلَهِ فِيهَا التَّقْيِيلِ
أَشَدُّهُ الْوَقْرُ إِلَى غَيْرِ مَطْوَعٍ دَلِيلِ
هَلْ لَمْ نَلْحَاقْ فِيهَا مِنْ فِقْهٍ أَوْ بَدَلِ
أَنْتِ، دَعْنَاهُ وَارْحِي مِنْ رَحِيْقِ السَّيْلِ
نَعْطِشُ الْيَوْمَ وَنَسْقِي فِي عَدَّةِ الطُّمُولِ
وَكَأَن نَقُولُ اسْمَعِي وَاسْقِ عَصْنًا لَا تَسْعُ بِالْمَسَدِ دَيْمًا
اسْمَعِيهَا مَرَّةً الْطَّيْعِينَ بِرَبِّكَ الشَّنَّ رِيًّا

من أحل ذلكُ نَهْمُهم بالزينة ، فأحده المهندي ويصبر به ثلثائة سوط على
أن يقر بالزينة فيقول والله ما أشركُ بالله طرفة عين ، ومضى رأيتُ
فرسنا يتردق ؟ ولكننه طارتْ عَلَيَّ وشعرٌ طَفَحَ على فلي وأنا فتي من فتيان
فرش ، أشربُ البند ، وأقول ما قلب على سبيل المحزون ، ثم هجر الشرب
والمحزون بعد ذلك ، وكان يكره أن يَرَى الشَّرْبَ والشراب ونقول
تَمَرْتُ فليتا قبل لس يسارع تَرَعْتُ وبوني من أدنى اللاؤم طاهر^{٢١}
فترى أب ه آدم ، لم يتردق زينة علية ، وأما عليه السرب فيقول
يقول فيه هجر ، فاتهم بالزينة ، على هذا المعنى العامي الشائع

والواقع أن كثيراً من الشعراء في ذلك العصر أفرطوا في دعوة الناس إلى
 الفجور والالاحة، وحملهم على الاستهتار ولم يكتفوا أن يدعوا إلى ما يدعون
 إليه من غير تعرض للدين، بل تعرضوا له أحياناً، وأحدوا بحمرون بأقوال
 فيها تهكم، وفيها سحرية فمسحرون من بقول سحرهم الجمر، ويسحرون من
 يخوف بالنار، ومن يذكر يوم المعاد وما فيه من حساب، فيقول نشار
 لأحمر في العيش إن كنا كذا أبداً لا نلقى وسيل الملتقى ^١ يسح
 قالوا حرام^٢ تلافينا فقلب^٣ لهم ما في البلاقى ولا في قلة حرج^٤
 وبدأ هذا النوع حقاً، ثم أحد يشد حتى وصل إلى صرب من الإلحاد
 وكان من أشدهم في ذلك أبو نواس كأن يقول

وملحنة بالزوم تحسب أتى بالحمل أوثر ضخمة الشطار
 نكرت على تلومى فأحسها إني لأعرف مذمت الأرار
 فدعى الملام فقد أظعن عواثى وصرفت معرفى إلى الإنكار
 ورأيت إنسان الملداده والهوى وتعتلا من طب هدى الدار
 أخرى وأحرم من تنظر آمل على به رخم من الأحبار
 ما حاما أحد يحجر أنه في حنة من ماب أو في النار

وبقول:

ناطراً في الدن ما الأمر لا قدر صبح ولا حمر
 ما صبح عدى من جميع الدى تذكر إلا الموت والهز
 ويعول

فلت والكأس على كفى^٥ زوى لالنشامى
 أنا لا أعرف ذلك اليوم في ذلك الرخام^٦
 على أن بعض هؤلاء الشعراء الذين مرر على لسانهم هذه الأقوال

١ ماب هذا الأسب من الموضع ٢٧١ وما مابها والوسانة من الموضع وخصوصه
 للعاصم ١٤ المرمر المرحاني من ٥٧ وما مابها وسابها أوكبره من هذا النوع

وأما لها ؛ كانوا يقولونها وهم مطمئنون الى دينهم ، ولكن غلبهم الطرب
وحرقى الشعر على لسانهم فتجركم مثل هذا ، وذلك مثل الذى ورد من شعر
آدم بن عبد العزير بن عمر بن عبد العزير

والدين كانوا يسمعون لهذا القول ؛ يختلفون فيما بينهم ، فطائفة تسخط لمثل
هذا ، ويحكم على قائله بالاحاد والخروج من الدين ، وطائفة لا ترى هذا حداً
من القول ؛ وإنما هو نوع من أنواع التلميح ، لم يُقَلْ إلا على سنبل المسكاهه
والمحزون ، وعلى هذا الأساس الأحرش شاع فى ذلك العصر وصف الرديق
بالطرف ، فأبو نواس يصف العباس بن الفضل بن الرشح يقول

تَدِمُّ كَأْسِي مَحْدَثُ مَلِكٍ تِيَهُ مَعْنُ وَطَرَفُ رِدْيِي

بل شاع اتهام بعض الناس بأنه لا يتردى عن عقدة ، وإنما يتردى
ليشهر بالطرف ، فى الأغانى ان محمد بن زياد كان يظهر الرديقه تطارها ،
وقال فيه اس مُسَادِر

يَا اسَ رِيَادٍ ، يَا أُنَا جَعْفَرٍ أَطْهَرَتْ دَسَا غَيْرَ مَا نَحْنِي
مَرْدِي الطَّاهِرِ بِاللَّهْطِ فِي بَاطِنِ اسْلَامٍ قَبِي عَفٍّ
لَسْتُ رِدْيِي وَلَكِنَّمَا أُرْدَبُ أَنْ تُوسَمَ بِالطَّرْفِ ١

وقال غيره

رَدْدِي مُغَلِّباً لِقَوْلِ هُوَمٍ إِذَا دَكَرُوهُ رِدْيِي طَرَفِي
فَقَدْ بَقِيَ التَّرْدَقُ فِيهِ وَسَمَاءٌ وَمَا فِيلَ الطَّرِيفِ وَلَا اللَّطِيفُ ١

وعلى الجملة فالزبدفة بهذا المعنى - معنى التهنيتك، ثم التدرج فيه الى الحروح
عن الدين أحياناً بألفاظ مأساة، ثم المعالاة في ذلك الى أقوال فيها معنى
الاحداد لا عن بطن وتذكير. كل هذا كان شائعاً فاشياً، وكل هذا كان معنى
« الزبدفة » في أذهان العامة وأشاهمهم، وعلى هذا المعنى قالوا: « إن علامه
الزبدفة شرب الخمر والرشا في الحكم، ومهر النجى »^١.

وهناك معنى آخر للزبدفة، كان يفهمه الخاصة وأشاهمهم وتعاون به
اعساق الاسلام طاهراً، والتدني بدين العرس القديم باطلاً، وخاصة مذهب
ماني ذلك أنه كان في ذلك العصر طائفة لم تؤمن بالاسلام ولكن آمب
سلطانها، ورأت أن لا سبيل لسل الحياه والسلطان والمال الا بالاسلام
فاعتقته طاهراً، وطأت تحلص لدينها القديم، وقوم من هؤلاء كاتب لهم
عرض أعمق من هذا، اذ رأوا أنهم لا يستطيعون افساد العقيدة الاسلامية
الا بالانتساب اليها أولاً حتى يؤمن حاشتهم، وحتى يسهل على القوس
الأحد بقولهم، ثم هم بعد يفتنون تعاليمهم على أشكال مختلفة، طوراً في
العلم والدين، وطوراً في الأدب، وطوراً في وضع مثالب العرب، ومن
حين لآخر كان يُعزى على بعضهم ذلك، ولكمهم لا يدرون، أحياناً
يعملون أفراداً، وأحياناً يعملون جماعات، وعصرنا الذي نؤرخه بماء هذه
الأمثال، فعند الكرمين بن أبي العوجاه، منهم بالزبدفة، ويسند أحاديث رسول
الله بما صنع فيها، ويقرّ حين يقوله المصور، بأنه وضع أربعة آلاف حديث
مكذوب مصوغ^٢، وجماد الراوية يسند اللغة والأدب بما عمله من شعر
يصفيه الى الشعراء المتقدمين، ويدسه في أشعارهم حتى ان كمرأ من الرواة
قالوا قد أفسد جماد الشعر لأنه كان رجلاً يقدّر على صعبه فبدس في شعر كل

١ العهد الفرما ١ ١٨٧

٢ امالي المارضى ١ ٨٩

رجل ما يشاكل طريقته^١، وصالح بن عبد القدوس يدرس في الأشعار معاني
الزندقة، ويؤسس أي فروة يعمل كتاباً في مثالب العرب، وعيوب الاسلام
برحمته، وتصير^٢ به الى ملك الروم فيأخذ منه مالا^٣

هؤلاء وأمثالهم كانوا يتردقون تردقاً علمياً، فهم يديبون بما في أو مردك،
ويؤمنون بالبور والطالبة، وبعبارة عامة يدسون بدين المحوس عن علم، ثم
يتظاهرون بالاسلام ثقة^٤، أو توسلاً الى إصلاال الناس ويدل على هذا
المعنى الخاص ما رواه الأغانى أن نشاراً حماداً عجرد فقال

يا ابن سبي، رأس على ثعلب^٥ واحتمل الرأس من أمره حليل^٦

فادع عري الى عبادة ربك^٧ فاني واحد متبعول^٨
فقال حماد ما يعطى من نشار الا تحاهله بالزندقة، وهم الناس أنه بطن
أن الزنادقة بعد رأساً ليطس الجهال أنه لا يعرفها، لأن هذا قول تعوله العامة
لا حقيقة له، وهو والله أعلم بالزندقة من ماني^٩

ويعول أبو بواس كمت أتوهم حماد عجرد إنما يرمى بالزندقة لمخونه في
شعره حتى حُسب في حَسَس الزنادقة، فادأ حماد عجرد إمام من أئمتهم، وادأ
له شعر مراوح بيتين يمين، بقرءون به في صلاتهم^{١٠}.

اشهر بالزندقة في هذا العصر كثيرون، منهم الحمادون الثلاثة حماد بنجرّد،
وحماد الراوية، وحماد بن الرزرقان، ونشار بن برد، وابن المقفع، ويونس
ابن أي فروه، ومطيع بن إياس، وعبد الكريم بن أي العوجاء، وصالح بن
عبد القدوس، وعلى بن الحليل، وابن مبادر، وتحد ترجمتهم في الأغانى

١ المصدر منه ١ ٩١

٢ المصدر منه ١ ٩١

٣ أغانى ١٣ ٧٦

٤ أغانى ١٣ ٧٤

وعبره صرونا من القصص توصح رندقتهم، وكان بين بعض هؤلاء وبعض صداقة ووداً أحياناً، وهجو وتباثر أحياناً

والذي نلاحظه أن أكثر من ذكرنا موال من الفرس، وذلك طبيعي، فإن الرندقة بهذا المعنى تستر وراءها ديانة محوسية من ديانات الفرس، فطبعي أن يبرع اليها من كان أصلهم محوساً ومع هذا فإننا نجد من العرب بل من الهاشميين من اتهم بالرندقة، مثل الحسن بن عبد الله بن عميد الله بن العباس بن عبد المطلب، وعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب^١ وكالذي روى الطبري من أن المهدي أبي داود بن علي، ويعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن ابن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وقد اتهم بالرندقة فأقرأ له بها^٢ ولكن كاتب الرندقة في العرب على العموم نادره، وأكبر من اتهم بها كاتب رندقته بالمعنى الأول، وهو الهيثم والمجور، أو كان اتهامهم شراً من السراك التي نصب من أجل حصومة سياسية

وقد اشتهر هذا النوع من الرندقة طائفة من الكتاب، كان أكثرهم كذلك من أصل فارسي، وقد أخذوا من كل علم بطرف، ولم تنعموا في علم، وأمعنوا في العزور بأنفسهم، فكثرت رندقتهم بقول الخاطـط^٣، والاشـيـم منهم (من الكتاب) إذا حفظ من الكلام فيقه^٤، ومن العلم ملحة، وروى لـرندقتهم أمثاله، ولا ردشبعهده ولعد الحيدرسائله، ولا ن المققع أدبه، وصتر كتاب مذك معدن عليه، ودوس كدلة ودمه كبر حكمة^٥ (وهم) أنه الفاروق الأكبر في التدبر، وإن عباس في العلم بالأويل، ومعاد بن حنبل في العلم بالحلال والحرام، وعلي بن أبي طالب في الحشره على القصاص

١ أنظر رندقه في الأعالي ١١ و٧٥ و١٠١ و١٠٢ ٢ خبري ١ ٢٣

٣ الله في الحنبل النـ

والاحكام ، وابو الهذيل العلاف في الحر والظفرة ، وارايم بن سيار
الطام في المكائبات والمجانسات ، وحسين السحار في العبادات والقول
بالاثبات ، والأصمعي وأبو عسده في معرفة اللغات والعلم بالأسانبات . فيكون
أول ندوة الطعن على القرآن في تأليفه ، والقضاء عليه بناقصه ، ثم يظهر فيه
طرقه بتكذيب الأخبار ، ومهجن من نقل الآثار ، فان اسيرج أحد أصحاب
الرسول قتل عسده ذكرهم شدقة ، ولوى عن محاسنهم كتبته ، وان ذكر
شريح حرجه ، وإن نعت له الحسن اسنقله ، وادأ وُصف له الشعبي استحمه ،
ثم يقطع ذلك من مجلسه بسياسة اردشير ناكال ، وتدبر أبو سروان ،
واستعماره السلاسل لآل ساسان ، فان حذر العمون ، وبقته المسلمون ، رجع
بذكر السنين الى المعقول ، ومُحكّم القرآن الى المنسوخ ، وبقي مالا يُدرى بالعيان ،
وشمة بالشاهد العائنة ، لا يرضى من الكتب الا المنطق هدا هو
المشهور من أفعالهم والموصوف من أخلاقهم^١

وأحانا تطلق كلمة الرادفة على أساع ديانة الفرس ، من غير أن ينتحلوا
الاسلام . ويرى هذا الاستعمال أحياناً في كتاب الحيوان للجاحظ فهو يقول:
وكان هؤلاء الرادفة كتب أحواد ما تكون ورعاً يكتب عليه بالخبر
الأسود البراق ، ويستجاد له الخط^٢ وأن كتبهم لا تهيد علماً ولا حكمة
وليس فيها مثل سائر ، ولا خبر طريف ، ولا صنعة أدب ، ولا حكمة عربية
ولا فلسفة ولا مسألة كلامية . وحل ما فهم ذكر النور والظلمة ، وساكح
الشياطين ، وسافه المعاريف ، وذكر الصيديد ، والتحول بعمود الصبح ، ثم
يذكر كتبهم ويصفهم بمعايبها^٣
ونقول . إن هؤلاء الرادفة أثروا في بعض الناس ، وخاصة في ناس من

الصوفية والبصاري، فكانوا يرفضون الدبايح، وتَصَعَّصُونَ إِرَاقَةَ الدِّمَاءِ، ويرهبون في أكل اللحوم، ويقولون إن قومًا ممن يبتذل الإسلام يظهرعون التقدر من الصيد، ويرون أن ذلك من القسوة، وأنه يُسَلَّم إلى التهاون بدماء الناس والرحمة شكل واحد، ومن لم يرحم الكلب لم يرحم الطي ومن لم يرحم الطي لم يرحم الخدي، ومن لم يرحم العصفور لم يرحم الصي وصغار الأمور تؤدي إلى كدائها، يصاهون في ذلك سبيل الربادقة^١

وهناك معنى آخر للزبدفة يستعمله الخاطب وغيره أحيانًا، يطلقونه على قوم جحدوا الأدباين كلها عن بطن، فهي بهذا المعنى مرادفة للدهرية والالحاد قال أبو العلاء في رسالته العفراء «والربادفة هم الذين يسمّون الدهرية لا يقولون بسوء ولا كتاب»

وعلى هذا المعنى يروى الخاطب «أن الزبدفة فشب في البصاري»^٢ والظاهر أنه يريد بذلك السك ويحوه

من هذا كله يظهر أن كلمة الزبدفة لم تكن ذات معنى واحد، وإنما كانت بطائ على معان أربعة

١ — التهلك والاسمهيار والفجور مع، يخرج في القول، يصل أحيانًا إلى

ما عيس الدين، ولكن فائله لم يعمله عن بطن، وإنما قاله عن حلاعه ويحون

٢ — أسباع دس المحجوس وخاصة دس ما في مع التطاهر بالإسلام، كالذي اتهم به الأفشين، والذي اتهم به بشار وحماد وابن المقفع

٣ — أسباع دس المحجوس، وخاصة «ما في» من عبر بظاهر بالإسلام، كالذي يرويه الخاطب عن كتب الربادفة

٤ — ملجدون لادس لهم، كالذي يحكه المعري، ولكن يظهر أن الكلمة

أكبر ما كانت — بطائ على من أعشى المانوية باطنًا والإسلام طاهرًا، ثم

توسعوا في معابها فأطلقوها على الاناحى ، والملاحد الذى لادين له

* * *

على كل حال فشب الرذقة بمعابها المخلفة في هذا العصر ، وقد عمد أبو العلاء من الرادفة في رسالته العمران ، « الولد بن بريد الخليفة الأهموى ، ودعلا الساعر ، ونشارأ ، وأنا نواس ، وصالح بن عبد القدوس ، وأنا مسلم الخراسانى مؤسس الدولة العباسية ، وبنك ، والأفئس والخلاج الصوفى ، وعبرهم فقول في دعبل » وما يلحقى الشك في أن دعبل بن على لم يكن له دين وكان تطاهر بالتشيع ، وأما عرصه التكسب ، ولا أرتاب في أن دعبلا كان على رأى الحكيمى (أنى نواس) وطنقه ، والزبدقة فيهم فائسة ، ومن ديارهم ناشية » ويقول « وقد احتفل في أنى نواس ادعى له البأله ، وأنه كان يقضى صلوات سهاره في ليله ، والصحيح أنه كان على مذهب عبره من أهل زمانه »

وكان من الطبيعى أن يكون في هذا العصر رادفة دعاهم إليها دواعي مخلفة؛ فقوم دعاهم بها دس ألوه قديما وهو دين المحوسه وكان لهم فيه آنا. عبدودون وكاتب لهم عادات وبما ليد أحدها الخلف من السلف ولكنهم رأوا حاشأ عربصأ ، ومناصب عريرة لا يستطعون الوصول إليها الا أن يسلبوا فأسلبوا « ولما يدحل الإيمان في قلوبهم » واتحدوا الاسلام ثابا طاهرية ، يحلغوها اذا حلوأ الى أهلهم ، وهم- اذا أمكسهم الفرصة - كادوا للاسلام وللعرب ، ودعوا للشعوسة والمذاهب الدينية وقوم دعاهم الى التزندق شك في الادان ، والقول سلطان العمل الى أقصى حدوده ، فهم لا يريدون أن يؤمنوا الا بما يرون نأعيسهم ويحكمون العقل حتى فيما ليس للعمل فيه بحال ، فسدوا الأديان حملة ، ودعوا الى الاتحاد وآخرون انما كانوا همهم في الحياة شهاهم فما الحياة الاحر وما إلها ، لا رصون أن يجهدوا عقولهم

في تفكير في دين، إنما يعصون على الدين وقت أن يتعارض مع شهواتهم، ويحد من لذاتهم، حينذاك يطقون بالكلمة تلو الكلمة وهم سكارى يتصاحكون فيها على الدين - كل هذه الأوصاف كانت في العصر العباسي، وكان جمهور المؤمنين يكرهها ويحاربها

ولكن من الخى أن يقول أيضاً إن الاتهام بالزندقة لم ينف في ذلك العصر عند حد، فالساعر يكون صدق الشاعر وصي نفسه، ثم تكون بينهما حقوه فأول ما يرميه به أنه زنديق، كالهجاء بين بني سجاد، وكالذي يقول حماد الأرقط ذكر ابن مسعود في حيلة نونس، فقدح فيه أكثر أهل الحلقة حتى سبوه إلى الزندقة، فلما ضرب في السقفة التي في مقدم المسجد سمعت هراة فريه من حائط القبلة، فدبوت فإذا ابن مباد قائم يصلي، فرحمت إلى الحلقة فقلت لأهلها قاتم في الرجل ما فلتهموها هو ذا قائم يصلي حيث لا يراه إلا الله! ثم هم يسرعون في الاتهام، ويحكمون على أني العاهية بالزندقة لقوله: «كأن عناية من حسنها دمه فس قتل قتلها»

يارب لو أنسيتيها مما في حمة العرد ومن لم أنسها ولعله: إن الملك رآك أحسن خلقه ورأى حمالك تحذا بقدره نفسه حور الحسان على مثالك^٢

بل أكثر من هذا يرون أنا العاهية يذكر الموب، فهو لول إنهم يديق لأنه يذكر الموب، ولا تذكر الحنة والدار^٣

كل هذا وأمثاله بدلتا على أن الاس في ذلك العصر أفرطوا في الرمي بالزندقة، مع حطرات الاتهام، يقول أبو العلاء في رساله العهرا «وذكر صاحب كتاب الورقة» جماعة من الشعراء في طبعه أني نواس ومن قبله،

ووصفهم بالردة وسرائر الناس مُعَيَّنة، وإما يعلم بها علام العيوب،
وكما كانت الحصومة الأدبية سداً في الرمي بالردة، كذلك كانت
الحصومة الدينية والسياسية تقول صاحب الأغانى «كان حُمد بن سعيد
ووجهاً من وجهه المعرلة، خالف أحمد بن أبي دؤاد في بعض مذهبه، فأعزى
المعصم بأنه شعوى رديق»^١، وطل الأصمعي يعزى إلى اليرامكة، ويمدحهم
فلما ذكروا قال فيهم

إذا ذكر الشُّركُ في مجلسٍ أصاب وُجوهٌ بنى سرك
وإن ثلثتَ عِندهم آهَ أتوا بالأحاديث عن مردك

ثم، أليس عجباً أن ترى شاراً يطلُّ طول حياته يقول الشعر الماحس الخليع،
ويعرض للنس من قرب أو من بعد، ويطل في ذلك ثياب عاماً أو نحوها؟ فلا
يعرض له أحد، إلا ما بهاء الخليفة عنه من العزل! بل يرى المهديّ - وهو
أكثر من اصططد الرادة - يحمله وسأول له الفهماء^٢ فلما بلغ الثمانين
أو حاورها هجا يعقوب بن داود ورر المهدي بقوله

بى أمسه هُجُوا طالَ يومُكم أنَّ الخليفة يعقوبُ بن داودِ
صاعب حلاهكم يافوم فانتظروا حلقة الله بين الرُّقِّ والعود

وهجا المهديّ نفسه وأخس، فبعد ذلك - فقط - عوف شار على ردةفته
فُصِّر بالسباط حتى مات - وكذلك كان الشأن في ابن المقفع، حاصه المصور
سياسياً، وحاصه سفيان معاوية بن يزيد من المهلب فقبلاه ورمياه بالردة!
الحق أن بعض الناس اتخذوا الردة دربة للانتقام من خصومهم سواء
في ذلك الشعراء والعلماء والأمراء والخلفاء وأحس أن يكون قد رمى بها
أناس كثيرون صحت عقبتهم ولكن كاذب لهم حربه رأى في بعض المسائل

حالفوا فيها جمهور العلماء فشهروا بهم
 ويحد الحسبك الفقهي في الزنادقة عند الجمعية العراقية أشدَّ منه عدد
 الشافعية فسكّبر من الجمعية يرى أن المُرْتَدَّ إذا تاب قبلت توبته ولم يقتل،
 وأما الرنديق فإذا تاب لم تقبل توبته وقتل، وحالفهم في ذلك الشافعية فقالوا
 لا يقتل من أظهر التوبة من الزنادقة^١
 على كل حال كات حركة الردقة في عصرنا الذي يؤرخه حركة عقيمة،
 كان من صحاها كثير من بالحق أحياناً، وبالناطل أحياناً.

الايّمان — نقابل حركة الردقة والتشكك هذه، حركة ايمان صادق من
 جانب آخر وإذا كنا نريد أن نفهم حواش الحماة في هذا العصر، وحسب علينا
 أن نصور جانب الايمان كما صورنا جانب الردقة والذي يظهر لي أن جانب
 الايمان في ذلك العصر كان الأعم الأسهر، والردقة - بمعنى التشكك أو الالحاد -
 كانت خطأ قليل من المفكرين إذا فسر بالعدد العديد من المؤمنين، ولذلك
 استطلاع المؤرخون وكتّاب المعاللات الدينيّة أن يسموا الردقة على تشكيكهم
 في زندقه بعضهم، ولكن كان من العسير أن نسموا المؤمنين لأن الايمان هو
 الأساس، والردقة ليست الا شذوذاً في اتجاه التيار العام والذي رادى
 عند الردقة، أنهم أطلقوا الكلمة على المختار والمفسهين، ولو لم حصل
 التسك في الدين الى نفوسهم، وإن شئت فهل اهتم لم يفكروا في الدين بفكر
 انجائياً ولا سبياً، وإن كبرس خسروا مع الردقة من اسه لادنياً كما فعلوا،
 وإن كبرس من الردقة كات ردقتهم في الواقع ليست كراهية للاسلام من
 حب هو دين له تاليم خاصه لا وافق عقولهم ولكن من ناحيه وطاة
 قومية وأكبر ما كان ذلك في قوم من الفرس رأوا أن صانع ملكهم ايماناً كان
 على يد الرد، ولم يكن، أي للعرب ذلك لولا دهم الحديد، وهو الاسلام

١ اطر في ذلك الام ٦٤ ١٥٦ وحي صاحب فتح البدر في الزا في روايتين
 عن الجمعية، رواه لا هل و كقول مالك وأج ورواه هل كقول الشافعي ٣٨٧

وكرهوا العرب، وكرهوا الاسلام لهذا السب، فأما الربذة بمعنى السحت في
الأديان بحثاً عليها عميقاً يُسلم أحياناً الى شك أو إنكار فذلك كان قليلاً نادراً

* * *

اشتهر جماعة كثيرة في ذلك، كانوا المثل الأعلى في الايمان أمثال عدائهم
ابن المبارك وسفيان بن عيينة، وسفيان الثوري، وداود الطائي، والمصلي
ابن عياض الخ^١ تقرأ ترجمتهم، فليس فيهم ورعاً وتقوى، وإيماناً صادقاً،
وهروباً من الاتصال بوال أو أمير، ورفض أي منصب يعرضه عليهم
العباسيون. ولعل خبر ما يمثل هذا النوع من الحياة ما رواه ابن قتيلة في
رثاء ابن السمّالك لداود الطائي، قال «إن داود رحمه الله بطر بقلبه الى ما بين
يديه من آخرته، فأعنى بصر القلب بصر العين، فكان كأنه لا يطر الى
ما اليه يطرؤون، وكأنكم لا تطرون الى ما اليه يطرأتم منه يعجبون، وهو
مكم يحب اهلبارآكم راعين مدهولس معرورين، قد أذهلت الدنيا عقولكم،
وأما أنت تحتها فلوكم، اسوحتن مكم، فكبت اذا بطرت بطرت الى حى^٢
وسط أموات، ناداود ما أعجب شأنك بن أهل زمانك، أهبط نفسك وإيماناً
يريد إكرامها، وأنعمها وإيماناً يريد راحتها، أحشيت المظعم ولمّا ترد طهه،
وأحسيت الملائس وإيماناً يريد ليه، حم أمّ نفسك هل أن يموت، وفترتها
هل أن يموت، وعدنها ولمّا تعدت، وأعندتها عن الدنيا لئلا تدكر،
رعت نفسك عن الدنيا فلم يرها لك فدرأ الى الآخرة فما أطدك الا وقد
طهرت بما طالب، كان سبائك في شرك، ولم يكن سبائك في علائيك، نهضت
في دنك، وترك الناس يعبون، وسبعت الخدب، وتركهم يتحدون.
وحر سب عن المول، وتركهم يظهمون، لا تحسد الأحرار، ولا يعيب
الأشرار، ولا تقبل من السلطان عطية، ولا من الأخوان هدية آس^٣

١ انظر أراجهم في ويات الاء ان وطفان اس سعد وراحم الخدس

طرب وشخمة من غنى، ومسكنة من إملاق. وشك في دين، وإيمان في يقين. كل هذا كان في العصر العباسي، وكل هذا كان كثيراً.

هذا النوع من المؤمنين الذين سميناهم كسفيان وداود، لم يدخلوا في معتزك الجهاد مع الشاكين والمتزندقين. بل كانوا يعتون بإيمانهم، ولا يأبهون لالحاد غيرهم. أما المؤمنون الذين تصدوا للرد على الملحدين هم معتزلة ذلك العصر أمثال وإصل بن عطاء، وأبي الهذيل العلاف، ويشر بن المعتمر، وأبراهيم النضام، فمؤلاء أخذوا يستعرضون ما تقول الزنادقة، ويناقشونهم ويردون عليهم، ويلزمونهم الحجة وقد حكمت لنسا الكتب كثيراً من هذا الجدال، نعرض له عند الكلام على المعتزلة إن شاء الله.

البَابُ الثَّانِي

الثقافات في ذلك العصر

مؤيد

كان من أثر اختلاف السكان في المملكة الاسلاميه ، واندماجهم - من حيث أصولهم الى أمم مختلفة كما نرى في الباب الأول - وإميراج بعضهم ببعض في الشككي والتراوح وما إلى ذلك . ودخول كثير من أفراد الأمم المختلفة في الاسلام ، وموت الحصاره مما أيسدعى علماً واسعاً بكثير من شؤون الحياة ، من هندسة وطب ونجوم ، ونظام حكم وفقه ، ولغة وأدب ، كان من أثر ذلك كله أن انتسب في المملكة الاسلاميه ثقافات محلقة لأمم مجامعة ، وكان هناك رجال بارزون يحملون لكل ثقافة تلمحاً . وسدولون جهدهم في الدعوة لها ، والبروح لمبادئها ، وتحمسها الى الناس ، وإفهامهم أنها خير أنواع الثقافات وكان من مظاهر هذا أن كل ثقافة أحدث تشق لنفسها حدوداً لا تيسر فيه وحدها ، وكلما عرّبت وراد مددها ، وسعت مجراها ، وتعهد به بالاصلاح ، وحافظت الى حد ما على اسمه قلاله ، ثم يرى - بعد ذلك - أن هذه الحدود والمسملة - يقرأ - أحدث تلبس وتكون منها بحر عظيم ، نصب فيه منام

مختلفة. ورأيا انّ ما حصل في الأحاسيس البشرية، حصل بطريقه في الثقافات العلمية. فـد كان في الأحاسيس امتزاج وتراوح وتولد، فكان في الثقافات العلمية امتزاج وتراوح وتولد، وقد كان في الأحاسيس ميراثات مختلفة، كل حس له مزاياه وله عيوبه، وكان عملية التولد تنشأ من تلفيح دم بدم، فينشأ حس جديد له مزايا الحسن، وعبوب الدّمن، وله خصائص أخرى ليست في الحسن، فكان كذلك الشأن في الثقافات. كان هناك كقايح بين الثقافات، ونشأ من هذا القايح ثقافات جديدة، تحمل صفات من هذه وتلك، وصفات جديدة لم تكن في هذه ولا في تلك، وأصبح لها طابع خاص يميزها عما سواها. وكذا كان في المملكة الإسلامية أهم مجتمعة، اشتهرت كل أمة بميزة، كذلك امتازت الأمم المختلفة بميزات في العقلة، بعضها ميزات في الثقافة.

فما هي أشهر الثقافات في ذلك العصر؟ وما ميزة كل ثقافة؟ وماذا كانت طبعه حدودها قبل أن تنصب في النهر الأعظم؟
تم بعد أن صلب في ذلك النهر، ماذا كانت طبعه مائه، وأي العناصر علب عليه؟ وما مظاهر تلك العناصر في مياه النهر؟
ذلك ما يريد أن نجيب عنه في ذلك الباب.

قد انبسر في هذا العصر أربع ثقافات، كان لها الأثر الأكبر في عموم الناس وأعلى بها الثقافة الفارسية، والثقافة اليونانية، والثقافة الهندية، والثقافة العربية كما كان هناك ثقافات دينية أهمها، اليهودية والصراية والإسلام. فاستكمل كلهم في كل منها، ولجئرت لكل ثقافة من يملها - ما أمكن - ثم لجئرت مثلاً من كان يميل للثقافات كلها بعد امتزاجها

الفصل الأول المصنف الفارسية

انتشرت الثقافة الفارسية - في العصر العباسي الأول - انتشاراً عظيماً ،
وساعد على ذلك أمران
الأول - اساء منصب الوزارة ، واسياده عالماً الى العرس
والثاني - اسقال عاصمة الخلافة من دمشق الى بغداد ، وبعمارة أخرى
من الشام الى العراق

الوزارة كانت كلمة « وزير » معروفة للعرب قبل الفتح الاسلامي ، وفي
القرآن الكريم على لسان موسى « واحمل لي وزيراً من أهلي هارون أحي »
وفي حديث السقيمه « نحن الأمراء وأتم الوزراء ، وفي طبقات « اس سعد »
« ان أنا بكر كان وزيراً لله ، صلى الله عليه وسلم ، وفي طبقات الشعراء لاس
قعدة « ان أنا دؤب الهندلي - وهو شاعر جاهلي اسلامي - حان في امرأه اس
عم له ، ثم حانه خالد بن رهر « بها فقال خالد مخاطب أنا دؤيب
فلا تحرعن من سني أب سيرتها وأول راص سني من يسيرها
وكتب إماماً للعسيرة تسمى الملك اذا صاقت نأر صدورها
ألم تمشيها من اس عؤمير وأنت صبي نفسيه ووزيرها
وفي الدولة الأموية كان اللفظ مستعملاً ، يقول الطبري « ان رناداً كان
يسمى وزير معاوية » .

ولكن الكلمة في كل المواضع التي ذكرها ، لم تستعمل في المعنى
الاصطلاحي الذي نعرفه الآن من كلمة الوزير ، وانما هي بمعنى الموارد والمأصر

قال ابن حلكان وقد اختلف أرباب اللغة في اشتقاق الوراثة على قولين :
أحدهما أنها من الورر وهو الخلل ، وكأن الوريث قد سمل عن السلطان
الثقل ، وهذا قول ابن قسلة . والثاني أنها من الورر ، وهو الخلل الذي يعتصم
به ليُستخى به من الهلاك ، وكذلك الوريث معناه الذي يعتمد عليه الخليفة ،
أو السلطان ، وبلغى الى رأيه ، وهو قول أنى اسحاق الرضاح .

ويحس برجح هذا - وهو أن أصل الكلمة عربى - على ما ذهب اليه بعض
المستشرقين من أن أصل الكلمة فيلوى مأخوذة من فيشرا Vi-chira ومعناه
الأمر أو التمييز

لم تكن كلمة وريث يدعى في العصر العباسي إماماً المسدع هو إنشاء هذا
المصب ، وإعطاء صاحبه السلطة الرسمية ، وبقسمه هذا الاسم ، وهذا المصب
فارسي ، ولم يكن معروفاً قبل العباسيين - قال ابن حلكان في ترجمته أنى سلمه
الخلال إن أبنا سلمة أول من وقع عليه اسم الوريث ، وشهر بالوراثة في دوله
بني العباس ولم يكن قبله من عرف بهذا الاسم ، لا في دوله بني أمية ولا في
غيرها من الدول^١

وهو الفجرى : « الوريث وسط بين الملك ورعيه ، فحب أن يكون
في طبعه كسفاً ياسب طماع الملوكة ، وشفاً ياسب طماع العوام ، ليعامل كلا
من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة . والوراثة لم يمهدها قواعد ،
وهرر فوايدشها الا في دوله بني العباس ، فأما قبل ذلك فلم يكن مقبسة القواعد ،
ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوكة اساع وحاشة ، فإذا
حدث امر اسيسار دوى الحجا والآراء الصائبة ، فشكل مهم يجرى بحرى
وزير ، فلما ملك بنو العباس تهررت قوانين الوراثة ، وسعى الوريث وريثاً ،
وكان قبل ذلك يسمى كاتنا او مشيراً » .

وقد كان الورياء الطاهرون في هذا العصر موالى فرساً ، فأبو سلمة
الختلّال - أول وريز عباسي - مولى فارسي ، وأبو أنوب المؤرياني وريز
المنصور فارسي من «موريان» قرية من قرى الأهوار ، وبعقوب بن داود وريز
المهدي مولى كذلك ، وكذلك كان يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد ،
واستورر المأمون بن سهل وكانوا من أولاد ملوك الفرس ، ومن صانع
البرامكة ، واستورر المأمون الفضل بن سهل ، ثم الحسن بن سهل ، ولما دالت
دولة بني سهل استورر المأمون أحمد بن يوسف ، وهو مولى لمي العجل^١ ثم
استورر ثابت بن يحيى بن سيار الراري وهكذا

فترى من هذا أن أكثر الورياء في هذا العصر الذي توجّه كانوا فرساً ،
وكان الوزير قائماً مقام الخليفة في كل الشؤون فسطر في الشؤون الحربية ،
وفي الشؤون المالية ، ويكتب الرسائل الى الجهات المختلفة ، ويوقع
على ما يُرْفَع اليه من أوراق ، ولم تعدد الورياء في الدولة العباسية بعدد
الأعمال ، فجعل للحرب وريز ، وللمال وريز وهكذا ولما كان بعدد الورياء
بعدد الأعمال ، من نظام الاندلسيين ، فقد قسموا حُطّة الوزارة أصفاً
وأفردوا لكل صنف وريزاً ، فجعلوا الحُسن المال وريزاً ، ولترسل وريزاً ،
وللنظر في حوائج المطلبين وريزاً ، وللاظر في أحوال أهل الثغور وريزاً^٢
وعلى العكس من ذلك العباسيون ، فقد جمعوا له بن حُطّى السيف والقلم
وهذا الذي ذكرنا من أن الوريز كان يجمع الى الادارة الحربية والمالية
حطة القلم - وأعطى بها إبعاد الرسائل الى الجهات ، والوقوف على ما تُعرض
عليه من مطالب ورسائل - جعل من شروط الوريز أن يكون عالماً
مطلعاً ، كاتباً بليغاً . وكذلك كان أكثر الورياء في ذلك العصر « حكي أن
المسأون كتب في اختيار وريز إلى النيسب لأُموري رحلاً جامعاً لخصال

الحبر، داعية في حلائقه، واستقامة في طرائقه، قد هدته الآب، وأحكمتها
 الحارب إن أوتيت على الأسرار قام بها، وإن قُتد مهمات الأمور مهص
 فيها يُسكنه الحلم، وبطقه العلم وتكفيه اللحظة، وتعبه اللحظة له صولة
 الأمراء، وأتاه الحكماء، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء، إن أحسن اليه
 شكر، وإن أعل بالأساءه صبر لا يمنع بصل يومه بحرمان عده، يسترق
 فلوب الرجال بحلابة لسانه وحسن سانه، وتاريخ الورراء، يداثا على
 أن أكثر من احبر للورارة لوحط في اختيارهم الكمايه العلمية والبلاغة،
 فأبو سلية الجلال كان فصيحاً عالماً بالأخبار، والأشعار والسر والحدل،
 والبرامكة كانوا دوى مساركة في كبر من العلوم والآداب والفصل من سهل
 كان يسمى ذا الرئاسة لجمعه من رياسة السيف ورياسة القلم الخ.

وهذه القدرة الكتابية التي كان تشتهر بها الحلفاء في الورير، كانت من
 أكر الأساليب في قصر الورارة على الفرس - عالماً - فالعرب كانوا أهل
 فصاحة لسانية أكثر منهم أهل بلاغة كتابية ولعل هذا هو السبب في أهم
 وضعوا للفصاحة كلمة مسقة من اللسان، فقالوا، رحل آس إذا كان دايان
 وفصاحة، ولم يشتهوا مثل ذلك من الكتابة

والحق أن القدرة الكتابية كانت عند الفرس أتم منها عند العرب،
 وحى في الدولة الأموية كان أظهر الكتاب الفرس من الفرس، أمثال
 عبد الحميد الكاتب، وسالم مولى هشام وكان العربي يهجر بالسيف واللسان
 لا بالفلم قال يزيد بن معاوية بعدد فصل يده على رباد بن أبيه «لقد فعلناك
 من ولاء نفع إلى عز فرس، ومن عتد إلى أفي سبها، ومن العلم إلى
 المايراء، ولم يرل العرب تفصل السيف على الفلم، وفي ذلك قول سليط
 ابن حرب العبدي

أتحقرني ولست لداك أهلاً وثني الأصغر من الحيوان ؟
جهاندة وكثانا وليسوا بمرسان الكريمة والطعام
ستعرفني وتذكرني إذا ما تلاقى الحلفتان من الطان ١

هؤلاء الورراء كان لهم - من هذه الناحية التي يعيا الآن وهي ناحية
أهم أرباب أقلام - أعوان يسمون الكتّاب ، فقد كان لكل ورر كاتب ،
بل كتّاب بعينه ولولا الأقاليم ، ورجال الدولة كتّاب . وكان حماد عمرو
مثلاً كاتباً لعلي بن محمد بن موصول بالموصل ، وكان ابن المصعب يكتب لداود
ابن عمرو بن هُمَيْرَة وإلى كُرَمان ٢ ، وكان عمرو بن مسعدة يكتب للباهون ،
وكان الحسن بن عيسى يكتب لعمر بن مسعدة ، وكان يكتب لعلي بن خالد
البرمكي عند الله بن سوار بن مسمون وهكذا

وكانت هذه الطائفة - طائفة الكتّاب - تؤتمن وحدة على رأسها الورير ،
بل وتندرج في الرقي إلى الورارة ، معتمده على كتابتها وبلاغتها فقد وقع
عمرو بن مسعدة على ورقة رُفِعَ إلى جعفر بن يحيى ، فأعجب جعفر بوقع
عمرو ، فصر يحيى بده على طهر عمرو وقال أي ورر في جلدك ! ٣ وكان
بين أفراد هذه الكتلة صلات ولولم تتعارفوا وحصر ديوان الجراح في
أنام الرشيد شيع من قدماء الكتّاب ، ومعه بوقع من الرشيد بقضاء دين
عليه ، فعُيِيَ الكتّاب به ورخّوا كتابه ، فقال لهم احفظوا عني ثلاثاً
الحوار ٤ نسب ، والمودة نسب ، والصناعة نسب ٤ ، وقبل ذلك كانت بصحة
عند الحمد الكاتب لمعشر الكتّاب ، دليلاً على أهم كتابوا يؤلفون وحدة في
آخر عهد الدولة الأموية

١ الورراء والكتّاب للحميد أرى ٢٤ والطان حرام ذو جلعن شد على بطون الجلعوسى
بلاغتها الاستعداد للحرب ٢ المصدر منه ٣ انظر معالي الأساد كرد علي في هذا الموضوع
في مجلة المجمع العلمي « البلاغة سيدل الورارة » حرره ٥ و ٦ سنة ٢٧ ٤ المعهشارى ٣٤٣

كان أكثر هؤلاء الكتاب فرساً كالوزراء ، يتحدثون حدود أحداهم من
الفرس - حتى في مطاهرهم الجارحية - يروى الجحشيارى « أن الفصل من
سبل بن رادا بهروح - ذا الرياسين - كان مجلس على كرسى مُجْتَمِعٌ ، ويُحْمَلُ فيه
إذا أراد الدخول على المأمون ، فلا يزال يُحْمَلُ حتى تنزع عن المأمون عليه ،
فإذا وقعت وُضِعَ الكرسي وبرل عنه هُجْئٌ ، وُحْمِلَ الكرسي حتى يوضع
بين يدي المأمون ، ثم يُسْتَمَدُّ إلى كرسيه ويعود فيبعد عنه . . . وإنما ذهب
دو الرياستين في ذلك إلى مذهب الأكاسمه ، فإن وزيراً من ورثتهما كان
يحمل في مثل ذلك الكرسي ، ويقعد بين أيديهما عليه ، وتولى حمله اثنا عشر
رحلاً من أولاد الملوك ١١٤

بل إنَّ تكوُّن الكتاب كقطعة، ليس إلا تقليداً للنظام العائلي،
 فالخيشياري يقول « كان من رسم ملوك العرس أن يلبس أهل كل طبقة من في
 خدمهم لبسة لا يلبسها أحد من في غير تلك الطبقة، فإذا وصل الرجل إلى
 الملك عَرَفَ بلبسه صناعته، والطبقة التي هو فيها، وكان الكتاب في
 الخصر يلبسون لبستهم المعهودة. وكانت ملوك العرس تسمى كتاب
 الرسائل تراجمه الملوك،^٢

كان لهُولاء المكتيب أثر كبير في نشر نوع من الثقافة خاص ، ذلك أن ثقافتهم كانت أوسع من ثقافة عصرهم ، وكانت معارفهم ودائرة اطلاعهم واسعة شاملة ، لأنهم - بحكم مناصبهم - مضطرون أن يعرفوا أحوال الناس الاجتماعية وبمبادئهم ، وأن يعرفوا من اللغة والأدب وعلوم الدين والفلسفة والجغرافيا والتاريخ طرفاً ، لأن كثيراً من مواقفهم يتباحث إلى ذلك ، وقد تعرض للطبيعة أو الوالى مسائل من هذا القبيل ، يضطره الكاتب إزاءها أن

١ الحشرات ٤٠١ و ٤٠٢ ٢ المصادر ٣ و ٤

يكون مُلِمًا بجميع ذلك . إدم الدين كانوا يَعْرِضُونَ على الخلفاء ما يرد عليهم ويحترزون ما يصدر منهم . ويوضح ذلك اذا نحن قاربنا بين معارف الكاتب ، ومعرفة المحدث أو الفقيه في ذلك العصر . فالمحدث أو الفقيه معارفه محدودة ، ودائرةٌ حول فية ، فان توسع في شيء فاما يتوسع في المسائل التي تُعَدُّ وسائلَ لهبة كاللغة والنحو والصرف ، أما الكاتب فدائرته أوسع من ذلك وحسبنا دليلا على هذا ما أُلِفَ للكاتب من الكتب

فأول ما يعرفه من ذلك ، أدب الكاتب لاس قنينة ، فقد حمله على تأليفه كما ذكر في مقدمه أنه رأى طائفة من الكتاب « قد شُجِعَ بالطرف في الجحوم والمطافى والفلسفة ، وعَرَفَ السكون والفساد وسمع الكيان والكيفية والكسبة ، والجواهر والعرض ، ورأس الخط البعطة ، والنقطة لا تنقسم إلخ » وأهمواو البطر في اللغة وما إليها فوضع لهم كتابه في ذلك ، فهو خاص بما يلزم الكاتب من لغة ونحو وصرف وإملاء . وأُلِفَ بعده أبو بكر الصُّوْلِي كتابه « أدب الكتاب » فَعَمَّرَ اسَ قديمه بالنقص في كتابه ، وتوسَّعَ هو في مسائل لم يتعرض لها اس قديمه ، فتكلم في حسن الخط ووضوحه ، والدواة والقلم وما بهما ، وتدريب الكتاب وطبته ، والدعاء في المكاتبات — والدواوين وتحويلها الى العريسة ، ووجوه الأموال التي تحمل الى رب المال ، وشيء من قواعد الإملاء . وأُلِفَ اس دُرُوسِيَّة المَوْسِي سنة ٣٤٦ كسب « السُّكُتَات » وأكثره في قواعد الإملاء ، وفي آخره باب في إصاح الكتاب ، وفي البأرخ ، وما تذكره وما يؤب ، وما يورد ويجمع ثم في ترتيب العلم وسه وفطه ، والدواة وما إليها إلخ . ويتوسَّع من جاء بعدهم — من المؤلفين للكتاب — حتى حتمت كتاب « صبح الأعشى في صناعة الإنشاء » فعرَّض فيه — بربما — لكل المعلومات البشرية في عصره ، من تاريخ وجغرافيا وفلك ، وما يحتاج إليه الكاتب عمليا في صناعته من حط ونحوه ، ومصطلح

المكائنات، وقيمة العمود، والبريد، ومطارات حمام الرسائل، والمبارات الخ .
فترى من هذا كيف كان المؤلفون يعمون بهذه الطبقة من الناس . وكيف
كانوا يطلّون منهم المعارف الواسعة في الموضوعات المختلفة ، وأن هذه
الطبقة كانت تمتاز عن بقية العلماء بالثقافة العامة

بل يظهر لي أن هذا الموهب ، هو الذي جعل الناس يقولون إن الأدب
هو الأحدث من كل شيء بطرف ، فقد يرى أن كلمة الأدب في صدر الإسلام
كانت تطلق على التهديب الحلقى ، ثم كانت تطلق على العلم باللغة والشعر ، وأيام
العرب وتاريخها وما إلى ذلك . واستعملت هذا المعنى في العهد الأموي فلما
حاج هؤلاء الكتاب واتسعت الثقافة ، وصاروا يطلبون من الكتاب أن
يعرف الثقافة العربية والعلمانية اتسع معنى الأدب ، وقالوا « إن الأدب
الأحدث من كل شيء بطرف »

بل جعلوه يشمل معرفة شيء من الألعاب ، قال الحسن بن سهل ، وهو أحد
الورراء والكتاب في عصرنا العباسي « الأداب عشرة . ثلاثة شهر حانية
وثلاثة أبو شروانة ، وثلاثة عربية ، وواحدة أربت علمن . فأما الشهر حانية
فصنّف العود ، ولعب السطرنج ، ولعب الصوّالخ وأما أبو شروانة فالطبخ ،
والهندسة ، والفروسية وأما العربية فالشعر ، والنسب ، وأيام الناس وأما
الواحدة التي أربت علمن فمقطعات الحند ، والسمر ، وما سلفاه الناس في
المجالس »^١

بل يظهر لي - أيضاً - أن هذا كان أحد الأسباب في فوضى الكتب
الأدبية المؤلفة في ذلك العصر كالنسا والنسب ، والكامل ، وعمون الأخبار
فقد فسدوا فيها إلى جمع ما يند ، وتكوينه بعضه فوضى بعض ، فاهمّن الأدب
بمعناه الواسع الذي ذكرنا ، حكمة بحاسنها من العل ، إلى بادره لطيفة
إلى حطمه بليغة ، إلى قصص في السجل ، إلى أخبار الحوارح

واللاحظ - في كتابه الحيوان - تكلم في الحِصاء بعد كلامه في فائده الكتاب
الى غير ذلك لأن العرص عندهم أن يلم الأديب من كل شيء بطرف، ثم
حاطت الكتب الأخرى بعدها تحدد حدودها، وتفرق مجتمعا، وتجمع
مفرقا، وتريد ما استحدث من الطرف الأدبية

هؤلاء الورراء والكتاب بشروا الثقافة العامة، وصموا الى الآداب العربية
الآداب الفارسية، فأصبح مما ينظله الأدب، أن تعرف حكمهم برسمهم كما
تعرف حكم أكرم بن صبيح، وتعرف تاريخهم من كما تعرف تاريخ العرب،
وتعرف أقوال كسرى وسابور وأروبر وموند موندان كما تعرف أقوال
الحلفاء الراشدين والأمويين، فقد جاء في نسخة عند الحمد الكاتب الى
الكتاب. فما سوا معشر الكتاب في صفوف العلم والأدب، وبنقروا في
الدين واندووا بعلم كتاب الله عز وجل والمراثي، ثم العربية فابها ثقاف
ألسنكم، وأحدوا الخط فابها حليته كسكم، وارووا الأشعار، وأعرفوا
عربها ومعانيها، وأنام العرب، والعجم وأحاديثها وسرّها، فان ذلك مع
لكم على ما تسمون الله هممكم، ولا تصعصع بطركم في الحساب فابها فوام كتاب
البحرأج منكم، وقال الرشيد للكسائي معلم أولاده « ناعلى بن جرحه،
هذا أحلكناك المحل الذي لم يكن سلعة همتك، فروسا من الأشعار أعقها، ومن
الاحاديث أجمعها لمحاسن الأخلاق، وداكرنا بأداب العرس والهند، ولا
تسرع علما الرثى في ملأ، ولا تترك شقيقا في حلاء».

السبب الثاني - في نشر الثقافة الفارسية - انتقال عاصمته الخلافة من دمشق
الى العراق، وكان من أكبر نواعت العباسيين على هذا الانتقال أن دمشق
كانت عاصمة الأمويين، وكانت صانع الشام مع بنى أمية من عهد الخلافة
بن علي ومعاوية، وكان الشاميون هم الحيد المختص لى أمية، وهم مثال

الطاعة لدولهم من حرم العباسيين ألا تكون عاصمة الدولة الجديدة بين الشاميين وتحت رحمتهم ، وفوق ذلك ، فدمشق بعيدة جداً عن حراسان ، مسع الثورة ، ومصدر الدعوة ، ودخيرة العباسيين وعمادهم .

وسبب آخر وهو أن دمشق مُسَيَّجةٌ بأحية العرب ولست في الوسط ، ولا قريبة من وسط المملكة التي تمتد من البحر الأبيض إلى الهند والعراق يحقق هذه الأعراس فمعداد قريبة من حراسان ، قرية من الشرق ، بعيدة عن الروم ، كثيرة الحيرات ، صالحة لأن تكون نقطة اتصال بين الفرس والأمم السامية ، وقد كره العباسيون أن يتحدوا البصرة أو الكوفة مقر أهل لان تاريخهما - وخصوصاً البصرة - سلسلة ثورات متصلة ، ولأن فيهما عدداً كبيراً تنسب لعل وأولاده ، وهذا النسيج حُرِّم ، وأُحْدِث عليه العباسيون ، كما كان يؤاخذ عليه الأمويون - لذلك اتحد السفاح مدينة الهاشمية قرب الأسار ، فلما جاء أبو حمزة المنصور اختار موقع معداد ، وقد وفق في اختياره ، فحاجبها الأراضي الحصنة بين دجلة والفرات ، وهي كما قال بعض البصريين للمنصور « بأمر المؤمنين » تكون على القصر بين دجلة والفرات ، فإذا حاربك أحدكاتب دجلة والفرات حادق لمدينتك ، ثم إن المرة أتيتك في دجلة من ديار بكر تاره ، ومن البحر والهند والصين والبصرة وفي الفرات - من الرقة والشام ، وتحبك المرة أيضاً من حراسان وبلاد العجم في شهر بامرأ ، وأب يا أمير المؤمنين بن أمهرك لا يصل عدوك إلا على حسر أو فطرة ، فإذا قطعت الحسر وأحرب القطر لم يصل اليك عدوك ، وأب موسط للبصرة والكوفة وموسط والموصل والسواد ، وأب قرب من البر والبحر والجل ،^١ .

والذي يهمنا أن معداد كاتب في العراق حيث عواصم الممالك القديمة مثل بابل والمدائن

لهذا كله ، أصبحت بعدد بعد قليل - أهم مركز للحضارة والثقافة في المملكة الإسلامية بل في العالم كله - ونحن إذا استثنينا أوقات الفتن والاضطرابات أمكننا أن نقول إنها طابت في رقي واتساع وعظمة الى نهاية القرن الخامس الهجري

كان لهذا الانتقال من الشام الى العراق أثر كبير - من الناحية العقابية - فقد كان يسكن العراق أمم مختلفة ، وتداولت عنه دول حلفت فيه مدينتها وثقافتها ، وكان يسكنه قسطنطين الفصح الإسلامي نهايا من الأمم القديمة مثل السكندريين والسريين وهم الذين بلغوا بالآراميين ، وكان يسكنه العرب من إياد ورسعة ، وكان يقيم به المادرة الذين أسسوا هنالك الحنرة ، وكانت مدينة الفرس عالة عليه لأن آخر من حكمه قبل الإسلام هم الساسانيون من الفرس ، وطل في أيديهم ربما طويلا إلى أن استولى عليه المسلمون في أيام عمر ، وكانت فيه والمدائن عاصمة الساسانيين كل هذا جعل العراق أكثر ما يكون اصطلاحاً بالعارسية فلما كان العباسيون ، وكان الفرس هم الذين أعادوهم كان من هذا وذلك يعود للفرس عظم في المماصب وفي الثقافة .

والآن يريد أن يجت الواحي التي كان فيها للثقافة العارسية أثر في الثقافة الإسلامية

وأول ذلك الالفاظ اللعوبية ذلك أن العرب لما محضروا بعد البداوة وحدوا أنفسهم أمام أشياء كثيرة ، ليس في ألفاظهم ما يدل عليها ، وكان ذلك في جميع مراقي الحياة ، من أدوات الرنة ، وأواع المأكول والملابس ، وآلات العاء ، والدواوين ونظامها ونحو ذلك ، فسلخوا خبر طريق يسلك لذلك وهو أن توسعوا في مدلولات الكلمات العربية أحيانا وأحدون الكلمات الأجنبية أحيانا ، فمضموه بما هم ولسانهم أحيانا وكانت اللغة العارسية مسعاً كبيراً من المنابع الى تسجدهم اللغة العربية ووسعها مادتها - حتى الصولي قال - حدثنا

على أن الصَّحاح قال سمعت الحسن بن رجاء يقول ناظر فارسي عربياً بن
يدى يحيى بن خالد البرمكي فقال الفارسي ما احتجنا اليكم قط في عمل ولا
تسمية، ولقد ملكتم ما استعنتم عما في أعمالكم ولا لغتكم، حتى إن طيحتكم
وأشرككم ودواؤكم وما هبها على ماسمها، ما غيرتموه، كاللَّسْمِ سِدَاح
والسَّكْدَاح والدُّوْعِمَاح، وأمثاله كثيرة، وكالسَّكْنَجِين والحَلَجِين والحُلَّات
وأمثاله كثيرة: كالرُّورْنا نحو الأسكندار والفرانك وإن كان رومياً - ومثله
كثير - فسبك عنه العرفي فقال له يحيى بن خالد قل له اصبر لنا بملك كما ملكتم
ألف سنة، بعد ألف سنة كاتب فعلها لا محتاج اليكم، ولا إلى شيء كان لكم^١
وبقول الحافظ: «ألا ترى أن أهل المدينة لما رل فيهم ناس من الفرس
في قديم الدهر علقوا باللغات من ألغاطهم ولذلك يسمون المصليح الخِرَتر» .
وكذا أهل الكوفة فاهم يسمون المسجده «بال» و«بال» بالفارسية .
وأهل مصره إذا بقى أربعه طرق يسمونها مَرَّعَه ويسمونها أهل الكوفة
«بالخهارسو» «والخهارسو» فارسية وسمون السوي أو السوييه «وارار»
والوارار فارسيه ويسمون الفناء جياراً، والخيار فارسية الخ^٢
من قديم سربت ألغاط فارسية إلى اللغة العربية، وكان ذلك بطريق
التجارة أو الاختلاط ولكيها بعد فليله إذا فسب بالالغاط التي دحاح
في العصر العباسي للسب الذي ذكرنا، وهو أن العرب كانوا أكثر شعوراً
بأسباب الحصاره في العصر العباسي، فكانوا أشد احتياجاً للاقتناس من
الفرس، ولأن اللغة العربية لم تعد ملكاً للعرب وحدهم، بل كانت ملكاً للعالم
الاسلامي جمعه، والعالم الاسلامي لا يعصب للغة العربية يعصب العرب،
فهو مُنْجِح صدره للعب الأخرى ما دعا داع إليها
ثاماً وقد كان للفرس - من قديم - علم وأدب بناسان مع صحابه ملكهم

وعظم سلطانهم ، فلما حادت الدولة العباسية ، وكثير من رعييتها فرس ، لهم
برعة وطنية ، وميول قومية ، أحد المثقفون يقولون الى العربية تراث آباءهم ،
وما حفظته العصور الى عهدهم

كانت لهم كتب في التنجيم والهندسة والجغرافية ، وكانت تتوالى عليهم
بكميات تذهب بكثير من كتبهم ولكن كانت مدينتهم في حياة وعظمة ، فكانت
تسترد مجدها تأليف كتب جديدة تساهل عظمهم ، وأكبر كنية عرتهم كانت يفتح
الاسكندر الأكبر لدلاهم ، وقد تلف في هذا العهد كبير من حراش كتبهم
فلما حادت الدولة الساسانية (٢٢٦ — ٦٥٢ م) استعادوا أديهم وعليهم .
وأظهر ملوكهم في الميل الى العلم ، وتشجيع الترجمة والتأليف أردشير بابك
(٢٢٦ — ٢٤١ م) فقد تعب في طلب الكتب من الهند والروم والصين
وكذلك كان الشأن في عهد اسه ساور ، وعهد كسرى أنوشروان

وقد دامت الدولة الساسانية نحو أربعة قرون ، حاف فيها علما كثيرا
وأدبا وفيرا . وأكثر ما نقل لنا في العصر العباسي - من الآداب والعلم ،
والأساطير والبارح - إنما يرجع الى هذه الأسرة ، فالحمرة الأصمهاى وفأما
تواريخ من كان قبل الساسانية من ملوك الأشعابية ، فلم اشتغل بها للأفاب المعترضة
فها - كانت - في أرملة أولئك الملوك ، وذلك أن الاسكندر لما استولى على
أرض بابل وفهر أهلها ، حسدهم على ما كان اجتماع لهم من العلوم التي لم
يجمع قط لأمة من الأمم مثلها ، فأحرق من كتبهم ما بآله نده ، ثم قصد إلى
قتل المواندة والحرادة والعلماء والحكماء ، وما كان يحفظ عليهم في أنباء
علومهم وباريحهم ، حتى أنق على عامتهم - هذا - بعد أن نقل ما احتاج اليه
من علومهم الى لسان اليونانيين ٢

١ هكذا كان في الأصلان الهندى والأوروبى

٢ تاريخ سى ملوك الأرض والأساء لخره الاصمهاى من ٢٢ والبحث الحديث لا يؤيد كل ذلك

فلما نشطت الحركة العلمية في العصر العباسي، أخذ طائفة من يحنون اللساين - الفارسي والعربي - يقولون الكتب من الفارسية الى العربية، وقد عقد ابنُ القديم في كتابه الفهرست فصلاً لأسماء النقلة من الفارسي الى العربي، ذكر منهم:

- (١) عبد الله بن المقفع (٢) آل بُوَيْحُب (٣) موسى ويوسف ابني خالد (٤) أنا الحسن علي بن زياد النخعي (٥) الحسن بن سهل (٦) البلاذري (٧) حمله بن سالم (٨) اسحق بن يزيد (٩) محمد بن الحسن البرمكي (١٠) هشام بن القاسم (١١) موسى بن عيسى الكندي (١٢) رادويه بن هاشويه الأصمعي (١٣) محمد بن هرام بن مطيار الأصمعي (١٤) هرام بن مردان شاه (١٥) عمر بن القرحان^١

وقد ترجم عبد الله بن المقفع كتاب جديناه، وهو كتاب في تاريخ الفرس من أول نشأتهم الى آخر أيامهم. وقد سماه ابن المقفع «تاريخ ملوك الفرس» والظاهر أن الطبري اعتمد عليه في كتابه تاريخ الأمم والملوك عند كلامه على الساسانيين، وترجم كذلك كتاب آيين نامه، ومعنى الآيين العظيم والعدادات والعرف والشرائع، فالكتاب وصف لنظم الفرس، وتقاليدهم وعرفهم. وقد ذكر المسعودي: أنه كتاب كبير، يقع في آلاف من الصفحات. كذلك ترجم ابن المقفع عن الفارسية «كيلة ودمية وكتاب مردك» وهو تتضمن سره مردك الرعي الديني الفارسي المسهور، وكتاب «التاج» في سيرة أبوشروان، وكتاب «الأدب الكبير» و «الأدب الصغير» وكتاب «الخدمة»^٢ وقد ذكر المسعودي: أن ابن المقفع ترجم كتاباً اسمه «كتاب السككين» من الفارسية الأولى الى العربية - وهذا الكتاب تحطمه الفرس لما قد تضمنه من خبر أسلافهم وسر ملوكهم^٣

١ المصدر منه من ١١٨

١ ان القديم من ٢٤٤ وما

٣ مروح الذهب جزء ١ ٩٠

وقد عثي المبرحمون فترحموا كسباً عديدة من تاريخ الفرس، يقول حمزة
الأصهاني، «انهم لي ثمان نسخ - من تاريخ الفرس - وهي كتاب سير ملوك
الفرس من نقل ابن المقفع، وكتاب سير ملوك الفرس من نقل محمد بن الحنفية
البرمكي، وكتاب تاريخ ملوك الفرس المستخرج من حراثة المأمون، وكتاب
سير ملوك الفرس من نقل رادويه بن شامويه الأصهاني، وكتاب سير ملوك
الفرس من نقل أبو حمزة محمد بن بهرام بن مطيار الأصهاني، وكتاب تاريخ
ملوك بني ساسان من نقل أبو حمزة هشام بن قاسم الأصهاني، وكتاب تاريخ
ملوك بني ساسان من اصلاح بهرام بن مرداشاه مؤيد «كورة سابور» من بلاد
فارس فلما اجمع لي هذه النسخ صرحت بعضها ببعض حتى استوفيت منها
حتى هذا الباب»^١

وقال المسعودي «ورأيت بمدينة اصطخر من أرض فارس في سنة ٣٠٣
بعد بعض أهل البيوتات المشرفة من الفرس كتاباً عظيماً يشتمل على عاوم
كثيرة من علومهم، وأخبار ملوكهم وأبائهم وسياسهم، لم أجد فيها شيء
من كتب الفرس، كجداراه، وأبناه، وكنهاه، وغيرها مصورة فيه ملوك
فارس من آل ساسان سبعة وعشرون ملكاً، منهم خمسة وعشرون رجلاً
وامراً»^٢

وترجم حمله من «الم» كتاب رستم واسعد بنار، وه كتاب بهرام سوس»
وهما في السّر^٣.

وقد ترجم من الكتب القديمة كتاب رزاد بن المسيمي «أفستيا» وما عليه
من شروح، ونقل عنه حمزة الأصهاني، ويقول المسعودي «كانوا يقولون
ان رجلاً سيجسئان بعد الثلثة مئة مستظهر يحفظ هذا الكتاب على الكمال»^٤

١ حمزة الأصهاني من ٩٨ كتاباً الأصل وهي كما يرى نسخ لا ثمان

٢ كتاب النسخ والاشراف للمسعودي ١٦ ٣ ١١ الدم من ٥

٤ المصار عنه من ٦٤ ٥ مروح الاله جزء ١ ١١

وفي الأدب؛ ترجوا عن الفرس أشياء كثيرة، منها ما ذكرنا قبل من كليله ودمنة، واليتيمة، والأدب الكبير، والصغير، ومنها كتاب «هزار أفسانه» ومعناه ألف خرافة، وهو أصل من أصول «ألف ليلة وليلة» وكثير غيره من كتب القصص؛ ككتاب بوسفاس، وكتاب خرافة ونزهة، وكتاب الدب والثعلب، وكتاب رموز به اليتيم، وكتاب نمرود، الخ. كما ترجوا في الأدب عهد أردشير، وهو محفوظ بالعربية إلى عهدنا، وكتاب موبد موبدان، وكتاب أردشير في التدبير، وتوقعات كسرى. وكتاب أدب الحرب، الخ^١.

هذا الذي ذكرنا كان ترجمة ونقلًا من اللسان الفارسي إلى العربي، وشيء آخر لا يقل عنه شأنًا، وهو: أنه كان هناك قوم أتقنوا اللغة الفارسية والعربية معًا، فسكفوا على قراءة الكتب الفارسية يتتقون بها، وروّقون أفكارهم وعقولهم، ثم هم يخرجون باللغة العربية أدبًا وشعرًا وعلماً، ولبس ما يخرجونه نقلًا تمامًا لكلام فارسي ولكنه منبعث عنه، ومتولد منه، كالعربي اليوم يتتقن ثقافة فرنسية أو إنجليزية أو ألمانية، ثم هو بعد ذلك يخرج أدبًا جديدًا بلغته العربية لا يسمى أدبًا أوروبيًا، ولكنه نتاجه متأثر به، وسائر على أثره. كان كثير من الفرس على هذا النحو، حذقوا الفارسية والعربية، وتقفوا الثقافيتين، وأنجوا في الأدب العربي نتاجًا جديدًا كالفصل بن سهل، وسهل ابن هارون، وابن المقفع، ويقول الجاحظ عن موسى بن سيار الأسواري - أحد القصاص - كان من أعاجيب الدنيا، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية وكان يجلس في مجلسه المشهور به، فيفعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية. فلا يدرى بأي لسان هو

أَيَّسَ واللَّعَانُ إِذَا التَّقَاتِي فِي اللِّسَانِ الْوَاحِدَ أَدْخَلَ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا الصِّمَمَ عَلَى صَاحِبِهَا إِلَّا مَا دَكَّرُوا مِنْ لِسَانِ مُوسَى بْنِ سَيَارِ الْأَسْوَارِيِّ^١.

بَلْ رَى قَوْمًا مِنَ الْعَرَبِ تَعَلَّمُوا الْفَارْسِيَّةَ وَوَحَدُوا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَحْدُوهُ فِي الْعَرَبِيَّةِ، فَعَسَكُوا عَلَى كَتَبِهَا تَدَارِسُونَهَا وَيَمْعِنُونَ فِي دِرَاسَتِهَا، ثُمَّ يَخْرُجُونَ بَعْدَ أَذْنَاءٍ عَرَبِيًّا فِيهِ مَعَانِي الْفَرَسِ، وَبِلَاغَةُ الْعَرَبِ يَذْكُرُ مِثْلًا عَلَى ذَلِكَ «الْعَتَانِي» الشَّاعِرُ الْعَبَّاسِيُّ الْمَشْهُورُ وَهُوَ عَرَبِيٌّ مِنْ تَعَلُّبِ اسْمِهِ كَسَلْتُهُمْ مِنْ عَمَرُو بْنِ أَبِي ثَوْبٍ تَقَفَ بِالثَّقَافَةِ الْفَارْسِيَّةِ، وَأَعْجَبَهَا يَحْدُثُنَا طَبَقُورُ مَقُولٍ «قَالَ يَحْيَى بْنُ الْحَسَنِ إِلَى الْبَلْقَةِ بْنِ يَدِي مُحَمَّدُ بْنُ طَاهِرِ بْنِ الْحَسَنِ عَلَى بَرَكَةِ إِدْعَاةٍ مَعْلَامٍ لَهُ فِكَلَمَتُهُ بِالْفَارْسِيَّةِ، وَدَخَلَ الْعَتَانِي وَكَانَ حَاضِرًا فِي كَلَامِهِمْ فَكَلَّمَ مَعِيَ بِالْفَارْسِيَّةِ، فَقَالَتْ لِي أَنَا عَمَرُو مَالِكٌ وَهَذِهِ الرُّطَابَةُ؟ قَالَ فَقَالَ لِي قَدِمْتَ بِلَدِّكَ هَذِهِ ثَلَاثَ قَدَمَاتٍ، وَكَتَبْتَ كِتَابَ الْعَجَمِ الَّتِي فِي الْخِرَافَةِ بِمَرَوْ - وَكَانَتْ الْكُتُبُ سَقَطَتْ إِلَى مَا هُنَاكَ مَعَ يَرْدُ حَرْدٍ فِيهِ فَائِمَةٌ إِلَى السَّاعَةِ - فَقَالَ كَتَبْتَ مِنْهَا حَاجَتِي ثُمَّ قَدِمْتَ بِسَابُورٍ وَخَرْتُهَا بَعَثَرٍ فَرَأَسِحَ إِلَى فَرِيَّةٍ يَقَالُ لَهَا دَوْدَرٌ، وَدَكَّرْتَ كِتَابًا لَمْ أَقْصِ حَاجَتِي مِنْهُ، فَرَحِمْتَ إِلَى مَرَوْ فَأَقْبَ أَسْمَرًا، قَالَ. فَلَيْتَ أَنَا عَمَرُو لِمَ كَتَبْتَ كِتَابَ الْعَجَمِ؟ فَقَالَ لِي وَهَلِ الْمَعَانِي إِلَّا فِي كِتَابِ الْعَجَمِ، وَبِلَاغَةُ اللَّعْنَةِ لِمَا وَالْمَعَانِي لَهُمْ أَتَمَّ كَانَ يَدَاكَ لِي وَتُحَدِّثُنِي بِالْفَارْسِيَّةِ كَمَا يَرَى^٢.

كَانَ الْعَتَانِي إِذَا مُتَقَفًا ثِقَافَةً فَارْسِيَّةً، وَأَنْتِ إِذَا قَرَأْتَ شِعْرَهُ وَبَثَرَهُ تَسَلَّبَ مِنْهُ أَنَّهُ كَانَ أَدَاً أَمْتَارًا، عَرَبِيًّا الْمَعَانِي، عَلَى حَسْبِ أَنْ كَبُرَ مِنْ السَّعَرَاءِ أَشْعَارُهُمْ حَوْفَاءً. تَقْرَأُ لَهُ مِثْلًا فِي الْعَقْدِ الْفَرِيدِ، قَطْعًا يُثَرِّبُهُ عَرُوتُ هَامِسِهَا، وَدَقَّةُ أَسَاسِهَا، وَتَقْرَأُ لَهُ شِعْرًا مَطْبُوعًا فِي هَوْنٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ هَوْنِ الْأَمْعَرِ - فَتَسْمَعُ رُوحَ عَيْبِ مَأْلُوفٍ، كَأَن يَهْوِلُ

١ اللسان والبدن ١ ١٣٩ ٢ طبوق الجزء السادس من تاريخ بغداد ص ١٥٧ ١٥٨

فلو كان للشُّكر شخصٌ يمين إذا ما تأملته السَّاطِرُ
 لَمَشَّيْتُه أَلَيْكَ حَتَّى تَرَاهُ لِنَعْلَمَ أَيْ امرؤُ شَاكِرُ
 فَيُشْفِئَ به النَّاسُ، ويتَعَوَّنَ به رَمَماً طَوِيلاً وهو الذي يَهْوِلُ
 مَا حَمَّاءٌ لِلْعَيْنَيْنِ نَعْبَ دَكَ يَا فَرِيرَ الْغَيْثِ مَحْزَى
 إِبَ الصَّانَةِ لَمْ يَدْعُ مَنَى سَوَى عَظَمٍ مُرَرَى
 وَمَدَامَعٍ عَسْرَى عَلَى كَيْدِ عَيْنِكَ الدَّهْرَ حَرَرَى

وله حكم تشبه حكم من المققع كأن يقول الأفلام مطايا العنق
 قر نك من فرث منك خزرة، واس عمنك من عملك بقعة، وعشرك
 من أحسن عشرتك، وأهدى الناس إلى مودتك من أهدى رة إليك،
 وكتب يوصي شخص فقال «موصول كمان إليك أنا فكس له أنا»، وعلى
 الحمله فالعتاى شخصية نادرة، لم تقدر قدرها اللاتق لها قليل اللفظ، عزيز
 المعنى، يدل ثره وشعره على ثقافة واسعة، وقد اجمع له من الاحادى في العلم
 والثر ما ندر أن يجتمع لغيره، وقد أدركنا سبب ذلك مما علمنا من ثقافته
 هؤلاء الفرس الذين تعربوا، وهؤلاء العرب الذين أخذوا عطف من
 الثقافة الفارسية، ماوا الدنيا في هذا العصر العباسى علماً وحكمة وشعراً وثوراً،
 فيها العصر الفارصى واضح حتى ومن حظ العربيه وفي ذلك أمها سادت اللغة
 الفارسية وعلتها على أمرها، فكان ساح العقول الفارسيه الراحه، إنما هو
 باللغة العربيه لا الفارسيه، شعر الشاعر مهم عربى كمشتر، وأدب الأدب
 مهم عربى كالمققع، وألف المؤلف هم عربى كاس ونسبه والطبرى الخ
 ثالثاً — أثر الثقافة الفارسية في الأدب العربى وقد كان ذلك من حملة

وحوه:

١ - ان الأدب - في كل عصر - طُلُ الحياة الاجتماعية وقد كانت هذه الحياة ذات ألوان متعددة، أظهر لون فيها اللون الفارسي وبيان ذلك: أن العادات الفارسية تعللت في الناس في ذلك العصر، وكان مطهرها واصحها حلياً فالناس يتحدثون يوم السرور عيداً لهم كالفرس قديماً، والقصة وعطاء الدولة يلبسون القلنسوة كالفرس، ونحاس العباء واللبو والشراب هي نحاس الفرس والفضل س سهل وير المأمون - وهو فارسي - يحتال حتى يقع المأمون بغير السواد بالحضرة، ويكتب الى جميع العمال أن يعملوا أعلامهم وفلايسهم حصراً، والحصرة هي لباس كسرى والمحوس وبطام الحرب وإدارة الدولة، اتتعت - في ألعاب الأحياء - بطام الفرس في حروبهم وإدارتهم، الى كثير من امثال ذلك.

والفرس من قدم ميثالون الى الافراط في الشراب، والافراط في العناء حتى وضعهم «هروذوت» بالامعان في ذلك، والعلو فيه وتصر يفهم شؤون الدولة وهم سكارى

ويروى حرة الأصفهاني أن «هراهم حور» أمر الناس أن يعملوا من كل يوم نصفه، ثم تسريحوا ويوفروا على الأكل والشرب واللبو، وأن يشربوا على سماع العناء «معون» ومن يقوم بشربون على غير مئوس (معتن) فقال ألس قدميكم عن العمله عن الملاهى؟ فهاوا طلباء ريادة على مائة درهم فلم يقدر عليه ا فكتب الى ملك الهند تستدعي منه مليون، وبعث اليه اثني عشر ألف رجل معهم، ففرقهم على بلدان مملكته فتناسلوا بها، فما أن قربت الدولة العباسية حتى عاد الفرس الى سبيتهم الاولى، مثلوا الحو عماء ولبوا وطرفاً، ورأينا رحالهم في كل من هذه العيون هم

قاده الناس في ذلك فاراهم الموصلى واهه اسحق، ينشران اللهو الطريف
والعباء الحلو، ويعلمان الخوارى ويقدمان للناس المثل في حياة السرف
والاتلاف في تحصل اللذائد وكانا مع حسن صوتهما - وخاصة اسحق -
عالمين اديبين شاعرين وقد وضع اسحق علم الموسيقى في الدولة العباسية
وألف فيه وأولع الناس بهما ولقد وهما في ههما ولهوهما، ولما مات
ابراهيم رثاه الشعراء بما يدل على أثره فيهم، من قائل

تولى الموصلي فقد تواتت نسايات المراه والقبان
وأى نسايشه نقت فتقى حياه الموصلي على الرمان !
سلكيه المراه والملاهي وتسد هه عاقه الدنان ١

ومن قائل

ستدكه أشراف الملوكة اذا رأوا نحل النصارى قد حلامه حاضه
وسكه أهل الطرف طرا كجا نكى علمه أمير المؤمنين وحاحه

ومن قائل

أصبح الآهؤ تحت عمر التراب ناوياً في حيله الاحباب
إد توى الموصلي فانقرص اللهو بحير الخوان والاصحاب
سك المسعاه حراً عليه وبكاه الهوى وصفو السراب
وكتب آله المحاسن حتى رجم العود دمة المصرا ٢
ونشارس بر د الفارسى كان امام المحدثين، والعائج لهم باب الآهك
على مصراعه، سار شعره في العراق فلا عرل ولا عرله إلا روى من شعره،
ولا بائحة ولا معية إلا تشكبه به وبأية النساء في نته فإحد عنه شعره

١ سعد بن علي الكاء، ومى ساءه الأمان الحمد ٢ أعانى ٥ ٧ وما بعدها

ويقول سَوار بنُ عبد الله ومالكُ بن دينار : « مائىءُ أدعى لأهل هذه المدينة (البصرة) الى الفسق من أشعار هذا الأعمى ، وكان واصل بن عطاء يقول : إن من أخدع حَبائل الشيطان وأغواها لكَلِماتِ هذا الأعمى المَلحداءُ ، ويقول بشار ، « عسرُ النساءِ الى مُيسَرةٍ فيُشجِعُ الفَتَيانَ على الإِمعانِ فى المغازلةِ والالحاحِ فى الطلبِ »^٢ . فلما قُتِحَ هذا البابُ لَجَّ فيه من أتى على أثره ، سواء فى ذلك العربى والعجمى : كمطيع بن إياس ، وأبى نواس . وكان لنا من هؤلاء جميعاً أدب داعر ، لا يتعقّف عن العبث بالغبان ولا يكتفى عن الخش ، إن ملّح من ناحيته الفنية ، فالذوق النبل لا يستسيغه .

نعم ؛ فى الأدب الجاهلى خمرٌ تراه فى مثل شعر طرفة ، وفُحشٌ تراه فى مثل امرئ القيس ، تقول وقد مالَ الغبيطُ بنا معاً وه الأعم صباحاً أيها الظالمُ البالى ، وكان فى الأدب الأموى خمرٌ كالذى فى شعر الأخطل . وكان غزل مكشوف كغزل عمر بن أبى ربيعة . ولكن أين هذا كله من شعر بشار وصريع الغواني ومطيع بن إياس ، وأبى نواس ؟ قد كان فجور الأولين ساذجاً بسيطاً فى ألفاظه ومعانيه كعيشتهم ، وكان فجور الآخرين مركباً معبناً فى الوصف ، شاملاً لكل المظاهر ، ومشاعر الشهوة ، يتخير اقبح اللفظ لأقبح المعنى .

قد تقول ، إن هذا نتيجة طبيعية لسير المدنية ، فلما تقدّمت بالناس حياتهم الاجتماعية ، وما يتبعها من ترفٍ تقدّم الشعرُ والأدبُ يُسايرون عيشة الترف والنعيم . فما للفرس ولهذا ؟

وقد يكون فى هذا القول كثير من الصحة ، ولكنى أظن أن الأمر ما كان يصل الى هذا الحد لولا الفرس ، فهم الذين دفعوا الناس الى حياة

١ أغاني ٣ : ٤١

٢ انظر قصته فى ذلك فى الاغانى ٣ : ٥٣

ترف ألغوها هم وأنؤمهم من عهد الأكاسرة ، وعلوهم كف يكون الإفراطى
 طلب المبلاد من طرق فسة أ كستهم إبتاها حصارتهم القديمة - لا من طريق
 سادح كالدى يعرفه العرب - هل كان يعرف العرب محالس العباء المتفقة ،
 ومحالس الشراب المترفة ، وحياة النعيم الباعمة لولا العرس ؟ فعطاء العرس
 كالبرامكة وأمثالهم أرشدوا الناس إليها ، وفتناوهم كإبراهيم الموصلى
 عتوهم عليها ، وشعراؤهم كشعار بن رند كانوا لساهم الباطق بها ، المحدث
 عنها أولو كانت الحياة الاموية امتدت وطلت السيادة العربية ، مارأيت تشبها
 بعلبان ، ولا هذا السيل الخارف من القيان ، ولما رأيت نعيما وترفا وفيرا ،
 ألم تر النمام ومصر والأندلس فى هذا العصر بمسه - لم تعمس فى الترف كما
 انعمس العراق وفارس ، ولم يكن أدها أدنا ناعما داعرأ كالدى كان فى العراق .
 قد يكون كثرة المال يصب فى حاضره الخلافة سدا للترف فى الحياة ، والترف
 فى الأدب ولكن المال وحده لا يكفى لولا العصر الفارسى الذى كان
 يظم كيف يسجد الممال فى هذه السبل

من الحق أن نقول إن هذه البرعة الى الله والترف لم تكن رعة عامه
 شامله للعرس ، بل كان هناك رعب أخرى يحاسبها ، أظهرها ما كان يهابها من
 رعة الرهد - وكان رعب هذه البرعة فى الأدب أنا العتاهيه الفارسى أيضا

قد كان قبل أنى العتاهيه حماة رهد فى الجاهلية وفى العصر الاسلامى
 وكان قبل أنى العتاهيه شعر راهد ولكن أنا العتاهيه أنى فى هذا الباب
 بما لم يسبق اليه ، وراد فى معانيه رواده تسار وأنى نواس فى أدب اللو
 والمجون . وأصبح تعبيرى ذلك أن يقول إنه فلسف الرهد ، ومثل الأدب
 العربى - فى عصره - بالموت والحواف منه وبما بعده ، واحتقار اللذة ، والجد
 فى الحرب بها

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَأَسْرُوا لِلْغُرَابِ فَكَلِّسْكُمْ بِصِيرٍ إِلَى تَنَابٍ
لَيْسَ نَبِيٍّ وَنَحْنُ إِلَى رِابٍ بِصِيرٍ كَمَا حَلَفْنَا مِنْ تَرَابٍ ؟
أَلَا نَامُوتُ لَمْ أَرَ مِنْكَ بُدًّا أَتَيْتَ وَمَا تَجِيفَ وَمَا تُحَايِ !

طَلَبْتُكَ يَادِيَا فَأَعْدَرْتُ فِي الطَّلَبِ هَذَا نَسْتُ إِلَّا الْهَمَّ وَالْعَمَّ وَالصَّبْرَ
فَلَبَّيْنَا بِدَا إِلَى أُنْسَى لَسْتُ وَأَصْلًا إِلَى لَدَةِ إِلَّا بِأَصْعَافِهَا تَعَبُ
وَأَسْرَعِ فِي دِيٍّ وَلَمْ أَقْصُرْ نَعِيٍّ هَرَبْتُ بِدِيٍّ مِنْكَ إِنْ بَعَثَ الْهَرَبُ
وَشَعَرَ لِحُورِ النَّاسِ لَا لِلْجَاسَةِ ، وَقَالَ « إِنْ الرِّهْدَ لَيْسَ مِنْ مَذْهَبِ
الْمُلُوكِ ، وَلَا مِنْ مَذْهَبِ رُؤَاةِ الشُّعْرَاءِ ، وَلَا طَلَّاءِ الْعَرَبِ ، وَهُوَ مَذْهَبُ
أَشْعَثِ النَّاسِ هَذَا الرِّهَادُ ، وَأَصْحَابُ الْحَدِيثِ وَالْعَهْدِ ، وَالْعَامَةِ ، وَأَعْجَبَ
الْأَشْيَاءَ الْبِهِمِ مَا فَعَلَهُ ٢ » وَقَالَ الْمُرَدُّ « كَانَ يَحْرَجُ الْقَوْلُ مِنْهُ كَمَا خَرَجَ النَّفْسُ
قُوَّةً وَسَهْوَةً وَافْتِدَارًا »

وَهَذَا كَانَ لَشُعْرِهِ صَمْعَةٌ عَالِمَةٌ دَنِيَّةٌ فَلَسَفِهِ ، قَالَ الصُّوْلِيُّ « كَانَ مَذْهَبُ
أَبِي الْعَتَاهِيَةِ الْقَوْلُ بِالتَّوْحِيدِ ، وَأَنَّ اللَّهَ خَلَقَ حَوَاهِرِينَ مُتَصَادِفَيْنِ لَا مِنْ شَيْءٍ ،
ثُمَّ لَمْ يَبْقِ الْعَالَمُ هَذِهِ الدَّنِيَّةُ مِنْهُمَا ، وَأَنَّ الْعَالَمَ حَدِيثُ الْعَيْنِ وَالصَّمْعَةِ لَا يُجْزَأُ
لَهُ إِلَّا اللَّهُ ، وَكَانَ رِعْمُ أَنَّ اللَّهَ سَبَرْدٌ كُلُّ شَيْءٍ إِلَى الْحَوَاهِرِينَ الْمُتَصَادِفِينَ فَمِنْ
أَنَّ بَقِيَ الْأَعْيَانُ حَمْعًا ، وَكَانَ مَذْهَبُ إِلَى أَنَّ الْمَعَارِفَ وَاقِعَةٌ بِمَنْدَرِ الْفِكْرِ
وَالْإِسْدِلَالِ وَالْمَحْثِ طَبَاعًا ٣ » وَكَانَ يَقُولُ بِالْوَعِيدِ ، وَتَحْرِمُ الْمَكَاثِبَ ،
تَنْشِئُ مَذْهَبَ الرَّيْثِيَّةِ الشُّرَيْيَّةِ الْمُنْتَدِعَةِ لَا يَنْفَعُ أَحَدًا ، وَلَا يَرَى مَعَ ذَلِكَ
الْخُرُوجَ عَلَى السُّلْطَانِ وَكَانَ يَحْرَأُ ٤

١ الدُّبَابُ الْفَسَادُ وَالْمَلَاكُ ٢ دَوَانُ أَبِي الْعَامَةِ ص ٢٥ ٣ فِي ذَلِكَ مَوْلٍ
وَأَعَا الْعِلْمُ مِنْ فِاسٍ وَمِنْ عَارٍ وَمِنْ سَمَاعٍ
٤ الْأَعْيَانُ ٢ ١٢٨

وعلى الجملة فالشعر الدينى الذى كان يحمل لواءه - فى ذلك العصر - صالح
 ابن عبد القيس وأبو العتاهية ؛ فيه رعة ثنوية كان يرفعها الفرس قديماً ،
 وسبرى عند الكلام فى التصوف أثر الفرس فى حياة الرهد ، ولكن يمكننا
 أن نقول الآن إنه ان كان فى رعة نثار الإباحية عصر مردكى ، فى رعة
 أبو العتاهية الراهد عصر ما نوى

وقد كاتب للفرس أثر كبير فى الأدب عير هذا الذى ذكرناه ،
 فقد كاتب كتبهم فى القصص التى نقلت من الفارسية الى العربية ، ككاليه وديمه
 وهرار إفسانه أساساً من الأسس التى بنت عليها الأحيال المتعاقبة ما بين أدينا
 من قصص عربى . فاس الدم يروى أن محمد بن عبدوس الجهمشيارى صاحب
 كتاب الورداء ابتدأ بتأليف كتاب الحمار فيه ألف سمر من أسمار العرب
 والعجم والروم وغيرهم كل حرة قائم بداته لا يعلق بعيره ، وأحصر المسامرس
 فأحد عنهم أحسن ما يعرفون ويُحسبون ، واختار من الكتب المصنفة فى
 الأسمار والخرافات ما محلاً ، عساه ، وكان فاصلاً فاجتمع له من ذلك أربعائة
 للة وثمانون للة ، كل للة سمر تام محتوى على خمس ورقة ، وأقل وأكثر
 ثم عاقلته المسه قبل اسمه ما فى نفسه من خمسة ألف سمر ^١

وصرّح آخر من الأدب كان للفرس فيه أثر كبير ، وهو باب
 «التوفيعات» ذلك أن الفرس قبل الاسلام كانوا يُحتَوّن بالبلاغة عناية كبرى
 وكان لهم فيما تأليف كاحكى الخابط وكان من أطهر عما تهم بالبلاغة
 والخكم التوفيعات وقد كان الفرس - ككل الشعوب - يرفعون الى ولادة
 أمورهم أوراهاً نصفين طلباً لشيء أو شكوى من شيء ، اسمها نحن الآن «عرائص»
 وكانت تسمى عند العرب «فصصاً» سميّت كذلك على سبيل المحار ، لأن

القصة اسم للبحكى في الورقة ، فسميت الورقة نفسها قصة ، وكانت تسمى كذلك رقاعاً لصغر حجمها . تشديداً لها ورقة الثوب

كانت هذه القصص ترفع الى الملك ، أو من يليه تبعاً لموضوعها ، وتعدّ للسلطان وقدره ، وقد حرت عادة الملوك والولاة من الفرس أن يوقعوا على هذه القصص بعبارة بلغة ، أو حكمة حكمة تُسَجِّرُ لها أحسن اللط ، وأحود المعنى وتتناقل أثرها من الآثار القيمة كما يساقل المثل الجيد . وقد نقل الى أدبنا العربي الشيء الكثير من توقيعات ملوك الفرس ، من ذلك أن رجلاً رفع الى كسرى سُدَّاد رقعة بحيرة فيها أن جماعة من بطانه قد فدت بيتاتهم ، وحشت صباثرهم منهم فلان وفلان ، فوقع في أسفل كتابه : إنما أملك طاهر الأحسام لا البياض ، وأحكم بالعدل لا بالهوى ، وأخلص عن الأعمال لا عن السرائر ! ووقع أنوشروان في قصيدة محبوس من ركب ما مضى عنه حيلة بينه وبين ما يستوى ، ومدح رجل من الخاصة كسرى أن سُدَّاد مدح أطبفه وأسهب ، وذهب كل مذهب ، وكان المدح في رقعة فوقع فيها كسرى : إلى المدح مستصير ؛ لعلني ناشياء قد مدحت ، وكان أن أدتم محموقه : الخ الخ ولما تحضر العرب وانشرب بينهم الكتابة ، وحرروا مطالبهم على رفاع - بعد أن كانوا يُنَادون بها أمراءهم - كان لهم توقيع ، وقد نقلت توقيع في أيام الخلفاء الراشدين وبني أمية أخذى أن يكون كثير منها كتاب شمع أخضر الى بوقع . ولكن قد سال سبل التوقيع في عهد بني العباس ، وكان أكثر الكتاب والوراء فرساً فساروا فيها على سبب آثامهم ، وكثر ذلك حتى أشبوا فيها بعدد دوابهم « دوان الوقع »

هذا الى انه كان للفرس شعر كثير وامثال كثيره وأدب كثير ، وُصِّع تحت أعين العرب قال أبو هلال العسكري في رساله المصنيل بين « بلاغى العرب والعجم » : « للفرس أشعار لا تُصط كثره ، وللبابيين

أشعار دون الفرس » ويقول في موضع آخر « سمعت أنا بكر بن دُرَيْدٍ يقول اجمع في ديوان صالح بن عبد القدوس - وهو رجل من شعرائهم ألفُ مَثَلٍ للعرب ، وألف مثل للعجم »^١ وترجمت بعض أمثال العجم الى العربية ، مثل : عمو المَلِكُ أبقى للمَلِكِ ، حاطرٌ من اسعَى برأيه ، الأسد يهرس الارب اذا أعياه العَيْرُ ، الفرار في وجه طَفَرٍ ، اجمع أحاك من أكمل الحيت فان أرى فأعطه ملققة ، من أوقد نار القصة احترق بها ، لا تستعد عدأ وما بعده ، هو يطلب الثمر بلا شوك^٢

وكاتب هذه المعاني الفارسية سُرى وسطهم أو تحمدي ، يقول رُزْزُ حَمْنَر . « اذا أقبلت عليك الدنيا فألقها ، فاما لا تقى ، واذا أدبرت عك فألقها » لا تنق « فقول الشاعر :

فألقِ - إذا ألقب - إن كنت موسراً

وألق - على ما حلت - حين تُعسرُ

فلا الخود تُعنى المالَ والحَدُّ مغلٌ

ولا الحملُ يُعنى المالَ والحَدُّ مدير^٣

ويحط أردشير لما استوثق له الملكُ يحرص الناس على الألفه والطاعة ، ويقوم من يديه خطيب فيقول له : قد أسرقَ علينا من صاء بوركها عتبا عموم صاء الشمس ، ووصل الينا من عظم رأسك ما اصل ، موسا اصل النسيم ، فجمعت الأيدي بعد ابراهيم ، والكلمة بعد احلافها ، وألق من القلوب بعد تناقصها ، وأذهبت الاحسن والحسنة بعد اسعار بيرامها ، فيقول خالد بن صهوان في مَثَل هذا المعنى مخاطب والياً . « قد دبت

١ مجموعة رسائل طبع الخواص من ٢١٧ ٢ انظر كتاب حاش الحاش للمعالي ص ١١ وما بعدها ٣ عدون الأعداء ١٧٩

فأعطيت كلا بقسطه من بترك ومحاسنك وصلاتك وعدلك، حتى كأنك من كل أحد أو كأنك لست من أحد،^١

وقيل لاس المققع، لم لا تطلب الأمور العظام؟ فقال رأيت المعالي مشبوبة بالسكاره، فاقصرت على الجول صاماً بالعافية فأجده العنانى وقال:

دعى تحشى مبدئى مُطمئنه ولم أتحسم حول تلك الموارد

فان حسبات الأمور مشبوبة بمسودعات بطون الأساود^٢

وبصيح طاهر من الحسين الفارسي اسمه عند الله - لما ولاه المأمون

الزفة ومصر - بكتابه المشهور، ويوصيه فيه بجمع ما يحتاج اليه في دولته من الآداب الدينية والحلقة والسياسية الشرعية والملوكية؛ فتلج فيه شهاً كثيراً منه ومن ما نقل إليها من عهد أردشير^٣

ويكتب أبو مسلم الحراساني للبصير حين أمره بالقدم عليه وأما

بعد، فانه بما حفظاه من وصايا الفرس وأحرف ما يكون الورراء اذا سكبت الذهباء،^٤

٢ *

وشيء آخر كان له أثر كبير في الثقافة الإسلامية ذلك ما كتبه الله بن خلدون من أن حكمة العلم في الملة الإسلامية أكبرهم العجم، لا من العلوم العربية ولا من العلوم العقلية إلا في الغالب الأدر، وإن كان هم العربى في سنده

١ عن الأخبار ١ ٩٧ ٢ محاسن الأدياء لاصهاى ١ ١٧٧ والأساود الحيات العظيمة ٣ انظر كتاب طاهر بن الحسن في ١٠١٥٠ من خلدون ص ٢٥٤ واطر عهد أردشير في كتاب حارب الأمم لاس مكيو ١ ٩٩ وما ماها ٤ مقدمه ابن خلدون ص ٢١٥ ٥ هذا عبرة من عمله ابن خلدون كما مره به سواء في ذلك العلوم الشرعية والعلوم العقلية

فهو عجمي في لغته ومرناه ومشيجته^١ ويعمل ذلك بأن العلوم من حملة الصاعات، والصاعات من حصائص الحصر، والعرب كانوا بدوا فكتاب العلوم من نتاج الحصر والحصر في ذلك العهد هم العجم، ومن في معاصم من الموالي. ويقول: فكان صاحب صناعة النحو سدويته، والفارسي من بعده، والرحاج من بعدهما وكلهم عجم في أنسابهم، وإمارتوا في اللسان العربي فأكسبوه المُرني ومحالطة العرب، وصبروه قوايس وفنائل بعدهم وكذا حمله الحدث الدس حفظوه عن أهل الاسلام أكثرهم عجم، أو مستعجمون باللغة والمُرني، وكان علماء أصول الفقه كأئهم عجم كما يعرف، وكذا حمله علم الكلام، وكذا أكبر المفكرين ولم تقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم، وطهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم. لو تعلق العلم بأكفاف السماء، لدا له قوم من أهل فارس^٢

ونحن نعتقد أن ابن خلدون - مع دقة ملاحظته - قد عالى فيها علواً كبيراً ونحس العرب بصنعتهم في المشاركة. فلئن كان أبو حنيفة النعمان فارسياً فمالك والشافعي وأحمد بن حنبل عرب، ولئن كان سدياً وفارسياً فجه الحنبل ابن أحمد عرني وليس كل علماء أصول الفقه عجم كما يقول، فواضعه وأول مؤلف فيه الشافعي وهو عرني، وعلاؤنا أن ندعي أن هؤلاء العلماء العرب هم عجم المُرني، فإن المُرني كان مريخاً من عرب وعجم ولكن بما لا شك فيه أن العجم - وخاصة الفرس - كانوا في حملهم أوفر على التدوين والتأليف للسبب الذي ذكره ابن خلدون، وهو تعميقهم في الحضارة، ولأنهم مَرَبُوا من قدمهم على التأليف بلعهم هم وآثاؤهم؛ فلما دخلوا في الاسلام وبعلموا العربية كان تأليفهم بالعربية سهلاً نسبياً، لأنه ليس إلا احداً للمصيح، وإن اختلف الموضوع واللغة

- إذن - لاعتجب من أن يرى في عصرنا الذي يؤرجه كثيراً من الفرس ، كانوا من الساميين الأولين في تدوين العلوم المختلفة .

فالإمام أبو حنيفة النعمان إمام المذهب ، وحماد الراوية جامع المصنفات العشر ، وراوى كثير من الشعر الجاهلى ، ونشأ من رُرد أحد المحدثين من الشعراء ، وسيدونه الإمام المقدّم في النحو وتدوينه ، والكيساني أحد الأئمة الأعلام في النحو واللغة والقراءات ، وهو أحد القراء السبعة ، والقراء أربع الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب ، وأبو عبيدة معمر بن المنى العالم باللغة والعريب وأحار العرب وأيامها ، ودو البرعة الشعبية ، وأبو العباسية شاعر الرهد ، واس قتيبة المؤرّخ الأديب ، صاحب التآليف الكثيرة ككتاب المعارف وعيون الأخبار . كل هؤلاء - وغيرهم من لم نذكرهم - كانوا فرساً وكان لهم أثر كبير في الثقافة العربية الإسلامية

فدكان وراء هذه الثقافة الفارسية ، وهؤلاء العلماء الفرس قوّى بحميتها وتدفعها هذه القوى طاهرة أحياناً وحيثية أحياناً ، سطوى على نه حير أحياناً ونية سوء أحياناً منهم من يريد خدمة العلم ، والعمل على نشره ، لا يريد بذلك إلا وجه الله والعلم ، ومنهم من يريد أن تشددا لغوية الفارسية ، والخط من القومية العربية ، بل منهم من يريد الكفّ للسلام وأهله ومنهم من يرى أن الحكمة صالحة المؤمن ينشئها حيث وحدها ، ويعمل على إداعتها ومنهم من ينشر شعوبية ، ومنهم من ينشر رندقة ، ومنهم من يعلو في التشيع لأهل البيت ، وهو بصمر السوء للمسلمين . كل هذا الخير وكل هذا الشر كان في البرعات الفارسية ، وسيأتى بوصيح لبعض ذلك في أبوابه

يقول الخاطب في وصف الفرس : « واعلم أن هذه الأحاديث من أحاديث الفرس ، وهم اصحاب نهج وتزيّد^١ ، ولا سيما في كل شيء مما يدخل

١ الفج العر والسكندر ، والرند المعالاة والسكندر

في باب العصبية ، ويريد في أقدار الأكلسة^١ ، وقد كان من أعظم من
يحمي الثقافة الفارسية ، ويشترها « الرامكة » الفرس ، وما لهم من مال
وفير ، وكرم واسع ، يحقق رجاؤهم ، ويسقط نفوذهم روى الجاحظ عن
ثمامة ، قال كان أصحابنا يقولون لم يكن يرى لجلس خالد (البرمكي) داراً إلا
وخالد ساهلها ، ولا صبيعة إلا وخالد انتاعها له ، ولا ولد إلا وخالد اساع
أمه إن كانت أمه ، أو أدى مهرها إن كانت حرة ، ولا دابة إلا وخالد حملها
عليها إما من يباحه أو من غير نتاحه^٢ وهم مع هذا وذاك مشفقون ثقافة
واسعة ، وفي العناية من العلم والأدب والفصاحة ، يقول سهل بن هارون في
وصف يحيى بن خالد البرمكي ، وجمع بن يحيى « لو كان كلام تشوُّر دُرّاً ،
أو تحيلة المطلق السرى حوهر ألكان كلامهما ، والمنسق من لفظهما^٣ » ويحيى بن
خالد بنشئ الكماند للأديب^٤ ، وتحدث إلى الناس ، ويحب الناس أولادَه
ويقول لولده : لا بد لكم من كتاب وعمل وأعوان ، فاستعينوا بالأشراف ،
وإياكم وسبيله الناس ، فان البعده على الأشراف أبقى ، وهي مهم أحسن ،
والمعروف عندهم أشهر ، والشكر منهم أكثر^٥ .

مالقناً من حود^٦ فصل بن يحيى ترك الناس كتابهم شعراء !

كان هؤلاء الرامكة وأمثالهم يعملون على نشر الثقافة الفارسية ، والفصل
اس سهل الفارسي ، الملقب فيما بعد - بدى الرامتين ، سهل كتاباً من الفارسية
إلى العربية لحنى البرمكي ، فيعجب بفهمه ويحوده عبارته ، ويدعوه يحيى إلى
الإسلام إلى المياصب^٧ وهو هذا أن أصبح ذا الرئاسة سعت بمولاه ،
وأحداث من أهلها إلى شح بحراسان ، ويقول لهم تعلموا منه الحكمة ، ثم

١ الجوان ٧ ٥٦ ٢ الج ١رى ص ١٧٣ و تاريخ بغداد ٤ ١٤٤
٣ اطر الحمشارى ص ٢١٢ ٤ المصدر نفسه ٢١٥ ٥ المصدر نفسه ص ٢٨٧

يعرّضون ما يعلمهم الشرح على الفصل من سهل ، فيتبين فيها الأثر العارسي^١ وقد عُرِفَ عن البرامكة لبواؤهم لكثير من معرفوا بحرية الرأي ، أو انهمموا بالردفه ، فكانت البرامكة تحس إلى محمد بن الليث الخطيب ، وتقدّمه وكان من يرى بالردفة^٢ . وكان هشام بن الحكم الرافضي مقطوعاً إلى يحيى بن خالد البرمكي ، وكان القتيبي بمجالس كلامه ونظيره . وقد ألّفَ كتاباً كثيرة في الخلافة ، ومسائل علم الكلام^٣

ومن الحق أن يذكر أن البرامكة لم يشجعوا الثقافة الفارسية وحدها ، بل شعروا بكل ثقافته فاس القديم يروى عند الكلام على كتاب المحسّطى في الحديث أن أول من عُني بتفسيره وأراحه إلى العربية يحيى بن خالد بن برمك فقدّمه له جماعة فلم يتقبّوه ، ولم يرص ذلك فبدأ بتفسيره أنا حسان ، وسامان - صاحب بيت الحكمة - فأبناه واجتهدا في تصحيحه ؛ كما أنه أمر بتفسير كتاب في الطب لمسكة الهندي^٤ ، وبعث يحيى أيضاً برجل إلى الهند ليأخذ بهاقيز موحودة في بلادهم ، وأن يكتب له أدباهم ، فكتب له هذا الكتاب^٥

فهؤلاء البرامكة ، وإن عُنيوا بالثقافة الفارسية ؛ فقد عنيوا بحمايتها كذلك بالثقافة اليونانية والهندية والعربية .

والآن نستطيع أن نحار رحلا يمثل الثقافة الفارسية حيزاً متميزاً وليسكن داس المقصع ،

١ رهر الآداب على هامش العدد ٣ ٢٦٩ ٢ ١٢ من الدم ١٢
٣ انظر اس الدم من ١٧٥ ٤ اس الدم من ٣٦٨ ٥ المصدر نفسه
٦ اس الدم من ٤٣٥

ابن المقفع

لسنا نريد أن نبحث في ابن المقفع بحثاً تحليلياً، في مولده وأسرته، ومناصبه التي تولّاها، وعلاقته بالولاة والأمراء، ولا أن نبحث طويلاً في مقدّراته البلاغية وأسلوبه، وأثره في أسلوب عصره ومن أتى بعده، فذلك بالناحية الأدبية أشنئ وإمّا نريد أن نبحث فيه من ناحية ثقافته الواسعة، وآثاره الخالدة، ومن ناحية أنه، أجم ثقافة فارسية عميقة واسعة لتفحّص بعدُ تلقّاح عرق، فكان من هذا وذاك أدبٌ حمّ، مَدِين في أكثر معانيه للفرس، وفي أكثر ألفاظه وأساليبه للعربية

ابن المقفع، فارسيّ الأصل اسمه «رُؤُوسَ» بن دَادُويَه، كان أبوه من قرية اسمها «حور»، من إقليم فارس ونشأ ابن المقفع بالنصرة في ولاء آل الأَهِمّ، وهم قوم معروفون بالفصاحة والنس، وحافظ الأعراب وأحد عظمى وكان أبوه يدين بمذهب ردادشت ونشأ ابن المقفع - كما أنه - ردادشتياً وبعث الكتب لسكرتيرين فكتب ليريد بن عمر بن هُمَيْرَة، وكان يريد والياً على العراق لمروان بن محمد آخر حكام بني أمية، ثم كتب لأخيه داود بن عمر ابن هُمَيْرَة، ثم اتصل بعيسى بن علي بن عبد الله بن عباس عم السهاح والمصور، وكان - إلى هذا العهد - لا يزال محوساً، فاستلم على يده وكتب له، ثم قبل لسنده - على ما قول كثير من المؤرخين - في كتابه صبعة الأمان إلى وضعها ابن المقفع ليوقع عليها أبو جهمر المصور أما أن ابن المقفع بن عليّ فأفراط ابن المقفع في الاحتياط فيها، حتى لا يبتد المصور مبعداً فيها للاحتلال

بعده^١، فغاظ المنصور ذلك فأوعز بقتله.

ولم نجد للمؤرخين سبباً آخر لقتله، إلا ما حكاه الجاحظ: من أن ابن المقفع كان أغرى عبد الله بن علي بالمنصور ففطن له وقتل^٢. وكان قتله سنة ١٤٢ هـ أو ١٤٣ أو ١٤٥ على خلاف في ذلك^٣.

نستطيع أن نستنتج من هذا نتيجتين هامتين:

(الاولى) أنه لم يقص من حياته في العصر العباسي إلا نحو عشر سنوات، أما بقية حياته فقد قضاها في العصر الأموي، وشهد اضطهاد العرب للموالي، وشاركهم في محنتهم وبؤسهم - أيام الأمويين - ولم يكن مسلماً بالكلية دينه من كرهه للعرب - كما كان شأن المتدينين - فلا بد أن يكون قد أقعّم بكرة العرب، وشاهد الدعوة العباسية، واشتركت الفرس فيها، وتغنى كما تمنّوا أن يرفع عنهم نير الأمويين وسرّ كما سرّوا باستيلاء العباسيين.

(الثانية) أنه نشأ مجوسياً زرادشتياً، وقضى زهرة شبابه في أحضان المجوسية مقلداً، بشقاقتها، ولم يُسلم إلا قبل قتله ببضع سنوات، بعد أن تكونت ونضج، وتقلد الكتابة للكثيرين. وكان قبل إسلامه مستمسكاً بدينه، فلما أراد أن يسلم قال له عيسى بن علي عم المنصور: ليسكن ذلك بمحضّر من القواد. ووجوه الناس، فاذا كان الغد فأحضّر. ثم حضر طعام عيسى عشية ذلك اليوم، فجلس يأكل ويرزم - على عادة المجوس - فقال له عيسى: أنزرم وأنت على عزم الاسلام؟ فقال أكره أن أبيت على غير دين! فلما أصبح أسلم على يده فسعى بعبد الله، وستعرض لهذا الموضع عند الكلام على زندقته.

١ انظر الجعفي ص ١١٠

٢ انظر ثلاث رسائل للجاحظ ص ٤٧

٣ لم تردنا بين أيدينا من الكتب القديمة تاريخاً لولد ابن المقفع وقد ذكر بعض المحدّثين أنه ولد سنة ١٠٦ وأن صح فيكون قد قتل وهو شاب لم يتجاوز الأربعين

وابن المقفع من أقوى الشخصيات في عالم الأدب العربي، قوى في خلقه قوى في عقله وسعة علمه، قوى في لسانه.

أما خلقه فنبل وكرم، وتعمد لذوى الحاجات يواسيهم، وتقديره دقيق للصداقة، ومراقبة شديدة لنفسه يحملها على الأجدر والأنبل، ورغبة شديدة في اصلاح الراعى والرعية - خلقياً واجتماعياً - الى ظرف الخاصة، والتسك بأداب اللياقة، ومراعاة الدقة فيما يتطلبه الذوق.

نستنتج هذا مما قصه علينا المؤرخون، ومما نلحه في كتبه التي بين أيدينا، قال سعيد بن سلم: قصدت الكوفة، فرأيت ابن المقفع فرحب بي، وقال: ما تصنع هنا؟ فقلت ركبتي دين. فقال: هل رأيت أحداً؟ قلت رأيت ابن شبرمة فوعدني أن أكون مريضاً لبعض أولاد الخاصة. فقال: أف أجمع لك مؤدباً في آخر عمرك. أين منزلك؟ فعرفته، فأتاني في اليوم الثاني، وأنا مشغول بقوم يقرءون عليّ - فوضع بين يدي منديلاً فاذا فيه أسورة مكسورة، ودراهم متفرقة مقدار أربعة آلاف درهم، فأخذت ذلك ورجعت به إلى البصرة واستعنت به^١. ويقول الجهشيارى فيه: «كان سريعاً سخياً بطعم الطعام ويتسع على كل من احتاج اليه، وكان قد أفاد من الكتابة لداود بن عمر مالا، فكان يجزى على جماعة من وجوه أهل البصرة والكوفة ما بين الخمسة إلى الألفين في كل شهر^٢. ثم هو صديق لعبد الحميد الكاتب، فيطلب عبد الحميد ليقتل، وهو معه، فيقول الذين دخلوا عليهما أيكما عبد الحميد؟ فيقول كل واحد منهما «أنا» خوفاً على صاحبه، وخاف عبد الحميد أن يسرعوا الى ابن المقفع فقال: «ترفقوا فإن في علامات، وكتبوا بنا بعضكم، ويمضى بعض^٣ يذكر تلك العلامات ففعل ذلك^٤.

ويصفه الخاطف فيقول « كان حواداً فارساً حميلاً » ويدعوه عيسى بن
على للعداء فيقول أعز الله الأمير ! لست اليوم للكرام أكيلاً قال ولم ؟
قال لأنني مكروم، والركمة فيحة الحوار، مائة من عشرة الأحرار. ويُعجَب
الناس بأدبه، فيسألونه من أدلك ؟ فيقول بهسى إذا رأيت من عبرى حساً
أنيتة، وإن رأيت قبيحاً أيتته ويدل الباقي من كتبه على باقي ما وضعها
من حلقه

نم هو واسع الاطلاع، مصطلع باللسان العربي والفارسي، نقل خبر
ما رأى باللغة الفهلوية، الى اللسان العربي وهو عرر المعاني إذا كتب
ليست كتابته حوافر ككثير من كتابات الاس، نم في احبيار المعنى، ثم
يعن في احسار اللفظ له، قالوا « كان فلم اس المقصع بهف، فقيل لاني ذلك،
فقال إن الكلام بردهم في صدرى، فقف قلبي لتخيره »^١ ويقول يمد بن
سلام « سمعت مشائخا يقولون لم يكن للعرب بعد الصحابة أدكى من الخليل
اس أحمد ولا أجمع، ولا كان في العجم أدكى من اس المقصع ولا أجمع،^٢ وقال
جعفر بن يحيى « عند الحمد أصل، وسهل بن هرون فرع، واس المقصع نمر،
وأحمد بن يوسف ره »^٣

وسببين عراره معانيه وقوة تذكيره مما بأنى :

-
- ١ رهر الآدب ٢ ٤ ١
٢ رسائل النباء ملا عن الرهر
٣ رسائل النباء

آثاره الأدبية

ذكر أحيانا سبق ما ترجم من الفارسية إلى العربية، وما نقله منها من المقفع، والآن يذكر آثاره النافيسة في أيدينا، وتعرض لها شيء من التحليل وهي

- ١ الأدب الصغير
- ٢ الأدب الكبير أو اليتيمة
- ٣ رسالة الصحابة
- ٤ كتيبة ودمه

الأدب الصغير والأدب الكبير — كلمة الصغير والكبير وصف للكتابات وقد شاع استعمال هذا التعبير في ذلك العصر، فقالوا كتاب الطبقات الكبير لاس سعد، وأحياناً يتحدثون كلمة كتاب، ونمقون الوصف فيقولون «الستر الكبير والستر الصغير لمحمد بن الحسن الشاذلي»، ومن هذا «الأدب الصغير والأدب الكبير». فليس الصغير والكبير وصف للأدب، ولكن للكتابات المفهومة صمماً.

والفارسى لعبارة ابن الدمع يفهم أن الأدب الصغير، والأدب الكبير غير كتاب اليتيمة فهي كتب ثلاثة، ولكن كثيراً من الأدباء أطلقوا على الأدب الكبير اسم اليتيمة، أو الذرة اليتيمة. كذلك يفهم من ابن الدمع أن هذه الكتب الثلاثة ترجمها ابن المقفع، والمعروف من الأدباء، والظاهر من تعبيره أنه ألهمها ونحن نرجح أن الأدب الكبير ليس هو اليتيمة، وأنها كتابان مختلفان لاس المقفع. ودلينا على ذلك:

- ١ — أن ابن قتيبة في كتابه عنون الأخبار، يورد هذين الاسمين في مواضع مختلفة، فيقول أحياناً «قرأت في اليتيمة»، وأحياناً «في الأدب الكبير»، وما

ينقله عن اليتيمة ليس موجوداً في الذي بين أيدينا مما يسعى اليتيمة^١.

٢ — وردت فصول من اليتيمة في كتاب المنشور والمنظوم لابن طيفور-
لأنجدها فيما بين أيدينا من الأدب الكبير الذي سمي اليتيمة.

٣ — قال الباقلاني في اعجاز القرآن: «وقد ادعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن، وإنما فزعوا إلى الدرّة اليتيمة، وهما كتابان أحدهما يتضمن حكماً منقولة توجد عند حكماء كل أمة... والآخر في شيء من الديانات» واليتيمة التي بين أيدينا ليس فيها فصول عن الديانات. فالراجح أن الذي بقي لنا هو الأدب الكبير، أطلق عليه خطأ اسم الدرّة اليتيمة. وأما المسئلة الثانية: وهي هل هما مؤلفان أو مترجمان؟ فنفس الكتّابين يدلّنا على أن ابن المقفع لم يترجمهما حرفياً، كما نفهم من معنى الترجمة، وإن كان اعتمد في كثير من المعاني على معاني الأقدمين. قال في الأدب الصغير: «قد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً، فيها عون على عمارة القلوب وصفاها وتجليّة أبصارها، وإحياء للتفكير، وإقامة للتدبير، ودليل على محامد الأمور، ومكارم الأخلاق» وقال في الأدب الكبير المسمى بالدرّة اليتيمة: أنا لم نجدهم - أي الأولين - غادروا شيئاً، يجدواصف بليغ في صفته له مقالاً لم يسبقوه إليه، لا في تعظيم الله عز وجل، وترغيب فيها عنده. ولا في تصغير للدنيا، وتزهيد فيها ولا في تحرير صنوف العلم، وتقسيم أقسامها، وتجزئة أجزاءها، وتوضيح سبلها، وتبيين مآخذها. ولا في وجوه الأدب وضروب الأخلاق. فلم يبق في جليل من الأمر لقائل بعدهم مقال، وقد بقيت أشياء من لطائف الأمور، فيها مواضع لصغار الفطن، مشتقة من جسام حكم الأولين وفولهم. ومن ذلك بعض ما أنا كاتب في كتابي هذا من أبواب الأدب التي يحتاج إليها الناس».

وكلمة الأدب في السكبان ليس معناها ما نسعمله الآن فيما يقابل العلم، وإنما يطلقها اس المققع على معنى تهذيب النفس والخلق

والأدب الصعبر — عبارة عن كلمات حكمة في الأخلاق، لا تحالل النفس والخلق تحللاً دقيقاً واسعاً مستوفى، ولا تذكر الخلق فتسقط القول فيه، وتذكر وصفه، والسبيل إلى اكتسابه، وذلك بالعقل اليوناني أشبه ولكلها عبارة عن حمل موحدة أشبه بالأمثال وهي حطرات، نذحة تحارب قد صعب في البحار، وفي عبارة رشيقة رقيقة مثل « أربعة أشياء لا يُسْقَلُ منها القليل البار، والمرص، والعدو، والدَّيْن »

ومثل « لا تعدَّ العُصمَ عما إذا ساق عُرمًا، ولا العرمَ عما إذا ساق عبا، ولا تعدَّ من الحناء ما كان في وراق الأئحة، الخ

وبلاحظ في الأدب الصعبر أن ليس — في كثير من مواضعه — ارتباط بين حكمه وهي أشبه برجل أحد يرصد تحارب محاملة في حالات محملة، فكلمة عثر على تحربه وصعها، وإن كانت إحدى البحار اقصادية، والأخرى ديدمة، والثالثة نفسة أو كرجل يقرأ في كتاب محتلفة فكلمة وحده كلمة أعجمية دوتها، لذلك يرى طمة في محاسنه النفس، ويحاسبها كلمة في الصدق، ثم كلمة في معاملة الناس بحسب طمقاهم، ثم في تعادى الرأي والهووى، ثم بعد كثير من الصفحات نجد كلمة أخرى في الصدق، فكان يحس أن يكون محاسب الأولى، وهكذا ثم هو محلف في طريقة التألف، فأحياناً يشيء إلى من عبر اسناد، وأحياناً يقول وقال الحكماء وأحياناً نجد قبل الحكمة كلمة « وقال »، مما يدل على أنها لم يصعها هو في هذا الموضع.

أما الأدب السكبر — أو ما سماه الكتاب بالدره الدمه، فكلمات كذلك ولكلها في مجموعها أطول وهي مرسة عالياً، ألعب الكتاب المتعلقة بموضوع واحد في موضع واحد تفرساً، تدور أعليها على موضوعين قد اسبق في

الكلام فيما استقيما حسناً ، فأولها الكلام على السلطان والولاية ، ومن يتصل بهما وقد كان هذا الموضوع يشغل نفسه كثيراً ، يتجلى ذلك في أكثر ما كتب ، لأن حياته كانت موصلة به ، فقد كتب للولاية ، واتصل بهم ، وصادقهم وعادهم وقد اتصل بالخلاف بين المنصور وأعمامه ، وكان ركناً من أركان هذا الخلاف وحرراً لوفائعه ، ومستشاراً في أمره ، ومعمساً فيه ، وقارئاً لمثل هذه الأحداث في سير الفرس ، ومترحماً لها . فلا عجب إذا أكثر الكتابة فيه ، ولا عجب إذا أجاد ؛ وقد جمع فيه مأثور الأولين ، وتجارب الآخرين ، إلى ما منحه الله من دقة نظر ، وحسن أداء وقد استغرق هذا الموضوع القسم الأول من الكتاب والموضوع الثاني الصداقة والصديق وقد كان اس المقنع يهتد بهذا تقدراً دقيقاً ، ويرى في الاصدقاء عماد الحياة ، ومرآة النفس ، يقضى اليهم وحنهم بسآب صدره ، ودعائل نفسه ، ويضع عنهم وحنهم مكنونات سره ، ويضع عنه مؤونه الخدر والحفظ ، اما عندهم فيليس لهم لاساً آخر ، لا يلقاهم الا متحفظاً مشدداً منجرراً ولا حل ذلك أنهل في شروط الصديق ، ويصح بالدقة المامة في احباره « لأن دا الرأي لا يذلل أحدآ من نفسه هذا المذلل إلا بعد الاحبار والسنن ، والثمة يصدق المصحه ، ووفاء المقل ، ويدل سيرته على أنه آمن بما كتب ، ودان به ، وسار في حياته على ما كتب من قوانين الصداقه ، وقد يدل دمه لصديقه عند الحسد ، ويدل ماله لأصدقائه بل لمعارفه ، كما فعل مع سعيد بن سلم ، ومثل اس المقنع في علاقه الدقيقه بين الولاية والأمراء ، وما يلاقى في سبيل ذلك من مشكلات وصعاب ، وفي عقله البحتات ، وامقاله من دين إلى دين ، وما يعرض - عادة - في ذلك من مكنوك وارتباب وفي برعه الى الاصلاح الاجتماعي ، وما يرى حوله من عيوب تتصل أحياناً بالولاية وأحياناً بالخلفاء وترى أحياناً وحبو الجهر بالصيحة ، والارشاد الى مواطن الضعف وطرق

العلاج مثل ان المفعع في هذه المواقف يحتاج الى الصديق الذى يصعبه ،
والى الشروط التى تشترطها له ، يوصى اليه بدقائق نفسه ، وفيما يرى من دوله
تمهار ودولة تقام ، وأسس توصع لاند أن يشترك في وضعها ، ومن عيب
العديم والحديث ، وما يطمح إليه من اصلاح ، وإليه يُفزع في عوامل
يصطدم في نفسه من دن نشأ عليه ، وتمكن من أعماق نفسه ، ثم هو يريد أن
تحتل عه إلى دن حديد له شعائر تحالف شعائر دينه القديم ، وله تعاليم
تتعارض مع ما ألف ، هناك سداع العقل والشعور ، وهناك تتحارب
العواطف ، وهناك يحار من علم المطق الذى رحمه ، والتقاليد التى رقى في
أحسابها ، فما أحوج به في كل ذلك إلى « الصديق » ! وقد أشار فيما كتب إلى
كل ذلك ، أسار إلى العيوب الاحتماء به ، وإلى طلم الولاه في عصره ، وإلى
ما يلحق العامة ، وإلى البراع من الناس والرأى - وقد حرره الكلام في
الصديق إلى الكلام في العدو ، وكيف يكون داهياً في سره ويحوي دهاءه
وكيف يعمل في هلاك عدوه أو البعد عنه ، وفي حار السوء وكيف يصير
عاه ، وفي آخر الكتاب يعود الى جمع حكم مفرقة لا ترتبطها موضوع

في الكتابين أثر كبير من المقاهيه الفارسيه ، ففهما حكيم كبيره من حكم
الفرس ، وفهما حص بظم الساسانيين في الحكم ، وكثيراً ما يقول « احفظ
قول الحكيم » و « قالب الحكماء » وهو يفصد حكمة الفرس وفيها بعض
وصاياه احوده من عهد أردشير ، كالطعام المعلى نولى العهد وفيهما من حكم
كليلة ودمنة ، الى غير ذلك نعم ! انك أثر يوناني في هذه الحكم مثل قوله
« ان العاقل يظفر فيما يؤديه وفيما يسره » ، يعلم أن « أحق » ذلك الطالب ان
كان ممّا تحت وأحقه بالانها ان كان مما تكره ، أطوله وأدومه وأنها ، فاداهو
قد أنصر ، فصل الآخرة على الدنيا ، وفصل سرور المروءة على لذه الهوى ،
وفصل الرأى الجامع العام - الذى يصلح به النفس والأعصاب - على حاصر

الرأى الذى يستمتع به قليلاً ثم يضمحلّ، وفضّل الاكلاتِ على الأكلّة،
والساعات على الساعة « فانك تلمح في ثنايا هذا رأى أبيقور، وهو أنه
يجب أن يرعى - في تفضيل لذة على لذة - الشدة والمدة . وتفضيل اللذائذ
العقلية والروحية على اللذائذ البدنية، إلخ. ولكنّ ابن المقفع انما نقل عن
الفرس، وان كانوا قد تأثروا - فيما تأثروا به - بالمذاهب اليونانية. كذلك
نلمح في بعض حكمه أشياء اسلامية كقوله: « والدنيا دولٌ فما كان منها لك
أتاك على ضعفك، وما كان عليك لم تدفعه بقوةك، فهو قريب في لفظه
من حديث مشهور. ونرى وجوه شبه عديدة في بعض الحكم بين ما ورد
في كتب ابن المقفع، وما ورد عن الامام عليّ في كتاب نهج البلاغة. ولكننا
يعترينا الشك في كثير مما نسب في نهج البلاغة الى الامام عليّ، وقد أثبتنا
ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب، ونرجح أنها نسبت اليه بعد ابن المقفع
في عهد الشريف الرضى ومن قبله. فيمكننا أن نقول انّ أغلب استمداد
ابن المقفع في كتبه من الثقافة الفارسية، وقليلاً منها من الثقافة العربية
الاسلامية. وأوضح دليل على ذلك: أن الروح الدينية في حكم ابن المقفع
نادرة جداً قلّ أن تلبسها، على عكس ما ينسب مثلاً الى الحسن البصرى، وما
صح من أقوال عليّ رضى الله عنه. فهي مغمورة بالشعور الدينى الاسلامى،
أما ابن المقفع فحكمه مستمدة من تجارب دنيوية. حتى ما يتصل منها بالدين -

رسالة الصحابة

ولأن المققع رسالة سميت بالصحابة ، وليس يعنى صحابة رسول الله - كما هو المشهور في استعمال الكلمة - وإنما عني صحابة الولاية والخلفاء ، وهم من يقرّ بهم الأمراء أو الخلفاء وبنادموهم ، ويعلمونهم موضع السر منهم ، ويستشرونهم في أمورهم وقد عرّض في هذه الرسالة لهذا الموضوع فسميت الرسالة به^١

والرسالة قيمة كبرى فإما تقرير في بعد نظام الحكم - إذ ذلك - ووجوه لإصلاحه ، رفعه إلى أمر المؤمنين ولم نسمه ، والظاهر أنه أبو جعفر المصنوع لأنه يذكر دولة بني العباس وقد استقرب ، ويذكر أمر المؤمنين ، وقد أهلك الله عدوه وسقى عدله ، ومكّن له في الأرض وآتاه حراثتها . ويذكر أنا العباس (السفاح) ودرّجهم عليه وإذا سلمنا أن أس المققع قبل في عهد المصنوع ، صح لنا أن نسمّيه - من ذلك كله - أن الرسالة إنما كتبت للمصنوع . بدأها بمدح أمر المؤمنين بأنه جمع إلى ما عده من علم الرعية في السؤال ، والاستماع للصيحة الناصح ، وفي هذا ما يشجع ذا الرأي على أن يدلّ برأيه . ثم ذكر موضع الشكوى قبل أن تتولى أبو جعفر المصنوع ، فوال لا تهتم بالإصلاح ، وإن اهتم به فلنسل له رأي يهديه ، أو له رأي ولكن لنسل له عزم يُمضى به ما نرغمه ، وأعوان لنسوا على الخير بأعوان ، ولهم من المكاتبه والنفود ما يجمع الخلفاء من إقصائهم والبلل منهم ، وأمة إن أحدث بالسوء

١ أورد هذه الرسالة ابن طغور في كتابه المأثور والمطوم المخطوط في دار الكتب المصرية ونشر في مجموع رسائل البلاء - واستعمال كلمة الصحابة في هذا المعنى معروف في ذلك العصر كما يدل عليه ما ورد في أوائل كتاب الخطب العددى

حُتيت ، وإن أحدث باللين طعت ، وأتأن أن أمير المؤمنين وفقه الله لمداواة هذه العيوب ، واقتلاع هذه الشرور ، ثم بدأ تقريره الذى وضعه

فأول ما بدأ به شرح حال « الحيد » ، وإذا علمنا أن الدولة فى عهد هذا التقرير دولة ناشئة ، ولها أعداء كثيرون ، وذو أطباع عديدين ، ثم هى واسعة الأطراف ، مبرامية الأجناع لا يحلو فيها يوم من سنة أدر كما للحيد من عظم شأن ، وعرفسا السبب فى أن جزءاً كبيراً من التقرير كان يدور حول هذا الموضوع . وإذا كان عماد الحيد هم الحيد الخراسانية وكانوا هم المائمين بحماية الدولة ، وكانوا فرساً ، وكان اس المقنع فارساً ، كان محور كلامه الحيد الخراسانية .

مدح حمد خراسان بأنه لم ير مثلهم فى الإسلام ، يمارون عن غيرهم من الحيد بالطاعة والعفاف ، والكف عن الفساد ، والدلل للولاه ثم سُكنا من أمور أولها أنه لاند أن ينظم أهبارهم ، ولا بد لذلك من أن يكون لهم دستور أو قانون ، يخطط بكل شئ يجب أن يعرفوه ، يبين لهم ما يفعلونه وما يحسبونه ، يحفظه رقساؤهم ، ويقودون به عامتهم فأما ترك الأمر من غير قانون ، لا يعرفون به ما يجب وما يحرم ، فداع إلى الفوضى وشكا من أن هذا جزءاً قوما الى المعالاه فى الأمر بالطاعة لأمر المؤمنين ، ووحد فى القواد من يقول : ان أمير المؤمنين لو أمر أن نستدر الفلله بالصلاة لسمعنا وأطعنا وهذا أمر سيئ ، فى النفوس ، وقد سافه هذا القول الى تحب أوامر أمير المؤمنين وما يطاع وما لا يطاع وذكر المبدأ المسهور ، لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وقال ان قوما فسروا هذا المبدأ تفسيراً عوجاً والذى رأى اس المقنع أن الخليعة يطاع فيما لا يطاع فيه غيره . وبين ذلك أن هناك فرائض وحدودا تنبأ الله ، وفى هذا لا يطاع امر المؤمنين لو أمر أمراً يحالها . وهناك أشياء كثره من شؤون الناس لم يأت فيها نص ، بل

تركت لعقل الناس واجتهادهم وهذه متى احتجدها فيها ولله الأمر ورأوا فيها رأياً وحب طاعهم ، وليس للناس في هذا الا الإشارة عند المسورة ، والإحانة عند الدَّعْوَة والصَّحَّةُ لهم — فرأى أن المفتح ادن — أن هناك بصوصاً ديبه تحب على الناس والولاة أن يطعوها ، وليس لولاة الأمر أن يجالهاوا . وهناك مسائل كثيرة لم ترد فيها نص ، كاعلان حرب واسترداد جنش وشروط صلح ، وتنظيم أمور الدولة حسب الزمان والمكان وهذه كذلك لا تترك وصوى ولكن للناس أن يشيروا بأرائهم ، وعلى أولى الأمر أن يفكروا ويندسروا ، فادأ رأوا رأياً وحب على الناس إطاعه ، وإن رأوا فيه نصصاً أو عصباً أو خطأ نصصوا ولله الأمور بأرائهم .

ثالثاً — بما نصح به أمير المؤمنين في شأن الخند ، أن تحول من الخند وبين إدارة الشؤون المسالمة . وقد دعاه إلى ذلك الرأي أن الخلفه كان بولى بعض فواده حراح بعض الأقطار فتولى قائدأ حراح مصر ، وآخر حراح حراسان وبذلك تصحح حاله هذا القطر في بده بحاسب الناس عليها . وبحاسبه الوالى كذلك . وقد علل اس المفتح رأيه هذا ، بأن ولاته الخراح معسدة للبقا لله ، وهو بطر صائب فان كثر من هؤلاء القواد اعبروا بسلاطهم وحوودهم ، فطلبوا الاس فلما أوجدوا على طلبهم اعبروا بما في أيديهم من مال ، وما تحب طاعهم من حد فخرحوا على الدولة ، وكانوا سبباً لمصائب لا تحصي

ثالثاً — مراعاة الكتمانة في الامور ، فقد لم بطر الخالفة — في لطف — إلى أن يعمد بطر في الرؤساء ومرءوسهم ، فكثير من المرءوسين أكمأ من رؤسائهم فلو وثلى القيادة حبارهم ، ووضع الخند في مارتهم ، حسب كتمانهم لكان من ذلك خير عظيم رابعاً — تشييف الخند ثقافة علمية وحلقية ، فتحي تعاليمهم الكتمانة والتفهنة

في الدين ، كما يعنى بمعويدهم الأمانة والعفة والوابع ، واحتساب الترف
في الرى والعطر واللباس ، وما إلى ذلك .

حامساً — بعدن وقت محدّد للحد يقصون فيه أرراقهم فان ذلك أذى
لطلما بدنتهم ، وأمسع للشكوى والاستبطاء .

سادساً وأخيراً — أن يتقصّى أحوال الحد ويعرف أحوالهم وحالاتهم ،
وباطن أمرهم ، حيب كانوا وأن يعيّن لذلك الثقات الذين يحصلون له ، ولا
يكتمون عنه شيئاً ، وألا يستكثر ما يقصّ في هذا السبيل ، وإن عظم فان في
ذلك الحرم واستئصال الشر من أصله

هذه خلاصة موحدة لوجوه الإصلاح التي اقترحها للحد .

ثم ذكر أمير المؤمنين أهل العراق عامّة ، وأهل البصرة والكوفة
خاصّة وأهم أقرب الناس إلى أن يكونوا شيعة ومعيّنه ، ولأهل العراق من
العفة والعفاف والآداب والألسنة ما ليس في سواهم ، ورجاه في العناية بهم
والاعتماد عليهم ، وقال إنّه أرزى أهل العراق ، أن ولاء العراق — فيما
مضى — كانوا أشرار الولاء ، وأعوانهم كانوا أسرار الأعوان فساعات
سمعة العراق من أجل هذه الفئة الضالة ، واستعمل أهل السام ذلك ، فنهجوا
على أهل العراق عامه بما صعب هذه الفئة ، ولما حادت دوائنكم لم يجد
أمامها — من أهل العراق — إلا هؤلاء الطّاغرين من لا يصح الاعتماد
عليهم ، فلو نجّى هؤلاء ، وأماهم ، واستقصى الناس وعرف أهل الفضل ،
فأساسات الأمور إلى الأكتفاء عبر المنصحين لظهر فضل العراق وأهلها

ثم عرّض ابن المقفع في تقريره إلى موضوع من أهم الموضوعات
وأعمقها أنترأ في حياة المسلمين ، وهو . فوصى القضاة **بذكر** أن القضاء
فوصى ، لا ترجع فيه إلى قانون معروف ، وإنما هو متروك لرأى القضاة
وأجنادهم . ونسأ من ذلك صدور الأحكام المتنافسة حتى في البلدة الواحدة ،

قد استجلب دماء وفرواح وأموال في ناحية من بواحي الكوفة ، وتجرم في ناحية أخرى - تنعاً لحكم القاضى - وكل ذلك نافذ على المسلمين ، والقضاء نوعان : نوع يرعم أنه يلتزم السنة (يعنى بذلك النص على العموم) وقد تعالى فيما سباه سنة فكثيراً ما يسبقك دماً من غير سنة ولا حجة ، ويرعم أنه هو السنة ، فإذا قيل له : إن مثل هذا الأمر لم يُرق فيه دم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو أئمة الهدى من بعده أقال فعل ذلك عبد الملك بن مروان ، أو أمير من بعض أولئك الأمراء ! ويوع يرعم أنه من أهل الرأى ، فسلع به الاعتدال برأيه « أن يقول في الامر الحسم - من أمر المسلمين - فولا لا يوافق عليه أحد ، ثم لا يسو حش لا نهراده بذلك ، وإمضاء الحكم عليه ، وهو مُقرّ أنه رأى منه لا يَحْتَجُّ كتاب ولا سنة ، هذه هى القصة - كما نرحمها اس المقصع - ثم اقترح لها علاجاً ، وهو أن يُرفع إلى أمير المؤمنين كل الأفضية والمسائل الى يحدث فيها الخلاف ، ويُذكر ما يَحْتَجُّ به كل فريق من المخالفين من رأى ، فيُعهدُ أمير المؤمنين إلى هذه الحجة والبراهين ، ويحار ما يراه صواباً ، ثم يدرّس ذلك في كتاب ، ويعمل منه نسخ ترسل إلى الأمصار ، ويُلم القضاء بالحكم به ، فإذا حدثت حوادث سير فيها هذا السير ، ووجب على كل إمام بأن يعبأ أن يُدخل على هذا القانون ما يَحْتَجُّ وما تدعو اليه الحاجة ، وهكذا الى آخر الدهر

ونرى « اس المقصع » أن وثلاة الأمور يحب أن يرجعوا في المسائل المختلفة فيها الى المعدل ومصاحبا الناس ، وليس هناك ما يمنع من ذلك ، لأن الأحكام المختلفة ؛ أمّا أن نكرن اختلاف القضاء فيها ناشئاً من اسنادهم على سبب مأثوره مختلفة ، وهذا الاختلاف في السبب دليل على أنها ليس بمقولة باجماع اما لسببها واما لأنها محال للأبواب لمخلفه . وحديث يكون الرجوع الى العداله أولى واما أن يكون الاختلاف ناشئاً من مُراعاة الناس ،

وقد أهرط الفقهاء في مراعاة القياس الشكلي ، والتمروا به فوقوا في ورطات
وأنى أن المقنع يمثل هيرى به قياسهم فقال ، لو أنك سألت أحدهم أن أمرى
أن أصدق فلا أكدت كدنة أبدأ ؟ أكان حواهم نعم ! فلو سألت ما تقول
في رجل هارب أراد طالم أن يقتله فسألى عن مكانه وأنا أعرفه ، أصدق أم
لا ؟ فلو ساروا على قياسهم الذى وضعوه لأحايوا بالترام الصدق مع أن
المصلحة والعدالة في غير ذلك ، ثم قرر مبدأ قنماً وهو أن القياس ليس الا
وسيلة لتحقيق العدالة ، وطريقاً من طرق الوصول اليه ، حتى روت العدالة
في غير القياس يجب أن يصحّ بالقياس

فحمل رأى اس المقنع في اصلاح القضاء ؛ وصحّ قانون رسمى تحرى عليه
المملكة الاسلامية في جميع أبحاثها ، وهذا القانون يُرّجح فيه الى ما تُرشد
اليه العقل في معنى العدالة ، وهذا فيما عدا ما ورد فيه نص مجمع عليه - من
كتاب أو سنة - فأما ما ورد فيه نص يخلف فيه أو ما كان مبنياً على قياس ،
فيجب أن يترك الى ولاية الأمور ينطرون فيه باعتبار واحد وهو المصلحة
العامة . والفقهاء ليس لهم وضع قوانين وإنما عليهم أن يتجهدوا في المسائل
من الناحية العلمية البظرة ، ثم يُدلّون بأرائهم الى ولى الأمر ، وهو
المقنع وحده

وهو رأى له قيمته ووحدانيته وهو تنقى في كثير من بواحيه والآراء
الحدية في الشريعة ، ولو عمل به المسلمون لكان له أثر كبير في الحالة
الاجتماعية وحاصله من الناحية الفصائية

ولم تدم دعوى اس المقنع سوى ، ما من سعد في الطبقات روى عن
مالك بن أنس أنه قال لما حجّ المصور قال لي قد عرمت على ان أمر
نكسك هذه الى وصيها فمسح ، ثم أنعَبَ الى كل مصر من أمصار المسلمين
مما نسجوا وأمرهم أن يهدأوا بما فيها ولا مدّونه الى غيره ، فقلت يا أمير

المؤمنين لا تفعل هذا، فإن الناس قد سمعت اليهم أقاويل، وسمعوا أحاديثاً ورووا روايات، وأحد كل قوم بما سبق اليهم، ودأبوا به فدع الناس، وما احار أهل كل بلد منهم لأنفسهم،

فلما أتى هارون الرشيد عاودته المكره، فرمى في كتاب الخلية عن مالك بن أنس قال «ساوَرَنِي هَارُونُ الرَّشِيدُ فِي أَنْ يَعَاقِبَ الْمُوَطَّاءُ فِي الْمَكْرَةِ وَيَحْتَمِلَ النَّاسُ عَلَى مَا فِيهِ، فَقُلْتُ لَا تَفْعَلْ، فَإِنْ أَحْبَبْتَ رَسُولَ اللَّهِ احْتَلَمُوا فِي الْفُرُوعِ، وَهَرَقُوا فِي الْبُلْدَانِ وَكُلُّهُ مُصِيبٌ»

لم يكن في هذه المحاولة تحقيق لكل فكرة من المقنع، فقد كان أكثر حرية مما قصد اليه المصور والرشيد، ولكن كاتب خطوة من الخطوات المرسومة لم يحقق!

وليسا يحرم أن هذه المحاولات نشأت عن تقرير من المقنع، فقد تكون تسموراً لمكره عمر بن عبد العزيز في جمع الحديث، فقد كان يرى هذا الرأي. فتقدم الزمان رأى جمع الحديث وحملته فابوياً وقد يكون فكرة المصور والرشيد نسخة العامل من معاً - فكره جمع الحديث الى ارتأها عمر بن عبدالعزير، وفكره نقى القواس الى ارتأها ابن المقنع - وهو الذي تميل اليه

ثم اتفق بعد ذلك الى تعطيف المصور على أهل الشام، وقد كان العباسيون يطرون اليهم بطاره عداه ومقت، لأنهم كانوا أعوان الأمويين وحدثهم المطع، فاعترف بأن أهل الشام بكرهوا العباسيين، ولكن ينبغي ألا نؤاخذهم الخلقة بذلك، وألا نعلمهم في المودة، فعداوتهم طبعية فقد كانت الدولة دولتهم والملك لهم، ولكن هذا لا يمنع الخاطيء أن يصطع خيارهم؛ فولاء لا يلبثون أن يفصلوا عن أصحابهم في الرأي والهوى، وبعينهم عنهم، فتتسع دائرة المحبة للعباسيين والتودد لهم كما صرحه ألا سجل المال

عليهم، وأن يُدعى عليهم ما حُتمَ من بلادهم - بعد استقطاع الحقوق العامة -
«إِنَّهُ إِنْ فَعَلَ ذَلِكَ رَحَّبْتُ أَلَا يَكُونُ مِنْهُمْ رَوَّابٌ وَلَا وَثَّابٌ عَلَى الدَّوْلَةِ،
فَإِنْ فَعَلُوا رَحَّبْتُ أَنْ تَكُونَ الدَّائِرَةُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ،
وَقَدْ عَلَّمْنَا التَّارِيخَ أَنَّ الْمُلُوكَ إِذَا حَرَجَ مِنْ قَوْمٍ يَقْبَلُ فِيهِمْ نَفْسُهُ يَحْتَوُونَ إِلَى
مَحَدِّهِمُ الْقَدِيمَ، فَيُثَوِّرُونَ وَتَكُونُ ثَوْرَتُهُمْ سَبَبَ اسْتِصْالِهِمْ وَتَدْوِيحِهِمْ»

بعد هذا تكلم في صحابة الخليفة أو ما سُمِّيه من الآن «بمعية» - ورجال
دولته والمقرين إليه، وقد كرر شكواه من أن هؤلاء كانوا - قبل خلافة أمير
المؤمنين - يعملوا أعمالاً مُفْرِطَةً الْقَحْصِ؛ مُفْسِدَةً لِلْحَسَنِ وَالنَّسَبِ وَالسَّاسَةِ،
دَاعِيَةً لِلْإِشْرَارِ طَارِدَةً لِلْأَحْيَارِ. ذلك أن الخليفة كان يقرَّب أوعاد الناس
وسهِّلَهُمْ، وهرب الخیار من التقرب للولاء حتى إن قوماً من أصحابه الصِّعَةِ،
- وفهم ابن المقفع - أتوا داراً للخليفة في أيام السَّمْنُوحِ، فأبوا أن يروروا الخليفة،
لما يعلمون من بطائه وسوء سيرتهم وقد سمعوا الناس يقولون «مارأينا
أعجوبة قط أعجب من هذه الصِّعَةِ، من لا يذهب إلى أدب ذي ساهة، ولا
حسب معروف، ثم هو مسحوط الرأي مشهور بالفجور» - وبعده ابن المقفع
في اختيار الصِّعَةِ نِزْعَةً أُرْسَتْهَا طَائِفَةُ فَارَسِيَّةٍ، فهو يراعى في اختيار الصِّعَةِ
من ورراء وكنائت وعيرهم أمر من أمرأ وحياً معقولاً، وهو أن يكونوا
ذو رأي أماء عدولاً، ولكنه لا يشدد في هذا لشدِّه في الأمر الثاني،
وهو أن يكونوا ذوي حَسَبٍ وَنَسَبٍ ويترع كل الفرع أن يرى هؤلاء
الصِّعَةِ - عبر المعروفين بنسب يؤدِّن لهم على الخليفة قبل كثير من أماء
المجاهرين والأبصار، وفيل فرابه أمير المؤمنين، وأهل بيوتات العرب. وهو
يرى إذا ما همة لا يصبغ أن يترت السه ويجعل من خاصته الرجال أُنَى
مَكْرُمَةٍ مَطْمَئِنَةٍ، أو رجلاً له مِرَّة من فِزاة أو حُسْن بِلاد، أو رجلاً له
من السرف وحوذَه الرأي والعمل ما يؤمله لذلك، أو رجلاً ذا حِذَّة ولكن

يجب أن يجمع إلى محدته حسنًا وعفافاً ، أو رحلاً فقهاً مصلحاً يتمتع الناس بفقته وإصلاحه فأما من يجدون الشماغات وسيلة للقرب من السلاطين ، فيجب ألا تمكنهم شفاعاتهم من هذه المناصب ثم إذا احتقر الحائزون على الشروط التي ذكرنا ، يجب أن نعين لكل منهم اختصاص في عمله لا تشاركه . فلا يكون للكاتب أمر في رفع رزق ولا وضعه ، ولا للحاجب في تقديم ادس ولا تأخيره .

انتقل بعد هذا إلى الكلام في الحراج ، وهو عماد مالية الدولة ، ونعني بالحراج المال المفروض على الأراضي ، وقد شكك من الفوضى فيه كما شكك قبل من فوضى القضاء ، شكك أن الأراضي - مع اختلافها حودة - ليس مقررًا على كل وحدة ، منها مبلغ معين ، ولا سُجِّل ذلك في دفاتر يحفظ أصلها ويُحصَّل بمقتضاها وإبرح للإصلاح أن تفسح الأرض ، ويحرص عليها المال المناسب ، ويعرف كل مالك ماعليه ويدون ذلك في سجلات تحفظ أصولها في دواوين الدولة ، في هذا « صلاح للرعية ، وعمار للأرض ، وحسن لأبواب الحياة وعشيم العمال » وشعر بصعوبة هذا العمل مع ضرورته فقال : « أن مؤونته شديده ، ورحاله قليل ، وبهعه مأحر ، وحم مطالبه في اصلاح الحراج يحير الدين توارون هذا العمل ، وشدة الرقابة عليهم ، والاستدلال بهم عند ظهور حياة عليهم »

وقد رأينا - بعد عصر ابن المقفع - أن يوسف يقول : في كتابه « الحراج » : « أن أمير المؤمنين (يعني هرون الرشيد) سألني أن أصع له كتاباً جامعاً ، يعمل به في حايه الحراج ، والشور والصدقات والحوالي ، وعبر ذلك - بما يجب عليه الاطر فيسه والعمل به - وإنما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته والصلاح لأمرهم » وطلب أن أس له ما سألني عنه بما ترد العمل به ،

وأفسره وأشرحه ، وقد فسرت ذلك وشرحته ^١ فهل كان هذا العمل تحقيقاً لمطالب ابن المقفع ؟ قد يكون ذلك ، ولكن بما لا شك فيه أن ابن المقفع عثر عن أهم المسائل التي تشغل العقلاء في عصره فلا عجب أن نرى الكلام فيها كثيراً ، وأن نرى كبراهم يصنعون العلاج لتلافيها كذلك يرى فرقاً كثيراً بين معالجة ابن المقفع لمسائله وخاصة الجراح ، ومعالجة أبي يوسف فإن المقفع يعالجها من الناحية العقلية المحضة ، وأما أبو يوسف فيعالجها من الناحية الدينية ، فهو لا يخطو خطوه إلا يدعمها بسند من كتاب أو سنة أو أثر ، وأحياناً بقياس أو استحسان ، وهذا يرجع إلى الفرق بين ابن المقفع وأبي يوسف في المنشأ والمرئ والمصنف .

د

ثم انتقل ابن المقفع إلى الكلام في حرية العرب من الجحار واللين والجماعة وغيرها ، وقد كانت موضع رغبة المصور إذ حارب عليه ، فطالب إليه أن يعيها بما عناية خاصة ، فتجربوا لا يها الحيار من أهل بيته ، وأن تسحو نفسه عن أمواتها ، وكان ابن المقفع ينظر في هذين الأمرين إلى أن حرية العرب مسع الامة ، ومصدر الاسلام ، وقبله المسلمين وقد بولاهم ولاه سوء انتهكوا حرمتها ، فكاتب حاجها إلى حبر الولاة أمس وأوحى وهي فقيرة ليس فيها حصص العراق ، ولا عى الأمصار فاداكاب الامصار الأخرى تحمل ما اراد من ثروها إلى دار الخلافة ، خير للجايمه ألا تنفع هذه السمة في حرية العرب فترك لها ما لها ان لم يمدّها مال من عده

وحتم ابن المقفع ، بضرورة ندان ما للحليمه من أثر عظيم إذا صلح ، ذلك أن العامة لا تصلح إلا لصالح الجاحصه ، والخاصة لا تصلح إلا لصالح إمامها ، سلسله تأخذ بعضها بحجر بعض لأن العامة بعدل خاصها في شؤونها

١ أول كتاب الجراح لأبي يوسف

وتتبعها في سريها ، فاذا كان الخواص من دوى الدس والعقل كان في ذلك صلاح للعامة ، وموقف الخاصة من الامام موقف العامة من الخاصة . فمسألة أن يعزم الامر المؤمنين على المراشد ، ويخصه بالحفظ والثبات »

هذه خلاصه وتحليل لرسالة الصحابة ، وان شئت ؛ فهل انها رحمة لما فيها من أفكار ، فهدا عبراتها من فساد النسخ والتجريف والعموص ما جعل ادراك مرادها بعد المال .

ومنها يرى أن اس المقفع كان ناصح العقل في رسالته فوى الفكر ، شاعراً بوجوه الضعف في الدولة ، مما لا الى اصلاحها ، ولو عرفوا أنه قى ولماً يتجاوز الأربعين من عمره ؛ عرفوا قدر نوعه ، وعرفوا اي عمل كبير كان يشغل رأسه

لم يعالج اس المقفع ما عالجته من الباحة الدينية ، كما عالجته أبو يوسف مثلاً ، فان رتبته لم تكن دينية بل لم يُسلم الا قرناً ، كما ساعده على هذا النوع من التفكير أنه كان فارسياً ، وكان واسع العلم بالباريخ الفارسي ، وترحم بعض كُتب الباريخ الى اللغة العربية ، فهو يعلم تمام العلم بنظم الفرس في الحد والقضاء والصحابة والجراح وقد مرت هذه الدولة بأدوار كبيرة . وحرب و محاربات عديدة ، واستقر نظامها عهداً طويلاً ، وعالجته مصلحون وله - أفرهم وأعمالهم - فكان اس المقفع ، طر الى الممالك الإسلامية ، وما فهم من نظم نافعه في بعض نواحيها ، وبمثل سمأه - بسرعة - الى قومه الفرس ، وهمارين ما يرى أمامه ، وما أرسده اليه الباريخ الفارسي ، ووحى اليه هذه المعارف بمقترحات الاصلاح ، وتصطدم هذه المقترحات احياناً بنظرات رجال الدين ، كالذي رأينا من مخالفة رأى الامام مالك لمقترحات اس المقفع في تنظيم الشرع والقضاء . ذلك لأن اس المقفع ؛ يرجع الى تقنين قانون يعمّ ابناء

الدولة ، كما كان الشأن في فارس ، وأن تُحكَم العدالة والمصلحة العامة . فَمَا لم يرد فيه نص مجمع عليه . وهو أقرب ما يكون الى البطام الفارسي ، والامام مالك ، يرى أن أهل كل مصر وصلت اليهم أحاديث يرون صحفها ويلزمهم العمل بها ، وليس من الحق ولا من الدين أن يلزمهم رأي عقلي يخالف ما لديهم من حديث صحيح ، - أو على الأقل - صحيح في نظرهم ، وأن المقنع ، يتكلم في الحراح بمثل ما فعل اليبا عن الأكاسره ، وأبو يوسف يتكلم فيه بالآثار التي صحت عنده والامام يرون ألا يلجؤوا الى أن المقنع ، والبرامكة وامثالهم وإنما يلجئون الى رجال الدين أمثال الامام مالك وأبي يوسف .

كلبلة ودمه

ليس من قصدنا ان نبحث هنا في كتاب كلبلة ودمه ، ونعرض لأبحاث المستشرقين في أصل الكتاب أمثال « ده ساسي » و « شوفان » و « نيكل » و « قالكوب » و « هيريل » و « تولدك » و « حويدي » و « نرثوكيان » و « راييت » وغيرهم ، فلو استقصينا ما قالوا ، وعمدنا الى مناقشة آرائهم لاحتاج ذلك الى كتاب بأكملة ، وليكتأ بوجع القول هنا ، فيما يتعلق بموضوعنا ، وهو الثقافة الفارسية وآثارها وأن المقنع وأعماله

يقول ابن المقنع انه نقل الكتاب من اللغة الفهلوية ، وقد نقل في أيام كسرى أنوشروان من الهدية الى الفهلوية ، وكان الباحثون في شك من ذلك حتى عثر الأستاذ هربل Hettel على بعض الأصول الهدية الأولى ، كتبت باللغة السستسكرتية القديمة ، كما عثر عبره على بعض ابواب من الكتاب معروفه فَعبروا في كتاب على باب « الأسد والبور » و « الحمامة المطوفة » و « الروم » و « العربان » و « الفرد والعَلَم » و « الاسك وأن عرس » وعثروا في كتاب آخر على باب « الحرَّرد والستور » و « الملك والطائر

فتره ، و « الأسد وابن آوى » كما عثروا في كتاب ثالث على باب « ملك
الفيران » ، وعثروا أيضاً على باب « ايلاذ وبلاذ وايراخت » وباب « السانح
والصانع » و « ابن الملك ورقائه » لجميع هذه القصص هندية الأصل . ولكنهم
لم يعثروا إلى الآن - فيما أعلم - على كتاب جمعت فيه هذه القصص كلها يسمى
كليلة ودمنة ، أو أى اسم آخر . فهل كان هناك كتاب هندی حوى كل هذه
القصص ، ألفه مؤلف واحد ، ونقله الفرس إلى لغتهم ؟ أو أن الفرس نقلوا
هذه القصص المتفرقة في الكتب إلى لغتهم ، ووجدوها في كتاب وأسندوها
إلى مؤلف واحد ؟ هذا مجال خلاف لا يزال بين الباحثين .
ويرجحون أن باب « بعثة برزويه » وباب ملك الجرذان من زيادات
الفرس أنفسهم .

كما يرجحون أن هناك فصولاً برمتها من زيادات ابن المقفع نفسه ،
وهي باب « غرض الكتاب » وباب « الفحص عن أمر دمنه » وباب
« الباسك والضيف » وباب « البطلة ومالك الحزين » .

وكما يذهب بعضهم إلى أن الباب الأول - وهو مقدمة الكتاب - لعلى ابن
الشاه الفارسی وضع بعد ابن المقفع ، ويذهب « ده ساسى » ويوافقه « نولدكه »
إلى أن بهنود بن سحران أو على بن الشاه هو « أبو القاسم على بن محمد بن الشاه
الظاهرى » الذى يقول عنه صاحب الفهرست « إنه من نسل الشاه بن ميكال
وكان أديباً طيباً مفاكراً في نهاية الظرف والنظافة »^١ . وقد توفي سنة ٣٠٢ هجرية .
ولهم أدلة على كل ما ذكرنا يطول شرحها ، ويخرج بنا عن الغرض الذى
إليه قصدنا .

وقد كان الباعث لابن المقفع على ترجمته - على ما يظهر - ماعندها فيه
من ميل إلى الإصلاح الاجتماعى ، شاهدناه في الأدب الكبير والصغير ،

ورسالة الصحابة وكتاب كيلة ودمية يشرح بعض هذه الواحي شرحاً وافياً، فهو يتعرض للصح بعدم الاصحاء إلى الحاسد والتمائم، ويبين أن هناك حراء طبعياً، معافاة الحر حير، وعاقبة الشر شر. ويصح بأحد الحذر من العدو، والاعتناء على الصداقة، الخ

ويظهر أن تعمق ابن المقفع في دراسة الحياه الاجتماعية أداه إلى استنكار كثير من الأمور، ورأى أن معطما يرجع إلى حكام عصره، ورأى أن الحرية السياسية غير متوافره في رمة، فهو لا يستطيع أن يقدر الحليفة وطاقتة بحدأ صريحاً. وقد عاش ابن المقفع وقت بصوح فكره في رمن أنى جعفر المصور، وهو شديد البطش قوى الممتة^١ سريع إلى إعمال السيف وهو - كان - مؤسس الدولة العباسية وواضع نظمها ومحصتها، وكان يرى ألا يمكن بثيت فواعدها إلا باحما كل حركة تُضعف من سأن الدولة، أو يوهم فها ذلك، ويقطع رأس كل مخالف وكان من صحابا المصور كثيرين فملوا بالظنة، وتدرع في ملهم بالاها بالريقة أو نحو ذلك، وكان ابن المقفع يهسه أحد هذه الصحابا

لعل ابن المقفع رأى أن موقفه مع المصور موقف جيداً مع دسليم، فقد جاء في مقدمه الكتاب: فلما استوثق له (لدنسام) الأمر، واستقر له الأمالك طعى ونعى ونحر، وكثر، وحمل بعرو من حوله من الملوك، وكان مع ذلك مؤنداً مطعرا مصورا، فهاه الرعة فلما رأى ما هو عليه من الملك والسيطرة، عب الرعة واستصعر أمرهم، وأساء السيرة فيهم، وكان لا يربى حاله إلا ارداد عسراً فكك على ذلك رهة من دهره وكان في زمانه رجل فياسوف من الزاهمة فاصل حكم يعرف بمصله وترجع في الأمور إلى قوله فقال له: ندبا، فلما رأى الملك وما هو عليه من الظلم للرعية، وكثر

في وجه الخيلة في صرّوه عما هو عليه ، ورَدّه إلى العدل والانصاف الخ . «
ولعلّ اس المققع لم يستطع أن يواحه « المصور » بأكثر مما واجهه به
في رساله الصحابه ، وقد مرّج بقده بكثير من المدح للحقيقة والشاء عليه ،
ونسب أكثر الشده التي يراها إلى غيره . ولكن هذا لم يشف عاقبته ، فرأى
أنّ أسلم طريقه ، أن يرحم هذا الكتاب ويريد به لعمل الكتاب في
الحلفاء والرعه ، ما فعله كليله ودمه في الهدد وفارس ، ولعلّ هذا هو العرص
الرابع الذي أحماه في مقدمة الكتاب ولم يصرح به . فقد حاه فيها « يدعي للباطر
في هذا الكتاب ، أن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أعراس أحدها ما قصد فيه
إلى وضعه على أسسه الهائم عبر الباطنة ، لتسارع إلى قراءته أهل الطرل من
الشان والباي إظهار خيالات الحيوانات بصوف الأصابع والألوان ،
ليكون أسساً لعلو الملوك ، ويكون حرصهم عليه أشدّ لانه في تلك الصور .
وبالب أن يكون على هذه الصورة فكبر بذلك ابتساحه ، ولا ينطلي فيخلق
على مرور الأنام ، لتسمع بذلك المصورّ والساس أبدأ والعرص الرابع
وهو الأقصى وذلك مخصوص باللسوف حاصه » وسكب عن هذا العرص
الرابع ولم يديه وهو - من غير شك - عرص اس المققع من ترجمته والظاهر
أن هذا العرص يمكن تلخيصه في أنه النصيح للحلفاء حتى لا يتحدوا من طرق
الصواب ، وبقية أعين الرعه حتى يعرفوا الظلم من العدل ، وحتى يطالبوا
سحب من العدل ولم يوضحه اس المققع لأن في إيضاحه خطر علىه من
المصور ، ولعلّ هذه الرعه فيه كاتب من الأسباب في الانعاز به له !

وبدل المقاربه بين ما عثر عليه من الفصول الهدية ، والبرهمة السر سانة
القديمة - إلى ترجم من اللمة الفهلوي به القدمة بحوسنة ٥٧٠ م ، والتي وحدت
في دير في « ماردين » ونشرت سنة ١٨٧٦ م - على أن اس المققع لم يرحم
الكتاب ترجمة حرفه بل حوّر كثيراً في جملة ومعانيه وترتيبه ، حتى يهي

والدوق العربي الاسلامي وذوق المتأدبين في عصره . بل أضاف فصولاً من عبده - كما أسرار قبل - كتاب الفحص عن أمر دمة ، وفيه « دعة إسلامية طاهرة مثل : » ومن يخزي بالخبر حبراً ، وبالأحسان إحساناً الا الله ا » « ومن طلب الحراء على الخبر من الناس كان حقيقاً أن يحطى بالحرفان ، إذ يحطى بالصواب في حاول العمل لعير الله تعالى ، وطلب الحراء من الناس ا » ومثل « لأن تُعذَّب في الدنيا بخبر ملك ! خبر من أن يعذب في الآخرة بحمهم مع الإثم ا » ومثل « والعلماء قد قالوا - في شأن الصالحين - لهم يعرفون بسيماهم » ، وقالوا العلماء « من كنتم حجة مَنبأ حطاً حجة يوم القيامة » « وقد علمنا أن شهادة الواحد لا توجب حكا » الخ وقد أئدت البحث أن اس المقع كان يحذف حملة من الأصل القهلاوى ، ويضع مكانها حملة أخرى توافق مراح عصره . وقد نضع فصلاً كاملاً ولعل هذا هو السبب فيما حكاه ابن حنكاه من أن السكتات تختلف فيه هل هو ترجمة ابن المقع أو تأليف له

وترجمة ابن المقع نفسها قد دخل عليها كثير من التعيير على توالى العصور بدليل (١) اختلاف النسخ التي بن أيدينا اختلاف كبيراً (٢) وأما نجد اس قيمة في كتابه عيون الأخبار يفعل بعض قطع من كتبه ودمة ، وهي بحالف في عباراتها ما بن أيدينا من السكتات (٣) ورى في السج التي وصلت إليها من كتاب « نتائج القطه » في نظم كتيلة ودمة « لاس الهـ تـ مـ تـ احلاف في ريب الأواب ، وليس فيه باب الحامة ، ومالك الحرس » وسمى فيه « اب ابلاد وبلاذ ، و د هيلار و سيار » مع اختلاف في سياق المثل ، الخ

وقد كان لسكتات كتيله ودمة أثر كبير في الأدب العربي ، وفي غيره من الآداب وعى الناس به عناية كبرى ، وحدوا حدوده من ذلك أن كيرين الطموة يعرف مهم أ نأ اللاجي ، ولكن لم يصل إليها من نظمه الا القليل . ثم نظمه ابن الهباريه في كتابه « نتائج القطه » وذكر اس الهتارة في

ترجمته أنها خير من ترجمه أنا^١ وله نظم ثاب اسمه «در الحسك في أمثال
الهود والعجم» أكمله عند المؤمن بن الحسن الصاعاني^٢.

وحدا حدوده كتاب كايرون، فاس الهبارية ألف على ممواله كتاب
«الصادح والداعم»^٣ وكذلك ألف على ممواله كتاب «سلوان المطاع في عُدوان
الطباع» لأبي عبد الله محمد بن أبي القاسم القرشي المعروف بأبي طاهر المتوفى
سنة ٥٩٨ صغره لبعض القواد بصغلية^٤. وكذلك ألف على هذا النسق
أبو عرشاه كتابه «فاكمة الخلفاء» ومناظره الخلفاء^٥. وكتابه «مرربان
نامه» الذي ترجمه من الفارسية^٦.

وذكر «كشف الطون» أن أبنا العللاء المعري ألف كتاباً اسمه «القائى»،
على مثال كليله ودمه وهو في سبعين كراسه ولم يتم، وأوله كتاب «منار الفائى»
يتضمن تفسيره في عشرة كرايس^٧.

وفي رسائل إخوان الصفاء رسالة في المناظره بين الحيوان والإنسان لا تخلو
من لؤلؤ من كلاله ودمه، بل طين «حوادث ربه» أن اسمه «إخوان الصفاء»
مقتبس من كليله ودمه إذ ورد الاسم في أول فصل «الجماعة المطفوفه»

وسلى كل حال فقد أدخل هذا الكتاب على الأدب العربى القصص على
أسسة الحيوانات - نعم كان للعب فيه شيء من ذلك كالذى ورد من أمثالهم،
أن الأرب المصطب مرة، فاحسبها انثعلت فأكلها، فاضلما إلى الصب فقالت
الأرب يا أبنا الحصص! قال سيماً دعوب، فالب أمناك لاحتصم إليك، قال
عادلاً حكيماً فالب أحرص إلها، قال في ده، يؤنى الحسككم قالت إلى وحيد

١ طبع نظم الزهراء في الهد وروب ٢ وهو في مكة سنة ٣ طاع في مروب ومصر
٤ ودمع في بوسى وروب ٥ أطار كالا ودمه في داره الماربه الاسلاميه
وعون الأخبار، وكشف الطون، ونولا كه ٦ طاع في مصر ٧ جزء ٢ . ٦١

ثمرة قال حلوة فكليها . قالت فاختلستها منى الثعلب ، قال لنفسه بئى الخير .
قالت فلطمته ، قال بحقك أخذت . قالت فلطمنى ، قال حر انتصر . قالت
فاقض بيننا ، قال قد قضيت ا وورد في القرآن الكريم : « قالت نمسكة
يا أيهما التمل ا أدخلوا مسنا ككتكم » وقال في الهدد فقال : « أحطت بما لم
تُحِط به » ولكن كان لكتاب كليله ، أثر من ناحية تفصيل القصص على
أسنة الحيوانات تفصيلاً طويلاً ، ووضع الحكم والأمثال والعظة على
أسنتها ، وتبينت الحاجة الشديدة إلى هذا النوع في عصور الاستبداد . يوم
كان الملوك والحكام يضيّقون على الناس أنفاسهم ، فلا يستطيع ناقد أن
ينقصد أعمالهم ، ولا واعظ أن يوعى بالموعظة الحسنة إليهم . ففشا هذا
الضرب من القول والقصص ، بقصدون فيه إلى نصح الحكام بالعدل وكأنهم
يقولون : إذا كانت الحيوانات تمقت الظلم وتحقق العدل فأولى بذلك الانسان ا
وإذا كانت الولاة والرؤساء تأخذهم العزة بالاثم ، ويستعظمون أن يُصرّح لهم
بنصح أو نقد ، فلا أقل من وضع النصيحة على لسان البهائم ا وإذا كان في
التصريح تعريض الحياة للخطر ، ففي التلميح نجاة من الضرر .

واما ذكرنا كتاب كليله ودمنة ، وما كان له من أثر في الثقافة الفارسية ،
ولم نذكره فيما يأتى من الثقافة الهندية لسببين :

(١) أن اللغة العربية انما تلتقت الكتاب من الأصل الفهاوى الفارسى
ولم تتلفه من الأصل الهندى . ومُترجمه الذى كساه حلة من البلاغة العربية
حببته إلى الناس ، هو ابن المقفع الفارسى .

(٢) أن الفرس - وخاصة ابن المقفع - زادوا فيه زيادات كثيرة - كما
أبنا من قبل - وإن كان من الحق أن نقرر هنا ما للهند في هذا الكتاب من
فضل هو فضل واضع الاساس وصاحب الفكرة .

رندقة ابن المقفع

اشتهر رمي ابن المقفع بالرندقة، ومن أقدم النصوص في ذلك ما حكى عن الخاط، « أن ابن المقفع ومطيع بن إياس وبحي بن زياد كانوا يتهمون في دينهم، ويروون أن المهدي قال: « ما وجدت كتاب رندقة إلا وأصله ابن المقفع،^١ ويروى الخهشاري أن سفيان بن معاوية لما أراد قتله - لما بينهما من عداوة شخصية ونازع المصير - قال له: والله يا ابن الرندقة لأحرقك نار الدنيا قبل نار الآخرة! ثم تناقل الناس هذا القول ورادوا فيه وأصبح من المسلم لديهم رندقه، وكلمهم ينداولون الحكاية المشهورة أنه مر نيس من أبواب النار، فمثل بقول الأخوص

يأبى عاتكة الذي أتعتل حذر العدي وبه القواد مؤكل

إني لأمهلك الصدود وإني فسما إليك مع الصدود لا مثل

وراد من أبي بعد كالأقلاق، والفاص عياص إمامه بمعارضته القرآن

الكريم!

ومن يعلم من حماته ابن المقفع أنه قضى أكثر حياته، وهو محبوس طاهراً وناظراً، ولم يسلم إلا وهو كاتب عيسى بن علي، ولم يعمر بعد لإسباس قليلة، وهو من غير شك لا يؤاخذ على رندقه، وما ألفها - إن كان قد ألف - قبل أن يسلم، وأما يؤاخذ على ما ألف أو قال بعد إسلامه، فالأسلام تحب ما فله. ولم يصح هؤلاء الرواة على أنه قال، أو ألف كتاباً الرندقة بعد إسلامه إلا عبارة سفيان بن معاوية وهو منهم لما بينهما من عداوة شخصية، سمعه أن ابن المقفع كان يحفره ويردريه، وإلا ماروى من بسله سنى الأخوص

وقد بالغوا في المحض عما يشتم منه ربه، ورموه بها حتى فيما ليس فيه ربه، فقد روى أبو تمام في ديوان الحماسة لاس المقفع أياً ناله في الرثاء وهي:

رُثِينَا أَمَا عَمْرٍ وَلَا حَتَّى مِثْلُهُ وَلِلَّهِ رَبِّ الْحَادِثَاتِ مِنْ وَقَعٍ
فَإِنْ نَكُّهُدَ فَارَقْتَنَا وَتَرَكَتَنَا دَوَى حَلَاةٍ مَا فِي السَّدَادِ لَهَا طَمَعٌ
لَقَدْ حَرَّ نَعْمًا فَقَدْ نَالَكَ أَتْنَا أَمِنَّا عَلَى كُلِّ الرَّاغِبِ مِنَ الْحَرِّ
فقال ثعلب: «البيت الأخير يدل على مذهبهم في أن الخير مروح بالشر، والشر مروح بالخير» وأنا أقول لثعلب هلا فرأت قولاً تعالى: «سألوك عن الخير والميسر قل فيهما أثم كبير وه افجع للناس وإتتهما أكبر من نفعهما» الحق أن ثعلباً وأمثالاً تهاولوا عليه كثيراً

وقد أحرقت مؤسسة كائنات في «للأبحاث عن تاريخ الإسلام وحضارته» كتاباً نشره الأستاذ ميكائيل الخلو جو بدى سنة ١٩٢٧ عدوانه «كتاب الرد على الرديني اللعين اس المقفع - عليه لعنة الله - لئلا ناسم ن ابراهيم، عليه من الله أفضل الصلاة والسلام»

وهذا القاسم ن ابراهيم كما في عمده «الطالب في أنساب آل أبي طالب» هو «القاسم ن ابراهيم ن طباطبا ن اسماعيل الدباس ن ابراهيم العمر ن الحسن المثنى ن الحسن ن علي ن أبي طالب، كان نكحى أبا محمد، وكان يقيم في حال الرس ولدا عرف باسم قاسم الرستى» وقد مات القاسم سنة ٢٤٦ هـ أي بعد اس المقفع بحوالى قرن وكتاب القاسم كامل ولكن كتاب اس المقفع لم يذكر كله، وصح، وإنما ذكر المؤلف فقرأ منه مبدءاً للرد عليها ويضع النص العربى حسن وحسين صفحة، ثم ترجمه الأندلسى ردى الى اللغة الإيطالية، وعاش ماها وهدمه بمقدمة تحب في الكتاب وهذه الفهر الى ينسب الى اس المقفع بلدا على حرص الكتاب وصحاح ولعمره

ونحن نشك كل الشك في نسة الأصل لأن المققع والرد للقاسم
من وجوه :

فأما الشك في نسة أصل الكتاب لأن المققع :

(١) من الناحية الفنية ، فأسلوب الكتاب غير الأسلوب المعروف
لأن المققع ، والذي تنبئه من الأدب ورسالة الصحابة وكنية ودمه في
كل هذه الكتب لا يعتمد الى السجع الا ما جاء عفواً ، أما في هذا الكتاب
فيتعمد السجع أحياناً تعمداً كقوله « لأن كون شيء لا من شيء لا يقوم في
الوهم له مثال ، وما لا يقوم له في الوهم مثال فحال ، اهدا الى أن العبارة
نفسها من نوع التعبير الفلسفي ، الذي لم يعرف الا بعد زمن ابن المققع .

(٢) يستهزئ هذا المؤلف بالتعبير بأن الله يدن ، وبالإسواء على
العرش ، وبإيقاظ قوسس أو أدنى ، ويحمل هذه التعبيرات على طاهرها ونحن
نعلم أن ابن المققع كان صليحاً في اللغة العربية ، حتى قال الأصمعي « فرأت
آداب ابن المققع فلم أر فيها لحاً الا قوله (العلم أكثر من أن يحاط بالكل
منه فاحفظوا العصب) »^٢ وألف ابن المققع في الكلام - كما حكى الخاطب -
وبعزص للبعثرة ، من البعيد جداً أن يفهم ابن المققع من اليد والوجه
والإسواء على العرش المعاني الحقيقية الظاهرية .

(٣) إذا نحن استثنينا أول الرسالة ، وهو قوله « باسم الدور الرحمن الرحيم »
وحدا الرسالة كلها ليست بأيداً لمذهب ما في ، ولا لمذهب رادشت أو مردك ،
وأما هي دعوه الى الاتحاد المطلق ، فهو هراً بعلاقة الله بالإنسان وكما علم
عليه خلقه وهم كتمل يديه ا وكيف قتل أعداؤه أ نداءه ورسلكه ا وكيف
أمرص خلقه وعندهم بما عرص من الأسقام لهم ! وكيف تأمرك بالآيمان

١ ن ٤٤ ٢ المزمع ٢ ٨٦ وموضع اللحن في نظر الأصمعي إدخال آل على
كل وبعض

بما لا تعرف ، والتصديق بما لا تعقل ! وكيف صارت العلّة للشيطان فتبعه الناس إلا أفلمهم أ ، الخ وهي كما ترى ليست مطاعن في الاسلام وحده ، وإنما هي طعن في كل دين ، ومما الديانة الشوية ونحن نعلم من تاريخ اس المققع ، أنه كان يسمسك بدينه ، ولما اعترم الاسلام أنى أن يديب ليلة على غير دين ، وسواء أكان إسلامه حقاً أم ظاهراً فقط فليس من طبيعته الحرص على دين منا أن يهاجم الأديان كلها بهذه اللغة

(٤) أنالم محمد فيما بين أدينا من الكتب ، وخاصة في الكتب التي ألفت في العصور الأولى كالمسعودى ، وفهرست اس القديم من كتب لاس المققع كتاباً أكيدا ، وهو حرى بأن يئص عليه ، لأنه يهيج شعور المسلمين ، ويحملهم على الرد عليه ، ودفع مطاعه

وأما شكنا في نسبة الرد للقاسم بن ابراهيم من وجوه كذلك أولها — من الباحة الفنية ، فقد علمنا أن القاسم في الصف الأول من القرن الثالث ، والكتاب من أوله إلى آخره كله مسجوع ، متكلف السجع . ونحن نعلم أن هذا العصر « عصر الحاحط » لم يكلف فيه سجع ، ولم تؤلف فيه كتب مسجوعة كلها . وإن يكلف فيه سجع فقرفة أو فقرتان ، فأما كتاب كله سجع ، فهذا ما لا نعرفه في هذا العصر ، هذا ، الى إسفاف في السجع ، ورداءة في التعبير كقول « فالأيس والخن لسن بينهما عندكم خلاف ، والأعنان والأعراض فقد محمعهما الأوصاف »^١

ثانيها — رجم اس القديم في الفهرست للقاسم بن ابراهيم ، وعدّد كتبه ، وهي كتاب الأشربة ، وكتاب الامامة ، وكتاب الأيمان والدور ، وكتاب سياسة النفس ، وكتاب الرد على الرافضة^٢ وهذه هي كل كتبه التي ذكرها ولم يذكر منها رداً على اس المققع

هذا يجعلنا نحالف ماذهب اليه الألساد وحويدى ، من ترجمته صحبه
نسب الكتاب والرد عليه

وبعد فالقارىء لكتيب اس المقنع وباريحه ، يخرج منه على أدب تُقف
ثقافته واسعه فارسيه وعربيه ، برع برعة قوة لفومه من الفرس ، ويُحصى
أمره بنشر آدابها ، وسياستها وتاريخها ، ويرى عيوب السطم الاجتماعيه فى
عصره ، ادى باصلاحها ، تنطق الصالح من السطم الفارسيه ، ثم هو يدل
شرف النفس يسترعى نفسه وأدبه أنظار الناس ، فبروى الأصمعى أن
اس المقنع « سئل من أدلك ؟ قال بفسى ، اذا رأيت من غيرى حسناً أتتته
واب رأيت قسحاً أتبعه » ثم أن سئله وعالوه خلفه أتنا من طريق الفكر
والفلسفه ، لاس طريق الدين ، ورحال الخلق قد يكون خلقهم تدماً ، وقد
يكون خلقهم تعسفاً فأخلاق الحسن المصرى العاليه - مثلاً - معتمداً الدين
يتجلى ذلك فى حكمه وأقواله وسيرته . فهو يصدق ويحسن ويعدل لأن الله
أمر بالصدق والعدل والاحسان أما اس المقنع فماعتبه الخلق فلسفى يصدق
لأن فى الصدق شرفاً ورفعه ، ولولم يأمر به دين لكان فى نفسه حسناً ! يظهر
ذلك فى حكمه ، فقل أن يستند فى قوله الى آية أو حديث ، وانما يعزل ذلك
تعليلاً عقلياً ، فهو رجل مدنى وعالم مدنى ، لارحل دس ولا عالم دين سجلي
فى أقواله ايمان بالله ، واطمان بدس ؛ لكن لاسجلي فيما ايمان تنفصيل دس
فلو سئل ما - كاتب - مبرله الاسلام من فله ؟ غير ألا يحاول الإحانه ،
فمحس لاسلطبع الحكم - فى هذا - على من هم بحس سمعنا وبصرنا ، فكيف من
ناعدت دنسا وبيده القرون ، وانعمس فى السياسة وأحراها ، وحارب وحورب
ها ! فليكنه الى الله والله وحده خير الحاكمين .

إذا كانت الثقافة الفارسية عنصراً قوياً الأثر في ذلك العصر؛ في الشعر في الأدب، في الحكم، في القصص، في الخرافات والأوهام، في العادات والتقاليد، في نظم الحكم، في دُعاة الإصلاح، في رجال اللهو والغناء، في الديانات ومذاهب المتكلمين، في رجال العلم والتدوين، في قصور الخلافة، في الخاصة والعامة. وكان لهذا العنصر حُمة ودُعاة، يعملون كثيراً بداعي العصية القومية، وأحياناً بداعي الخير والإصلاح، وكان لكثير من هؤلاء الدعاة مناصبٌ تمكنهم من بسط نفوذهم، وحماية دعوتهم، سرّاً إذا دعت الحال، وجهرّاً إن أمكن الجهر. ولم يكن ابن المقفع إلا زعيماً من زعمائها العديدين، وأبطالها البارعين. ولم تنتشر دعوتهم في لين وهوادة، بل قوومت من عناصر أخرى في شدة وعنف، قاومها العرب إذ أحسوا الخطر، وقاومتها الأجناس الأخرى دفاعاً عن قوميتها، وكان صراع لغوى ودينى، وصراع عادات وتقاليد، وصراع علمي. وكان النصر في بعض الميادين لهذا، وبعضها لذلك، كما سنبينه في الكلام على امتزاج الثقافات إن شاء الله.

الفصل الثاني

الثقافة الهندية

قديمًا عرّف العرب «الهند» في حاهاتهم واتصلوا بهم تجاريًا، وأولعوا بالعود الطيب الذي تحلب من الهند، فقال عدى بن الرقاع
رُبَّ مَارٍ بَتِ أَرْمُقُهَا نَقِصِمُ الْهِنْدِيَّ وَالْعَارَا
قالوا إنما عني بالهنديّ العود الطيب الذي من بلاد الهند كما أولعوا
بالسيوف الهندية، وسمّوا السيف المطبوع من حديد الهند؛ المهنّد، وقالوا
سيف مهنّد وهنديّ وهندواني إذا عمل ببلاد الهند وأحكم عمله، واشتقوا
منه فقالوا هِنْدَ السيف إذا شجّده، وقال فائلمهم «كلّ حسامٍ مُخَنَّمٍ
التهنيد» قال الأزهري والأصل في التهنيد عمل الهند وسماوا كثيرًا من
بساتينهم «هنداً» كما سماوا «هند الهنود» ولا أدري هل أصل التسميه
هذه البلاد

ولما فتح المسلمون فارس والعراق فكروا في الهند، فيجدونها البلاد يرى
«أنه لما ولي عثمان بن عفان، وولي عبد الله بن عامر بن كرتّر العراق كتب
إليه بأمره أن يُوحّه إلى نهر الهند من تخّام عليه ويصرف إليه بحره، فوجه
حكيم بن حسانة العدنيّ فلما رجع أوفده إلى عثمان فسأله عن حال البلاد
فقال: يا أمير المؤمنين! قد عرفتها وجرّتها. قال فصعها لي قال ماؤها
وشلّ، وثمرها ذقّل، وإصنعا نخل إن قلّ الخش فيها صاعوا، وإن كثروا

حاعوا فقال له عثمان أحارب أم ساجع؟ قال بل حارب، فلم يُعزها أحداً^١ وتتابع المسلمون يعروها، ويصيرون منها المعام، حتى وحته الخجاج محمد بن القاسم النهقي إلى الهند في أيام الوليد ففتح حرماً عظيماً منها، وهو المسمى بالسند سنة ٩١ هـ، ففتح دَيْبُل « Daibul » و « بيراكوت » المسماة الآن « بحيدر آباد » وسار إلى « راور » وأحرقها وفتح « مُلُتَان » وكان محمد بن القاسم قائد الحروب وفتح هذه الفتوح في شأناً لم يتجاوز العشر، قال فيه القائل
إن المروءة والسباحة والبدى لمحمد بن القاسم بن محمد
ساس الجيوش لِسَمْعَ عَشْرَةِ حِجَّةٍ يَأْقُرُوبُ دَلَاكَ سُؤْدُوداً مِنْ مَوْلِدِ
وفال فيه آخر

ساسَ الرِّحَالِ لِسَمْعَ عَشْرَةِ حِجَّةٍ وَلِدَائِهِ عَنْ دَاكُ فِي أَشْعَالِ
وفد عجموا معام كثيرة، وسبوا سبياً كثيراً، انتشر كشأن السبايا في الممالك الإسلامية، وأصبح الخليل السدي عصباً من العصابير المكونة للأمة الإسلامية. حدث الأعاقي قال « بعث الخندسار عبد الرحمن المرسى إلى خالد بن عبد الله القسري يسى من الهند يص، فجعل يَبْكَا هو - للرجل من فريش، ومن وجوه الناس، حتى بقيت حارية ممن حملته كان بدحرها، وعليها ثياب أرضها فوط ان فقال لأني اللحم هل عندك فيها شيء حاصر وتأخذها الساعة؟ قال نعم أصالحك الله^٢ ثم قال فيها رَحْرَحَ المشهور الذي مطالعه »
عَلِقْتُ حَوْدَافاً مِنْ تَابِ الرُّطْطِ^٣

وفي عصرها الذي نوزحه، بعث السند للعباسيين، وولى أبو جعفر المصور

١ اللادري ص ٤٣٨ ٢ أعاني ٩ ٧٩ ٣ الرط حل من الهند مغرب
(حب « و طلى الآن على سكان ايام السجاء

هشام بن عمرو التَّعْلِي علىها سنة ١٤٢ فتوسع في الفح شبلا، ففتح وكابل،
و كشمير، وأصاب سُنْدا ورفيقاً كثيراً. واتصلت العلاقات التجارية بين
السند والمملكة الإسلامية، فكان يأتي منها العُود والسكر، والعب الهندي^١

٥٥٥

وما تم الفتح حتى رأيا الحركة العلوية تدعه، فكان بعض الفاتحين
أنفسهم من العلماء، فالربيع بن صبيح البصري أشهر المحدثين، وأولهم تدوياً
للحديث، كان في الجيش الذي سيَّره المهدي سنة ١٥٩ لغزو الهند ومهامات^٢
وقد ترجم الدهلي لبعض المحدثين في السند في كتابه تذكرة الحفاظ^٣ وهكذا
لم يكن الجيش الإسلامي فاتحاً فقط، بل - كان أيضاً - ناشراً للدعوة ومعلماً
ومن ناحية أخرى سرعان ما رأينا الموالى الدين خُلدوا من الهند، وعُثموا
في الحرب وورثوا على الخلد، يدع منهم ومن أولادهم الشعراء وعلماء اللغة
والمحدثون من الشعراء كان أبو عطاء السُّنْدِي، وهو شاعر من محصرمي
الدولتين الأموية والعباسية، وكان أبوه سُنْدِيّاً لا يفتضح، وشاداه في المسلمين
شاعرا كبراً، وإن كان في لسانه لُكْسَةٌ شديدة وأُثْعَةٌ، كان يقول في مرحاً
«مرهما» وفي حياكم الله «هاكم الله» وفي الرُّح «الرُّر» وفي حرادة «زردة»
وفي الشيطان «سيطان» وفي أطن «أرن» حتى اضطُر أن يتحدله علماً يشد
شعره تحامياً من أن يشده بلسانه وهو الفاضل

أَعُوذُ نِي الرُّوَاهُ يَا اسَ سلم وَأَيُّ أَنْ تُقِيمَ شِعْرِي لِسَانِي
وَعَلَّا الَّذِي أَحْمِمْ صَدْرِي وَحَقَّانِي لِعُجْمَتِي سُلْطَانِي؛

١ المسالك والممالك لابن حرداده ص ٦٢ ٢ انظر ان الاخير ٣ ١٧

٣ جزء ٢ ص ٦٥ و ٢٥٦ ٤ الحجمه لإحماء النقي في الصدر

وَارْدَرْتَنِي الْعُيُونُ اذْ كَانَ لَوْنِي حَالِكًا مُتَحَوِّيًا مِنَ الْأَلْوَانِ ١
فَصَرَّيْتُ الْأُمُورَ طَهْرًا لِسَطَنِ كَيْفَ أَحْتَالُ حِمْلَةً لِلِّسَانِ ٢
وَتَمَيَّيْتُ أَنْتَى كَسْتُ نَالِ الشَّعْرِ فَصِيحًا وَنَارِبَ نَعَصُ نَمَانِي ٣

ولما أمر أبو جعفر المنصور الناس بلبس السواد قال

كُتِبْتُ وَلَمْ أَكُتُبْ مِنَ اللَّهِ نِعْمَةً سَوَادًا إِلَى لَوْنِي وَدَنَاءًا مَلَمَّوْحًا ٤
وَبَايَعْتُ كُرْهًا بَعْدَ نِعْمَةٍ مُسَرَّحَةً أَنْ كَانَ أَمْرًا مَهْرَحًا ٥
وقد كرهه العباسيون لأنه قال كثير أبي مدح الأمويين ، فلما تحول
الدولة أراد أن يتحول فلم يقبلوا منه ، فكان يذمهم ، ومن ذلك قوله هذا ، وقوله
فَلَيْسَ حَوْرَ بَنِي مَرْوَانَ عَادَلَنَا وَاسْتَغْدَلَ بَنِي الْعَاسِ فِي الدَّارِ ٦

ولم يصل إليا من شعره كثير حتى نسين أن كان فيه معان جديدة كسها
من أصله الهندي .

واشتهر من اللعويين من أصله هندي اس الأعراقي (كان أبوه رباد
عبدًا سدياً) وكان اس الأعراقي عالماً من أعلام اللغة والأدب والشعر ، أملى
على الناس ما يحمل على أحمال . وألف تأليف كثيرة ، وتلمذ له كثيرون
من أشهرهم تعلب و اس السكيت ولم يبق لنا من كتبه إلا كتاب في أسماء
الشر وصفاتها ، وكتاب في أسماء الخيل وأسمائها . ومن كتبه إلى الصها
كتاب الآبواء ولو وصل إلينا لعلمنا هل تأثر بها بمعارف الهند أو اقتصر

١ المدحوى العنص المكروه

٢ الدن والاسه بلسوه العاصي ، والملاويح المالكه عبر الحكم

٣ افرأ رجحه في الأغاني جزء ١٦ ٨١ وما بعدها وفي طبقات المراء لا . ومنه

٤ سرفى غلا المنس خلد ٦ جزء ١ ٥ في دار الكتب المصرية من كتب الشيعي

على معارف العرب ، على النحو الذي ألفت فيها عبرة من علماء العرب
ومن المتحدثين الهنديين أو معشر تجميع السندي ، صاحب المعاري سمع
نافعاً وهرآ من التالعين ، وكان ألكهن يقول حدثنا محمد س « قعب » يريد
كعب ، الح ، الح ، الح

هذا نوع يمثل لنا اندماج اليهود في المسلمين ، واعتناقهم الاسلام
وتعلمهم علماً اسلامياً عربياً ، ونوع بعضهم فيه وقد رأينا قبل فيما نقلنا
عن الحاحط ؛ اشتهار السندي بحسن القيام على المال وتدبره حتى « لا ترى
بالنصره صرفاً الا وصاحب ككسه سيني »

والآن يريد أن تعرض للحجاب الآخر من الموضوع ، وهو تأثير اليهود
في الثقافة الاسلامية .

أثر اليهود في الثقافة الاسلامية من ناحيتين - ناحية مباشرة - وذلك
باصال المسلمين أنفسهم بالهند من طريق التجارة ، ومن طريق الفتح العربي
فان هذا الفتح صتر مافتح من بلاد الهند جزءاً من الممالك الاسلامية تحصص
لطانها ، وتجرى عليها أحكامها ، وينقل المسلمون اليها ، وينقل اليهود الى
أحاء العالم الاسلامي المختلفة وكل من هؤلاء وهؤلاء يحماون ثقافتهم ،
ويتبادلونها بعضهم مع بعض تبادل السلع

وناحية غير مباشرة - وذلك بقل ثقافتهم بواسطة الفرس ، فان الفرس
اتصلوا باليهود اتصالاً وثيقاً قبل الحج الاسلامي ، وأثروا فيهم وتأثروا بهم
وأحدوا كثيراً من الثقافة الهندية ، وأدجوها في ثقافتهم ، فلما نقلت الثقافة
الفارسية الى العربية ، كان معنى هذا نقل جزء من الثقافة الهندية في ثيابها ،
وقد عت المسلمون اليهود احدى الأمم الأربع ذات الصفات الممارة ،
وهي الفرس والهند والروم والصين . وقال الحاحط فيهم « اشهر الهند

« بالحساب وعلم الحجوم وأسرار الطب ، والحرايط والتحرّ والتساوير ،
والصناعات الكثيرة العجيبة »^١

وقال المسعودى « ذكر جماعة من أهل العلم والطر . أن الهدى كانت
قديم الزمان العرة التي فيها الصلاح والحكمة » ثم ألمّ طرف من
النبياتهم ورياستهم وألغاهم الى أن قال : « والهدى في عقولهم وسياساتهم
وحكمتهم ، وألوانهم وصناعاتهم ، وصحّته أمرحتهم ، وصفاء أدهانهم ، ودقة
نظرهم بخلاف سائر السودان »^٢

وقال الأصمهانى في محاضرات الأدباء ان الهدى لهم معرفة الحساب
والخط الهندسى ، وأسرار الطب وعلاج فاحش الأدوية والرقى وعلم
الأوهام ، وحرط التماثيل ونحت الصور ، وطبع السيوف والشرطخ ،
والحكمة - وهى وتر واحد يجعل على قرعة فيقوم مقام العود - وطعم صروب
الرقص ، والثقافة والسحر والتدخين »^٣

وقال القفطى « ان الأمم الثماني التي عثبت بالعلوم هم الهدى ، والهرس
والكلدان ، واليونانيون ، والروم ، وأهل مصر ، والعرب ، والعبرانيون
وهذه الأمم المذكورة هم الذين اعتنوا بالعلوم وانهجوا فيها ، وناقى الأمم لم
تكن نثى من ذلك ولا ظهر لها نثى منه »^٤

وقال في موضع آخر « والهدى هم الأمة الأولى كثيرة العدد لحمة الممالك ،
قد اعترفت لها بالحكمة ، وأقر بالبربر - في يون المعرفة - كل الملل السالفة .
وكان الصين يسمون ملك الهدى ملك الحكمة لمرط عبايهم بالعلوم فكان
الهدى عند جميع الأمم معدن الحكمة وتدوع العدل والسياسة ، ولعد الهدى
من بلادنا فالت آليهم عندما فلم يصل اليها الا طرف من علومهم ولا سمعنا
الا بالقليل من علمائهم »^٥

١ رسائل الخاط ص ٧٣ ٢ مروح الذهب ١ ٣٥ وما بعدها
٣ ص ١ ٩٣ ولله الفضل ٤ أخبار الحكماء ص ٢٧ ٥ ص ٢٦٦

وكان تأثير الهند من نواح: أهمها الالهيات، أو المقالات الدينية، والرياضيات
أو الحساب والجحوم، والأدب وما يتبعه من فن

الالهيات - كان للهند فلسفة كاللوان فلسفة، وقد بحث مؤرخو الفلسفة
في مبلغ تأثير إحداهما في الأخرى، وما أحد اليونان عن الهند، وما أحد الهند
عن اليونان - مما لا مجال لبحثه هنا - ولكننا نقول إن للفلسفة الهندية أوصافاً
خاصة يبرها عن الفلسفة اليونانية. ذلك، أن الفلسفة الهندية امتزجت امتزاجاً
تاماً بالدين، واصططعت صعقة شعرة لا صعقة عليية، لم تتدرج من المحسوس
إلى المعقول، ورضيت في كثير من مواقفها بالتعبير الشعري، المجلوء بالمخارات
والاستعارات والخيالات، ولم تنهج المنهج العلمي الذي يتطلب التعبير
بالحقائق لا المخارات مثال ذلك أن تقول إن العالم كله مشتق من شيء
واحد أسمى أرلى لا يهل التعبير يسمى «رهم» ثم اذا شَرَحْتَ كيف
تَخْلُقُ هذا العالمُ من «رهم» قالت «كما تشكل الحديدية الحجة في النار
إلى آلاف من الأشكال، كذلك مخلوق الأشياء من الأرلى الأندى ثم تعود
إليه» أو يقول كما نبعث السبح من العكروت، أو الشرر من السار،
كذلك يخرج الحيوانات والعالم وكل شيء، من ذلك الأصل»

فأنت ترى أن هذه تشبيهاتُ ترصى الخيال، ولا ترصى العقل وهكذا
مثلت الفلسفة الهندية بمثل هذه التعبيرات في كثير من شروحيها وقد يكون
لهذا العذر في أنها تحاول شرح شيء من الصعب إدراكه، والمعبّر عنه تعبيراً
رباصياً، أو تعبيراً عليياً، وأنها تنقل من محسوس يمكن التعبير عنه إلى
لا محسوس يصعب توضيحه ولكن الفلسفة اليونانية - في مثل هذه
المواقف - لم تسلك هذا السبيل، وحاولت جهد طاقها أن تعبر التعبير
العلمي، وإن كان في المدرسة الأفلاطونية شيء من الشعر
كذلك مما يحالفه الفلسفة الهندية الفلسفة اليونانية، أن الأولى حذرت

العرض من الفلسفة محذرة الانسان ، بينما الفلسفة اليونانية تتطلب المعرفة للمعرفة . فالنابع الأساسى للفلسفة عند اليهود شوق الانسان للحلاص من آلام هذا العالم ومصايبه . وعند اليونان النابع الأول على الفلسفة العجب ، عجب من مظاهر العالم فأراد أن يتعرفها فيفسف .

* * *

انتشرب في الهدنة البراهمة ثم النوديه ، ومن الاطالة أن نعرض لشرح هاتين الديانتين في عقائدهما وأصولهما وقد وصف «النزوى» ديانة الهند التي راها في القرن الرابع الهجرى ، وكان دقيقاً صادق الوصف ، عالماً باللغة السنسكريتية ، عاش في الهند زمناً طويلاً ، وحبر أحوال أهلها ، ووضع في ذلك كتاباً أهمها : « تحفى ما للهند من مقولة ، مقولة في العقل أو مردوله » وصف فيه عقائدهم ، وعالمهم وآدابهم وأحوالهم الاجتماعية وقد أراهم الحديث ما للبيروني من تحرر للحق ، وإحلاص للعلم ، وإصانة في كل ما وصف - الا في القليل البادر الذي أوقعه فيه اعتياده على نفسه في فهم كلمة لعونة لم يكن فيها مصيبا ، وأحيانا نقله عن أخطأ في خبره - وقرب عهد البيروني من عصرنا الذي نؤرخه يجعلنا نعتقد أن حاله الهند في عصرنا العباسي الأول تشبه تمام الشبه ما وصفه « البيروني » معتمداً على ما شاهد وسمع وقرأ في كثير من الكتب الهندية باللغة السنسكريتية

وصف اليهود بالانحباب بأنفسهم ، والاعداد بأنفسهم ، والارذراء من عدايم يعتقدون في الأرض أنها أرضهم ، وفي الناس أنهم حشهم ، وفي الملوك أنهم رؤسائهم ، وفي الناس أنه يحلهم ، وفي العلم أنه مامعهم وفي طمعهم الصن بما يعرفونه ، والافراط في الصياحه له عن غير أهل منهم ، فكيف عن غيرهم ا على أنهم لا يطلون أن في الأرض غير بلادهم ، وفي الناس غير

سكانها ، وأن للحاق غيرهم علماً حتى أنهم إن حُدثوا بعلم أو عالم في حراسنا وفارس استحلوا الخصر ، ولم يصدقوه لكافة المذكورة ولو أنهم سافروا وحالطوا غيرهم لرحعوا عن رأيهم ا على أن أوائلهم لم يكونوا بهذه المثابة من العقلة فهذا « ترهمن » أحد فصلاتهم حين يأمر بتعظيم البراهمة يقول ان اليونانيين - وهم أمحاس - لما تخرجوا في العلوم وأتافوا فيها^١ على غيرهم وحب تعظيمهم^٢ »

ولما ذكر اعتقادهم في الله ، فرّق بين حاصبهم وعامهم ، لأن طاع الخاصة تهفد التحقيق في الأصول ، والعامّة تقف عند المحسوس ، ثم شرح عقيدة الخاصة فادّاهي بوافي عقيدة المسلمين فيه ، فقال « واعتقاد الهدى في الله سبحانه وبعالى أ ، الواحد الأزلّ من غير ابتداء ولا انتهاء ، المختار في فعله ، القادر الحكيم الخلي المحي المدبر المهي ، الفرد في ملكونه عن الأصدقاء والأنداد ، لا تشبه شيئاً ولا يشبهه شيء^٣ » ثم اسدلّ على أن هذا عقيدته الخاصة من اليهود بصوص من كمهم القديمة ، ثم وصف عقيدته العامه « وأن الأفاويل عندهم احامب وربما سمّحت ، كما يوجد مثله في سائر الملل وفي الاسلام من النسبية والإحسار ، ومثّل لذلك عند اليهود بأن حاصتهم يقول انه يحيط بكل شيء حتى لا يحق عليه حافة ، فيطأ على عاهتهم أن الاحاطة تكون بالنصر ، والنصر بالعين ، فيصف الله بألف عين عبارة عن كمال العلم

وهذا أطال البيروني في وصف الفلسفة الدينية للهد من الاعتقاد بالله والوجودات العمالة والحسنة ، وتعلق النفس بالماد ، والأرواح وتناجها ، ومواضع الخراء من الحجة والنار ، وقيمة الخلاص من الدنيا ، ومع السن والواميس والرسول ، ونسخ الشرائع وفارس في كثير من المواضع من عقائد الهد والاسلام ، والصوفية والبصراية ، والفلسفة اليونانية والأفلاطونية

الحديثة ، مما يخرجنا عن القصد لو شرحناه
عبر أن هذا مسألة هامة لابد من الإشارة إليها ؛ لأنها خاصة من خواص
الهدم ، ولها أثر كبير في المسلمين ، تلك هي مسألة « تناسخ الأرواح » . وقد قال
فيها البروفى نحو : كما أن الشهادة بالاحلاص شعار إيمان المسلمين ،
والتثليث علامة المصراية ، والإسبات علامة اليهودية ؛ كذلك التناسخ علم
الحنابلة الهدية ، من لم يتحلله لم يكسبها ، ولم يعد من حملتها ^١ ،
وشرح طريقتهم في التناسخ أن الأرواح لا يموت ، ولا تنفئ وأنها أبدية
والروح لا تسف يقطعها ولا نار تحرقها ، ولا ماء يغصها ولا ريح تفسدها
ولسكنها تنتقل من بدن إلى بدن ، كما يسبدل البدن اللباس إذا حلق ، وترقى
النفس في الأبدان المحلقة كما يترقى الإنسان من طفولة ، إلى شباب ، إلى كهولة ،
إلى شيخوخة ذلك أن النفس طالبة للكمال ، شقيقة إلى العلم بكل شيء . وهذا
يحتاج إلى زمن فسيح ، وعمر الإنسان وعمره قصير ، فلا بد من تقبل النفس من
بدن إلى بدن وفي كل بدن تسفيد تحارب جديدة ، ومعلومات جديدة فالأرواح
النافية تتردد في الأبدان التالية ، وهي تتردد من الأبدن إلى الأبدن ، دون عكسه ،
لتنترق النفس في الكمال ، حتى تتحقق شوقها بعلمها ما لم تعلم ، واستيفائها شرف
داعها ، واستعاضؤها عن المادة فتعرض عنها ، وتتجدد العاقل والعقل والمعقول ،
وبصير واحداً .

وقد ربطوا البواب والعقاب والحنطة والبار بمطربة التناسخ فقالوا :
إن العرص من حنط الخمر من الشر ، والعلم من الجهل ، والأرواح
الشريرة تتردد في السات ، وحنشاش الطير ، ومردول الهوام ، إلى أن تستحق
البواب فتخرج من الشدة وتتردد فيها هو أرى وقال حصصم : « لو لم أكن
صائراً إلى آلهة حكام سادة أبحار ، ثم من بعد إلى ناس ماتوا حير من هنا

لكان تركي الحزن على الموت طُغْماً^١»، وقال بعض من مال إلى الناسخ من المتكلمين إنه على أربع مراتب هي «النسخ» وهي التوالد من الناس، بأن نسخ من شخص إلى آخر، وصده «المسخ» ويخص الناس بأن يمسحوا فردة وحارير وفيله، و«الرسخ» كالنات، وهو أُنشد من النسخ لأنه يرسخ ويبقى على الأيام، ويدوم كالحبال وصده «الفسخ» وهو للسان المخطوف، والمدبوحات لأنها لا تتلاشى ولا تعقب^٢، وقد لعب نظرية الناسخ دوراً هاماً في الفلسفة اليونانية، وفي الديانة المانوية، وفي المذاهب الإسلامية، وفي التصوف، وفي البصراية.

فقد قال فيثاغورس نظرية الناسخ، ويرجح كثيرون من مؤرخي الفلسفة اليونانية أنها مأخوذة - في الأصل - من الفلسفة الهندية، ثم أحدها عن فيثاغورس، إِمُشِدْ كَلِيس، وأفلاطون - قد كان فيثاغورس يرى ناسخ الأرواح بين الإنسان والحيوان، وأن تحرر النفس برفقها في دورة الحياة، وذلك بالشعائر الدينية، والفكر والأمل والفلسفة - وأفلاطون ربط رأيه في عالم المثل، ونظريته في تذكر المعلومات قبل حلول الروح بالجسم بنظريته الناسخ وإن اختلفت نظريته في التفاصيل عما حكاه بودا^٣، من تذكره أشياء كثيرة، حدث له في مولده الأولى، وقد بعض أرسطو رأى فيثاغورس وأفلاطون في الناسخ، وخاصة حلول روح إنسان في جسم حيوان، وذهب إلى أن ما كان وطبعة لشيء لا يمكن أن يكون وطبعة لآخر الخ

وقد حكى «البروي» أن «ماني» نُهي من بلاد فارس فدخل أرض ص الهند ونقل الناسخ معهم إلى بجلته، وقال إن الحوارثين لما علموا أن النفوس لا تموت، وأنها مترددة في صور مختلفة، سألوا المسيح عن عاقبة النفوس التي لم تقبل الحق فقال أي نفس لم تقبل الحق هالكة لراحة لها،

وعنى هلاكها عذابها لا تلاشيا^١.

أما في الإسلام فكان أثر التسامح في بعض العروق الدينية كبيرا، فقد قال أحمد بن حنبل (وقد كان من المعتزلة ثم تبرأ منه) وأبو مسلم الخراساني، والقرامطة، ومحمد بن زكريا الرازي. إن الأرواح تنتقل بعد مفارقها الأحساد إلى أحساد آخر، وإن لم تكن من نوع الأحساد التي فارقت واحتج أحمد بن حنبل بقوله تعالى: «أياها الإنسان ما عَزَّكَ رَبُّكَ السَّكَيمَ الذي حَقَّلَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَىْ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ»، وقوله تعالى: «حَقَّلَ لَكُمْ مِنْ أَمْسِكُمْ أَرْوَاحًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَرْوَاحًا يَدْرُسُكُمْ فِيهِ»^٢.

وقد أوضح الشهرستاني قول أحمد بن حنبل في التسامح فقال: إياه كان يقول إن الله أبدع خلقه أصحاء سالمين عقلاء بالعين في دار سوى هذه الدار التي هم فيها اليوم، وحق فيهم معرفته والعلم به، وأوسع عالمهم نعمه فانتدأهم بتكليف شكره، فأطاعه بعضهم في جميع ما أمرهم به، وعصاه بعضهم في جميع ذلك وأطاعه بعضهم في البعض، وعصى البعض من أكل أفره في دار النعيم إلى ابتدأهم فيها، ومن عصاه في أكل أحرجه من تلك الدار إلى دار العذاب وهي النار، ومن أطاعه في البعض وعصاه في البعض أحرجه إلى دار الدنيا، فألهم هذه الأقسام الكيفية، وأبلاها بالأساء والصبر على صور مختلفة من صور الناس، وسائر الحيوانات على قدر دنوسهم... ثم لا يزال يكون الحيوان في الدنيا كره مدكره وصوره بعد أخرى، ما دام معه دنوه^٣ وقبل هؤلاء كان السامع أصحاب عند الله سسا، فقد رَوَّاه عنه أنه قال لعلي أبا أنت أي أب الاله وتعتبه فرقه فعالت بداسج الحرم الألهي في الآئمة بعد علي، ويمثل ذلك قال العالية من الشيعة^٤.

١ المروى ٢٧ الفصل في المال والجل لاس جرم حرم ١ ص ٩١ و٩٢
واطرده ادعاهم كذلك ٣ حرم ١ ص ٧٧ وما بعدها ٤ الشهرستاني على
عاش اس جرم حرم ٢ ص ١١ ٥ الدرراني ٢ ١

وبعد هؤلاء كان النصيرية يعتقدون أن مرتكبى الآثام يعودون إلى الدنيا يهوداً أو نصارى، أو مسلمين سُنيّين، أما من لم يؤمن بعلى فيعودون جمالاً أو بنالاً أو حميراً، أو كلاباً أو نحو ذلك من أصناف الحيوان. وبمثل ذلك يقول عوام الدروز.

وفى بعض قصص ألف ليلة وليلة ما يشير إلى مذهب التناسخ. وقد رأيت قبلاً: أن نظرية التناسخ تُسلم إلى مذهب الحلول، فيتحد العقل والعامل والمعقول وتصبح كلها شيئاً واحداً. وهذا النظر كان له أثر كبير فى مذهب الصوفية، كما سنشرحه إن شاء الله عند الكلام فى التصوف.

ومن مذاهب الهند القائلة بالتناسخ، مذهب يسمى «السَمَنِيَّة» نسبة إلى «سومنا» وهو اسم صنم كان فى الهند، أحرقه السلطان محمود بن سبكتكين سنة ١٠٤٦ كما ذكر الجزرى فى تاريخه. وقد ذكر البيرونى أنها فرقة شديدة البغض للإبراهيمية، وقد كانت خراسان وفارس والعراق والموصل إلى حدود الشام فى القدم على دينهم، إلى أن ظهر زرادشت من أذربيجان، ودعا بيلخ إلى المجوسية، وراجت دعوته فأنجلت السمنية عنها إلى مشارق بلخ^١.

وقد عُرِفَ هذا المذهب بين المسلمين فى العصر الذى نُورِخه، فيحكى لنا الأغانى: «أنه كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام، عمرو بن عبّيد، وواصل ابن عطاء، وبشار الأعشى، وصالح بن عبد القدوس، وعبد الكريم بن أبي العوّاء، ورجل من الأزد (قال أبو احمد يعنى جرير بن حازم) فكانوا يجتمعون فى منزل الأزدى، ويختصمون عنده، فأما عمرو وواصل فصارا إلى الاعتزال، وأما عبد الكريم وصالح فصححا التوبة. وأما بشار فبقى متحيراً مُحَاطّاً، وأما الأزدى فإلى قول السمنية، وهو مذهب من مذاهب الهند وبقي ظاهره على ما كان عليه»^٢.

١ ما للهند من مقوله من ١٠ ٢ أغانى ٣ : ٢٤

وقد عرّف علماء المسلمين السمية، وناقشوا طويلاً في كسب التوحيد أو علم الكلام - وأكثر مناقشتهم كاتب حول « نظرية المعرفة »، ويؤكد من حكاية قول السمية أنهم كانوا يقولون إن العلم أو المعرفة لا تحصل إلا من باب الحواس فكل علم ليس أساسه الحس لا يكون علماً صحيحاً، أما الطر المحرّد، غير المؤسس على الحس فلا يُميد علماً سواء كان ذلك في الالهامات أو غيرها^١، وقد حرص صاحب كشاف مصطلحات الفنون مذهبهم في هذا بقوله « أنهم يقولون بأنه لا يصدق العلم إلا الحس »، وكأهم بذلك سقوا « لو ك » ومن تبعه، إذ يقولون « إن أداة المعرفة الصحيحة هو الإدراك بالحس، وكل الأفكار الراقية الخليفة التي تموز السحاب رفة، وتعالو علو السحاب إنما أصلها الحواس يَسْتَج العقل مسافات بعيدة ويكثّر، وتأمل تأملاب رفة، وهو في كل هذا لا يخرج قد شعره عمّا أمده به الحواس أو البأمل، وهم يعارضون في ذلك نظرية الذّهيين أو العقلين، الذين سرون أن بعض المدركات ليس سمنها الحواس. وإنما سمنها الإدراك العقلي المحص كما في الرياضيات والالهامات

أما في الرياضيات فقد اتصل المسلمون بالهند، وأحدثوا عنهم قبل أن يتصلوا - اتصالاً وثقاً - باليونان فقد ذكروا « أن وفداً من الهند وقد على أن حمير المنصور سنة ١٥٤٠ وفهم رجل ماهر في معرفه حركات الكواكب وحسابها، وسائر أعمال الفلك على مذهب علماء أمته، وخصوصاً على مذهب كتاب بالغة المسكر بديه اسمه « رَاهُة سَمَكُة سَمَكُة هَمَكُة » ألفه سنة ٦٢٨ م أو (٦ و ٧) هجرية الفلكي الرصاصي « رهمك » فكلف المنصور ذلك

١ انظر كتابه بولهم والرد عليهم في كتاب الواقف جزء ١ ص ١٣٧ وما والمطالع ص ٦١

الهندي بأملاء مختصر الكتاب، ثم أمر بترجمته إلى اللغة العربية، وناشد جراح كتاب منه تتجده العرب أصلاً في حساب حركات الكواكب، وما يتعلق به من الأعمال. فتولى ذلك الهاراري، وعمل منه ريجاً أشهر بين علماء العرب، حتى أنهم لم يعملوا إلا به إلى أيام المأمون حيث ابتدأ مذهب بطليموس في الحساب والحداول الفلكية^١. وقد افحص العرب على الحرز الأخير من الاسم السابق وهو «سدهاب» ثم حرفوه قليلاً وسماهوه «السند هند»^٢.

وقد أخذ عن هذا الرجل الهندي الذي وفد على المأمون، إبراهيم بن حبيب الهاراري، وبعقوب بن طارق^٣ وكما أخذ المسابيون عن الهند كتاب السند هند، ترجموا كما أنبأنا اسمه «الآركسند» وثالثاً اسمه «الآركسندر»^٤.

وقد قال الأستاذ دالليو «بعد بحثه العميق» كفت هذه الملاحظات دليلاً على شدة تأثير كتب الهند في أوائل عو الفلك عند العرب وسببها فيها بعد. أن العرب أخذوا طرقاً مهمة كثيرة السبع مجهولة لليونان في حل جملة من المسائل الفلكية المتعلقة بعلم حساب المثلثات الكروية^٥ وقال في موضع آخر «فانصح بما نسميه أن أشهر علماء الهند والفرس في نشأ ميل العرب إلى ذلك العلم الخليل سبق تأثير اليونان ولو برهان قابل، ولكن لم يزل العرب ما نالوا من الشكافه والكمال والنهضة في ذلك الفن. لوقصروا على اسمهم على نقل الكتب الموصوفة إلى الآن لأنها مصنفات عملية مقصده على مخطوط القواعد، وشروح استعمال الحداول، حاله عن التراهن وسان العمل»^٦.

١ الأستاذ دالليو في كتابه العلم علم الفلك، تاريخه، العرب ص ١٤٩ وفيه يقول «من علم الفلك عند المأمون، وبلغ ما أحدثه العرب منهم، وقد اعتمدنا على هذا الموضع». ٢ ص ١٥٠ ٣ انظر المصنف منه ص ١٥٦ وما بعدها ٤ ص ١٧٢ و ١٧٣ ٥ ص ١٨ ٦ ص ٢١٤

ويؤيد هذا النظر ما قاله البيروني من قبل ، فانه رأى أن فلسفي اليهود لا يبحثون في العلل ، وكان على علم تام بالفلك عند اليونان قبل أن يأخذ عن اليهود ، فقال « انى كنت أقف من محمهم (محمى الهد) مقام التليد من الاساذ له جمتى فيما بينهم ، وقصوى عما هم فيه من مواضعاتهم ، فلما اهديت قليلا لها أحبت أوقفهم على العلل ، وأشير الى شيء من البراهين ، وألوح لهم الطرق الحقيقية في الحسابات ، فاثالوا على متعجين وعلى الاستمادة متهافتين وكادوا ينسبونى إلى السحر »^١ .

وقد أجاد العرب بعض الاصطلاحات الرياضية من اليهود ، كلفظة « الحبيب »

في حساب المثلثات^٢

كما اقتبسوا كثيرا من نظريات الهد في الحساب والهندسة بما ليس من موضوعه الأدنى^٣ كذلك كان في تعداد أطباء همد ، يمثلون الطب الهندي - بحسب الطب اليوناني - اشتهر منهم في عهد الرشيد « صالح بن سهله الهندي » ، قال جعفر بن يحيى البرمكي لهرون الرشيد - وقد مرص أن عمه ابراهيم بن صالح ، قرأه حبريل بن يحيى شيوخ ، وأحبر الرشيد بأنه لا أمل في شفاؤه ، وسيموت في المساء : - يا أمير المؤمنين حبريل طهرونى ، وصالح بن سهله الهندي في العلم بطريقة أهل الهد في الطب ، مثل حبريل في العلم بمقالات الرومى ، فان رأى أمير المؤمنين أن يأمر باحصاره ، ويوجهه إلى ابراهيم بن صالح ليعهما عنه فعل .
وقول الخاط - إن يحيى بن خالد حلب أطباء من الهد مثل « ميمكة » و « ناريكر » و « فلرول » و « سندان »^٤ .

١ فالهد من معوله من ١٢
٢ بلالو من ١٦٨
٣ انظر مادي حساب وهندسه في دائره المعارف الاسلاميه قدها ، عما أجاد المسلمين من الهد وهما اشار الى ارجاع بعض الباحث في الموضوع
٤ أجاد الحكماء للعقل من ٢١٥ وهما أراه وكان طه أدنى من نظر حبريل فلم
٥ ابراهيم من مره ما على عكس ما أبحر حبريل ٥ البان والذهب ١ ٧٨

الأدب وما إليه : كان عند الهنود نحو وصرف ، وقالوا في أولية النحو
 إن أحدهم لو كنهم كان يوماً في حوص مع نسائه فقال لأحدها « ماود كندهى »
 أى لا ترشنى على الماء ، فظنت أنه يقول « مود كندهى » أى احملنى حولى فدهمت
 فأولبها فأبكر الملك وعلها فحاشده في الخطاب ، فاستوحش الملك لذلك ،
 وامنع عن الطعام كعادتهم ، واحتجب إلى أن جاءه أحد علمائهم وسأله عنه
 بأن وعده تعليم النحو والصرف ، وذهب إلى « مهاديو » مصلياً مسحاً وصائماً
 متصرعاً إلى أن طهر له وأعطاه قوايين يسيرة وكأصعها في العربية أبو الأسود
 الدؤلى ووعده التأييد فيما بهما من الفروع ، فرجع العالم إلى الملك وعلمه
 إياها ، وذلك مبدأ هذا العلم^١

وأما أحشى أن يسكون حكاية أبى الأسود فدوسعت في العربية على سبط
 الحكاية الهندية ولعل بما يرجح هذا الطن ، أن الحكاية العربية مختلفة الأشكال ،
 متعددة الروايات ، فمن قائل إن على س أن طالب هو الذى أوعز إلى أبى الأسود
 بوصع النحو ، ومن قائل إنه عمر بن الخطاب ، ومن قائل أنه زياد بن أبيه
 ثم من قائل أن سبب الوضع : أن قارئاً قرأ « لا يأكله إلا الحاططين » ومن
 قائل أن قارئاً قرأ « إن الله يرى من المشركين ورَسُولِهِ » ومن قائل أن
 اسمه أبى الأسود قالت « ما أحسنُ السماء » تريد التعجب فقال لها بنحوها -
 يطها تستفهم - فقالت ناأب إنما أحسرتك ولم أسألك فقال لها ادن فقولى
 « ما أحسنُ السماء » إلى آخر ما قالوا بما يحمل على الشك في القصة ، ثم هناك
 شبهة بين دهاب العالم الهندى إلى « مهاديو » مصلياً مسحاً ، وبين دهاب
 أبى الأسود إلى على س أن طالب تسأله المعونه في وضع النحو ، وهكذا
 وكان لهم د شعر وولع بالشعر والبطم حتى شكوا لبرونى ، من بطمهم

لقواعد الرياضة والملك . لأن ذلك يرحبهم أحياناً من صبط القواعد ،
وما يستلزمه من دقة في تعبير لا يتسنى في الظن . ووضعوا للشعر بحوراً
وأورناً ، عكف البيروني على دراستها ويدها في كتابه ، ثم قال : ومن الممكن
أن يكون الحليل بن أحمد سمع أن للهد مواريث في الأشعار ، كما طعن به
بعض الناس ،^١

وأهم ما استفاد الأدب العربي من الهد أمور ثلاثة

(١) ألغاط هندية عُرِّت ، وقد كان ذلك أيام كان العرب يتأخرون
مع الهد ، ويدقون سِلَعاً هندية ويحملون مع هذه السلع أسماءها ، وقد حكى
السيوطي ألغاطاً هندية عريت ، ووردت في القرآن الكريم ، مثل ربحيل
وكافور - وما ورد في اللغة العربية من الألغاط الهندية الآبوس والسماء
والخيران والفلل والأهليلج وغير ذلك من أسماء النباتات والحيوانات
الهندية

ويضاف إلى ذلك آراء في الأدب والبلاغة نقلت عنهم ، وقد كان
من أتى بعد من أطباء الهد وغيرهم يحملون معهم كتباً وصحفاً في مواضع شتى
مهما الأدب ، حكى الخاطب أن معمرأنا الأشعث قال قلب لنبلة الهندي
- أأنا أحببني س - خالد أطباء الهد - ما البلاغة عند أهل الهد ؟ قال بهلة
عندنا في ذلك حقيقة مكتوبة لا أحسن - ترجمتها لك ، ولم أعالج هذه الصناعة
فأتق من نسي بالعام بخصائصها ، وتلخيص لطائف معانيها ، قال أبو الأشعث
فلقب تلك الصغيرة التراحة فاداً فيها - أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ،
وذلك أن يكون الخطيب رابط الخائس ، ساكن الخوارج ، قليل اللحن ،
محتر اللفظ ، لا تكلم - سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام
السوقة . ويكون في قواه فصل للصرف في كل طقة ، ولا يدق المعاني كل

التدقيق، ولا يفتح الألفاظ كلَّ التدقيق، ولا يُصغِّرُها كلَّ الصغية، ولا يهدِّمها غاية الهديب، ولا يفعل ذلك حتى يصادفَ حكيماً أو فيلسوفاً عظيماً^١،

إذن كان مع هؤلاء الأطباء اليهود صحف في موضوعات عبر موضوعاتهم الطبية، وكان العلماء يحاطوهم، ويسألونهم في شئ المسائل، وكان هناك تراحة ترحمون من الهندية إلى العربيه وكان هناك شوق لتعلم الناس ما عند كل أمة ليقرأوا بها، وبأحدثوا أحسبها وقد نُقلت اليهم هذه الحملة الهندية في البلاغة، فرأياها تصاع فيما بعد في كتب البلاغة العربية مما سموه «مقصي الحال»

وقارن السُّورحى^٢ من بلاغة الهند وبلاغة العرب، بأن الأولى مُطَمَّنة مُسَهَّنة والثانية مختصرة موحرة، إذ ذكر أن حارحياً خرج على بعض ملوك الهند فخرج إليه الملك بنفسه، فقبله الحارحى، وملك داره وملكته، فأحسن السيرة وسلك سبيل الملوك فلما طال أمرُه، وعزَّ ذكرُه وقوى سلطانه، جمع بعض عقلائهم وحكَّائهم وسألهم، هل ترون فيَّ عيباً أو في سلطانى بقصاً؟ قالوا لا إلا شيئاً واحداً إن أممنا قلباه! قال أنهم آمنون قالوا: برى كلَّ شيء لك حديثاً (يُعَرِّصون أنه لا عرقَ له في الملك) قال: فما حال مَلِكِكُم الذى كان من قبلُ؟ قالوا كان ابن ملك قال فأبوه؟ قالوا ابن ملك قال فأبوه؟ الى أن عدَّد عشرة أو أكثر وهم يقولون ابن ملك فاستبى الى الأخير فقالوا كان متعلماً قال فاما ذلك الملك الأخير، وان طالأت أيامى كان الملك بعدى في ولدى اقال التوحى. هذا شيء قد سمعت اليه العرب في كلِّين استعنى بهما عن المثل الطويل المعجمي، فقد روت العرب أن رحلين منهما باحرا، فقال أحدهما لصاحبه نسي مئى ابتداً، ونسيتك اليك انتهى^٣.

(٢) القصص الهندى وقد أوقع العرب به، فقد علمنا قبل أن أصل

١ البان والدين جزء ١ ص ٧٩

٢ نشوار المحاصرة ١ ٥٧

« كيلة ودمنة » هندی نقل الى الفارسية ثم نقل من الفارسية الى العربية ، مع زيادات على الاصل الهندی .

وقصة السندباد ، كما يدل اسمها هندية الاصل نقلت الى العربية قال ابن التديم « وكتاب سندباد نستختان كبيرة وصغيرة ، والخلف فيه مثل الخلف في كيلة ودمنة ، والغالب والاقترب الى الحق أن يكون الهند صنفته »^١ وقد عُدَّ في الفهرست كتاباً كثيرة للهند في الخرافات والاسفار والاحاديث منها كيلة ودمنة والسندباد الكبير والسندباد الصغير ، وكتاب هابل في الحكمة ، وكتاب الهند في قصة هبوط آدم ، وكتاب ديك الهند في الرجل والمرأة ، وكتاب حدود منطق الهند ، وكتاب ملك الهند القتال والسباح ، وكتاب شاناق في التدبير ، وكتاب بيدبا في الحكمة^٢ .

كما أن في كتاب ألف ليلة وليلة قصصا دل البحث العلمي على أن أصلها هندی ، هذا . الى قصص صغيرة تترت في الكتب العربية ، مما نقل عن الهند كالذي قال الجمشياري : « وما استحسنه من شدة التحرز ما حكي في كتاب من كتب الهند أنه أهدي الى بعض ملوكهم حلي وكسوة ، وبحضرت امرأتان من نسائه ووزير من وزرائه ، فخير احدى امرأته بين اللباس والحلية ، فنظرت المرأة الى الوزير كالمستشيرة له ، فغمزها باحدى عينيه على أخذ الكسوة . ولحظه الملك ؛ فعدلت عما اشار به من الكسوة واختارت الحلي لنلا يفظن الملك للغمزة ، ومكث الوزير أربعين سنة كاسراً عينه ليظن الملك أنها عادة وخلقته »^٣ .

وفي كتاب للهند « ان ناسكا كان له عسل وسم في جرّة ، ففكر يوما فقال : أبيع الجرّة بعشرة دراهم ، وأشتري خمسة أعز فأولدهن في كل سنة مرتين

١ الفهرست ٣٠٥ ص ٢

٢ كتاب الوزراء والكتاب ص ١١

ويبلغ الشئاع في سبين مائتين، وانتاع بكل أربع بقرة، الى آخر القصة المشهورة ١.
(٣) أما النوع الذي أجدوا منه عن اليهود كثيراً فهو الحسك، وهو نوع يتفق والدوق العربي، فهو أشبه شئ. بالأمثال العربية، والجلل القصيرة دوات المعاني العربية التي أولع بها العرب، وهي نتيجة تحارب كثيرة، تركز في حمله بلغة والعقل يبدل اليها قبل أن يميل الى مثل الفلسفة اليونانية المطلقة بأبواب وفصول وموضوعات فالتبحث العميق المفضل المسلسل، لا يصل اليه العقل الا بعد أن يمر بطور يعجب فيه بالطراب المشورة، والحكم المأثورة وقد اشتهر الهندي بهذا، وملئت كتب الادب المؤلفة في هذا العصر بهذا النوع، بقول ابن قدامة

قرأت في كتاب من كتب الهند شره المال ما لا يتفق منه، وشر الاحوان الخادل، وشر السلطان من حافه النري، وشر اللاد ما ليس فيه حصص ولا أمثله ٢ وفي كتاب للهند ثلاثة أشياء لا تال الا نار بهاغ همة وعظيم خطر. عمل السلطان، وتجارة البحر وماجرة العدو، وفيه أيضاً دو الهمة إلى حطه فمسه تأني الاعاؤ، كالشعله من النار يصوتها صاحبها، ولا تأني الا ارتماعاً ٣. وقرأت في كتاب للهند ليس من حلة يمدح بها العبي الا دمها الفخير فان كان شجاعاً قيل أهوج، وان كان وهوراً قيل بايد، وان كان لسياً قيل مهذار، وان كان رقيقاً قيل عبي ٤. وفي كتاب للهند العالم اذا اعترت فعه من عليه كاف، كالأسد معه قوته التي يعيش بها حيث توجه ٥ الخ.

وعقد صاحب كتاب سراح الملوك فصلا من حكمه شاناء الهندي يتضمن نصائحاً للملوك والولاة بالعدل في الرعة، مع صرب الأمثال وقال ان

١ عن الأخبار ١ ٢٦٣ ٢ عن الأخبار ١ ٣ ٢٢١
والرمب الوفور الررس ٤ ١ ٢٣٩ ٥ ٢ ١٢١

هذا الفصل مأخوذ من كتاب لسانى اسمه « مدخل الخواهر »^١
 وبكل هذا تأثر الأدب العربى ، والشعر العربى حاء فى كتاب للهد
 لا يدعى الأجاج فى اسقاط دى الهمة والرأى وإذ الله ، فانه اما تفسر الطبع
 كالحية ان وطئت فلم تسع لم يفتتر بها فيعاد لوطتها واما سحج الطبع
 كالصندل البارء ان أفرط فى حكمه عاد حاراً مؤدياً ، تأثر بذلك أبو بواس
 فقال هل لهر ادا حننا وشدا أفلل وأكثر فأب مهذار
 سحيت من شدة البرودة حتى صرت عدى كأبك البار
 لا يعحب السامعون من صفى كذلك الثلج نازح حار
 قال ابن قنفة . وهذا الشعر يدل على بظرة فى علم الطبائع ، لأن الهد
 تزعم أن الشىء ادا أفرط فى البرد عاد حاراً مؤدياً ،
 حتى لقد تأثر الشعراء بأقوال اليهود فى الفلك ، قال أبو بواس فى البحر
 خيبرت والاشحوم وهف لم يمشكن بها المذار
 ويريد أن البحر تحورت حين خلق الله الفلك ، وأصحاب الحساب يدكرون
 أن الله تعالى حين خلق السموم جعلها محتمة وإفمه فى ربح ، ثم سيرها من
 هناك وأنها لا تزال حارية حتى تتجمع فى ذلك الريح الذى اء بأها منه ، وادا
 عادت الله قامت القيامة وبطل العالم ، والهد تقول انه فى زمان بوح احتمعت
 فى الجوت الا يسرأ منها ، فهلك الخلق بالظوفان ، وبقي منهم بعد ما بى منها
 حارحاً عن الجوب »^٢
 ولما نسي أن الود - كما ذهب كثير من الباحثين - هم واضعو الشطرنج
 وعلمهم التمر فى العالم ، ومهم أحد المسلمون ، وان احتلوا هل أحدوه من

١ سراج المآل من ٣٣١ (٢) أداله أعانه ٢ طابع الشعراء من ٥٠٦
 ٣ طابع الشعراء ٥٠٤

الهند مباشرة أو بواسطة الفرس، وللهند في الشطرنج أشكال من اللعب مختلفة
حكاها البيروني في كتابه « الهند »، وهي تختلف من بعض الوجوه ما هو
معروف عندنا اليوم

انتشرت هذه اللعبة عند المسلمين، وقد أهدى هرون الرشيد شطرنجاً إلى
« شارلمان » وأشهر قوم بلعنه حتى نسبوا إليه مثل الصولي الشطرنجي،
وأني حصص الشطرنجي وتكون حوله أدب فارسي وأدب عربي،
والهرودي يطم فيه صفحات في لغة شعرية جميلة، والعرب يطموا فيه الشعر
السكر الحليل، كالدي قال ابن الرومي في أبي العباس التوري الشطرنجي

تَهْرَمُ الْجَمْعُ أَوْ حَذِيثًا وَتُنْسَوِي بِالصَّبَايِدِ أَيْمًا إِلَى
وَتَحْطُ الرِّجَاحُ بَعْدَ الرَّرَارِي بِرِ قِتْرَدَادِ شِدَّةِ اسْتِعْلَاءِ
رَتْمًا هَالِيًا وَحَرَّ عَقْلِي أَحْذُكَ اللَّاعِبِينَ بِالسَّاءِ
وَرِصَاهُمْ هُمَاكَ بِالنِّصْفِ وَالرُّشْعِ وَأَدْنَى رِصَاكَ فِي الْإِرْنَادِ
وَاحْتِرَاسُ الدُّهُمَةِ مَكَ وَإِعْصَا هَاكَ بِالْأَفْوَاءِ وَالصَّعْمَاءِ
عَنْ بَدَائِكَ الْأَطَافِ الْأَتَوَاتِي هُنَّ أَحَقُّ مِنْ مُسْتَسْرِ الْهَمَاءِ
بَلْ مِنْ السَّرِّ فِي صَمِيرٍ مُجَيَّرٍ أَذْنُهُ عَقُونُهُ الْإِهْشَاءِ
فَأَحَالُ الَّذِي يُدِيرُ عَلَى الْقَوِّ بِمِ حُرُوبًا دَوَائِرَ الْأَرْحَامِ
وَأَطْلُ أَهْرَاسِكَ الْهَرَبِ وَالْقَرِّ نَ مَنَابِ وَشَيْكَةِ الْإِرْدَاءِ
وَأُرَى أَنْ رَفَعَهُ الْأَدَمُ الْأَحْمَرِ أَرْصًا حَكَاةً بِهَا بَدَاءِ
عَلَطِ الْمَاسِ لَسَبَ تَلْعَبُ بِالشَّطْرِنَجِ لَكِنْ بَأَفْسِ الْأَعْمَاءِ
لَكَ مَكْرٌ يَدْبُ فِي الْقَوْمِ أَحْقَى مِنْ دَبِّ الْفَاءِ فِي الْأَعْمَاءِ
أَوْ دَبِّ الْمَلَالِ فِي مُسْتَهَا مَيْسَ إِلَى عَايَةِ مِنَ الْعَصَاءِ

أو مسير القضاء في ظنكم الغيب إلى من يريد به بالتوا
تقتل الشاة حيث شئت من الرقة طلباً بالقتلة الشكرام
غير ماناظر بعينك في الدسنت ولا مقل على الرسله
بل تراها وأنت مستدبر الظنسر بقلب مضور من ذكاء
ما رأينا سواك قرناً يولى وهو يردى فوارس الهينجا
رُب قوم رأوك ريعوا فقالوا هل تكون العيون في الأقدام؟
تقرأ الدسنت ظاهراً فتؤد به جميعاً كأحفظ القرءاء !

وأخيراً كان للهند عادات وتقاليد، وشعائر ونظم وشرائع. فامانة الحيوان في
الأصل محظورة عليهم - قالوا - ولكن الناس نبذوا كل أمر ونهى وراء ظهرهم.
ونفذ هذه الأوامر البراهمة لاختصاصهم بالدين، ومنع الدين إياهم عن اتباع
لشعوات^١، وربما كانت هذه التعاليم هي التي أثرت في أبي العلاء، فخرم
على نفسه اللحم وكره ذبح الحيوان، وكان لهم شرائع في الزواج والعدة وأحكام
الجنين والنفاس، وشرائع في المرافعات وطرق القضاء، ونظام في العقوبات
الكفارات، وأحكام في الميراث، وعادات في أيام الأعياد، ومقام في
طبقات الناس وتحديد العلاقات بينهم^٢.

كل هذه الفلسفة الدينية، والتعاليم الرياضية، والقصص والحكم الأدبية،
الشعائر والتقاليد الاجتماعية؛ ذابت في المملكة الإسلامية، وكانت عنصراً
عاماً من عناصر الآداب العربية.

١ أنظر البروني في كتابه « ما للهند من مقولة » ص ٢٧٦

٢ شرح ذلك البروني كماه حسب ما رأى في كتابه ص ٢٧٦ وما بعدها

الثقافة اليونانية الرومانية

إذا نحن وصلنا إلى اليونان ، فقد وضعنا أيدينا على كبر لا يفتى ، وثروة لا تقدر ، وعى عظيم فى كل ما يتحده العقل والعاطفة والدوى فى الفلسفة ، والرياضة ، والملك ، فى علوم الطبيعة والحياة والطب فى الأدب ، فى التاريخ ، فى السياسة ، فى الفنون الجميلة لقد نهضوا فى كل ذلك من روحهم ، وعدوا العقول بأرائهم وأمدوا العالم بأفكارهم وآدابهم ، وعلمهم وأساطيرهم ، ورتبوا الدوى بهم ، ونحتهم وتصويرهم .

فأولندس طل إماماً فى الهندسة من القرن الثالث قبل الميلاد الى القرن التاسع عشر الميلادى والطب طل قائماً فى العصور القديمة ، والقرون الوسطى ، على أساس مادون بقراط ، وحاليوس والفلاسفة الى اليوم ، عيال على تعاليم سمرات وأفلاطون وأرسطو ، ومن إلهم من فلاسفة اليونان وجمهورية أفلاطون وسياسة أرسطو منع لما حدث من تطورات فى السياسة ، وهكذا فى كل فرع من فروع العلم والفلسفة والفن فلسفة المسلمين أسس على فلسفتهم ، والمذاهب الحديثة بما فيها من علم وأدب تهص على أكرامهم ، وأول شراره لأعصه الأوروبية الحديثة بما انبعثت من كهم بمتار علومهم وفلسفهم بمبره ، تكاد مؤرخو الفلسفة يجمعون عليها ، وهى أن اليونان كانوا يحنون وراء الحق للحق ، على حين أن كبراً من الأمم كانت تنسلف لما يتبع الفلسفة من فوائد مادية ، أو لتأيد قضايا دينية ومن ثم لم يشاءوا أن يعدوا الآراء الهدية أو المصنعة أو الضمنية أو الأسورية والبالية فلسفة ، لأنهم شرطوا فى الفلسفة البحث وراء الحقيقة المحررة

في حرية تامة وسُموً عن المادة ، ولا عدوا الرومانيين أمثال « ماركوس أوريليوس » و « سينيكا » و « شيشرون » فلاسفة لأنهم لم يقدموا للعالم آراء فلسفية جديدة ، تريد في ثروة الفلسفة اليونانية .

ولس من عرصا أن يلم بما وصل اليه اليونان في بحثهم في كل فرع من فروع العلم والفلسفة والفن ، فذلك ما لا يحتمله فصل في كتاب^١ وإنما عرصا أن يعرض لبيان ما اقدس المسلمون من الثقافة اليونانية الرومانية ، وسبحث في إبحار عن أى طريق وصلت هذه الثقافة للمسلمين

كانت فتوح الاسكندر المقدوني لكتنيز من بلاد آسيا وأفريقية سدا كبيرا من أسباب انتشار الثقافة اليونانية في الشرق فقد كانت مملكته بلاد اليونان ومقدونية في أوروبا ، ومصر وليبيا في أفريقيا ، وسوريا وفلسطين والعراق وما إلىله ، وبلاد الفرس ، وتركستان وأفغانستان وبلوچستان ، وقسم من بلاد الهند في آسيا . وكان من سياسته القرب بين هذه البلاد المفتوحة وبلاد الاعراب ، ومرح الجنس الاعرابي بأحاس آسيا وأفريقيا في الحصاره والعبارة ، وبظم الحكم والثقافة ولهذا كان يحب اليونانيين على سبب هذه البلاد ومحالطة أهلها ، وبظم مذهبها تعظيما يونانيا ، ونسجج الأدباء والكتابات والعلماء على بشر أديهم وعلمهم ، فكان من ذلك ، ومن الولاه اليونانيين الذين ورنوا الحكم من الاسكندر في الممالك الشرقية ، أن اندمرت الحصاره اليونانية ، والثقافة اليونانية من عهد الاسكندر وكانت البلاد الى من دحلة والفرات ، بعلي عليها الثقافة الاعريفة ، حتى ليروون أنه لما وصل موت « كراسوس Crassus الى أوروديس Orodus الملك البرقي كان يطالع مأساة من روايات يوريبيدس Euripides وطلب هذه الثقافة سمو وتوق في ثمرها ، حتى بعد أن

١ اقرأ في هذا Legacy of Greece

٢ والترت أو الفرت ثم الفرس الأولى كتوت مملكهم من سنة ٢٥٥ ق م الى ٢٢٦ ق م

انسحب الجيش اليوناني من هذه الأقطار ، واشتهرت في الشرق قبل الاسلام الى ما بعده مدن كثيرة كاب مسعاً للثقافة اليونانية ، من أشهرها حُدُتْسَاوَر ، وحرَّان ، والاسكندرية

حُدُتْسَاوَر . مدينة في حُورِستَان أسسها ساوَر الأول واليه نسب ، واتحدتها موطناً لأسرى الروم ، ولعل هذا من الأسباب التي جعلها فيما بعد مسعاً للثقافة اليونانية ، وأسس فيها كسرى أبوشروان مدرسة للطب المشهورة . وكان يُعلم فيها العلوم اليونانية باللغة الآرامية ، وقد فتحها المسلمون فيما فتحوا من بلاد الفرس ، وطلب المدرسة فأثمة الى العصر العباسي . ولم يبق من البلد في عهد باقوب الا أطلالها ، وقد رالت هذه الأطلال ، ولم يبق منها الآن ابر وموقعها اليوم أطلال « شاه آباد »^١ .

كان الذي أنشأه كسرى في حُدُتْسَاوَر بيارستانا ، يعالج فيه المرضى ، ويدرس فيه الطب ، وما اليه يحكي القفطي أن المدرسة نسب على شكل القسطنطينية وأن أول من عاين الطبَّ بها أطباء من الروم « ولما أقاموا بها بدءوا يعلمون أحداً من أهلها ، ولم يزل أمرهم بهوى في العلم ، وبنو اندون فيه ، ويرتوون فوائس العلاج على مقتضى أمراضهم ، حتى برزوا في الفصائل » « وفي سنة عشرين من ملك كسرى ، اجمع أطباء حُدُتْسَاوَر بأمر الملك ، وحرى بينهم مسائل وأحوسها ، وأُتدَّتْ عنهم ، وكان أمراً مشهوراً - وهذه المسائل والعرباب اذا تأملها القارئ اسدل على فصلهم ، وعراة عليهم »^٢ وكان أطباء حُدُتْسَاوَر بعد مدون أهم أهل هذا العلم ، ولا يحزنونه عنهم ، وعن أولادهم وحسبهم وقد روي أن الخارب س كَلَدَه الثَّقفي طيب العرب ، بعالم في الاسلام في مدرسة حُدُتْسَاوَر ، وعالج

٢ أبحار الحكماء ص ١٢٣

١ دائرة المعارف الاسلاميه في مادة حُدُتْسَاوَر

٣ المصدر نفسه ١٧٤

مفارس ، وطبَّ بعض أحلاء العرس ، فأعطاه مالاّ وحارية ، سبها الحارث
سُمِّيَّة ، وهي أم رباد بن أبيه ومات الحارث في أول الاسلام ولم يصح
اسلامه^١

وفد كانت تدرس في مدرسة حديدسانور الثقافة الهندية ، بحاب الثقافة
اليونانية ، وكان يشترك بعض اليهود في التدريس باللغة العهلوية .

وطلت مدرسه حديدسانور تؤدّي عملها في الاسلام ؛ كما كان في عهد
العرس ، وازداد اتصالها بالمسلمين في العهد العباسي ، فان أنا جعفر المصور
عند ما بنى بغداد أصبت ممرض في معدته لم يستطيع أطباؤه معالجه ، فدلوه
على حورحس بن محمدشوع ، رئيس أطباء حديدسانور^٢ ومن ذلك الحين
انضمت قصور الخلفاء بمدرسة حديدسانور ، حتى أن الرشيد أمر حبريل
أن يمشي مع أن يعمل بمعداد يمارساناً على نمط يمارسان حديدسانور ،
ونقلد رياسته أطباء حديدسانور وتلاميذهم^٣

وفد اشتهر من مدرسة حديدسانور في العصر العباسي ، حورحس
بن محمدشوع طبيب المصور ، وابنه محمدشوع طبيب الرشيد ، وحبريل
بن محمدشوع طبيب المأمون الخ ، وكانوا كلهم بصاري ساطره

حَرَان وأما حَرَان هندسة في الحريرة شماليّ العراق ، تقع بين الرّشها
(أودسا) ورأس العين وهي مدينة قديمة ، عاصرت اليونان والرومان ،
والصراية والاسلام ، وفي عهد الاسكندر سكن كثير من المقدونيين هذا
الحريرة الشمالي للعراق ، وكان من أثر ذلك في حَرَان أن الآلهة المعبودة عند
الخرّائيين احدث أسماء يونانية — وفي أول عهد البصريه كان شماليّ العراق

١ أبحار الحكاء ١٦١ وما بعدها

٢ الفعلى ١٥٨

ومنه حران يسكنه أهلُه الأصليون، وهم السريانيون، وكثير من المقدونيين، والاعريقيين، والآرمن، والعرب. ولما قويت النصرانية، وأصبحت دينَ الرومانيين الرسمي؛ حاولوا أن يضغطوا على الحرانيين ليتنصروا فلم ينجحوا. ومن أجل ذلك كان رجال الكنيسة يطلقون على حرَّان مدينة الوثنيين «هيلينوبوليس» Hellenopolis^١ وظلت حران (مدينة الوثنيين) يهرب إليها الذين لم يشاءوا أن يدخلوا في النصرانية من اليونانيين وغيرهم. ويظهر أن دينهم كان مزيجاً من الديانة البابلية، واليونانية القديمة، والأفلاطونية الحديثة، حتى كان شأنهم كذلك في العصر الاسلامي، إلى عهد المأمون، فتسموا - إذ ذاك - بالصابئة، احتفاءً بما يفهم من القرآن الكريم من عد الصابئين من أهل الكتاب، ولم يكن ذلك الاسم يطلق عليهم من قبل، إنما كان يطلق على قوم لهم ديانة مزيج من اليهودية والنصرانية، كانوا يسكنون «البطيحة» كما ذكر القفطى (وهي أرض واسعة بين واسط والبصرة)^٢. روى ابن النديم أن المأمون اجتاز في آخر أيامه ديار مضر، يريد بلاد الروم للغزو، فتلقاه الناس يدعون له، وفيهم جماعة من الحرَّانيين (الحرثانيين). وكان زعيمهم إذ ذاك لبس الأقبية، وشعورهم طويلة بوفرات... فأنيكر المأمون زعيمهم وقال لهم من أنتم من الذمة؟ فقالوا نحن الحرثانيون (الحرثانية)، فقال أنصاري أنتم؟ قالوا لا، قال فيهود أنتم؟ قالوا لا، قال فمجوس أنتم؟ قالوا لا، قال لهم أفلكم كتاب أم نبي؟ فجمعهم في القول. فقال لهم فأنتم إذا الزنادقة عبدة الأوثان، وأصحاب الرأس في أيام الرشيد والدى، وأنتم حلال دماؤكم، لا ذمة لكم فقالوا نحن نؤدى الجزية! فقال لهم إنما تؤخذ الجزية من خالف الاسلام من أهل الأديان الذين ذكرهم الله عز وجل في كتابه، ولهم كتاب. فاخترأوا أحد أمرين: إما أن تنتحلوا دين الاسلام، أو ديناً

١ انظر دائرة المعارف الاسلاميه في مادتي حران وصابئة ٢ انظر القفطى ص ٣١١

من الأدباء التي ذكرها الله في كتابه، وإلا فتلتكم عن آخركم، فإنني قد أنظر بكم إلى أن أرحم من سقرتي هذه . ورحل المأمون يريد بلد الروم، فغزوا زبهم، وحلقوا شعورهم، وتركوا للنس الأقية، وتصرّ كثير منهم، ولبسوا ربابير، وأسلم منهم طائفة، وبقي منهم شردمة محالهم، وحلوا يحالون ويصطربون، حتى انتدب لهم شيخ من أهل حرّان فقيه، فقال لهم قد وجدت شيئاً تنحون به، وتسلمون من القبل فحملوا إليه ما لا عطيما . فقال لهم إذا رجع المأمون من سفره فقولوا له نحن الصائون بهذا اسم دس قد ذكره الله جل اسمه في القرآن، فانتحلوه فأنتم تنحون به، وقضى أن المأمون توفي في سفرته . . وانتحلوا ذلك الاسم من ذلك الوقت، لأنه لم يكن يجران وبواحيها قوم يسمون بالصائنة، فلما اتصل بهم وفاة المأمون ارتدّ أكثر من كان تنصّر منهم وطوّلا شعورهم، الخ^١، وأطلق عليهم الصائنة منذ ذلك الحين

على كل حال كان هؤلاء الجراسون مسعاً كثيراً من موانع الثقافة اليونانية في العهد الإسلامي، وقد اتصلت مدرستهم بالخلفاء العباسيين بعد اتصال مدرسة حنديسابور، وبعد العصر الذي يؤرخه فأول من اتصل بهم ثابت ابن قُرّة^٢ ٢٢١ — ٢٨٨ هـ أوصله بالمعتمد بن موسى بن شاذان الدين رثائهم المأمون ومن ذلك الحين قرّب الجراسيون من الخلفاء ثم من بني بويه. واشتهر منهم ثابت بن قرة هذا الرابض الفيلسفي، وابن سينا الطبيب العالم بالطواهر الخوية وقد أسلم، وحفيده ابراهيم بن سنان، كما اشتهر منهم أسره هلال، ومهم هلال بن ابراهيم، وكان طبيباً، وابنه الأديب المشهور ابراهيم أبو اسحاق الصائني، صاحب الرسائل. وكان تابعاً وله اليد الطولى في الرابضة

والهندسة والهيئة . كما كان من الحرائين « السَّاني ، أحد المشهورين برصد
الكواكب ، والمتقدمين في علم الهندسة ، وصاحب الرُّبُوع المنسوب إليه ومهم
أبو جعفر الخوارزمي الرياضي ، وابن وحشية المنسوب إليه الفلاحة السَّبطية
الح ، ولئن كانت مدرسة حُمد يساور لها الأثر الكبير في نشر الثقافة اليونانية
في الطب ، وما إليه من فلسفة ، فمدرسة حرائ كان أثرها الأكبر في الرياضيات ،
وخاصةً الهيئة . ولعل ما في ديانتهم من تعظيم الكواكب ، وإقامة الهياكل
لها كان باعثاً على تنوعهم في العلوم الرياضية والفلسفة

وأما الاسكندرانيه فعاصمة مصر اليونانية ، ومها ولد مذهب من أكر
المذاهب الفلسفية هو مذهب الاسكندرانيين ، أو الافلاطونية الحديثة
مؤسسه مصري هو « أفلوطين » (٢٠٥ — ٢٦٩ م) . وهذا المذهب تدين
بأهم أفكاره لملازمة اليونان ، فعبصره الأولى مسيدة من آراء أفلاطون .
وأرسطو ، والرواقس^١ وقد امتاز بروحانيته وهذه المذهب المادى ، حتى
لقد حكى أفلوطين أنه وصل في روحانيته الى الاستعراق في الوحدة أو
على التعبير الصوى « الغاء في الألوهية » صبح مرات في حياته ، ووصل الى
ذلك بليده فورفوريوس Porphyry مره واحده وقد ظل مذهبه هو
المذهب الفلسفي السائد في المملكة الرومانسة نحو قرنين ونصف من
— بعد وفاة مؤسسه — حتى أنى الامبراطور حوسيان فأمر سنة ٥٢٩ م
باعلاق مدارس أنثا الفلسفه ، وصادر أملاك الفلاسفه ، وعلّ عهولهم
وقيّد ألسنتهم

١ انظر ما كتب عن هذا المذهب في فجر الاسلام ص ١٥٣ وما بعدها واظر فيه كذلك
السلام على السرايين ص ١٥٤ وما بعدها

بحاج هذه الحركة الفلسفية كانت حركة واسعة في الأدب والعلم والفن وأطلق على هذه الحركات كلها مدرسة الاسكندرية وقد عاشت من سنة ٣٠٦ ق م — ٦٤٢ م وكان يغذى هذه الحركة متحف الاسكندرية، ومكتبتها المشهورة.

ويقسم مؤرخو هذه المدرسة تاريخها إلى عشرين : العصر الأول، من قيام دولة البطالسة إلى علة الرومان (أعنى من سنة ٣٠٦ ق م إلى سنة ٣٠ م) وقد عُدَّت الاسكندرية في هذا العصر في مقدمة بلاد العالم في الأدب.

والعصر الثاني : من سنة ٣ م إلى سنة ٦٤٢ م وهي سنة فتح العرب للاسكندرية، ويمتاز في هذا العصر بالمذهب الفلسفي الذي أُشْرنا اليه وكانت المدرسة في عصرها متصلةً بالعالم الذي حولها تمدد سورها

انتشرت الديانة النصرانية والاسكندرية، في العهد الروماني كما انتشرت في غيرها، وقامت النصرانية فيها بحاج الفلسفة اليونانية، واحتلت البصاري فيما بينهم طوائف وشعاً، وتحادلوها في طبيعة المسيح، وناسوته، ولاهوته وعلاقة المسيح بالله. فاجتؤوا إلى الهامسة يستعصون بما لها من مطلق وتريب في الخلد، ومما لها من أنحاز وراء المساده، ومن ثمَّ اتصلت النصرانية بالفلسفة اليونانية، وكانت أول حركة للاتصال في الاسكندرية، كما اتصل اليهودية بالفلسفة في الاسكندرية أيضاً. من قبل - على يد فيلون وكان من أوائل البصري في ذلك « كليمان الاسكندري » « Clement »^١ فشرح النصرانية بالأفلاطونية، ثم من بعده أوريجن « Origen » (١٨٥-٢٥٤م) تلميذ أفلوطين، واصطُهد أوريجن فهر من الاسكندرية، وأسس مدرسة على النمط الاسكندري في قصره في فلسطين ثم أُسس بعد مدرسة على هذا النمط في صيدون، وأعاقب مدرسته بصدس، فانتقل إلى الرها وهكذا

١ ولا تكلان حول سنة ١٥٠ م أو من ومن في أسا

انشر السَّمطُ الاسكندري في مرجح البصرانية بالالفظة في أمحاء الشرق ، وأصبح كثير من رجال الكنيسة يعلمون البصرانية مملسة أو الفلفة مسطرة ، وحدّوا في التوفيق من ما يتعارض بينهما مثلاً : قالت البصارى وإن المسيح ابن الله ، والألوه مقدمة على السُّوءة ، تقدّم السبب على المسبّب ، وإذن كان الله قبل المسيح . وترى الفلفة أن العله الأولى ، أو بعبارة أخرى «الله» لا يلحقه تعين فكيف يكون أنا ، وكان قبل غير أب ، فيجب أن يمسّر الانفس تفسيراً يتفق والفلفة وهكذا

وكان أغلب القائمين هذه الحركة البصارى السّاطرة ، فسّوا مدارسهم وتعاليمهم في الشرق ، وكانوا يعلمون باللغة السريانية ، ويتقلون الكتب اليونانية الى السريانية . وكان الحرب في ذلك العهد قائمه من الفرس واليونان في آسيا ، وكان كثير من البلاد يقع حياً في يد الرومان ، وحيثاً في يد الفرس وأقبح : ترسوما ، ملك الفرس «فيروز» بأن الساطرة يكرهون الرومانيين ؛ مما لقوا منهم من عنت ، وأهمهم يوالون الفرس ، فقبل منهم فيروز ذلك ، وطلوا هم قائمين بما وعدوا^١

، ، ،

ولعل هذا الذي ذكرنا يلقى ضوءاً على كثير من المسائل العامة التي تعترض الباحث كيف اتصل الفرس بالفلسفة اليونانية ، وكيف عرّفوا «ايساغوجي» وأمثاله من كتب اليونان ، وكيف كانت الأديار المشوثة في الشرق مصدراً للفلسفة اليونانية ؟ وكيف اتصل المسلمون بالفلسفة اليونانية ؟ فظهرت في المحادلات الدينيه وغيرها ، وفي مافسفات المتعزله وغيرهم هل أن دخل الفلفة اليونانية إلى اللغة العربية ، مثلاً مطلقاً في عهد المأمون ومن بعده ولم يكن المرحون الأولون - من السريانية أو اليونانية الى العربية - أكثرهم بصرارى

أو وثنيون ؟ لعل القارىء يجد طرفاً من الاحاطة عن هذه الأسئلة فيما حكينا .
كانت الكنيسة الاسكندرية والمصرية - في الغالب - على مذهب اليعاقبة
وكانت لعنتها السريانية والقبطية ، وكان إتيان الساطرة في آسيا في الفلسفة بالغة
السريانية ؛ أكثر من إتيان اليعاقبة في مصر ، لأن الخلد الديني في آسيا - وخاصة
في العراق - بين البصري بعضهم وبعض ، وبين البصري وغيرهم من أهل
الدابات الأخرى - كان أكثر منه في مصر ، وقد اشتهرت مدرسة الاسكندرية
بالطب والكيمياء ، والعلوم الطبيعية ، وكانت كذلك عند الفصح العربي ، ولكن
أعانتها إزداد ذلك كالب مروحة بالسحر والطالسم والتنجيم علب على اليعاقبة
في مصر مذهب الأفلاطونية الحديثة ، والميل الى التصوف ، وحب معيشة
الاديار والرهبة ، على حين علب على الساطرة في آسيا الميل الى التفكير الفلسفي ،
وحب المطلق من غير إعاقي في الروحانية والرهبة ، وإن كان لهم أديار .
وقد اتصل المسلمون بمدرسة الاسكندرية في العهد الأموي ، فبرى أن
خالد بن يزيد بن معاوية يترجم له بعض الكتب « اصططن » وبلقته القعطي
اصططن الاسكندراتي ، وبرى أن أنحر - وهو طبيب اسكندري - يُسلم على يد
عمر بن عبد العزيز ، ويصغحه ويستظله عمر . ويعمد عليه في صباغة الطب
وفي العصر العباسي ، برى ذكر ألبعض تلاميذ المدرسة الاسكندرية
فان أنى أصابة يروى أن « بلطبان » كان طبيباً مصرياً مشهوراً بديار مصر ،
وكان بطريقاً على الاسكندرية في أيام المصور ، فله والى الرشيد مرصت له
حاربه مصرية ، فطلب لها طبيباً مصرياً ، لأنه أنصر بعلاجها ، فأرسل اليه
« بلطبان » وعده كان سعد بن توفل طبيب أحمد بن طولون ، وهكذا ٢
ولكن بما نلاحظ ، أن مدرسة الاسكندرية لم تنصل بالعلماء العباسيين
اتصال مدرسة حديد ساور وحران وأمثالها ، ولم يكن لها أثرهما ،

ولعل السبب في ذلك ، نُعْذِرُ عن العراق ، وقرب حِراَن وحديسابور ،
وأن مدرسة الاسكندرية - كما أشرنا - انعمت في العرائم ، والرهبة
والمكاشفة ، على العكس من مدارس العراق ، فقد كانت أعلم بشئون الدنيا ،
وأكثر اهتماماً بعلومها ، وهذا أسب لدوله ناهضة كالدولة العباسية ، أما
برعة الاسكندرية هذه فتناسب التصوف ، وسعصر لدلك عبد الكلام في
النصوف إن شاء الله . وسبب آخر ، وهو ضعف مدرسة الاسكندرية قبيل
الاسلام ، واصطهاد أهلها ، وإحراق كتبها حتى اضطُر كثير من معتمقيها
إلى التنصر ، أو الفرار من البلاد

على كل حال ، فسَّرَ السَّاطِرَة واليَعَاْفَة كثيراً من كتب اليونان ،
نقلوها من هذه اللغة إلى اللغة السريانية ، فلما اتصلوا بالعرب كانوا هم أيضاً
البادئين بنقل هذه الكتب من السريانية إلى العربية وشرحها ، وتاريخ هذه
الحركة التي قام بها هؤلاء الساطرة واليعافة ، ندلنا على عييين كبيرين فيها ،
(الأول) فلة الابتكار فلم يربدوا على ما نقلوا علماً حديثاً ، ولا بطرائق
حديثه ، ولا كثيراً من الآراء الحديثة . (والثاني) أهم حتى في كثير مما
نقلوا لم ينقلوا في دقه ما كان عند اليونان ، بل عَمَّروا فيه ، وحرَّفوا وكثير
من الأخطاء التي وقع فيها العرب علمياً كان منشؤه هذا الخطأ السرياني
والحق أن العرب في هذا كانوا أكثر اسكاراً وأدق نظراً ويكاد مؤرِّحو
علم المسلمين من طب وحر وهندسة وكيمياء وفلسفه ، يمسحون ما وصل اليه
المسلمون فسممن قسم أحده عن اليونان ، وقسم اسكروه بأنفسهم

نقل إلى العربية في هذا العصر ، أهم ألف أرسطو ، وسروح
الاسكندرايين عليها ، وبعض مؤلفات أفلاطون وأهم كتب حالسوس في
الطب ، وعلى الجملة أهم ما وصل اليه العقل اليوناني في العلم والفلسفه . وللسا
ربد أن يفصل الكتب التي ترجموها ، ولكن يكمساها أن تحمل القول بأنه

يمكن تقسيم الترجمة إلى أدوار ثلاثة :

الدور الأول : من خلافة المنصور إلى آخر عهد الرشيد ، أي من سنة ١٢٦ هـ إلى سنة ١٩٣ هـ وفي هذا الدور ترجم كتيبة ودمنة من الفارسية ، والسند هند من الهندية ، وترجمت بعض كتب أرسططاليس في المنطق وغيره . وترجم كتاب المسجسطي في الفلك — ومن أشهر المترجمين في هذا الدور ابن المقفع وقد تقدمت ترجمته ، وجورجيس بن جبرائيل ، ويوحنا بن ماسويه وكلاهما كان طبيباً نصرانياً — وفي هذا الدور انصابت المعترضة بالسكتب التي ترجمت ، فوجد الأولين منهم كالطغتم عرّف أرسطو وعرف بعض كتبه في الفلسفة وتأثرت أبحاثهم بالمنطق ، وتكاثروا في الطفرة والجواهر والعرض ، وما إلى ذلك كما سيأتي بيانه ، وكان كلامهم في هذا قبل المأمون ، مما يدل على اتصالهم بالفلسفة من أول عهد الترجمة .

الدور الثاني : من عهد المأمون من سنة ١٦٨ إلى سنة ٣٠٠ هـ وأشهر المترجمين في هذا الدور يوحنا أويحيى الطبري — مولى المأمون — وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب ، وترجم كثير من كتب أرسطو . والحجاج بن يوسف بن مطر الوراق السكوني عاش سنة ٢١٤ ، وقسطا بن لوقا البتليكي عاش سنة ٢٢٠ هـ ، وعبد المسيح بن ناعمة الحمصبي عاش سنة ٢٢٠ ، وحنين بن اسحاق توفي نحو سنة ٢٦٠ ، وابنه اسحاق بن حنين توفي سنة ٢٩٨ ، وعنى بكتب الفلسفة عناية أليه بالطب ، وثابت بن قرة توفي سنة ٢٨٨ ، وحيش الأعمى ابن أخت حنين ، وغيرهم . وقد ترجم في هذا الدور أهم الكتب اليونانية في كل فن فأعيدت ترجمة المجسطي ، والحسك الذهنية لفيثاغورس ، وجملة مصنفات بقراط وجالينوس . وكتاب طبياوس لأفلاطون وكتاب السياسة المدنية لأفلاطون ، وكتاب النواميس له أيضاً ، وكتاب المقولات لأرسطو . كل ذلك على يد حنين بن اسحاق ومدرسته ، وترجمت

أُعلت كتب أرسطو على يد ابن سينا
الدور الثالث من أتي بعد هؤلاء، ومن أشهر المترجمين فيه متى بن يونس،
كان في تعداد سنة ٣٢٠، وسال بن ثابت بن قسرة مات سنة ٣٦٠، ويحيى
ابن عدي سنة ٣٦٤ وابن رزعة سنة ٣٩٨، وأهم ما ترجموا الكتب المنطقية
والطبيعية لأرسطو، وتفسيرها^١

وقد كان الناعث على هذه الترجمة، ونشاطها في الدولة العباسية أموراً
(الأول) أن العهد الأموي كان عهداً بدوياً - في الجملة - ظهرت فيه سيطرة
العرب على عرهم من الأمم أوصح طهور، والعرب في ذلك العصر لم بأصل
فيهم ميل الى فلسفة إنما كان يعجبهم الأدب العربي، والتحدث بأيام العرب
ولدة حلقاتهم إنما هي في الاصعاء إلى قصيدة عربية، والاستفسار عن لقطات قصص،
وما الى ذلك فلما جاء العصر العباسي، وأمن المسلمون في الحضارة،
وسادت العناصر عبر العربية، رأوا أن حياة الحضارة لابد أن تستند الى
العلم فالة الدولة تحتاج إلى حساب دقيق، وعيشة الحضارة المركبة تحتاج
الى أدوية مركبة، وعلاج مركب، ومتى لحا الناس الى نوع أو نوعين من العلوم،
وأحدوا بعالمونه عن الأمم الأخرى؛ دعاهم الشعب الى معرفة ما عند
الأمم المختلفة من العلوم جميعها، ولو لم يكن لهم بها حاجة ماسة مباشرة

(الثاني) أن الحركة الدينية كانت قد بلغت في آخر الدولة الأموية شأواً
بعيداً - كما ذكرنا في فجر الاسلام - وحرثهم البحث الى أن يتكلموا في القضاء
والقدر ونحوه، ورجحت عند قوم عقيدة الجبر، وعند آخري عقيدة الاحيار،
وتجادل المسلمون فيما بينهم، ثم تحادد المسلمون والصاري والمهود؛ أي

١ أنظر محاضرات الأساد ساء، ولنا وإذا أردت استيعاب الكتب المترجمة فراجع فهرست
الديم وطعاب الأطباء لأن أن أصدره وأحضر الحكماء للمعنى وقد لخصها الأساد حري
ر، ان في كتابه التمدن الاسلامي

الأديان حير ؟ وأى آراء الأديان في المسائل الحزنية أصبح ؟ وكان المعتزلة يحملون لواء الدفاع عن الاسلام ، ومقارعة خصومه ، وكان كل من اليهودية والنصرانية تسليح من قبل بالملطق اليوناني ، والفلسفة اليونانية يستخدمها في الحدل فأحسن المسلمون أن لا يد من محاربتهم بالآلهم ، فمكفوا على المطوق والفلسفة يستخدموها في أعراصهم ، وفيما هم كذلك شعروا بلادة عقلية من دراسة الفلسفة ، فعد أن كات تطلب على أيها وسيلة للدفاع عن الدين أصبحت عاية تطلب لذآتها

وسب نالت حكاة الأستاذ نالسو وهو أنه في أواخر مدة الدولة الأموية ، ثبتت سلطة الاسلام على جميع الأمصار والأقطار التي دخلتها ألويته عموة أو صالحاً ، أثناء المعاري المتواصلة والفتوح من أقصى بلاد ماوراء النهر في تركستان ، إلى منتهى المغرب والأندلس فعمت اللغة العربية الشريعة أهل تلك الولايات والبلدان ، وعلت على ألسنتهم الأصلية ، فأحد المسلمون كلهم من أى جنس أو ملة ، لا يستخدمون في الانشاء والتأليف إلا لغة العرب ، فابتدأت وحده الدين تسوجب أيضا وحده اللسان والحصاره والعمران فصار الفرس وأهل العراق والشام ومصر تدخلون علومهم القديمة في التمدن الإسلامي الجديد ،^١

وسب رابع وهو ميل أفراد من الخلفاء في العصر العباسي الى العلوم الفلسفية ، والخلفاء عادة أفند الناس على التعريب فيما أحوا والباس أسرع ما يكون إلى تحقيق أعراصهم ، والولوع بما أولعوا به وأكبر الخلفاء العباسيين ميلا إلى ذلك في عصرنا ؛ كان المنصور والرشيد والمأمون وظهر أنه قد كان اكمل مهمهم أسباب خاصة حملته على ذلك فالمنصور كان معمودا وظهر أن ذلك حملة على العناية بالطب والأطباء حاه في الطارى من على س شمد من

سليمان التوفلي عن أبيه أنه كان يقول : « كان المصور لا يستمرى طعامه ويشكو ذلك إلى المطعين ويسألهم أن يتحدوا له الحوار شكات . فكانوا يكرهون ذلك ، ويأمر به أن يقل من الطعام ، ويجبروه أن الحوار شكات تصم في الحال ، وتحدث من العلة ما هو أشد منها عليه حتى قدم عليه طبيب من أطباء الهند ، فقال له كما قال غيره ، فكان يتحد له سقوفا حوارشاً يأساً فيه الأفاويه والأدوية الحارة ، فكان يأجده فيصم طعامه فأحمده الخ^١ وكذلك كان يعتقد في التحميم كما سيأتي بيانه فقرر إليه المنحمين . والرشيده رثاه البرامكة على حب العلم ، والمأمون رثاه الرشيد والبرامكة ، وقد حدا حدو الخلفاء كثير من أفراد الشعب كبنى موسى بن سكر . إذا علمت ذلك ، علمت فساد رأى من يئس رحمة الكتب اليونانية إلى رؤيا رآها المأمون أو نحو ذلك ، فقد ذكر صاحب الفهرست^٢ أن أحد الأساتذة التي قامت من أحوالها كثرة كتب الفلسفة ، وغيرها من العلوم القديمة : أن المأمون رأى في منامه كأن رجلاً أبيض اللون مشرباً حمرة ، واسع الحمة ، مفروا الحاحب ، أحلج الرأس أشهل العين حسن الشمايل ، حالس على سريره . قال المأمون وكأني بن يدنه قد ملئت له منه ، فقلت من أنت ؟ قال أنا أرسطاطلس ، فسررت به وقلت أيها الحكماء ، أسألك قال بل فلب ما الحسن ؟ قال ما حسن في العقل ، فلب ثم ماذا ؟ قال ما حسن في الشرع ، فلب ثم ماذا ؟ قال ما حسن عند الجمهور ، فلب ثم ماذا ؟ قال لا ثم اوى رواية أخرى ، فلبت ردى ، قال من يصحك في الذهب فليكن عندك كالذهب ، وعليك بالوسيد . وكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إحراج الكتب^٣ وروى ابن أبي أصديعه هذه القصة بشكل آخر ، فقال إن المأمون رأى في منامه كأن شيخاً من السكلى حالس على سرير وهو يحطب ، ويقول أنا

أرسطاطاليس، فأنته من منامه، وسأل عن أرسطاطاليس فقبل له رجل حكيم من اليونانيين فأحضر حنين من اسحق، إذ لم يجد من يصاهيه في نقله، وسأله نقل كتب الحكماء اليونانيين الى اللغة العربية، وبذل له من الأموال والعطايا شديداً كثيراً .

فهذه القصص وأمثالها لا يصح أن تكون سنداً، وإنما كانت الترجمة لأسباب طبيعية، هي التي ذكرنا ورواية اس أني أصيبه أبعاد عن الحقيقة، من المسحجيل ألا يسمع المأمون باسم أرسطو حتى يأتيه في المدام ويقول له أما أرسطو! وحكاية اس القديم إن صححت دلّسا على أن الحُكْم كان انعكاس صورة طيعية لما كان يهكر فيه المأمون في النقطة

قال في طبقات الأمم لصاعد الأندلسي : « كانت العرب في صدر الاسلام لا تُعنى بشيء من العلم الا بلعبتها، ومعرفة أحكام شريعته؛ حاشا صساعة الطب، فاسها كانت موحودة عند أفراد من العرب، غير منكرة عند حباهيرهم، لحاجة الناس طرّاً اليها، ولما كان عديم من الأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحث عليها حيث يقول : « يا عباد الله تداووا فان الله عز وجل لم يضع داء الا وضع له دواء الا واحداً وهو الحرمة . . . »

« فهذه كانت حالة العرب في الدولة الأموية، ولما أдал الله تعالى للهاشمية وصرف الملك اليهم نأنت الهسهم من عقلها، وهنت القطن من سسنتها، وكان أول من عى منهم بالعلوم الحليّة الثانی أبو جعفر المصور فكان رحمه الله مع براعته في الفقه مقدماً في علم الفلسفة، وحاصله في علم صساعة الاحوم كسلفها وأهلها

ثم لما أفصب الخلافة الى الحليّة السابع منهم، عبد الله المأهون من الرشيد اس محمد المهدي من أني جعفر المصور عى ما بدأ به حدثه المصور فأهل

على طلب العلم في مواضعه ، واستخرجه من معادنه بفصل همته التريفة ، وقوة نفسه الفاضلة ، وداحل ملوك الروم وأجمعهم بالهدايا الخطيرة وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا اليه بما حصرهم من كتب أفلاطون وأرسططاليس وأقراط ، وحاليوس وأقلدس ، وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة فاسجد لها مهرة التراخمة ، وكلفهم أحكام ترجمتها ، فترجمت له على غاية ما أمكن ، ثم حص الناس على قراءتها ، ورعيتهم في تعلمها واهتمت سوق العلم في زمانه ، وقامت دولة الحكمة في عصره ، وساهب أولو الساهة في العلوم لما كانوا يرون من إحطائه لتحليلها ، واحصا صاهه لتقليدنا فكان يحلوهم ويأس مناظرتهم ، ويأتمد مداكرتهم ، فيسألون عنده المنار الرفيعة والمراتب السنية ، وكذلك كاتب سريته مع سائر العلماء والعقلاء والمحدثين والمتكلمين ، وأهل اللغة والأخبار والمعرفة بالشعر والنسب فأثقت جماعة من ذوي القبول والتعلم في أيامه كثيرآ من أحرار العلماء وسبقوا لمن بعدهم مباح الطلب ، ومهدوا أصول الأدب ، حتى كادت الدولة العباسية تصاهي الدولة الرومية أيام اكتمالها ، وزمان اجتماع شملها^١

وقال في موضع آخر « ان أول علم اعى ه من ملوم الفلسفه ، علم المطلق والحجوم فأما المطلق فأول من اشتهر به في هذه الدولة عبد الله بن المقفع الخطيب العامري ، كاتب أبي جعفر المنصور ، فانه ترجم كتب أرسططاليس المطقية الثلاثة التي في صورة المطق وهي كتاب « فاطاغورياس » ، وكتاب « ناري ارمياس » ، وكتاب « أبولوطيقا » ، وذكر أنه لم يكن ترجم منه الى وقته إلا الكتاب الأول فقط ، وترجم مع ذلك المدخل المعروف « نايساغوجي » لعورفور بوس الصوري ، وعتر عما ترجم من ذلك عبارته سهل فريفة المأخذ

وترحم مع ذلك الكتاب الهدى المعروف بكتيله ودمنة وهو أول من ترجم من اللغة الفارسية الى اللغة العربية .

وأما علم النجوم فأول من عى به في هذه الدولة محمد بن ابراهيم الهرارى وذلك أن الحسن بن محمد بن حمّمد المعروف بابن الآدمى ذكر في ربحه الكبير المعروف بسظم العقد أنه قدم على الخليفة المنصور في سنة ١٥٦ رحل من الهند عالم بالحسابات المعروف بالسند همد في حركات النجوم . . فأمر المنصور بترجمة ذلك الكتاب الى اللغة العربية ، وأن يؤلف منه كتاب تتجده العرب أصلا في حركات الكواكب فعلى ذلك محمد بن ابراهيم الهرارى . فكان أهل ذلك الزمان يعملون به الى أيام الخليفة المأمون^١

وبحسب اذا استعرضنا ما حكى عن الترجمة وشأنها أمكسا ان نستخرج منها السائح الآتيه

(١) أن أول نقل حدث في الاسلام كان بفصل خالد بن يريد بن معاوية ، والذي نقل له هو « اصطفي » وهو من الاسكندرية ، وكان هذا النقل من اللغة اليونانية والعظيمة إلى العربية . وأن حالداً إنما كان أهم ما يعنى به الصعنة أو الكيمياء ، والعرض بها تحويل المعادن الى ذهب ، ويظهر أن الذى دعاه الى ذلك أنه كان شائناً يطمع في الخلافة اذا كان أبوه (يريد بن معاوية) خليفة ، وأخوه (معاوية بن يزيد) خليفة ، ثم رُحى عن الخلافة ، وعلمه عليها مروان بن الحكم فحسبهم من ذلك صدمة فو به فحول الى مذهب سريفي يلمو به وبأسب أرسطوطليسه فكان ذلك هو « الصعنة » رأى أنه اذا استطاع أن يحول المعادن الى ذهب استطاع أن يحول الناس اليه ، أو على أقل تقدر كان له من المصلحة ما يحسده عليها الخلفاء قال ابن الدديم « كان خالد حوذاً ، يقال إنه قيل له لعد فجاب أكثر شعلك في طلب الصعنة ! فقال خالد ما أطلب

بذاك إلا أن أعنى أصحابي وإخواني ، إلى طمع في الخلافة فاحترست دوى ،
فلم أحد منها عوصاً إلا أن أبلغ آخر هذه الصاعقة ، فلا أوح أحدًا - عروى
يوماً أو عرفة - إلى أن يقف باب سلطان ، رعة أو رهة ١ ، وقد اشتعل
بالحوم على أمها قد تكون وسيلة تساعد على الوصول إلى « الصعقة » إذ
كان علم الحوم بمزوحاً يعلم أحكامها ، وتأثيرها في العالم السفلى ، فلعلة أمل
فيه عوياً على الوصول إلى نعيته

(٢) أنه عى في الدولة الاموية بالطب بعض عناية ، لأن الناس في
حاجة مادة إلىه ، ولأنه أمد العلوم الاحمية عن أن يؤثر في الدين ، ولهذا
لم يتحرج من إحارة الترجمة فيه أتى بنى أمية عمر بن عبد العزيز

(٣) أن يحاول الترجمة في العهد الاموى كانت محاولات فرديه ،
تموت بموت الأفراد القائمين بها ، أما في الدولة العباسية فكانت الترجمة عملاً
أمة لا عمل أفراد ، وإن شئت فقل ؛ كان في الدولة العباسية مدرسة كثيرة
لترجمة ، لا يصيرها موت فرد أو أفراد منها

(٤) كانت الترجمة في العهد الاموى مقصورة على العلوم العلمية
كالصحة والطب والحوم (بالمعنى الذى فسراه) ولم يتعد ذلك إلى العلوم
العقلية كالمنطق والفلسفة والهندسة ، وما إلى ذلك ، فهذه لم تسكن الا في
الدولة العباسية .

(٥) رى أن المسلمين اتصلوا بالفلسفة اليونانية أول الأمر من طريق
الفرس ، فقد ترجم ابن المقفع كلاً من منطق اليونان ، والظاهر أنه نقلها من
الفارسية ، إذ لم يعرف عنه أنه يعرف اليونانية ، ثم بولى الترجمة بعد « الصارى
من النسطورية واليعاقبة ، من السريانية الى العربية .

(٦) كانت أول عناية الخلفاء العباسيين موجهة الى الطب والسحيم .

والسبب في ذلك الحاجة الماسة الى ذلك ، فالمصور احتاج الى الطب لمرصه
 - كما بدا - واحتاج الى التبحر لأنه كان يعتقد أن هناك ارتباطاً بين حركات
 البحوم وأوضاعها ، وبين ما يحدث في عالمها من محس أو سعد ومن ذلك
 الحين صار الطب والسحيم عملين رسميين ، يتولاهما رجال رسميون مخورحيس
 ابن حبريل بن يحيى شوع الخديساورى صار طبيباً للمصور ، ثم لما تقدمت
 به السن عن المصور مكانه تلميذه عيسى بن شهلان ، واتخذ تويخت الفارسي
 متجلاً له ، فلما ضعف عن المصور مكانه ابنه أسهل بن تويخت ولما تولى
 اتخذ المهدي طيحه عيسى الصيدلاني الملقب بأبي هريش ، واتخذ توفيل بن توما
 البصري الراوى رئيساً لمجتمعه فلما تولى الرشيد اتحد طيحه بخديشوع بن
 حورحيس ، ويوحنا بن ماسويه البصري . ولما استخلف المأمون كبر في بلاطه
 الأطباء والمجتمعون ، من مجتمعه حش الحاسب ، وعبد الله بن سهل بن
 تويخت ، ومحمد بن موسى الخوارزمي ، وما شاء الله اليهودي ، ومن أطبائه
 سهل بن سابور ، ويوحنا بن ماسويه ، وجورحيس بن بخديشوع ، وعيسى بن
 الحكم ، وركيا الطيهوري فلما آلت الخلافة للعتصم كان طيحه سلمونه ،
 ثم يوحنا بن ماسونه^١ ، الخ

هري من هذا أب الطب والتبحر أصبحا صاعدين تحميها الخلفاء ،
 وكاتب حاجهم إليهما حاجه عمله فأمر الطب طاهر ، وألارخ ملاو الحكايات
 التي هرع فيها الخلفاء إلى المجتمعين ، فالمصور استشار المجتمعين في اختيار الوصف
 الذي يدا فيه بناء بعداد ، والمهدي لما هم بالخروج إلى « ماسدان » استشار
 توفيل بن توما البصري المجتم^٢ ، والمعتصم صجحه المجتمون ألا يعرف « مخموره »
 الا في أم نصح الدين والعب ، فلم يصع لوطم وعراها وفتحها وقال أبو تمام
 في ذلك نائمه المدفوره « السيف أضدق أنباء من الكتيب » والواقع لما

اشتد مرصه ، أحصر المحميين ، مهم الحسن بن سهل بن يوحنا ، فطروا في مولده فقدروا له أن يعيش خمسين سنة مساكسة من ذلك اليوم ، فلم يعتن بعد فوطم الا عشرة أيام^١ الخ

ولسا ندعى أن الخلفاء لم يشجعوا من علم الجحوم الا هذا الصرب ، فقد كان علم الجحوم يشمل ما تطلق عليه علم الهيئة الآن ، ويشمل كذلك البحث عن التعرّبات التي تحدث في الأرض بسبب مواقع الجحوم وتأثيرها ، وكلا الأمرين كان عبد الوان ، وكلا الأمرين عني به العاسيون ، فرصد الكواكب في عهد المأمون ، وأصلح آلات الرصد وأما الذي ردد أن نذكره ، أن الشّعف بمعرفته أحكام الجحوم هو الذي حذب الخلفاء أولاً إلى تشجيع هذا العلم ، ثم بدرجوا منه إلى تشجيع الفلك الرصاصي البحث

ويظهر لي أن هذين العلمين (الطب والجحوم) هما البان اللذان أوصلا المسلمين إلى ساحه العلوم الفلسفة ، والسبب في ذلك أن المحصر الذي بهمه الآن وراه في دراسة الطب والهيئة لم يكن معروفاً في هذا العصر العباسي ، وكان الطبيب والمخيم يُلبان بكثير من المسائل الفلسفية ونكاد بعد الفلسفة كوحده ، فروعها ، الطب والاهباب ، والحساب والمطلق ، والموسيقى ، والهندسة ، والهيئة فالطب والمخيم بلمان - عالما - بكل ذلك ، ثم بدرجوا في الطب أو التحميم وكانت رعة الأطباء والمحميين في إيقان فومهم تحمليهم على معرفة اللعاب الأحدة ، وحاصله النوبانية ، فادا حدقوها أفلوا على الكتب المؤلفة فيها من جمع فروع الفلسفة . وقد نقل اليبا أن الدم نكتنا بأسماء الكتب التي كان يدرسها الماطون ، فادا بها طب وتسرخ ، وما إلى ذلك ثم فيها مطلق وأحلاق ويحب فيما وراء المادة . وكان مما يقرءون كتاب موضوعه ، أن الطبيب الفاضل يجب أن يكون فليوفاً^٢ ، واستمر هذا الحال

حتى يمس بعدُ من الفلاسفة المسلمين ، فيعقوب الكندي - مثلاً - كان عالماً بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق ، وتأليف اللحن والهندسة ، وطائِع الأعداد والهيئة ، وكذلك كان ابن سينا منطقياً طبيباً راصياً طبيعياً فلكياً ، الخ

من أجل هذا يرى أن كثيراً من هؤلاء الأطباء والمحميين الذين كان الخلفاء يُمنّونهم بالمال عُصوا بترجمة كتب غير طبية ولا فلكية ، أو أشرفوا على ترجمتها فإس العبري يذكر « أن يوحنا بن ماسويه البصري السمرقاني الطبيب ولّاه الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة وكان له تصانيف جميلة ، وكان يعقد مجلساً للطب ، ويجرى فيه من كل نوع من العلوم القديمة بأحسن عيادته »^٢ ويقول إن يوحنا بن الطبريق (الطبيب) الرحمان مولى المأمون كان أمساً على ترجمة الكتب الحكيمية حسن الأديبة للمعاني ، ألسن اللسان في العربية ، وكانت الفلسفة أعلت عليه من الطب »^٣ الخ

كان لهذه الثقافة اليونانية أثر كبير في المسلمين . وبما زاد في أثرها أن اتصال المسلمين بها صاحبت عصر تدوين العلوم العربية ، فتنسب الثقافة اليونانية إليها ، وصنعت لها صيغة خاصة ، كان لها تأثير كبير في الشكل ، وفي الموضوع

أما الشكل فيرجع إلى تأثير المطلق اليوناني ، وقد صنع العلوم العربية صيغة جديدة صُنّت في قائله ، وه صنع على مباحه إذ كان المطلق كما قال ابن سينا « حادّ العلوم » - عني به المسلمون من أول عهدهم بالفلسفة ، وقد رأينا أن ابن المظفر ترجم كتب المطلق لأرسطو ، وتنازع المرحومون بعده بترجمون الكتب المطلقة ، وكان المطلق الذي وصل إلى العرب هو مطلق

أرسطو معدلاً ومضافاً إليه ، ومشروحاً بمنطق الرواقيين والاسكندرانيين ، ولم يرد العرب فيه شيئاً يذكر . فكل المنطق الذي بين أيدينا هو منطق اليونان ، لم يرد عليه إلا بعض الشروح وقد نقل نقلاً صحيحاً لم يدخله نقص ولا تهویش ، كآلدي كان في الالهساب اليونانية . وقد كان منطق أرسطو وشروحه العربية أوسع وأعمق مما بين أيدينا من كتب المنطق اليوم ، وكان القاس يشعل فيه حيزاً كبيراً وفيه كتاب واسع في البرهان ، وآخر في الحدل وكيف يكون ، وكيف يسلك في إتمام الحضم ، وكان فيه باب للسفسطة ، وباب في الخطاة ، وباب في الشعر ، وكانت الأبواب الخمسة الأخيرة وهي البرهان والحدل والخطاة والشعر والسفسطة تُحجب فيه عن ثبات وإيقاع^١ ولكن المتأخرين حذفوا هذه الأبواب أو ألغواها تماماً يسيراً وافصروا على الكلام في الكتب الخمس والقضايا والقياس ، مع أن الذي حذفوا أهم من الذي أنشؤوا^٢ وبذلك أفقدوا المنطق روحه

على كل حال كان للمنطق سلطان كبير على العقول في العصر العباسي ، وكان من جزاء ذلك أن اصططحت طريقه الحدل والبحث والمعيير والدليل صمعة عبر التي كانت تعرف من قبل . فان أب قارب من أسلوب القرآن الكريم ، وأسلوب المتكلمين ، وحدت فرها كبيراً يمكنك أن تلحظه في ، أن أساليب المتكلمين حاربه على أساليب منطق أرسطو ، وليس كذلك أسلوب القرآن . ويحيى وصع محمد بن ابراهيم الحسني البجلي الصنعاني كما يه المسعبي رحيم أساليب القرآن على أساليب اليونان ،^٣ فأسلوب القرآن في إثبات وجود الله تعالى وقل من ترؤفكم من السموات والأرض أم من يملك السمع

١ انظر في ذلك منطق أرسطو بالله الاغلبية ، وقد ابع العرب الأولون شرح أرسطو من اليونان باصافه الخطاة والشعر .
٢ انظر مقدمه ابن خلدون ٤١
٣ الكتاب طبع في مصر بمطبعة المعاهد

والانصار؟ ومن يخرج النجى من المني ويخرج السم من النجى؟
ومن يدثر الامر؟ فسقوا لول الله اء و قوله تعالى: « اَعْلَمُ بِطُرُقِ إِلَى
السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ تَنْزِلُهَا، وَرَيْبًا هَا، وَمَا هَا مِنْ فُرُوجٍ،
وَالْأَرْضِ مَدَدُهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ، وَأَنْتُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ
يَهيج، تَنْصُرُونَ وَتَذَكَّرُونَ لِكُلِّ عِنْدَ مُنَاقِبَةٍ، وَرَأَيْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
مُنْزِلًا كَأَنْهَاءٍ بِهِ حَتَابٍ وَحَتَّ الْحَصِيدِ، وَالشَّجَلِ نَاسِبَاتٍ لَهَا طَلْعُ
نَصِيدٍ » إلى كثير من أمثال ذلك أما أسلوب المتكلم فمثل « العالم
حادث؛ وكل حادث لابد له من محدث، فالعالم لابد له من محدث، إلى أمثال
ذلك، وما يستتبعه من الجوهر والعرص، والكهنة والكهنة، والعالم
الضروري والطرى، وغير ذلك مما هو من تعبراب الفاسفة اليونانية

وكذلك الشأن إذا أب قاربت بين تعبرات الفقهاء في عصر الحلفاء
الراشدين، والعصر الأموى، وبين تعبرات الفقهاء في العصر العباسى - بعد أن
عرفوا المطلق - فانك تجد التعبير الأول عربياً محمداً، وتجد الثانى أرسطوالياً
محماً مثلاً تقرأ الباب في موطأ الإمام مالك فجدده يدكر الحكم، ثم يحكى
ما يدل عليه من حديث أو أثر. ثم لا تجد فيه أثراً لعلم المطلق، وشرأ في كتاب
الهداية ملائيل الفقهى، وحاصه في المسائل الخلافية من أنى حمة وانشافى،
فترى أن قواعد الحدال إلى وصدها أرسطو، وقواعد البرهان مطبقة في دقة تامة،
فقدمة صغرى، ومقدمة كبرى، ونايحة. وأشكال الداس مسبوقة شروطها

وتقرأ كتاب سمونه فتجد راءاً وتوالياً مطبوعاً، يبدأ بتقسيم الكلمة إلى
اسم وفعل وحرف، ثم يعرف كل قسم ويأى بأفئاه ويذكر أحكامه، وهكذا.
ومن ذلك أن أرسطو قال: « إن الرمان والمكان كالوعاء للأشياء إلا أنه
لكل نى، محلو أن يكون واقعاً في رمان من الأرمسة، وفي مكان من

الامكنة فهما كالوعاء له . وهذا أصل تسمية النحويين للمفعول فيه ظرفاً ، أى وعاء ،^١ وكألف ايساغوجى أى المقدمة أو المدخل فى المنطق ، ألفت ابن فارس « مقدمة فى النحو » .

وهذا القياس الذى شغل جزءاً كبيراً من منطق أرسطو طبق تطبيقاً دقيقاً ، وروى فى كثير من العلوم . فالقياس فى الفقه وأصوله ، والقياس فى النحو واللغة ، والقياس فى الفلسفة ، وكان لهذا القياس أثر كبير فى تفريع المسائل وتنوعها ، ووضع المسائل المتشابهة تحت قاعدة واحدة ، وطرد أحكامها على ما لم يرد فيه حكم مأثور ، سواء فى ذلك الفقه والنحو واللغة ، وكان لهذا كله أثر فى تضخيم العلم وترتيبه وتبويبه .^٢

هذا فى الشكل ؛ وأما فى الموضوع ، فقد كان للفلسفة اليونانية أثر كبير فى تعاليم المتكلمين ، نعرض له عند الكلام فى المعتزلة . وكان للأفلاطونية المحدثة بعض الأثر فى الصوف ، نوضحه عند الكلام فيه . وكان لهما معاً أثر كبير فى الفلسفة الإسلامية ، وهذا بتاريخ الفلسفة الإسلامية أشبه وأليق . وكان للبلاغة اليونانية أثر فى علم البلاغة العربى ، ولكنه دُونَ بعد عصرنا الذى تؤرخه فلا تعرض له الآن

١ محاضرات الأستاذ حويدى ٨٥

٢ أما القياس فى الفقه فسبأى الكلام وه ، وأما القياس فى النحو فبعد عروفه بأنه « حمل فرع على أصل لغة مشتركة بينهما » ونكاد يكون هو التعريف الفقهى ، وقد طبع الحاجة كما طبع الفقهاء فيقولون — مثلاً — « هـ وح والقياس الكسر » . وكانوا إذا رويوا مسألة عن عرب فاسوا عليها ولذلك يقول ابن الأثير : « أن أفكار علم القياس فى النحو لا يحقق لأن النحو كانه قياس ، فمن أنكر القياس فقد أنكر النحو » . وكانوا يسمون مصدر المائل الى سماع وقياس ويسمون بالسماع ما سمعوه عن العرب ، وبالقياس ما فاسوه على ما سمعوا . وقد ذكروا أن نخاة الصرة كانوا أصح وأبسط من نخاة الكوفة ، لأن المصريين لا ياعتنون الى كل — مدوع ، ولا يقيسون على الفاظ . ومعنى هذا أن الكوفيين كانوا يستعملون القياس وأوسع من البصرى ، لأنهم كانوا يقيسون على الشاذ . وقال الأندلسى : « الكوفيون لو سمعوا شيئاً واحداً فيه حوار شيء مخالف للأصول جمعواؤه أصلاً ، ورويوا عليه بخلاف المصريين » (انظر مقدمة كتاب الاضفاف فى مسائل الخلاف)

ولكن مما لا شك فيه أن العرب أو المسلمين استخدموا ما أخذوا من الثقافة اليونانية استخداماً صالحاً، وأخذوا منها ما أخذوا ثم سوا عليه، وراودوا فيه وانتكروا، ولم تكن موقفهم موقف الناقل الخصب وكان كثير منهم ينظر بأحدى عينيهِ إلى الثقافة اليونانية وبالعين الأخرى إلى التعاليم الإسلامية والثقافة العربية فيختار من الأولى ما يتفق والثانية، ويؤلف منهما مريخاً لا هو يوناني بحسب، ولا إسلامي بحسب إنما أظهر ما كان ذلك في العصر الذي يلي عصرنا هذا وهو العصر العباسي الثاني، فقد كاتب الرحمة قد تمت وركرت، فأعقما الأحدثها والساء عليها وظهر أمثال أحوال الصفاء، والعاراني وابن سينا، وابن رشد وأمثالهم

٥٦٥

وهناك نوع آخر حميف من الثقافة اليونانية الرومانية، وأعلى به الثقافة التي تنشأ من امتزاج الحسنيين؛ أعنى الحس العربى والحس اليونانى الرومانى فى الحياة الاجتماعية. فقد كان هؤلاء الرومان يعيشون بين سمع العرب وبصرهم، ولهم عادات وتقاليد، وأفكار وآراء فى نظم الحكم، ولهم فنون من عباد وتصور وما إلى ذلك فكان العرب يقتنسون من ذلك ما ينسرحهم لآ عن طريق الدراسة المطمعة، ولا عن طريق البحث العلمى، وإنما عن طريق المشاهدة والبطر، وعن طريق الحذيب والمشافهة وأن كان العراق أهم منبع للثقافة اليونانية العلمية، فقد كان السام - على ما يظهر - أهم منبع لهذا النوع من الثقافة الاجتماعية وسبب ذلك أن الشام كان محكوماً بالرومان وقت الفتح الإسلامى، وكانت سلطانه الرومان عليه أكبر من سلطنتهم على العراق لعرب العراق من الدولة الأخرى العونية - وهى الفرس - ووقعه تحسب سطرهما فى أغلب الأحيان، وكان فى الشام عرب كثيرون، ورومان كثر، روم، أحملواوا إحلاطاً تاماً، ورك الرومان عند حروجهم عادات

وتقاليد وموآناً وبطما اقبس منها العرب

من الأمثلة على ذلك العباء، فحدثنا الإغاني أن المسلمين اقتبسوا من الروم بعض عباثهم، وكان موضع الاقتباس هو الشام فيقول في « اس مُخْرِر » « انه سقط الى فارس فأحد عباء الفرس، وإلى الشام فأحد عباء الروم، فتحير من نعمهم ما تعي به عباؤه^١، ويقول اس مِسْحَحٍ^٢ إنه رحل إلى الشام وأحد ألحان الروم^٣ »

وقد رأينا عدد الكلام في الرقيق، أن كثيراً منه كان من الروم وكان هذا الرقيق من علبان وحوار في قصور الخلفاء والأعيان، والشعراء والعلماء وكان للمأمون حوار رومياب، يلنس لِنَشْنِشِ الرومي من رُبَّار، وما إليه وكان لأبي تمام الشاعر علام رومي^٤ وهكذا

ويحكى اس أنى أصْبِغَةَ. أن الرشيد كاتب له حارثة رومية اسمها حَرْشَى، وكان لها من قراتها أحت أو دب أحب، فتمتدّها الرشيد فلم يحمدها، فسأل حَرْشَى عنها فأخبره أنها رَوَّحَتْهَا من فرب لها، فعصب من ذلك وقال كيف أقدمت على ذلك بعد إدى وأب إنما اشترى بها من مالى! وأمر سَلَامًا الأثرش بتأديب روحها على عمله، فما زال سَلَامٌ تعرّف خبره، حتى وحده خصاه، وكانت الحارثية الرومية قد عُلِّفَ منه بعلام، فلما ولدت الحارثية.. وكان الرشيد قد توفى.. تبنّت حَرْشَى العلام، وأدّته بأداب الروم وقراءة كتبهم فعلم اللسان اليوناني علماً كانت له فيه راسه، وكان يعرف بأسحاق اس الخصى، وكان يصل به كبر من أهل العلم والآداب^٥

وكانت الحروب بين المسلمين والروم مواصله في عصرنا هذا ومع الأسرى من كل من الجانبين في يد الآخر من أسرى المسلمين قد ذهوب إلى

القسطنطينية ، وأسرى الروم الى العراق والحكايات كثيرة في التاريخ عن
النوعين من الأسارى ، وخاصة في عهد الرشيد ، وكان هذا سبباً من أسباب
امتزاج الحياه الاجتماعية واقتصاد كلٍّ من كلٍّ وليس من المعقول أن يَمُرَّ
هذا الاتصال - بحكم الروم لكثير من البلاد الإسلامية أولاً ، ثم بالرق والأسر ،
ثم بالاحتكاك الدائم السلمى أحياناً ، والحرب أحياناً - من غير أن يترك
بعضاً من المسلمين يتكلمون الرومية وبعضاً من الرومانيين يتكلمون العربية .
فالرفيق الرومى مثلاً في البيوت كان يتكلم الرومية أولاً بالضرورة ، ثم يتكلم
العربية محرفه ، ثم العربية القريفة من الصحة ، وهكذا الشأن في أسرى المسلمين
في الروم إن أسمقروا ، وهذا يحمل بعض الأفراد الزاهين من الجانبين على
أن يتبادلوا الآراء والأفكار والكلام في اللغة والأدب ويروى الاعاني
في ذلك حبراً طريفاً فيقول : قدم رسول ملك الروم الى الرشيد ، فسأل عن
أنى العتاهية ، وأنشدته شيئاً من شعره . وكان (أى الرسول) يحسن العربية
فضى (الرسول) الى ملك الروم وذكره له . فكتب ملك الروم اليه وردّ
رسوله يسأل الرشيد أن يُوحِّه بأنى العتاهية ، ويأخذ منه رهائن من أراد
وأخ في ذلك ، فكلم الرشيد أبا العتاهية في ذلك فاسعق منه وأباه .^١

وهذا يسلبنا إلى مسأله تستوقف النظر ، وهو ضعف تأثير الأدب
اليونانى إذا فيس تأثير العلم والفلسفة اليونانية ، فانك تقرأ أسماء الكتبت
الى ترجمت من اليونانية الى العربية ، فمجد الكثير في كل فرع من فروع
العلوم الرياضية والطبيه والفلسفه ، ولا تكاد تثر على كتاب أدنى يونانى
رحم الى العربى مع وفرة ما لليونان والرومان من كتب أدسه وقد ألحنا
نشى من أسباب ذلك فيما مضى^٢ . ويريد ها سبباً آخر وهو أن الفلسفة

والعلوم عالمية والأدب قومي؛ ذلك أن الفلسفة والعلم نتاج العقل، والعقل قدر مشترك بين الأفراد والأمم - وإن اختلفوا في أنصائهم منه - والمطابق الذي يصبط هذه العلوم يسيغه عقل الناس جميعاً، وقواعد الهندسة والطب تطبق على الناس جميعاً أما الأدب فلعنة العواطف، وليس للعواطف منطق يضبطها، والأدب ظل الحياة الاجتماعية، ولكل أمة حياة اجتماعية خاصة بها تمتاز عن حياة الأمم الأخرى في أشكالها ومراميها من أجل ذلك تدوق العرب منطق أرسطو وطب حاليوس ولم تدوقوا إلياذة هومروس، ألا ترانا اليوم حتى في عصرنا الذي اتصل فيه الناس والأمم اتصالاً أوثق مما كان في القديم، لا يتدوق العرني من الإلياذة، إلا أن يكون قد وقف على الحياة الاجتماعية اليونانية وأدرك كمها، ومردد دوقه طويلاً على أن تستسجها. وسبب ثالث يوضح أن يكون، وهو أن الأدب اليوناني أدب وثني، فيه آلهة متعددة، وفيه عادة أبطال والدوق العرني حين ترحم العلوم دوق مسلم، لم يستسج هذا النوع من الأدب الوثني.

ومع هذا فقد كان لليونان أثر في اللغة العربية والأدب العرني من وجوه:

(١) ألغاط يونانية عرب، وبلاحظ أنها أكثر ما تكون في أنواع ثياب يونانية أو رومانية لم تكن يعرفها العرب، ثم عرفوها ولسوها، وأطلقوا عليها كلماتها الأصلية مثل «الترجُد» Paragauda وهو كساء عليل محطط، وأتوفكمتون وهو ثوب رومي يلبون للعيون ألواناً أو أسماء أشياء عرفها العرب بعد اتصالهم بالرومان، ولم تكن من ساح حريه العرب كالزرد والرمرد والداقوت، ومعايس أو هوارس رومانية كالقنراط والأوفية، أو أسماء طية أو سانية، كاللعم والقولنج والرقوق، واللوبياء والرمس، أو كليات بصرة كالحائليق، والبطري، أو محودك^١ ويظهر أن أكثر هذه الكلمات تسربت

١ اطر في هذا كتاب العروى لآل لمانس

الى العرب عن طريق الشام للسبب الذي أدنا قتل
 (٢) قصص يونانية نمت الى العربية . وقد نقل ابن الديق أسماء كتب
 للروم في الأسفار والتاريخ ترجمت الى العربية ١ ، وحكى الخاضع في كتاب
 الخمران قال كان في اليونانيين ممرور له نوادر عجيبة ، وكان يسمى ريسيموس
 والحكام يروون له أكثر من ثمانين نادره [ما من نادرة] الا وهي عرة وعن
 من عيون الوداد . فيها أنه كان كلما خرج من بيته مع الفجر الى شاطئ الفرات
 - للعائط أو للظهور - ألقي في أصل نادره ، وفي دورانه ، حجر أكلي لا يصفق
 الباب ويحتاج الى معالفة فمحه ، والى رفعه . وكان كلما رجع من حاجته لم يجد
 الحجر ، ووجد الباب مصمماً فكمن في بعض الأيام ليرى هذا الباب من
 يصعب به ما يصعب ، فيها هو في انتظاره إذ أقبل رجل حتى تناول الحجر فلما
 نحاه عن مكانه انصفق الباب ، فقال له مالك ولهذا الحجر ، ومالك تأخذه ؟
 فقال لم أعلم أنه لك . قال فقد علمت أنه ليس لك !
 وقال بعضهم ما نال ريسيموس يعلم الناس الشعر ولا يقول الشعر !
 قال . ريسيموس كالمس الذي يشجك ولا يقطع
 وراه رجل يأكل في السوق فقال أنأكل في السوق ؟ فقال اذا جاع
 ريسيموس في السوق أكل في السوق ٢ الخ
 (٣) الحكم ، فقد رحمت حكم لفيثاغورس ، وسفراط ،
 وأفلاطون وأرسطو . وملت بها كتب الأدب في ذلك العصر مثل الامان
 والدين ، وعيون الأخبار . وقال ابن الديق ان عليّ بن راس الصرائي همل
 كتاباً في الآداب ، والأمثال على مذاهب الفرس والروم والعرب ٣ الخ
 والظاهر أن ولوع العرب بهذين النوعين القصص والأمثال دون غيرهما

١ العرب ٣٥ ، ٣٦ ٢ الخمران ١ ١٤ وقد أصلها في الحكاه من
 أعادها في لاصل ٣ اله ٣١٦

من أنواع الأدب كاليادة وثقة الروايات ، والأشعار ، والخطب اليونانية؛
منه ما قدمنا ههنا النوعان من النوع العالمي ، وقد حُرِّدا بما نلا منهما من حياة
اجتماعية خاصة ، وليس فيهما أسماء يونانية ثقيلة على سمع العربي ولسانه ،
وليس فيهما أورا من شعرية لا تسميها العربية ، ولا فيهما وصف لحياة اجتماعه
بعده عما ألفه العربي المسلم .

وبعد ، فقد كان تأثير اليونان واسعا عميقا في الفلسفة والعلوم الرياضية
والطبية ، صيغا حصفا في الساحة الأدبية

فان شئنا أن نحسار من يمثل هذه الثقافة اليونانية احتربا لذلك ، حين
اسحاق .

حمين بن اسحاق

حُسْنُ بْنُ إِسْحَاقَ ، ويلقب بأبي زيد ولد سنة ١٩٤ هـ من أب عربي من
فيله عماد التي تسكن الحيرة . وكان أبوه اسحاق نصرانيا سبطوريا ، فنشأ فيه
كذلك . وكان اسحاق صيدا ليا ، فأستأثمه لدراسة الطب بدأ حين يدرس
على يوحنا بن ماسويته . وكان حين يكثر السؤال على أستاذه ، ويلج في الأسئلة
فأخرج صدر يوحنا فطرده ، وقال : ما لأهل الحيرة والطب ، عليك نزع
الفاوس في الطرقي ! . وكان في يوحنا عصبية لأهل حدسا نور ومدرستها ،
يعتمد أن العلم لا يخرج منهم

فذهب حين إلى بلاد الروم ، وأحاد بعلمه الوانسه ، ثم عاد إلى البصرة
ولام الخليل بن أحمد بأحد عنه العربي . ويروون أنه حمل كتاب العين
المسبوت للخليل إلى بغداد

وكان محمد أربع لغات ، الفارسية ، واليونانية ، والعربية ، والسريانية

وأهم ما امتاز به حين الترجمة من اليونانية إلى العربية والسريانية، بدأ ذلك وهو في السابعة عشرة من عمره، ولكن كانت ترجمته ضعيفة لم ترّصه كَمَا أن يصح؛ فأعاد بعدُ بعض ما ترّجم وصحح بعضاً.

ابصل أول أمره بالمأمون، وعُيِّن في باب الحكمة الذي كان يرحل بالكتب اليونانية إلى بعلب من آسيا الصغرى، ومن القسطنطينية فأُخذ حين يترجم منها إلى السريانية أولاً، ثم إلى العربية، ثم ترجم للمعصم والوائق والمتوكل ولم يكتب مما حُصِّع في باب الحكمة، بل رحل في نواحي العراق، وسافر إلى السام والاسكندرية وبلاد الروم، يجمع الكتب النادرة، ومات سنة ٢٦٤ هـ بعد أن عمر نحو سبعين عاماً، يدل فيها من الجهد العلمي ما لا يستطيع غيره أن يمهض به في مئات السنين.

كان يترجم نفسه، وكان شرف على جماعات يعمل بإرشاده، فقد جعل له المتوكل كتباً ثمناً بحارير، عالين بالترجمة كانوا يترجمون، ويصحح ما ترجموا، كاصطفي بن ناسيل، وموسى بن خالد الترخاني، ويحيى بن هارون، كان يترجم كثيراً، ويؤلف كثيراً، وكان أحياناً يصع الشروح لما ترجم، ويخلص المطولات، ويصحح تراجم السابقين. وعلى الجملة فقد كان حركة علمية دائمة، قلَّ أن تُنْأَى بل طلت حركته التي أنشأها تعمل عمله بعد وفاته، على يد ولديه وبنامده^١.

أكثر ما ترجمه حين كتب طية، وخاصة كتب حاليوس فقد ذكرناه: «أدب» ترجم إلى السريانية من كتب حاليوس خمسة وتسعين كتاباً، وترجم إلى العربية منها تسعة وثلاثين، وأصلح ما ترجمه تلاميذه وهي ستة إلى السريانية، ونحو من السبعين إلى العربية، وأصلح معظم الخمسين كتاباً التي كان قد ترجمها

الى السريانية سرحس الراسعيني، وأيوب الرهاوي، وسواهما من الاطباء
المقدمين،^١

ومع هذا فوجد له كسباً كثيرة في غير الطب، فله كتب في المنطق وفي
الطبيعة والهيئة، وفي فلسفة أفلاطون وأرسطو. وقد أثبت البحث العلمي أن
بعض الكتب التي نسبت إليه إنما هي من عمل تلاميذه ومدرسته لا من عمله.
وإذا نحن أدركنا أنه أحد يترجم عن اليونانية، وقد اعترضته مثاب
الكلمات اليونانية التي لم نعرف لها نظير في اللغة السريانية والعربية، من
مصطلحات طبية وفلسفية، وأسماء للنبات والحيوان والهيئة وغيرها وأنه
كان مضطراً أن يوحدها ألفاظاً عربية تقابلها إن أمكن، وأن يصلح الكلمات
الأجنبية صقلاً عربياً إن لم يمكن، علينا أنه اصطلاح بعينه، يؤول بالعصاة أولى
القوة، وأدركنا قدر عساقته، وملعب نحاحه

وقد عاب الأسناد «سيمون» Simon - عند نشره ترجمة حنين وحنش
لكتب جالينوس - عليهما أن ترجمتهما مملوءة بالقرابات الدخيلة التي لم تكن
في الأصل، وأن طريقتهم في التعبير حرفية وليس دائماً جميلة، وقد رد عليه
الاستاذ رحسترانس، ورأى أن حنيناً وتلميذه حنشتاً يحشوا أكثر عاب في
التعبير عن معنى أصول الكتب اليونانية بقدر ما يستطيع من الوضوح،
وكانا يترجمان ترجمة حرفية حتى ولو صححت في ذلك بحال اللغة والمنسقة.
لكن ترجمة حنين أفضل، ودقة أعظم، وبحل إلى الإنسان أنها ليست
بديعة مجاهد صادق فقط، ولكنها بديعة تمكن من فهم اللغة، وحنش يصرف
في مداهها ويحلي هذا في سلاسه الوقوف من اليونانية والعربية، والدقة
المتناهية في التعبير مع الإيجاز. تلك مميزات فصاحبه حنين التي اشتهر بها.^٢

١ الأسناد مازروف ٢ كتاب الأسناد رحسترانس عن حنين بن اسحق ومدرسه
وقد ملأ من هذه الجملة من معانيه الأسناد ما يزهو لكتاب العشر مقالات حنين بن اسحق

ويقرأ أدب الكتب الى ترجمها أو ألفها حين ، والتي ذكرها اس أن
أصابعه في طبقات الأطباء ، يرى أنه تعرض لكثير من فروع العلم
المختلفة ، وبصلا عن كسه الكثرة في الطب كانت له كتب في الفلسفة ، وغيرها
فله كتاب في الهواء والماء والمساكن ، وكتاب في تولد العرشوح ، بين فيه أن
تولد العرشوح إنما هو من باطن النصة ، واعتداؤه من المصح الذي فيها ، ومقالة
في المد والجزر ، وكتاب في أفعال الشمس والقمر ، وكتاب السماء والعالم ،
وكتاب في المنطق ، وكتاب في خلق الانسان ، ومقالة في تولد البار من
الحجرين ، وكتاب في أحكام الاعراب على مذهب اليونانيين ، وكتاب نوادر
الفلاسفة والحكماء وأداب المتعلمين ، وكتاب في الملاحاة ومقالة في فوس
قروح ، وكتاب تاريخ العالم والمبدأ والأبناء والملوك والأمم والحلفاء والملوك
في الاسلام ، ومقدمة لكتاب فرفوربوس في المنطق ، وكتاب في الفراسة ،
وكتاب في إدراك حقيقة الأدب .

ولو عددا كل ما ترجمه وألفه ، لخرج ذلك ما عن القصد الذي قصدناه ،
ومن هذا يرى أنه هو ومدرسته نقلوا إلى العربية زبدة آثار اليونان ، وتناولوها
بالشرح والاختصار ، وجعلوا الثقافة اليونانية في مخلف فروعها من أعين
العلماء من المسلمين والنصارى يقتبسون منها وينسجون بها . وكان عملهم هم
وأما لهم عداء للمتكلمين في مذهبهم ، وفلاسفة المسلمين ، الذين دعوا في
العصر الذي بعد عصرنا هذا

وفد نقل حين الترجمة بقله حديدة لا تقا به للباب المختلفة ، فكان العلماء
يذكرون العرق الكبير من ما ترجمه حين ، وما ترجم بقله قد كانت ترجمه
حين واقعة دقيقة ، و ترجمه من بقله غليلة سقيمة حتى أن اس ماسويته لما قرأ
قطعه من ترجمته أول أمره قال : « أترى المسيح في دهرنا هذا أو حتى إلى
أحد ! » إعجاباً بترجمته ، واعترافاً بأنها حارحة عن المألوف في الترجمة لعنده

ولنلقى الآن مثلاً من ترجمته ، قال في أول كتاب الأسابيع لبقراط ،
 وشرحه لحاليوس الذى ترجمه حين :
 « قال حاليوس ان أنقراط شبه الانسان بالديسا ، وسماه الدنيا
 الصعيرة ، لأن تدبيره على تدبير الدنيا ، وهذا الكميات هو لأصعاق القياس ،
 أعنى الصنف من الأطباء الذين يدعون « دُعَمَاطِيَقِيْن » وهم ذوو الخذل
 والمخاورة ، وقد ذكر ههنا جزءى الطب ؛ الجزء الذى يسمى « فسيولوجيا »
 وهو معرفة الطوائع والتوسم لها ، والجزء الذى يدعى « تَطْلُوعَا » وهو
 معرفة العمل ^١

وفال في موضع آخر قال أنقراط (إن الفرقدين يشبهان الحرارة التى
 فى الانسان) قال حاليوس قد وعد هذا الرجل العائق أن يجرىء العالم على
 سبعة أحرء ، فأخبر وعده ، وأحس فيما قسم وحرراً فانه بدأ بالعالم الأقصى ،
 وانتهى إلى الأرض ، ثم قرن بعد ذلك كل جزء من أحرء العالم بأحرء
 الانسان فألطف البطر ، وأنهى القول ، وأحس البطم ، فبدأ من الأرض
 حتى انتهى الى البار وفسرنا قوله هذا ، والوجه الذى أرادته فى ذكره الأرض
 واتدائه بها فانه أراد أن يقرن أحرء الانسان بأحرء العالم ، والانسان
 أرضى ، يسلك على طهر الأرض ، فانتدأ بالأرض ، وجعلنا أول قوله ،
 وكرر القول ها ليدرككم ما قال آنفاً ، فان المعنى اذا ردّد ذكره مراراً كان
 الفهم له أرسخ فى القلب والحفظ ^٢

وفال في موضع ثالث « واعلموا أن العصب بقادٌ للعمل ، وأما اذا تحرّكنا
 للعصب فبدر العمل وفوى على إمساك ذلك العصب ولرومه ، ومعه أن يعمل
 أفاعيله ، فان العصب ربما هيح أفاعيل سنئة مكروهة ، فبحول العمل يبدىه
 وين أفاعيله

واعلموا أيضاً أن الشمس هي المدوّرة للفرقدس، وليست الفاعلة لذلك،
لكنها تصعد وتحدّر فتظهر للفردين على نحو صعودها وانحطاطها، وقال
لذلك هذا المرء الفاضل إن الشمس تدور للفردين، وليست المحركة لهما بالحقيقة،
لكنها تظهرهما على وجه ما ذكرناه آنفاً ومعناه
وقد ذكر ذلك «أراطس» الشاعر ووصفه فأحسن الصفة وأحكمها
فإن أراد أن يسهل معرفة ذلك فيبسط في كتابه الذي وضع في الملك
ونعمه،^١

ومن هذا يستطيع أن يحكم أن عبارة «حين» واضحة المعنى حسده
الأسلوب، وأنه - إذا اضطرر يستعمل الاصطلاحات العلمية بالفاظها مثل
«دعماطقس» و«فبولوعا» و«نطاوعا» وأنّها تشرح معناها إلى
أن يؤلف الكلمة في العربية، ويتحدد مدلولها، وأنه يصح المتن من فوسس،
ويصح ذلك بما عده من شرح وقد جرى على هذا النمط علماء المسلمين بعد
في كتبهم

وعلى الجملة، فقد كان حين ومدرسته حين من يمثل الثقافة اليونانية، وحين
من قدم إلى قراء العربية نتائج الأبحاث اليونانية

الفصل الرابع

الثقافة العربية

لثقافة العربية ناحيتان هامتان (١) ناحية دينية من دراسة للقرآن الكريم وحديث وفقه ، ومن انبشار للثقافة الاسلامية من أهل المملكة ، وأثرها في عقولهم وأرواحهم . وهذا كله سيعرض له في مواضع متفرقة من الكتاب (٢) وناحية لغوية أدبية وهي ما سيذكر في الآتي ، ذلك أن حرره العرب منسج اللغة العربية ، ومولد الاسلام ، والعرب هم الذين حملوا عنهم حسب يسكنون ، وحيث يفتحون ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عربي ، والقرآن عربي ، ودعاه الأمم الأولون إلى الاسلام عرب من الواضح بعد أن ينسب الدين واللغة ، وما لها من فصل إلى العرب ، وأن سمي ما فتح عنهما ثقافة عربية

اللغة — في الحق أن اللغة العربية أرقى اللغات السامية ، كما يقرر دارسو تلك اللغات فلا تعادها اللغة الآرامية ولا العبرية ، ولا غيرهما من هذا الفرع السامي . وهي كذلك من أرقى لغات العالم ، فهي - بتأريخها عن اللغات الآرية - أكثر مرونتها ، وسعة أسفارها ، فادافس ما نسق من كلمة عربية من صنع متعددة لكل صيغة دلالة على معنى خاص ، بما يعاينها من كلمة أجنبية وما اشتق منها ، كآب اللغة العربية في ذلك - عالياً - وأوفر وأغنى مثلاً اشبهوا من الصرَب صرَب ، ويصرب ، واصرَب ، وصارِب ، ومصروب ، وسموا آله الصرَب مَصْرَباً ، ومَصْرَباً ، وقالوا صَارَبَهُ أي حاله ، وتَصَرَّبَ الشيء ، واضطرب ، تحرك وماح ، وحديث مُصْطَرَب ، وأمر مصطرب ، والصرينة ؛ ما صر بته بالسيف

وضاربه في المال من المضاربة (وهي أن تعطى انساناً من مالك ما يتجر فيه على أن يكون له سهم معلوم من الربح) واشتقوا منه مضارباً، ومضارباً، الخ الخ. هذا إلى المعاني المجازية التي يستعملون فيها الكلمة، فيقولون: ضارب الدراهم والدنانير (أي صكها) واضطرب خاتماً من ذهب (أي أمر أن يصاغ له) وضرب في الأرض؛ إذا سار فيها مسافراً، وضربت الطير؛ ذهبت. وضرب في سبيل الله؛ نهض، وضرب على يده، كفه عن الشيء ومنعه. وأضرب عن العمل؛ كف. وأضرب البرد النبات، وضربه؛ إذا اشتد عليه البرد حتى يابس، والضريبة. الصوف أو القطن يضرب بالمطرقة، والضرب من اللبث، الذي يحب من عدة القماش في إناء واحد، فيضرب بعضه ببعض، ثم أخذوا منه فلان ضريب فلان أي نظيره (والضرباء؛ الأمثال النظراء) والضرائب الأشكال، وضرب المثل ذكره وقوله، الخ الخ. هذا قليل من كثير مما يدل على غنى اللغة العربية، غنى تاماً في الاشتقاق والمجاز، قل أن تجاريها فيها لغة أخرى. وكذلك لها من طرق متعددة في القلب والإبدال والنحت مما يطول شرحه. وقد أبنا في «جذ الإسلام»، ما كان للعرب من ملاحظات دقيقة فيما يقع عليه حسهم، فالأبل والخيل والأرض لكل شيء. منها اسم، فإذا طرأ أي تغيير وضعوا له اسماً خاصاً، فإذا قصرت اللغة في شيء، ففي ما لم يكن يقع تحت حسهم كسمخ جات البحار، وأنواع النباتات والحيوانات التي تنتج في غير إقليمهم^١.

هذه المرونة الناعمة، وهذا الاشتقاق والمجاز والقلب والابdal والنحت؛ هو الذي جعل اللغة العربية تستطيع أن تكون لغة القرآن الكريم والحديث وما فيها من معان في منتهى السمو والرفعة، وما فيها من تعبيرات دينية واجتماعية وأشرعية، لا عهد للعرب بها في جاهليتهم، كما استطاعت بعد

أن تكون أداة لكل ما نُقل من علوم العرس ، والهند واليونان وغيرهم
وفي نحو ثمانين سنة من بدء العهد العباسي كانت خلاصة كل هذه الثغافات
مدونة باللغة العربية ، والعرب الذين لم يكونوا يعلمون شيئاً من مصطلحات
الحساب والهندسة والطب ، ولا شيئاً من منطق أرسطو وفلسفته ؛ أصبحوا
في قليل من الزمن يعبرون بالعربية عن أدق نظريات أفلاطون ، وحساب
الحبيب الهندي ، وما وراء المادة لأرسطو ، ونظريات الهنئة لطليموس ، وطب
جالينوس ، وحكم برهمهر ، وسياسة كسرى . وما كانت تستطيع ذلك كله
لولا ما بها من حياة ومرونة ورفق .

واحده العرب في العصر العباسي صعوبة شديدة في نقل هذه الدخيرة العلمية
الأجنبية إلى اللغة العربية ، بل وفي وضع مصطلحات لعلومها كالبحر والفرق ،
ورأوا أنهم أمام علوم جديدة وأفكار جديدة ، وأن رقعة المملوكة الإسلامية
قد اتسعت ، واحتلقت أقاليمها ولكل إقليم بانات ، وحيوانات لم تكن
تعرفها ورأوا أنها قد دم على أنماط من العلم الاجتماعية ، لم تكن تألفها ،
فقد ألتفت دواوين لم تنشأ في العهد الأموي ، واحتشرت في الأعالي بعثات
لا تعرف لها أسماء عربية ، وآلات الموسيقى فارسية ورومية ، ولكل اسم
وملاص مختلفة الأنواع ، لأهم مختلفة وما كل ومشارب كذلك وعلى الجملة
فقد واحده العرب الحصار العباسية ، كما واحده اليوم العرب الحصار العربية
وهكذا ، فإذا بصنع أمام هذا السيل الجارف ؟ أنطق بكل هذه الأسماء كما
ينطق أهلها ؟ وفي هذا إهدار لشخصيتها أو بصنع لها أسماء عربية من عدها ؟
وفي بعضهم هذا صعوبة شاقة . لقد علبت على ذلك كله في دقة ومهارة ، وفي
الحق إن معجم اللغة العربية بصحح في العصر العباسي ، من طريقين

الأول — : وهو الأكثر ، البوسع في مدلول الكلمات العربية ، فالعرب لم
كن يعرف المفاعل ، والمفعول ، والمعنى الذي يفهمه النحوي ، ولا يعرف

القصة ولا الموضوع والمحمول ، بالمعنى الذى يعرفه المنطقى ولا يعرف الطويل والخفيف والمديد ؛ بالمعنى الذى يفهمه العروصى وهكدا وقد مثلت الكتب بحكايات طرفة كانت تحرى بين الحويين والأعراب الوافدين ، فلا يستطيع الأعراني أن يفهم المحوى ، لأنه يكلمه بمصطلحات لا علم له بها . وكان علماء اللغة يعملون جهدهم في الأحد عن الأعراب ، ويحتدون في وضع الصيغة التي يفهمها الأعراني ، فإذا قيل له صغ من وقى على وزن مفعّل لم يفهم ، لأنه مصطلح علمي

وهذا كثرت معاني الكلمات العربية ، فلو عمل معجم لعوى في العهد الأموى ما وجدنا للطويل معنى أنه بحر من بحور الشعر ، ولا وجدنا فيه فاعلا وطرفا معناه المحوى وهكدا . وقد سدد الباب أكثر الخبايا العلمية ، فإليك نقرأ البحر والصرف والقصة فلا عا فيها إطلاقا ، بل نقرأ المطلق كله . وهو يوناني الأصل . فلا تكاد تجد فيه كلمة واحدة إلا مل سفسطة ، وكذلك الشأن في الفلسفة والرياضة فاستعملوا كلمة كسفة وكسفة وحوهر وعرض ، والمثلث والمربع والزاوية الخ ، ولم يقلوا الكلمات الأعجمية إلى اللغة العربية

والثاني . هل الكلمات الأعجمية تنسبها إلى العربية ، وأكثر ما كان ذلك في أسماء البلدان والسمات والحيوانات ، والآلات والأمراض والمآكل التي لم يكونوا يعرفونها من قبل ، وفي هذه تصرفوا تصرفات محتلمة طوعا للساهم ولم يجروا في ذلك على سن واحد ، قال الجواليقي : إن العرب كثيراً ما يجترئون على الأسماء الأعجمية فيعبرونها بالأبدال ، قالوا اسماعيل وأصله

١ مثل ذلك ما حكى الشيخ عبد الرحمن السلمي قال : قلت لأعراني أمهر ارائيل قال :
إني إذا رجعت سوداء فقلت : قال اني أرى هوى وقال حاتم : قلت لأعراني
أني عندك أساكياً قال علي : عندك

اشمائل فأبدلوا اقرب المخرج . . وقد يبدلون مع العدد من المخرج وقد يقولونها الى ألبتهم ويريدون ويقصون^١ وفي الواقع لو قاربنا بين أصل الكلمات الأعجمية وما عرنت به ؛ وحدنا أهم لم ندعوا قواعد ثمانية فتارة يبدلون الشين سداً وأحياناً يقولونها ، وأحياناً يبدلون الثاء تاء وأحياناً يقولونها ، وتارة يعرفون تغييراً حقيقياً وتارة تعديراً كدرا^٢ والذي يلاحظه في ذلك أن النقل كان من مصدرين مصدر العلماء الذين واحبوا كتب اليونان ، فعربوا بعض أسماء النبات والحيوان وهؤلاء عرّبهم أقرب الى الأصل ، وأقرب لأن يكون على محط واحد ونقل لم يكن من عمل العلماء ، ولكن كان العرب الآميون وأما لهم متروكين فيه لسلسلة منهم فالعربي يسمع اسم بلدة فارسية أو شيء يوناني فيبطئه كما يسهل عليه حسناً اتقوا له وقد يسمع عربي آخر اسماً آخر في ناحية أخرى ، فيبطئه نطقاً ليس على محط الأول ، بل إن الكلمة الواحدة قد يبطئها قوم من العرب نطقاً خاصاً ونبطئها آخرون نطقاً مخالفاً ، فيكون في الكلمة لغتان أو أكثر . ومن أجل هذا صعبت على الباحث أن يصنع قواعد ثابتة لما أسعاه العرب في نقل الكلمات مما ليس من موضوعنا .

حرحب اللغة العربية من هذا المأرق سليمة قوية واسعة ، هي لغة الدين ولغة العلم والفلسفة ، ولغة الأدب ، واصبحت محاسنها كل لغات البلاد المتخوذة ، واللغة البريانية التي ترحب إليها الكتب اليونانية ، أحدثت تدهور بعد أن نقل ما بها الى اللغة العربية . والفرس في ذلك العصر أصبح لهم العلية والأدبة هي اللغة العربية ، إن أقروا أو سعروا أو كرهوا العربية وحباها اللغة الفارسية اما كما كتب عند السكالم العادي ، أو في أوساط الدابة المحوسنة

١ المهر ١ ١٣٣ ٢ للإشارة على ذلك انظر كتاب الفروق للاماس ، وكتاب الألفاظ الفارسية والمهر للثوعلی ، وفعه اللغة للعلانی

وكذلك اللغات الأخرى من رومانية وقبطية، في الشام ومصر. وكسدت اللغة العربية من ذلك أنها أصبحت في تأليفها وأدبها وعلومها تناج كل هذه الأمم، تلبس كل أفكارهم، وتعبر عن قرائحهم وكسواهم بها ما لها من ثقافة إسلامية وأدبية

ولئن أعى الأعاجم اللغة العربية البحرية؛ فقد أفسدوا اللغة اللسانية بما أدخلوا من لحن، كالب حريرة العرب سليمة المطلق قبل الفتح، وقبل دخول الأعاجم في الإسلام، ثم بدأ اللحن يفسد فيها، ولأن تاريخ من عهد النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين والأمويين، لا نعرض له الآن، وإنما يريد أن يذكر كلمة عن اللحن في عصرنا، فقد راد بعللة الأعاجم سياسياً، وأصحاحاً يرى بده يكون لعتين لغة الكفاية، والأعراب الفصحاء، ومن حرى محرّاهم، ولغة يسميها الخاطلة للمولدين والبلدنيين، يقول: ومي سمعت مادره من كلام الأعراب، فإناك وأن تحكيها إلا مع إعرابها، ومخارج ألفاظها فإناك إن عرّتها بأب لحن في إعرابها، وأخرجتها بمخرج كلام المولدين والبلدنيين خرجت من تلك الحكاية، وعلمك فصل كبير وكذلك إذا سمعت مادره من نوادر العوام، ومليحة من ملح الحسوة والطمع، فإياك وأن تستعمل فيها الأعراب، أو أن تجبرها لفظاً حسياً، أو أن تجعل لها من فك محرّحاً سرياً» ويقول «ولأهل المدينة أسسه ذلّهم وألفاظ حسه وعاره حدة، واللحن في عوامهم فاس وعلى من دخل في النحو مهم عاب،^١ ويقول واللحن من الجوارى الطراف، ومن الكواعب الواهد، ومن الشواذ الملاح، ومن دوات الحدور العرائر أيسر، وربما استملح الرجل ذلك مهن، ما لم تكن الحارّة صاحبة تكلف»^٢

وقال في موضع آخر «ورغم أبو العاصي، أنه لم ير قروياً قط لا يلحن

في حديثه ، وفيما يحرى بيده وبين الناس ؛ إلا ما تفقده من أنى ريد الحوى ،
ومن أنى سعيد المعلم ،

وذكر اس فتنة : أن أعرابياً دخل السوق ، فسمهم يلحون فقال :
سمعنا الله ! يلحون ويرحون ، ونحن لا يلح ولا يرح ^١ .

كان هذا اللحن أنواعاً فلحن في الأعراب فلا يصححون آخر الكلمات
كما تقتضيه قواعد النحو ، كالذى رَوَوْا أن رجلاً قال لآخر أحضر به قال
قد دعوتك لكل ذلك يأتى - رفع كل - ^٢ ولحن في بناء الكلمة كالذى قيل :
إن تَقِيّاً سئل لم اشترى هذه الأتات ؟ قال أركها ، وبلدنى (بفتح
اللام) ^٣ . ولحن في تركيب الجمل كالذى حكى الخاطب قات لحادم لى : في أى
صناعة أُسْلِمَ هذا العلام ؟ قال أصحاب سد ، يعال ، يريد في أصحاب العال
السيدية ^٤ . وأحياناً يلحن الرجل مهم إلى إسكان آخر الكلمات ، وترك
الأعراب خوفاً من اللحن ، كان مهدي بن مهمل يقول حدثنا هشام بن
حسان ، ويحرم ذلك كله لأنه حين كان نحوياً رأى أن السلامة في الوفاء ^٥

وكان هذا اللحن فاشياً ، حتى في العلماء فقد لحن أبو حنيفة ، ولحن عمرو بن
عُتَيْبَة ، ونشر المرسى ^٦ . وهذا لا يطعن في علمهم ، فهناك فرق بين معرفة
اللغة علمياً والطقى بها كلاماً ، فقد يجيد الرجل معرفة قواعد اللغة وصطلحها
وفهمها ، ثم هو لا يحسن التكلم بها ، كالذى حكى عن بعض أمته النحو ^٧ .

نستنتج من هذا كله أن فساد اللغة من اللحن الساتة كبر - في ذلك
العصر - وأنه قد بدأ يكون للاس له ان ، له عامة هي التي نسميها الخاطب
لغة المؤلّدين والبلدين ، وهذه لها ألفاظ عبر من ماء ، وبساج في الأعراب ،

١ عن الأخبار ٢ ١٥٩ ٢ المصار ٣

٣ ال ان ١ ١٢١ ٤ ال ان ١ ١٢٢ ٥ ال ان ١ ١٢

٦ ال ان ٢ ١٥٦ والعدد الفردي ٢٩٦ وطعاب الأداء ص ١٧٩

٧ كان ال اوس اماماً في النحو ، وكان لا يحسن التكلم

وتميل إلى إسكان أواخر الكلمات^١ ولغة الطبقة الراقية والمتعلمة، وهذه لغة معرنة متخيرة - وإن كان اللحن يصدر منهم - وهذه اللغة الأخيرة هي لغة الكتابة.

• • •

ومن ثم لم تكن عليها اللغة والنحو يأحدون إلا عن سكان البادية، لأنهم رأوا الحصر قد فسد بالاحتلاط، بل كانوا لا يأحدون عن البدوي إلا إذا لم يفسده الحصر فكانوا لا يأحدون عن الأعراني إذا فهم القول الملحون « ومتى وجد النحويون أعرابيا يفهم هذا (اللحن) وأشابهه مرحوه (مرقوه)، ولم يسمعوها منه، لأن تلك اللغة إنما انقادت واستوت واطّردت، وتكاملت بالحاصل التي احتجعت لها في تلك الحيرة، وفي تلك الحيرة. ويقول الحاحط « ولقد كان بين يريدين كشوه يوم قدم عليها البصرة، وبنه يوم مات بون بعد، على أنه كان قد وضع مبرله في آخر موضع الفصاحة، وأول موضع العجمة، وكان لا ينفك من رثوة ومداكرين^٢. وكان المصريون يمتحرون على السكوبيين فيقولون نحن نأخذ اللغة من حرشة^٣ الصنّاب، وأكلة البرابيع وأنتم تأخذونها من أكلة الشوادرير، وباعة السكوامج^٤، وكان العلماء يمتحرون الأعراني قبل أن يأحدوا عنه، من ذلك أن أبا عمرو بن العلاء ارتاب في فصاحة أبي خيرة الأعراني، فسأله كيف تقول حفرت الأرا^٥؟ قال حفرت إرانا^٥ هال أبو عمرو « لأن حنك^٥ يا أبا خيرة^٥ ».

١ ذكر الأعراني أن الرشيد كان يسأله عن اللغة في الرلالات إذا ركبها، وكان مأدى مساد كلامهم ولحهم فقال « قولوا لي معاً من الشراء جعلوا هؤلاء سحرأ يعون فيه، فعلى له ليس أحد أفدر على هذا من أن الله اعنه فعمل فصدده « حاك الطرف الطموح »
أعاني ٣ ١٧٧ ٢ الناس ١ ١٢٢ ٣ حرش الصب صاده
٤ الشورار، جمع سترار اللين الرائ المجرح مأؤه، والسكواج جمع كالج نوع
من الأدام ٥ ربدأه محصر فهدب له له جمع « إره » وكان الواحد أن هول
حفرت الار كمره وعرو

كان كثير من الأعراب يهدون على مدن العراق ، فيأخذ العلماء منهم اللغة ، وقد عدّ اس النديم في المهرسب عدداً ، منهم أبو رباد الكلابي وأبو سوار العسوي — وقد أخذ عنه أبو عمدة — وثور بن يزيد — وقد أخذ عنه اس المصنع — وأبو حنزة العدوي ، وأبو مهديّة ، وأبو مسجل ، وأبو صمّ الكلابي^١ وقد اتصل بهم علماء اللغة يأخذون عنهم ، ومن هؤلاء الأعراب من كان يكتب ويؤلف كتباً ، كأبي رباد الكلابي ألف كتاب الوارد ، وكتاب الفرق ، وكتاب الابل ، وكتاب حقائق الانسان ، ومهم من كان يعلم اللغة ويتعلم النحو على علمائه ، كأبي مسجل فقد أخذ النحو عن الكسائي . ومهم من كان يميل الى العريب البادر ، ويتقعر في كلامه ، ويعلط طبعه ليرهن على إمعانه في اللدابة ، كأبي مجلّم الشّشّاني وكانوا يتكسبون بذلك منهم من كان يعلم الصديان بأجرة كأبي السّيداء الرّسّاحي ، ومهم من كان يهد على الامراء كأبي صمصم ، وقد على الحسن بن سهل ، وكثير من الأعراب كانوا يهدون على اسحاق الموصلي^٢

وكا كان الأعراب ترحل الى الحضر للكسب أو طلب العلم ، كان العلماء والأدباء يرحلون الى البادية في طلب اللغة والأدب ، فحدثنا الأعاني أن شامراً قيل له ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلا وقد قال فيه شيئاً استكرهه العرب من ألفاظهم ؛ وشكّ فيه ، وأنه ليس في شعرك ما يشكّ فيه قال ومن أس يأتني الخطأ ، ولدت هاهنا ونشأت في حُجُور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عجل ، ما فيهم أحد يعرف كلامه من الخطأ ، وإن دخل الى سائهم ، فسأؤهم أفصح منهم ، وأيقَعْتُ فأُتيتُ الى أن أدركت ، من أين يأتني الخطأ^٣ . ويقولون في طاهر البصرة قوم من أعراب فيس عيّلان ،

٢ أعاني ٥ ٧٧ ، ٨١ ، ٩ ، ٩٢

١ المهرسب ٤٣ وما بعدها
٣ أعاني ٣ ٢٦ ، وأدى أيام بالباد

وكان فيهم بيان وفصاحة ، فكان يشار إليهم (وكان يأتهم أمان اللّاحق)^١ وكان علماء اللغة من نصريين وكوفيين يتساقون في الرحلة إلى البادية ، والأحد عن العرب وقد اشتهر في عصرنا بهذه الرحلة أبو زيد الأنصاري ، وأبو عمرو بن العلاء ، والأصمعي والكسائي فأبو زيد يقول في أول كتابه الوادر ما كان فيه من شعر القصيد ، فهو سماعي من المفصل بن محمد الصبي ، وما كان من اللغات ، وأبو الريحان ، فذلك سماعي من العرب ، . وسأل الكسائي الخليل بن أحمد ، من أين علمك هذا ؟ فقال من نوادي الحجاز ، ويحد وسماته فحرج الكسائي وأبعد خمس عشره مئة حبرا في السكينة عن العرب سوى ما حفظه^٢ ، وأما أبو عمرو بن العلاء ، فقد روى : أن كتبه عن العرب القصص قد ملأ ب نأله إلى قريب من السقف^٣ . وتاريخ الأصمعي مملوء بالقصص عن الأعراب في البادية ، وما سمع منهم من لغة وشعر وقصص ولم يكن عمل علماء اللغة في ذلك العصر ، إلا نقل ما يسمعون من العرب مشافهة إلى التقييد بالسكينة ، فأكثر اللغة كتب في العصر العباسي الأول ، لا قبله ، وكانت أهم وسائل النقل هي ما ذكرنا من رحلة العرب إلى العراق ، ورحله علماء العراق إلى البادية ، وتحرير اللغويين لما سمعوا من العرب بأسره أو بواسطة

وبعد ، فهل كان كل الذي دونه صحيحاً ؟ وهل كان الآخرون وهم علماء اللغة والمأخوذ عنهم وهم العرب كلهم ثقة ؟ الحق أن لا ! وأن بعض العرب كانوا يخطئون أحياناً ويكذبون أحياناً ، وأن بعض علماء اللغة كانوا يخطئون أحياناً ويكذبون أحياناً ، كان العلماء شعوبين بأن ينفقوا على تحديد ما يعرفونه ، وكانت المنافسة بينهم شديدة ، وحب الفخر والتظاهر مسدداً خصوصاً في مجالس الخلفاء والأمراء وكان يُقصَى على العالم في جهله بكلمة

١ أعاني ٣ ٥٢ ٢ دعاء الأدباء لاس الأري ص ٨٤ ٣ الحلي ص ١٠٥

أو خطئه في كلمة ، فدعا ذلك بعضهم لأن يتريّدوا ويحتلقوا إذا أحرحوا ،
وأحس بعض الأعراب بهذه النفسية فكانوا يُعَرِّبون أحياناً ، ويحتلقون
أحياناً ، وسبب آخر وهو أن العداء بين المصريين والكوفيين نابع منبعا عظيما ،
فكان علماء كلتا المدينتين يشيّعون لمذهبهم ، ويرهبون عليه بالمصنوع أحياناً ،
وكتب النحو واللغة مائة نال أدله على ما يقول

أما خطأ العري فقد يكون من عدم فهمه لمعنى الكلمة ، كقول عري
يصف امرأة بالعملة

لَمْ تَنْزِ مَا نَسَحَ التَّرْدَحَ فَلَمَّهَا وَدِرَّاسُ أَغْوَصَ دَارِسٍ مِتَحَدٍ
طن أن اليردح يُنْسَحُ ، وإنما هو حلد يصع^١ .

وقال عمرو بن كلثوم

عليها النيصُ واليئابُ السمانِ وأساف يثمن ويخينا
قال ابن السكيت سمعه بعض الأعراب ، فطن أن اليئاب أحود الحديد ،
يعال . «وَيُخَوَّرُ أَحْلَصَ مِنْ مَّاءِ السَّكَبِ» وهو خطأ ، وإنما هو حلود نَسَحَ^٢
وأحياناً يكون خطأ العري ناشئاً من عدم فهم طابع الأشياء ، كقول عري
يصف درة

فما شئت من لطمِمة دَوْمُ الفُرابِ فوقها وموح

فجعل الدر من الماء العذب ، وإنما يكون في الماء الملح

وقد يكون خطأ في الحوادث التاريخية فقد قال الكهنت

كأنَّ العطاءَ من عليها أراحيرُ أسلمَ مَجْوَ عِفَاراً^٣

فقال مُصَنِّفُ ما بحثت أسلم عفاراً خطأ وقد يكون من سوء نصره

العربى ، فقد قال عربى - وكانت قد ماتت روحاته تناعا - :

هَذَا مَالِكٌ رَمَى سَأَى كَأَمَّا سَتَأَى لِسَهْنَى مَالِكٍ عَرَصَانٍ
وَبَارَتْ فَاتَرَكَ لِي حُبَّيْمَةَ أَعْصُرَا هَا لَكَ مُوْتٌ بِالْقَصَادِ دَهَانِ

ذلك ، أن هذا الأعرانى لما سمعهم يقولون « مَالِكُ المَوْتِ » سقى إليه أن هذه اللفظة على ربه فَعَلَّ - كَمَلَك - فاشتق منها كلمة على وزن فاعل ، مع أن مَلَكَ على وزن مَفْعَلٍ لأن أصله مَلَأَكَ فالاشتقاق خطأ وكهزمهم مصائب ، قياسا على صحائف ، وهو غلط لأن ياء مصيبة أصلية ، وياء صحيفة رائدة ، الخ

وأما أكاديبهم ، فقد عقد المبرِّد بابا فى كتابه الكامل ، سماه « أكاديب العرب » - وهذا شأن العرب وأما خطأ العلماء وروى منه ما روى ابن الأعرانى قال لقيى أنوخلَّم ومعه أعرانى ، فقال حَتَمَكُم هذا الأعرانى لتعرفوا ما ه كذب الأصمعى ، أليس كان يقول فى باب عبثرة

شَرِبْتُ مِمَّا الدُّخْرُصَيْنِ فَأَصْحَبَ رَوْزَاءَ تَعْرِى عَنْ حِيَاصِ الدَّيْلِمِ ،
إن الديلم الأعداء لأنهم أعاجم ، والعرب كانوا يعدون جميع الأعاجم أعداءهم . فسلوا هذا الأعرانى ما معنى الديلم ؟ فسأله فقال . الديلم حياص بالعور أوردتهم إلى غير مره !

والظاهر أن معاجم اللغة بعد ذلك جمعت كل ما روى وتأولت الخطأ ، وصححت الغلط ، وأحدثت آراء العلماء على اختلافهم من غير بدق ، فقد تأولوا كلمة « مَالِك » الواردة فى اليب السائق ، وقالوا فى اليب إنه الحديد أو الخلد ، وصححوا الشطر الذى رويها « يدوم الغراب وفوها ويموح ، بهولهم يدوم الحجر وفوها وتموح ، وفسروا الديلم بأنها الأعداء أو حياص العور ، وأسعدوا على العرب نوعا من العصمة لئس يصحح ، حتى رعبوا أن العربى لا يطاوعه لسانه فى الخطأ ولو تعمَّد ، ورووا

لذلك الحسكية المشهورة التي كاتب من سيديوه والكسائي، والحق أن العري الصميم؛ مثله كمثل الاختليري الصميم، والعريسي الصميم ولو أراد العريسي مثلاً أن يحوّر لسانه، ليطبق بالخطأ عمداً لاستطاع ذلك في يسر، وهو كذلك يخطئ في استعمال بعض الكلمات والتراكيب، وبحود ذلك، فالعري مثال ذلك. ولكن مهما قلنا في الخطأ أحياناً وفي الكذب أحياناً فهو صفة عارضة وبادرة. وكان الأعلب فيما نقل من اللغة الصدى والصواب

وفد حد العلماء الأولون في تمحيص ما جمع من ألفاظ اللغة، فقد رأوا أن هناك كلمات كثيرة أحدثت عن قسائل مختلفة، لسلك قبله لفظ أو لهجة، وبعضها أصبح من بعض ورأوا ألفاظاً لم يستوف من صحتها، والذي جاء بها لا يوثق به، ورأوا كلمات احتلفت في تحديد معانيها، لأنها رويت في جمل، واللفظ فيها يحمل أكثر من معنى واحد ورأوا ألفاظاً صُحِّحَتْ، وألفاظاً كان يظن بها عري أُلْسِنَ؛ فمطأها الأحده لغة، وهكذا فاضطروا أن يحرروا ذلك كله ويمحصوه، فدلوا من الجهد ما يستدعي الإعجاب، ويدوا من اللغة ما هو صحيح ووضوح، وضعف مبكر، وردى مدموم فقالوا مثلاً: ثُطِبَتْ شَمَةُ الْإِنْسَانِ وَرِمَتْ، وليس نَسَبَ أَرْضَ حَثَوَاءَ كَثِيرَةَ الثَّرَابِ، وليس نَسَبَ وَهَكَذَا وَأَلْفَ اسْ حَالُوهُ كَنَابَأَ سِيَاهُ «ليس في كلام العرب، نَيْنَ» فهذه ألفاظاً تسعمل ولم يصح سماعها عن العرب، وقالوا قال الأصمعي ما سمعنا العام فانه أي صوت رعد، ولم يروه أحد عن الأصمعي، وإنما روى العلماء ما أصابنا العام فانه أي قطره، وقالوا العَرَزُ لغة أهل البحر والعَرَزُ اللعنة العليا، وهكذا وقد تكون الكلمة واحدة، وبحاف العرب في اللطيف بها فقيمة تقول، الطَّيِّبُ فِي الطَّيِّعِ، وأما والله، وهما والله، وحسبنا والله، والآيات والعباد وأن تله وعن تله، والإعلاء والوعاء وهضم عليهم وهضم عليهم، إلى مئات من مثل ذلك وليس لاختلافها من سبب الاختلاف

القائل العربية في الدطق ، وأحياناً يكون الخطأ من العلماء في الكتابة ، وهو ما يسمى بالتصحيف ، فقالوا : وبها سُؤدة من شباب ، أى بغيّة من شباب ، ثم قالوا وبها سُؤرة من شباب أى بغيّة ، ولست الأولى إلا تصحيفاً للثانية . وأحياناً يكون العرى ألتع ، فيقول في الشابة الثانية ، وفي الديك الديش وقد تعرض العلماء لشيء من ذلك ولم يستوفوه ، ولكن المتأخرين وبخاصة صاحب القاموس المحيط كدّسوا ذلك كله من غير تمحيص ، وشخروا بأهم رادوا موادّ كثيرة عما فاتهم ، وكان الأولى أن تستعد اللغات ، ويحقق التصحيف ، وترك اللهاج وإذن لا تصحح هذه المعاجم ، وبمأل فراعاً كبيراً من أحوج إله في ألوف الأشياء التي لمس لها اسم واحد

وكان المتدوّنون الأولون للغة في هذا العصر يدوّنون المفردات حيثما اتفق ، وكما يتيسر لهم سماعها ، فقد يسمعون كلمة في القَرْس ، وأخرى في العَبَث ، وثالثة في الرحل القصير وهكذا ، وكانوا يقيّدون ما سمعوا من عرب ر ب ب . وكانت الخطوة الثالثة ، أن جمعوا الكلمات الخاصة بموضوع واحد ، وأظهر ما كان ذلك في كتب الأصمعي ، فله كتاب الأنواء ، وكتاب المُنشَر والعِدَاح ، وكتاب حُلُق الفرس ، وكتاب الادل ، وكتاب الشاء ، وهكذا يجمع ما ورد من الألفاظ اللغوية في موضوع واحد ، ويسميه كتاباً ، وقد يكون الكتاب بصع ورفاه ، ثم كانت الخطوة الثالثة عمل المعاجم .

هذا موخر من القول في الساحة اللغوية للثقافة العربية ، وهناك ناحية أخرى هي الساحة الأدبية ، فقد كان للعرب أدب عربي متمتع ، وكان يحاط روايه اللغة روايه الأدب ، بل كثيراً ما تكون رواية اللغة في ثيابا رواية الأدب وكان عرب البادية في ذلك العصر مصدرراً للغة والأدب معاً كان الناس إذا ذكّ تذكردون من سماع حديث الأعراب ، لحقة روحهم

وعذوبة نطقهم وساطتهم، قال الخاطب « ليس في الأرض كلام هو أمتنع ولا أمتع، ولا آتق ولا ألد في الأسباع، ولا أشد اتصالاً بالقول السليمة، ولا أفتح للسان، ولا أعود تقويماً للبيان؛ من طول استماع حديث الأعراب الفصحاء العقلاء، والعلباء النعاة^١، وقال ابن عدي ربه - في كلام الأعراب - « هو أشرف الكلام حسناً، وأكثره رونقاً، وأحسنه ديتاحاً، وأقله كلفة، وأوصحه طريقة، إذ كان مدار الكلام كله عليه، ومتمسكه اليه^٢، وقد عقد فصلاً طويلاً، نقل فيه شيئاً من كلام الأعراب في الرهد والمندح والدم والعزل والحيل والعيث، والوادر والمُنَح، والطعام، والحج^٣ وعقد الحُصْرُي فصلاً متعاً عباده « فَمِنْ من كلام الأعراب في صروب مختلفة^٤، وفي الحب - إنك تقرأ هذه الفصول فتؤمن بأن أدهم حنّ اللغظ، فريب المعنى، قليل الكلفة. يقول أعراني في امرأة يحبها: « لقد تَعَمَّت عَيْنٌ تَطَارَتْ إِلَيْهَا، وَشَقِي قَلْبٌ تَصَحَّعَ عَلَيْهَا، وَلَقَدْ كَسَبَ أُرُورُهَا عِدْ أَهْلَهَا، وَرَحِبَ فِي طَرَفُهَا، وَبِتَجَهَّمُ لِسَانَهَا » وكره أعراني البصرة وأهلها فقال

« دخلت البصرة، فرأيت ثياب أحرار على أحساد عبيد، إقبال حطهم إندار حط الكرام، شجر أصله عند مروعته، شغلهم عن المعروف رعبهم في المسكر، ووصف أعراني أمراً، فقال « إذا ولي لم يطاق بن حمونه، وأرسل العيون على عبوده فهو غائب عنهم، شاهد معهم، فالحسن راح والمسئء حائف وهدم أعراني الناديه - وقد نال خبراً من البرامكة - فمثل كيف رأيتهم، قال « رأيتهم وقد أنسب بهم بعمه كأهملهم، إلى كبير من أمثال ذلك. ولهم الناديه الحلوه، والفكاهه العذبه، فهكها الخلفاء في محاسنهم، والخاصة في أحوالهم، والأدباء في سترهم وروى الأصمعي - مثلاً - في ذلك

١ الناب والندس ١ . ١١ ٢ العدد ٢ ٩٢ ٣ المصدر نفسه ٩٢ - ١٣٢

٤ زهر الآداب هامش العدد ٢ ٢

الشيء الكثير، يهرّج به همّ الولاة، ويضحك به السُّمّار - سافر أعراني إلى رجل حرمه، فقال لنا سئل « مارحنا في سفرنا إلا ما قصرنا من صلاتنا، وأما الذي لبنا من الهواجر، ولقيت منا الأناجر؛ فعصوة لنا فيما أفسدنا من حسن طسا، وفيل لأعراني ما عندكم في البادية طيب؟ قال مُخَرُّ الوحش لا تنحاح إلى تنظار! وسأل أعراني رجلاً فاعل عليه فقال إن كنت كادنا فحملك الله صادقاً أو فال الأصمعي أصاب الأعراب بحاجة، فهرب من رجل مهم قاعد مع روحته بمارعة الطريق، وهو يقول

ياربّ اني قاعد كما ترى وروحي قاعده كما ترى

والبط مني حائج كما ترى فما ترى ناربا فيما ترى؟ الح

ثم لهم الحكمة الرائعة يحرون فيها على سنّ حكيم أكثر من صقّ والأخف من دس هي أشبه ما يكون بالأمثال، قال أعراني « الدنيا نطق بغير لسان، فتجبر عما يكون بما قد كان، « لم أر صاحباً أعرّ من الدنيا، ولا طالماً أعشّم من الموت ومن عصّف عليه الليل والنهار أردناه، ومن وكلّ به الموت أفناه! « وقال أعراني الدراهم مياهم، تسيم حمداً ودما، فمن حسنها كان لها، ومن أفسدها كانت له، وما كل من أعطى مالا أعطى حمداً، ولا كل عديم دم! « وقال أعراني إذا كان الرأي عند من لا يُقبل منه والسلاح عند من لا يسمع له، والمال عند من لا ينفقه صاعب الأمور! « وول لأعراني لم لا نطل الهجاء؟ قال تكفيك من القلاده ما أحاط بالعسق، الح

ولهم الشعر الرفيق العذب، كالأعراني يقول في رثاء ولده

دقّت نفسي بعض نفسي فأصحت وللنفس منها دارين ودوين

وكالأعراني يقول في سوداء

كأهـا والكجـل في مرودـها سكـحل عيـها بعض حلـها

وأشدّ الرّياشي لأعرابي

ما كنت للقلب إلا فتنة عرّصت
تسيء سلمي وأحزبها به حسنا
وقل لأعرابي قتل أخوه أسأله، فهدم إليه أخوه ليقاد منه؛ فرمى السيف
من يده، وقال

أقول للشمس تأساء وتعزية
كلهما حنّاء من فقد صاحبه
إحدى ندى أصابني ولم يرد
هذا أحى حين أدعوه ودا وأندى

ولهم القصص عن حروبهم وأيامهم، فكانوا يروون أيام العرب في
حاهليها وأسلامها، وما كان فيها من أحداث، فيحدثون يوم الفجار، ويوم
ذي قار، وحروب قيس في الحاهلية، وحرب داحس والعنزة، ومقتل
كُتَيْب بن وائل. كما يحدثون بسرّه الذي صلى الله عليه وسلم وعرواته،
والصحابة وما كان بينهم، ويروون شعر الشعراء من حاهليين وأسلمين،
وحطب الخطباء، وأمال الحسكاه، وبنادر الطرافة.

كل هذا كان في البادية فهم رواه الأدب القديم، ولهم إنشاء في الأدب
الحديث، لذلك فصدّهم العلماء يأحدون عنهم كل ذلك

وفي الحق كانت سكناهم في البادية، وقلة امتزاجهم بعنبرهم من الأمم
أدعى لأن يسلكوا سبيل الأولين وتدفقوا دونهم، ويعجبوا بما آثرهم،
ويسروا في الأدب على مناهجهم فان تأثر شعراء العراق وأدباؤهم بالنفوس
ومن إليهم فان هؤلاء تأثروا بآدم في الحاهلية وآدم في الإسلام، وكان
أدبهم صورة حنة للأدب القديم، وصدورهم واه لا تار الأقدمين،
ونوع معيشتهم أشبه بمعيشة الأوائل، قال عمر بن عبد العزيز «ما قوم أشبه
بالسلف من الأعراب، لولا حماء فيهم»^١.

فما لا شك فيه ، أنه كان في هذا العصر أدبان أدب عرى صرف
ليس فيه كبر أثر من حضارة ، ولا من ثقافات الأمم المختلفة . وهذا أدب
- كما قلنا - حميف الروح ، رقيق اللفظ ، لا ترى فيه حمراً كثيراً ، ولا
ترى فيه تشبهاً بعلما ، ولا ترى فيه عرلاً بعبان ، ولا ترى فيه خراً فاحراً .
ولا خشياً داعراً . كما لا ترى فيه عمهاً في تهكير ، ولا إمعاناً وفلسفة في تعبير .
يعبى في ذلك قول السمرى ، فقد قال مما يدل على أن قصده

لأن بالشعب الذي دون سلع
لقتيلاً دمه ما يطل
ليست لنا نطقاً شراً وإماماً
ليحلف الآخر ، فوله فيها :
حمر ما نأسا مضمة
حل حتى دق فيه الأحل
فالأعراني لا يكاد تتعلل إلى مثل هذا

وأدب آخر حصري ، كالذي تراه في كتابه عمر بن مسعدة ، وإن
المفجع ، وقد تأثر بالفرس تأثراً كبيراً . وفي دوق أنه ليس في حمفة روح
الأول ، ولا رسمه وعدوته ، يحتاج الدهن فيه إلى أن يتحرف بعض
الاحراف ليهمه ، وكذلك يراه في شعر نزار ، وأبي نواس ؛ فيه العبق
وفيه العجز ، والقصد التي كان نعى بها العرى ، ليعبر عن عاطفة قوية
بسمطة ؛ أصبحت في الجهر ممثلة بصنع صاحبها العاطفة وبعاء فيها . والأدب
الذي كان يشرح حياه البادية ، وما فيها من بطوله وسجاعة وفوه ، أحد
يعبر عن حياة المدن ، وما فيها من بؤس وولس ، وانتقل البئر من حمل صخرة
مفصول مقطوعة أو حظه قوية يقال شفاها ، إلى كتابه يدوم موضوعها يدوم
مرافق الحصاره وبعصل فيها الكلام ويربط . وقد كان العرى الذي يعبر بلسانه
حريج الطبيعة والبيئة ، فأصبح الذي يكتب بملحه والبدانة العلمية ، وحريج
الكتب والدفاتر والمحار . وعلى الجملة فكلا النوعين من الأدب طلل لحاثة
الاحتفاعة ، هذا في حصره وذاك في بادته . واد كانت البادية لم تعبر ،

وكانت في العهد العباسي مثلها في العهد الأموي ، كان أدهم كذلك يحرق في واد واحد ، واد كان الحضر متغيراً فالعراق العباسي غير العراق الأموي ، كان الأدب الحضري محملاً عما قبله ، فيكتابه في أنواع جديدة وعزل جديد ، والكتب المؤلفة في الأدب تصف حياة اجتماعية جديدة ، وهكذا

وكما كان خطأ ووضع في اللغة ، كان كذلك في الأدب ، بل الباعث في الثاني أقوى منه في الأول ، فالولادة والأمراء يعجبهم الشعر اللطيف ، والقصص الغريب ، أكثر مما يعجبهم اللفظ ، والترديد من القصائد لمعجزة قبلية أودعها ، والموارد في القصص تسترعى الأسجاع ، والحكايات لاعتلاء شأن مرد أو فتاة ، والتوسع في المثالب والمناقب ، كل هذا يجد تحالفاً في الأدب أكثر مما يجد في اللغة ، وقد كان هؤلاء الوضائع من العرب أحياناً ومن العلماء أحياناً « تكاذب أعرا ، ان ، فقال أحدهما حرجب مرة على فرس لي ، فإذا أنا بطالبة شديدة فسميتها حتى وصلب لها ، فإذا قطعة من الليل لم ينسبه ، فما راب أهل عليها فرسي حتى أنسميتها فأنجاب ! فقال الآخر لقد رميت طساً مرة سهم ، فعذل الطييمة فعذل السهم حلقه ، فسافر الطي فساير السهم ، ثم علا الطي فعلا السهم ، ثم انحدر فأنحدر حتى أحده ! قال التورقي سألت أبا عبد الله عن مثل هذه الأخبار من أخبار العرب فقال إن العجم يكذب أبصاً فيقول كان رجل يصمه من نحاس ، وبعدها من رصاص ! فبما رصها العرب بهذا وما أشبهه

وقد عمد المتألمى - في كتابه هذه اللغة - فصلاً في حرافات العرب ، فوصفوا إسم الجسّ لمن يولد من الانسى والحمة ، والعملولق من الآدمي والسنّلاه والبلدان بين الآدمي والملّك ومن ذلك ما رجعوا أن حرهما كانوا من نتاج حدث بين الملائكة والانس ، وأن يلقين ملكة سماً كانت من ميل ذلك السخل ،

وأن يأحوج ومأحوج هم متاح ما بين السات وبعض الحيوان ، الخ^١ .
 واشتهر بالوصع من العلماء ستمائة الراوية ، وحكمت الآخر ، وهشام
 الكلبي النساء وعبرهم ، هؤلاء ما رواه كتب الأدب العربي قصصاً وقصائد
 وأحاديثاً وأسانيد لم يجرؤ فيها الخو والصدق فجاد روى كثيراً من أحبار
 الخاهلية وشعر الاسلاميين ، وحروب القبائل ، وروى المعلومات السبع ، وكان
 له من المعتبر ما يستطوع بها أن يهمل الشعر الأول ، ويعنى بها على الناس
 روى الأغانى ، أنه اجمع في دار المهدي بعباسية ، وقد اجتمع فيها عدة من
 الرواة والعلماء بأسماء العرب وآدابها وأشعارها ولغاتها ، إذ حرج بعض أصحاب
 الخاحب ، فدعا بالمفصل النصي الراوية ، فدخل فمكت ملياً ، ثم حرج إليها
 ومعه حماد والمفصل جميعاً - وقد بان في وجه حماد الانكسار والعم ، وفي
 وجه المفصل السرور والنشاط - ثم حرج حسين الخادم معهما ، فقال يا معشر
 من حضر من أهل العلم : إن أمر المؤمنين بعلكم أنه قد وصل حماداً الشاعر
 بعشرين ألف درهم لحودة شعره ، وأبطل روايته لزيادته في أشعار الناس
 ما ليس منها ، ووصل المفصل بمحسين ألفاً لصدقة وصحة روايته ؛ فمن أراد
 أن يسمع شعراً جيداً محدثاً فليسمع من حماد ، ومن أراد رواية صحيحة
 فليأخذها من المفصل^٢ .

وحلف الآخر بقول : « أدت الكوفة لأكتب عنهم الشعر فحلوا
 عليّ به فكسب أعطيهم المنحول ، وأخذ الصحيح ، ثم مرصت فقلت لهم
 ويلكم ! أنا نائب إلى الله ، هذا الشعر لي فلم يقلوا مي ، فهي مدسوا إلى
 العرب لهذا السب^٣ »

وإن الكلبي كان عالماً بالنسب ، وأحبار العرب وأسماء ووقائعها ، مكنراً

١ ص ١١٧ منه الآية طبع ٥٠٠ مرة وحاف هذا الفصل من آباء السوء من
 ٢ أعاني ٥ ١٧٢ وأبطل روايته الحكاه وسب هذا السب ٣ ١ - كان ١ ٣٩٣

في الصابغ ، تريد تأليفه على مائة وحسين مصمماً ، عدها ابن الديق في
المهرست وقد قال فيه احمد بن حنبل « كان صاحب سير ونسب ، ما طبنت
أن أحداً يحدث عنه » ، وقال الدارقطني « هشام متروك وقال غيره ليس ثقة »^١
هؤلاء الوصاعون ، أفسدوا العلم والرواية ، وأحسدوا الثقات من العلماء
بقدر ما رويوا ، يتديون صحبته من فاسده ، فوثقوا أحياناً ، ولم يوفقوا
أحياناً ، لأن قولهم وثقا في الناس ، وتفرق في البلدان ، وتساهل الناس في
الأدب والأخبار ما لم يتساهلوا في الحديث

كان نتاج الأمة العربية اللغوى والأدبى في هذه القرون الثلاثة - أعنى
قرأاً ونصفاً قبل البعثة ، وقرأاً ونصفاً بعدها - نتاجاً عظيماً ، ولكن نتاجها
لا في فلسفة ولا في علوم رياضية ونحوها ، بل نتاج أدبى ، وليس محرراً -
في كتب كالتى دوحها الفرس واليونان وإنما هو شعوى - إلا في القليل البادر -
يتناقله حيل عن حيل ، والذاكرة لا تنسى كما يعنى الكتاب ، ودخل على هذه
الثروة نقص وتربيد ، وتغيير وتعديل ، ولسكنها على العموم ثروة كبيرة وقيمة
إذا قوربت ثروة أمة أخرى في مثل هذا الزمن ، وفي موقف كموقف الأمة العربية -
وهذه الثروة متعددة النواحي ، فشعر تدهشك كثرتة ، حتى ليحيل اليك
أن كل عربى شاعر ، وأن لسانه ينطق بالشعر كما ينطق بالكلام ، ثم هو
مبسوح الأعراض ، متشوع الورن ، متنوع المعانى . فكان لساناً من أمريء
النفس ، الى نشار من رُدد دواوين صحبته لا تجمع كل ما قالوا ، ولكن تجمع
أفله ، أودعوا فيه خرمهم وهماهم وجموعاً فسه بعواظهم وسعورهم ،
ووصفوا فيه لوعتهم وحديثهم الى وطن ، ووفاءهم للرب ، ووصفوا طبيعته
أرضهم وبناتهم وحيوانهم

وثروره من الخطب لا تقل شأنًا عن الشعر ، يستعينون بها في تهيج القائل
في الحامية ، وفي تنظيم الأحزاب السياسية في الاسلام ، ويصلون بها في
الحامية والاسلام الى تحقيق أعراسهم ، وبث أفكارهم في السلم والحرب ،
وحج السكامة وتمزيقها ، ولهم الأمثال والحكم ، وقد رعو فيها وأكثروا
منها ، وقام لهم مقام الفلسفة لليونان ، أمدحهم بها كثرة تحاريمهم ودقة
ملاحظتهم وحسن صباغتهم .

ولهم الأخبار الكثيرة عن أباطمهم في الكرم ، وأباطمهم في الحرب ،
وأباطمهم في الوفاء ، وأباطمهم في القناعة والكسابة ، الخ
ولهم القصص عن وفودهم وأسواقهم ، وحكامهم وفراسمهم ، وعدايتهم
ولصوصهم ، ولهم أساطيرهم وحرافاتهم ، وتفاؤلهم وتشاؤمهم وتحذيرهم .
ولهم الأخبار الطويلة عن أيامهم ، وأصنامهم وعاداتهم ، وحنائهم
ويهودهم وبصاراتهم

* * *

ولما جاء الاسلام اتصل به الثقافة العربية اتصالاً وثيقاً ، حتى كان من
الدين الشفق بها ، والعلم بلعبها وأخبارها ، بل عمل الاسلام عملاً كبيراً
في ردها وتقديسها ذلك أن القرآن الكريم والحديث عريسان ، ومن حسن
الاسلام تعلم اعمه ، فكان الاسلام أكبر الواعيت على نشر هذه الثقافة ،
والعناية بها دخل اللحن في العربية ، خاف المسلمون على القرآن أن ينسرب
اليه لمن فوضوا المحو ، وحنائهم وضع البحر على مسافة الأعراب ،
والأحد عنهم ، حتى وصلوا الى قاعدة في الرفع والاصب والحر والحرم
يصعبونها ، وكان حركة عيفة ومجهود كبير نُوح كتابه ويه وما كان
يكون لولا القرآن^١

١ قال ابن خلدون « لا يصدق الامة عدا أبي الهيا بما عارها وجمعي أهل العالم أن
عندك الملك رأياً ، ودولانهم بها ، فمضى امرئ والحدث على الفهم استظوا بحاري

ووردت في القرآن والحديث ألفاظ لغوية ، فصرحوا أكاد الإبل إلى
البيادية يستمعرون عن لفظ ، أو يففون على تعبير ، ودعاهم ذلك إلى حفظ
الشعار ، ففيها أحياناً ما يفسر لفظاً قرآنياً ، أو يساعد على فهم تعبير قرآني .
فأكثرنا من رواية اللغة والأشعار لذلك ، ودققوا فيها وتحروا الموضوع
من الصحيح . وما كان يبدل هذا الجهد ، وذلك التحري لولا ما وراه من
ناعث ديني^١ .

وعنوا بلهجات العرب ، وكيف تنطق تميم وقريش ، ومن الذي يُميل
ومن لا يُميل ، ومن يبدل ومن لا يبدل ؛ لفهم قراءات القرآن ، كما عنوا
بالمعرّب والأصيل لما في القرآن من معرّب وأصيل .
بل وحدّ بعض العلماء بعد في البلاغة ، يضعون لها القواعد ، ويستتجون
القوانين تفهماً لمواضع الإيجاز في القرآن ، وتوفقاً لبلاغته^٢ .

كلامهم قوايين لئلا المسكة مطردة ، شبه التكريرات والفوائد يفسون عليها سائر أنواع الكلام
ويلحقون الأشياء بالأشياء ، مثل أن الفاعل مودع والمفعول منصوب « الح مقدمه ٨٠ » ؛
١ قال النعماني في أول كتابه فقه اللغة « أما بعد فإني من أحب الله أحب ، رسول الله المصطفى
صلى الله عليه وسلم ، ومن أحب إلى العرفي أحب العرب ، ومن أحب العرب أحب اللغة العربية
التي بها أول أمصل السكت على أمصل اللحم والعرب ، ومن أحب العربية عني بها وثار عليها
وصرف منه إليها » ويقول « والعربية خير اللغات والألسنة والأقوال على مهمها من الدنياة إيد
هي أداة العلم ومعاج الفقه في الدين ، الح »
وهال ابن عباس . الشء ديوان العرب فإذا حتى علسا الحرف من الفركان الذي أمرله الله
بأمة العرب رجعا إلى ديوانها فالتسا معرفة ذلك منه ، وسئل عن قوله تعالى « عن النبي
وعن الشهاب عرس » قال عرس الحائي الزمان مال عيد من الأرض .
٢ جاءوا يهرعون إلّ حتى تكروا حول مبره عرسا
انظر الاقناع ١٤٩٠ وما بعدها

٢ « يقول عبد القاهر في البلاغة » وهو باب من العلم إذا أنت معه اطامم منه على
هوائد حذله ، ومعان شرقة ، ورأت له أرقاً في الدين عظاماً وفائمه حديمه . ووحده سببا
إلى حسم كبير من الفساد فيما يعود إلى التريل وإصلاح أنواع من الحال فيما يتعاقب التأويل «
دلائل الإحجار من ٣٣ .

وهكذا كان القرآن مسعاً لثقافة روحية وعقلية سنيها بعد . وكان مسعاً لثقافة عربية وعلمية ، أشربا إليها الآن

وعند الثقافة العربية في الاسلام مما كان فيه من أحداث ، فسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبار الخلفاء ، والعرواء والفتوح ، وما تحللها من شعر وأدب وفصص ، وما كان بعد على الخلفاء والولاة من شعراء وما كانوا يقولون ، وما تكون من مذاهب دينية من حوارح وشععه ومرححة ومعتزله ، وما كان لذلك من أدب ، وما كان من أحراب سياسية وأخبار الشعراء والخطباء إلى هذه الأحراب كل هذا كان ثقافة عربية ، يتقصف بها من كانوا عربا في أصلهم ، ومن كانوا فرسا أو رومًا أو يونانيين ، وعلى الحملة من كانوا في المملكة الإسلامية ، وخاصة من أسلبوا وتعلبوا . وما كان يسبع السابع إلا إذا عرفها . وأحاط بطرف منها ، فكانت بذلك عصرًا من عناصر الثقافة العامة في ذلك العصر

هجم العلماء — في عصرنا الذي نؤرخه من عرب وموال على هذه الثقافة يبحثون عنها من بواحيها المتعددة ، ويرحلون إلى البادية أحياناً ، وإلى الأمصار أحياناً ، ويسمعون للرجال والنساء والصدا ، والخاصة والعامة حتى احتلوا ، هل بأحدون اللغة عن المحبون أو لا يدخلون على المرأة في حائها ، وعلى راعي الابل في مرعاه ، فأو حاتم يسأل أمّ التهيّثم ، والأصمعيّ يقول : سمع صده يترأخرون والخاص والخاص روى عن عبد أسود لبي أسد والوافدى روى عن فاطمة بنت المنذر روضة همام بن عروه . وكان أهم عمل هؤلاء تحويل الثقافة العربية من ثقافة لسانة شهيه — في الغالب — إلى ثقافة كتابية تحريرية ، وكانت هذه هي الخطوة الأولى ليتناول العلماء بعد ما جمع ، بمحوره ،

ويميزون خطاه من صوابه ، ويصنعون له القواعد .

وكان هؤلاء العلماء ورثاً ، كل فرقة يعطب عليها الميل إلى ناحية من نواحي هذه الثقافة فالخليل بن أحمد ، وأبو زيد الأنصاري ، والأصمعي ، وأمثالهم ؛ علب عليهم مفردات اللغة وجمعها والدندنتونها والمفصل الضمى ، وحلص الأجر ، وحماد الراوية ، وغيرهم علب عليهم جمع القصائد والأشعار والأمثال ، وما إلى ذلك ومحمد بن اسحاق ، والوافدي ، وأبو مخنف ، والهيثم بن عدي والمدائني ، مالوا إلى تدوين الروايات عن الأحداث التاريخية ، كفتوح الشام ، ومويع العراق ، ووقعة الجمل ، ووقعة صفين ، ونحو ذلك ، وفي أحبار التي صلى الله عليه وسلم وكسه إلى الملوك والمعاري ، وأسمااء المفايقن ، والوفود واس الكلى ، وأمثالهم علبوا الأسااب وما يتبعها من نبوات ومفايرات وموودات وفي أحبار الأوائل من عاد الأولى والأخرة ، والمعمرين والأصنام والقيداح ، وأيام العرب وأسماارهم الخ

وبعد ، فادأ حاولنا أن نختار من يمثل هذه الثقافة العربية نبروعها ، فلسلا نختار الأصمعي وما من أيدينا من كسه ؛ فليست تمثل إلا الاحية اللعوية ، ولا المفصل الضمى وكسااه المفصليات والأمثال ؛ فهما لا يمثلان إلا الناحية الأدبية ولا كتب الحاحط واس قتيده ، فاما تمثل نوعاً آخر من الثقافة سيأتى بيانه ، إنما الذى يمثل الثقافة العربية هو « المبرد » وكسااه الكامل أوألا ، ثم أمالى القالى نائياً . وللسب الأمالى مما ألفت فى عصرنا ، فلندعها الآن ونختري المايرد والكامل ، وإن كان قد عاش رماً فى عصرنا ، ورماً فى العصر الذى بعده ، وقد احبرنا الكامل لأنه حير كتاب وصل إلينا من برات ذلك العصر ، يمثل شيتس هاماس ، يمثل الثقافة العربية فى عباصرها المحتلغة ، ويمثل طريقة تعليم المعلمين فى ذلك العصر لملك الثمافة ومهيج التألف فيها

المبرد والكامل

كذلك لا يطيل في رحمة المبرد ، فالذي يههما كتابه هو محمد بن يزيد عربي الأصل من قبيلة ثُمَالَة^١ وثمالة من الأزد ، والأرد من قحطان ، وهو من عرب اليمن وكان للأرديين أثر كبير في الدولة الأموية أعادوا راد بن أبيه وأبوه من بعده ، وتحالفوا مع ربيعة يهاضون حلفاء آخر هو حلف تمم وقنس ، ووقفوا بحاب الثماليين أي صفرة - وهو أردى كذلك - يجارون الجوارح .

وُلد المبرد بالبصرة سنة ٢١٠ وأحد العلم عن الحرشي والمباري^٢ وكان إمام العربية بعدد ، وإليه انتهى عليها ، وكان حسن المحاضرة فصيحاً نليعاً مليح الأبحار ، ثقة فيما يرويه كثير الوارد ، فيه طرافة ولباقة^٣ ، وكان يسارع ربيعة العلم في بعدد هو وثعلب ، ومن أساس تراهما اختلاف مدرستهما ، فالمبرد بصري تعلم على المذهب البصري وطريقته ، وثعلب كوفي تعلم على المذهب الكوفي وطريقته ، وبهما اختلاف كبير في النحو والصرف واللغة ، وما يقاس عليه وما لا يقاس ، الخ وقد ظهر المبرد ثعلب ؛ لأن المبرد كان حسن العبارة خلوقاً الإشارة فصيح اللسان طاهر البيان ، وثعلب متحفظ منكس للنس في لباقة المبرد وفصاحته ، وكان المبرد يحب الاحتجاج ثعلب للباطرة ، وثعلب راوع . كان يحفظ كثيراً من اللغة وعربها ، وكان أحفظ الناس في عصره للأحبار واسع الإطلاع في النحو ، وكان لا يعي بالأسانيد فيما يروي من لغة وأدب كما يعي غيره من علماء عصره . وقد ألف كتباً كثيرة في فروع الثقافة العربية المختلفة ألف في النحو المقتضب^٤ ، وغيره ، وألف في إعراب القرآن ، وفي قواعد الشعر وصروب الشعر وشرح كلام العرب وتحليص ألقاطها ، وفي قحطان وعدنان الخ^٥ وأهم كتبه الكامل وقد مات بعدد سنة ٢٨٥ في خلافة الملة صد

١ معجم الأدباء ٧ ١٣٧ ٢ جاء الكسب إلى ألبها في فهرست ومعجم الاداء

كتاب الكامل

المردّد مسلم عري، أردى يمانى، وهو لعوى يحوى، وهو لبق طريف،
وهو لم يثقف بغير الثقافة العربية - على ما يظهر -
كان لكل كلمة من هذه الكلمات لون في كتابه الكامل، فهو صورة تامة
للكل ما ذكرنا.

قال في صدر الكتاب « هذا كتاب ألقناه يجمع ضروباً من الآداب،
ما من كلام مشور، وشعر مرصوف، ومثل سائر، وموعظة بالغة، واحتيار
من حطة شريفة، ورسالة بليغة، واليه فيه أن يفسر كل ما وقع في هذا الكتاب
من كلام غريب أو معنى مستعلق، وأن يشرح ما يعرض فيه من الأعراب
شرحاً شافياً، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتملاً، وعن أن يرجع إلى
أحد في تفسيره مسمعاً » ويقول في صدر باب من أبوابه « نذكر في هذا
الباب من كل شيء، ليكون فيه استراحة للقارئ، وانتقال إلى المكمّل، لحسن
موقع الاستطراف، ونلاحظ ما فيه من الحد نثي يسير من الطرل المستريح
إليه القلب وتسكن إليه النفس » فالكتاب يعالج - في محاربه - الحاجة التي
تبع السرور والفرح والضحك، الألبالاء من ذكر الموت والرتاء.
اختار « من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن أقوال الصحابة
والتابعين ما لم أتى بكر وعمر وعثمان وعليّ وعمر بن عبد العزيز، ومن أمثال
الحكماء كأكرم بن صبيح في الجاهلية، والأخفش بن قيس في الإسلام، وشعر
كثيراً من الشعر الجاهلي وصدر الإسلام، وقليلاً من شعر المحدثين، وأدباً
لحوادث تاريخية ومداهب دسّة كأدب الحوارج، والكاتب التي دارت
بين أنى جمع المصور ومحمد بن عبد الله بن حسن العلوي.

أكثر ما يعجده ما جمع بين أشياء ثلاثة : معنى جيد ، في التعبير عنه شيء من عرب اللغة وشيء من مسائل النحو أو مشكلاته . يورد ما احتار ثم يعنى بشرح ما فيه من لغة ونحو . وبورد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يمدح الأناصار : إنكم لتسكترون عند الفرع وتقلون عند الطمع ، فلا تعرض إلا لكلمة الفرع ومعانيها المختلفة ، ويستشهد على كل معنى ، وإذا ورد في الاستشهاد كلمة لغوية أو نحوية شرحها

يعنون كل بضع مختارات بكلمة « باب » ومن العسير في كثير من الأحيان أن تفرق بين باب وآخر ، وتذكر أن هذا الباب وحدة مستقلة تجمع مختارات ذات صفة خاصة تحالف ما في الباب الآخر ، اللهم إلا في القليل النادر كتاب الحوارح ، حتى ليحيل إلينا أن كلمة « باب » يستعملها في معنى « درس » فكأنه يعمر كل درس أو حملة دروس باب ، والدرس أو الدروس تكون حينها اتفق له ، لا يتفقد فيها إلا أهم مختار فيه أدب ، وفيه لغة وفيه نحو

والكتاب يمثل الثقافة العربية في جميع أواحيها ؛ فهو يبحار من الحديث ومن أقوال الصحابة مثل كلمة أبي بكر في مرض موته ، ورساله عمر في القضاء إلى أبي موسى الأشعري ، وكتاب عثمان إلى علي بن أبي طالب حين أحبط به وكلمة علي حين بلغه أن حيلًا للمعاوية وردب الأنصارَ وفيلوا عامله حسنان من حسان ، ثم يذكر ما أبا يعنى فيه مما كان من كلام العرب مختصرًا معهما ، ليس اللفظ حسن الوصف ، جميل الرصف كقول الخطيب

وذاك فتى إن تأثره في صبعة إلى ماله لا تأثره شمع
وقول عترة

بحرته من شبه الوبيعة أنى أعنى الوعى وأعنى المَعَمَّ
ويقارن بين ما ورد لبعض العرب ، من صروره قبيحة ، وألفاظ مستحجة ،

وبن ما هو أوصح لفظاً وأيس معنى، ثم ينتقل إلى بدة من كلام الحكيم فيقول
عن ابن عمر أنه كان يقول: «إنا كما عشرين فرس بعد الخود والحلم: السؤدد،
وبعد العفاف وإصلاح المال، المروءة»، وينقل عن الأصمعي قيس قوله كثرة
الصحك تذهب الحية، وكثرة المرح تذهب المروءة، ومن لم شيئاً عرف
به» ثم يسترسل في ذلك، فيقول عن عبد الملك بن مروان، وأبي سفيان ومعاوية،
ثم ينتقل إلى شعر لرحل يهجو بلال بن العبد المحاربي، ولأبي الطمّاح بن مدح
بحير بن إياس وآخر يبي نسب آخرين، إلخ. ويعقد باباً ثالثاً، يذكر فيه
بداً من حكم العرب لمعاوية والأصمعي بن قيس

ثم باباً رابعاً يذكر فيه مختاراً لرحل من بني سعد بن ثعلبة وحضرته
ابن عامر، وقد عبط بمراث ورثه من أحد أهله وانتقل لحاه إلى قول جميل
يشتت فيه بثنيته ثم لأمة بن أبي الصلت في العلماء، ثم للبيهم بن الربيع
في العزل. وبأن بعد ذلك باب خامس فيه بد من كلام حكام العرب

وعلى هذا النحو كل الكتاب، يتعرض في بعض فصوله لما قال العرب في
الحرب، وما قالوه في السؤدد وما قال حرير والفرزدق في الفجر، ووعظ الرعاع
أمثال عمر بن عبد العزيز وعلى بن أبي طالب، وينقل مختاراً في مجالس
العرب، فيقول عن الأصمعي بن قيس وقد سئل، أي المجالس أطيب، وعن
المهلب بن أبي صفرة، وقد قيل له ما حبر المجالس وعن ابن عباس في
الجليس ويدكر بدة من أمثال العرب مثل: لم يذهب من مالك ما عطفك
ورب عمله هب رثاً، وأن ترد المائة بما أكرس. ويدكر ما قاله بعض العرب
في الرثاء، وما قالوه في الله والعنش الرعد، ويعرض لطرف مما دار من الكلام
الحسن في الحروب الإسلامية الأولى كوفعة الحنبل وما كان بين الحكيمين.
ويدكر طرفاً من الخطب المختارة، كخطبه رناد والجماح ثم العزل وطرائقه،
فأعز أن يشكو حبيبته، وعمر بن أبي ربيعة في النجاة، وأقوال في ذهاب العرب

وحلبهم وكرمهم وشجاعتهم ، وما بينهم من مدح وهناء ، وعدائهم ولصوصهم .
وتكاديبهم ، وبنادر الأعراب في رواحهم وطلاقهم ، وطول لحية وقصرها ،
وبعض طرائف العشاق ، وتهاجي القائل ثم ما ورد من العرب في الوصف
في وصف حمل وحمار وحمامة وحمار ، ثم باب طويل في أحجار الجوارح ،
وحروبهم وعمائدهم وحطيمهم وأشعارهم وبنادرهم . وبين هذا وذاك ؛ أبواب
عابسة بعضها يحوى مثل « باب ما تحور فيه بفعل فيما ماضيه ففعل مفتوح العين » ،
وبعضها بلاغي مثل « باب في التشبيه »

هذه بطاقة الطائر ، إلى كتاب الكامل أردنا ما أن نستدل على أن الكتاب
يمثل الثقافة العربية ، ونسب منها الانتحاضات المحلفة التي اتجهت هذه الثقافة ،
وعلى أن أنبأ أنظار المعلمين في ذلك العصر كتاب أنظاراً فردية لمسائل فردية ،
فالملفوظ الواحد كالسؤدد عند العرب ، مفرق في أبا الكتاب من أوله إلى
آخره . لا يجمع الباب ولا الكتاب إلا أنه مختار فيه معنى جميل أنا كان ،
وفيه لغة ونحو ، فأما أن تكون أبيات المديح في حاشية ، والدم والرائحة ونحو
ذلك في موضع واحد ، فليس هذا شأن الكتاب ، ولا شأن معلى ذلك العصر
فلما إن المراد - على ما يظهر - لم يقف إلا الثقافة العربية . وذلك واضح
في كتابه ، فلم يعرض لغيرهم إلا قليلاً نادراً ، لقد فعل عن « زُرَّ جهر » وأردشير
ولكن في مواضع معدودة ، وورد فيه كلام عن الموالي ولكن بطرته بهم بطر
عربي . وفص ما كان من عند الله من عند الأعلى وألوان ملك الروم وقد
أرسله عمر بن عبد العزيز إليه بدعوه إلى الإسلام . وفص ما كان من الشيعة
وملك الروم ، وفص ما كان من استئذان ملك الروم معاوية في أن يعالجه ،
وعت الله ملك الروم برحلتين أحدهما طويل ، والآخر هو حسيم الخ ، ولكن
هذه أمور لا تدل على ثقافة أحدها لأنها حوادث متصلة بالمسلمين العرب ،
وقد رواها المراد كما فعلت إليه عن العرب

وقلنا أن المبرد عن أردري يمانى ، وكتاب الكامل يمثل هذا النوع من
 العصبية القذلية تمثيلاً صحيحاً ، فهو يتعصب للأرد ولليمانين ، ويروى الكثير
 من الصحيح والسقيم لأعلام شأهم ، فهو يعتقد بأن يعنونه « نادى ذكر الأدواء
 من اليمن فى الاسلام ، فذكر فيه الأدواء فى الحاهلية ، كدى كاذب عودى مؤاس
 ودى زعيتن ، وفى الاسلام كحرثمة بن ثابث دى الشهادتين ، ويدكر حبرا عمن
 كان بده وبين الملائكة سب من اليمانية ، فسعد بن معاذ الانصارى هبط لموته
 سبعون الف ملك لم يهبطوا الى الارض قبلها . وحطه بن ابنى عامر الانصارى
 عسلته الملائكة ، الخ - هذا فى آخر الكتاب - وأما فى أوله فيختار قول
 رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الانصار « إنكم لتكثرون عند الفرع وتقانون
 عند الطمع ، والانصار من الأوس والخزرج وهما قبيلان ممانتان أردنيان فى
 قول السائبين ، ويحار قول ابنى بكر فى المهاجرين » ولما لعب مسك بامعشر
 المهاجرين أشد على من وحى ، ابنى وأب أموركم خبركم فكلكم ورم الله أن
 يكون له الأمر من دونه ، ويحار الكلام فى الخوارج ويطلق لسانى - على
 ما يظهر - (١) فهو يعارض الحاحيط ، وقد ذكر فى كتابه السعوية ، والشعوبية
 حركة أعممه بانهض العرب والخوارج أكثرهم عرب حاض ، لهم أدب عن (٢)
 والذى قاتل الخوارج المهلب بن أبى صفرة وسوه ، وهو أردى كالمرد . وكان
 يعاونيه الأردبيون عليه المبرد ، فالاشادة بالكمال بالخوارج اشادة بميلته . وهو
 فى كتاب الكامل على شأن المهلب وسأول له ، « لقد رعى المهلب الكذب
 حتى فى حديث رسول الله ، فهو يذكر أنه إنما كذب فى الحرب ، والحرب
 مذبذبة والكذب فى الحرب حائر . والكتاب مملوء بالأحار الى عظم آل
 المهلب وترفع مع شأهم وتروى فى أحبار الخوارج قول أعشى همدان
 إن المسكارم أكلت أسماها لاني اللوث العر من فحظان
 للفراس الحامى الخمسة معلما راد الرقاق إلى فرى بحراني

الحارث بن عَميرة اللبث الذي يحكى العراق الى قري كرممان
 وذا الارارق لو يصاب بطعنة ويموت من فرساهم مائتان ١
 ويروى المبرد عن علي أنه قال « للأرد أربع ليست لحيّ نذل لما ملكت
 أيدهم ، ومع لحوزتهم ، وحى عمارة لا يحاحون الى غيرهم ، وشحمان
 لا يحسبون » ٢
 وهكذا كان كتاب الكامل يمثل كل ناحية ، حتى التريد في الاحمار للعصية
 القومية والقسلة

• • •

وبعد ؛ فإن كتاب الثقافة الفارسية تمثل حياة كسروية فيها مدينة معقدة
 ونظم مركبة ، وفيها مرافق المدينة الممعة في الحصاره ، وفيها محاسن المدنية
 ومساوئها فالثقافة العربية تمثل حياة بسيطة سهلة لا تركب فيها ولا التواء ، فيها
 بساطة العيش ، وفيها بساطة القول ، وفيها محاسن البادية ومساوئها ، كما تمثل قوماً
 عاشوا في جاهليتهم في راع قتلى ، يمحرون ويمدحون ويهجون ، ويديون
 بالأصنام ، ثم يجمعهم دين واحد هو الاسلام ويرفع من نفسياتهم وعقليتهم .
 وبأحدون في حياة فيها أثر للقديم ، من عصبية قلبية ونحوها ، وفيها أكثر من
 حديد ، فتوحده وتقوى وحرف من الله وعدائه ورعة في ثوابه ، وفيها شعور
 بعز القاتح وسلطان الحاكم ، وفيها اعتداد بأنفسهم وخاصة من باحسين لسانهم
 وسبيهم ، واعتقاد على غيرهم في مرافق مدنية دُرُبوها ومربوا عليها .
 ولئن كان كتاب الثقافة الفارسية قد دوت من قديم وتجاوزها التلف والتجديد .
 وأدُخِر في كتب سلم منها شيء الى العهد الاسلامي فالثقافة العربية كانت
 كلها في جاهليتها ثمافة شمولية تعتمد على الدأكره والرواية وفي الاسلام انما
 عى بدوس العرائل وبعض الحديث . فأما الأدب واللغة فظل أعليهما كما كان

الحال في الشعر الجاهلي والأدب الجاهلي يتناهل من طريق الحفظ والرواية ، حتى كان آخر الدولة الأموية وأول العباسية فأحد العلماء في تدوينه .

ولئن كانت الثقافة اليونانية قد مرت بالأدوار الطبيعية للعلم من بحث في مسائل متفرقة ، فمستقيم وتوحيب ، وجمع للمسائل المتشابهة وفروا عنها في باب واحد ، ووصلت إلى المسلمين بعد أن هدمها المطلق ، ورددتها الأحبال المتعاقبة من فلاسفة اليونان ، والثقافة العربية في عصرنا الذي نؤرخه من لغة وأدب وتاريخ وبحوثها كانت في أول دورها من حيز الترتيب والتبويب ، فبرى العوصى في كتب اللغة المؤلفة في ذلك العصر ، كما رأينا في كتاب السكامل . ولم تختل الثقافة العربية هذا الدور إلا بعد أن انتهى عصرنا أو كاد .

ومهما يكن من شيء ، والثقافة العربية كانت ركبا من أركان الثقافات في ذلك العصر ، وعصر آهاما من عاصرها ، لا تقل عن غيرها من العاصر ، إن لم ترد عليها ، لأن لسانها لسان الحكماء ، ولعنتها لغة الدين .

الفصل الخامس

الثقافات الدينية

اليهودية والنصرانية والاسلام

بجانب هذه الثقافات المدنية - إن صح هذا التعبير - ثقافات أخرى روحية ، تنشرها الأديان المختلفة . وأهمها الاسلام والنصرانية واليهودية .
اليهودية والنصرانية - يقول الأستاذ مِتَز : إن مما يميز المملكتين الاسلاميه عن أوروبا النصرانية في القرون الوسطى ؛ أن الاولى يسكنها عدد كبير من معتنقي الأديان الأخرى غير الاسلام ، وليست كذلك الثانية ، وأن الكنائس والبيع ظلت في المملكة الاسلاميه ، كأنها خارجة عن سلطان الحكومة ، وكأنها لا تكون جزءاً من المملكة ، معتمدة في ذلك على اليهود وما أكتسبهم من حقوق ، وقضت الضرورة أن يعيش اليهود والنصارى بجانب المسلمين ، فأعان ذلك على خلاق جو من التسامح لا تعرفه أوروبا في القرون الوسطى . كان اليهودى أو النصرانى حراً أن يدين بدينه ، ولسكنه إن أسلم ثم ارتد عوقب بالقتل . وفي المملكة البيزنطيه كان عقاب من أسلم القتل^١ .

كانت الكنيسة تحرم على النصرانى أن يتزوج غير نصرانية إلا اذا تنصرت ، وكذلك النصرانية لا تتزوج إلا نصرانياً . أما الاسلام فقد حرم على المرأة المسالمة أن تتزوج غير مسلم ، وأحل للرجل المسلم أن يتزوج كتابية

١ لحسب هذه الكلمة من كتاب مير « مهضة الاسلام » الذى ترجمه « خداجوش » من الألبانية الى اللغة التركية

يهودية أو نصرانية ، وإن بقيت على دينها لقوله تعالى : « الْيَوْمَ أَحْلَلَّ لَكُمْ
الطَّيِّبَاتِ وَطَعَامُ الدِّينِ أَوْتُوا الشُّكَّاتَ حَلَّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَّ لَكُمْ »
والمحضات من المؤمنين والمحصنات من الدين أوتوا الكتاب ،
فكان كثر من المسلمين يتروحوون يهوديات أو نصرانيات وممن من تسلم ،
وممن من تبقى على دينها . وكان هذا سبباً من أسباب اتصال المسلمين باليهود
والنصارى

وهذا كان بين الحمية والشافعة خلاف شديد في قلب المسلم بالكافر ، وكان
الحمية يرون أن المسلم إذا قُتلَ دميماً قُتل به ، وحالهم في ذلك الشافعي .
وكان بن الفريهين حداد وحجاج ، رآه مسوطاً في كتب الفقه وكان مما
احتج به الحمية : أن عبيد الله بن عمر بن الخطاب - لما قتل أبوه - اتهم في
الاشترار في بدر قتل « حُفَيْمَةَ » وكان نصرانياً ، فذهب إليه عبيد الله
وقتل ، ولما علاه بالسيف صلب بن عبيد ، فلما اسه جلف عثمان بن عفان ،
دعا المهاجرين والأنصار فقال أشيروا عليّ في قتل هذا الرجل (يعني
عبيد الله بن عمر) فأتى في الدس مافى ، فاحمى المهاجرين والأنصار فيه
على كلمة واحدة ، بأمره بالشدة عليه ، ويحذونه على قتله فأشاره المهاجرين
والأنصار لدل على أن المسلم يقبل الدمي ، ولم يفعل عثمان ذلك لأن
عمروس العاص أشار عليه ألا يفعل ، لأن الحادثة كانت قبل أن يولى
عثمان ويكون له على الناس سلطان ، الخ

وقد وقع في أم أيّ يوسف العاصي ، أن مسلماً قتل كافراً ، فحكم على
المسلم بالهود ، فقال أحد السعراء

تَا فَاتِلَ الْمُسْلِمِ بِالْكَافِرِ حُرْبٌ وَمَا الْعَادِلُ كَالْجَائِرِ

١ وقول ابن عبيد الله بن عمر بن الخطاب - لما قتل أبوه - جرد سبعة فدل
بأنه أقرؤه وقول الفريران وحفصة - رحلاً أعجباً - وقال لا ادع أعجباً إلا فله فآراد
على فلا من قبل فهرب إلى معاوية فمئل في صحن المعارف ٦١، ٦٢

يَأْمُرُ سَعْدَادَ وَأَطْرَافَهَا مِنْ عُلَمَاءِ السَّاسِ أَوْ شَاعِرٍ
اسْتَرْجِعُوا وَأَنْكَبُوا عَلَى دِيكِكُمْ وَاصْطَرِبُوا فَالْأَحْرَ لِلصَّابِرِ
حَارَ عَلَى الدَّيْنِ أَوْ يُوسُفَ يَقْتُلُهُ الْمُؤْمِنَ بِالْكَافِرِ
وحاف الرشيد الفتنة ، فأمر أبا يوسف أن يتدارك الأمر بحيلة لئلا
تكون فتنة ، فطالب أبو يوسف أصحابَ الدم مائة على الدِّمَّة ١ وثورتها ،
فلم يأتوا فأسمط القود ٢

وكان الشافعي يرى ، أن القود لابد فيه من تساوى القاتل والمقتول في
الحرية والاسلام ، فان فصلَ القاتلُ المقتولَ بحرية أو اسلام ، فمقل حر
عبدًا ، أو مسلم كافرًا فلا قود عليه

وكان الشافعي يرى ، أنه يصح أن يشترك أهل الدمة من يهود وبصاري
في الحروب مع المسلمين - أى أن يحتدوا في الجنس الاسلامي - إذا رأى
الامام ذلك - واستدل بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعان في عرارة
حيسرَ بعدد من يهود بني قَتْلَمَاح كانوا أشداه ، واستعان في عرارة حَسَنَ
بصقوان أمة وهو مشرك ، فلا بأس أن يستعان بالمشركين على قتال
المشركين ، اذا حارحوا طوعا ، ويرصح لهم ولا يسهم لهم ٣

ولسا نتعرض هنا لعلاقة اليهود والبصاري بالحكومة الاسلامية من حيث
الضرائب وعلاقتهم برؤسائهم ، وعلاقتهم الرؤساء بالحكام ، ومدى استقلالهم ،
والمقارنة بين حال البصاري في المملكة الاسلامية ، والمسلمين في الممالك

١ في الأصل (الله) وهو خطأ على ١٠ طام

٢ الاحكام السلطانية ٢١٩ وقد قال المحامد « إن فصا أو سامهم يرون أن دم
المخالفين والمطران والاسقف ودم جمعهم وعلى العباس وجره » ثلاث رسائل ١٨

٣ الام ٤ ١٧٧ وسمى صح لهم ، عطاهم عطاء ليس بالأكبر
ومدروى الخطب البغدادي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال معه قوم
من اليهود في بعض حروبه فأمرهم مع المسلمين ارحموا حره ٤ ١٦٠

البصرية ، وكيف كان اليهود والبصري يتقاصون في الأصقاع الإسلامية ، وعلاقتهم بالقصة المسلمين ، وبحو ذلك من الشؤون . فهذا بالتاريخ السامى أشبه ، وإنما عرصا هنا شرح ما كان لهم من أثر في الثقافة .

كان اليهود والبصري متشربين في المملكة الإسلامية ، وكانوا عدداً كبيراً ، فقد ذكر بنيامين أحد الرحالة اليهود الذين رحلوا سنة ١١٦٥ م أى نحو سنة ٥٦٠ هجرية « أن عدد اليهود في المملكة الإسلامية عبر العرب كانوا نحو ثلاثمائة ألف » وكانوا منشرون على مهاد دجلة والفرات وفي جزيرة ابن عمر والموصل وعكبة واسط وفي بغداد والحلة ، والكوفة والبصرة ، وفي كثير من بلاد فارس ، في همدان وأصفهان وشيراز ، وكانوا في عربيه وسمرقند ، وكان في فارس بلدان تسمى كل مهما « اليهودية » ، إحداهما ، نجران ، والأخرى بأصفهان وكان بعدد إزدك نحو ألف يهودي ، وكان فيها درب يسمى درب اليهود ، نسب السببه قوم من المحدثين منهم أبو محمد عبد الله بن عبيد الله بن يحيى اليهودي^١ وفي أوائل القرن الثالث الهجري كان يحيى من الحرية من أهل بغداد مائة وثلاثون ألف درهم ، وفي أوائل القرن الرابع كان يحيى منهم ستة عشر ألف دينار والعدنان يدلان على أن من كان بعدد اد ذاك من عبر المسلمين من يدفع الحرية نحو خمسة عشر ألفاً^٢ ويهول ابن حوقل أن البصري في مدينة الرها وكبرت أكثر عدداً .

وكان أغلب المالين في السام يهوداً ، وأغلب أطباء القصور في بغداد بصرى ، واسهر اليهود باحرامهم حرفاً خاصة ، كالصيرفة وداعة الخلود والصياغة^٣ وقال الخياط « أن البصري احمد ، البرادس السهره ، والجيل

١ - معجم اللدان في مادة يهوديه

٢ - مر ملا عن ابن خرداد

٣ - Mez و كذلك ذكر الخياط في رسالة الرد على البصري من ١٧

العتاق، واتخذوا الجوقات، وضربوا بالصَّوَالِجَة، وتحذقوا المدني، ولبسوا
العَلَمَ والمطَبَّة. واتخذوا الشَّكْرِيَّة، وتسموا بالحسن والحسين والعباس
والفضل وعلى^١.

على كل حال كان بين المسلمين كثير من أهل الأديان الأخرى، وخاصة
اليهود والنصارى، وقد خالطهم المسلمون، بل اتخذوا منهم أصدقاء. قال
الجاحظ: أنشدنا أبو صالح مسعود بن قنديل الفَرَّارِي في ناس خالطهم
من اليهود:

وَجَدْنَا فِي الْيَهُودِ رِجَالَ صِدْقٍ عَلَى مَا كَانَ مِنْ دِينٍ مُرِيبٍ
لَعَمْرُكَ إِنِّي وَإِنِّي غَرِيبُ لِمَثَلِ الْمَاءِ خَالَطَهُ الْحَلِيبُ^٢
خَلِيلَانِ اكْتَسَبْتُمُهُمَا، وَإِنِّي لَخَلَّةٌ مَا جِدَّ أَبَدًا كَسُوبُ^٣
وَقَالَ أَبُو الطَّامِحَانِ الْأَسَدِيُّ - وَكَانَ نَدِيمًا لِلنَّاسِ مِنْ بَنِي الْحَدَّاءِ، وَكَانُوا
نَصَارَى فَأَحَدُ نَدَامَتِهِمْ - فَقَالَ:

كَأَنَّ لَمْ يَسْكُنْ فِي الْقَصْرِ قَصْرَ مَقَاتِلِ وَزُورَةَ ظِلِّ نَاعِمٍ وَصَدِيقُ^٤
وَلَمْ أَرَدْ الْبَطْحَاءَ أَمْزُجْ مَاءَهُ بِحَمْرِ مِنْ التُّرُوفَتَيْنِ عَتِيقُ^٥
مَعِيَ كُلُّ قُضْفَا ضِ النَّبَابِ كَأَنَّهُ إِذَا مَا جَرَى فِيهِ الْمُدَامُ فَتِيقُ^٦
بِمَوِ الصَّلْبِ وَالْحَدَّاءِ كُلِّ سَمِيدَعٍ لَهُ فِي الْعُرُوقِ الصَّالِحَاتِ عُرُوقُ^٧
وَإِنِّي وَإِنْ كَانُوا نَصَارَى أَحِبُّهُمْ وَيَرْتَا حُ قَلْبِي أَحْوَهُمْ وَيَتَوَقُّ^٨
وَيَقُولُ أَبُو نَوَاسٍ:

سَأَلْتُ أَخِي أَبَا عَيْسَى وَجَبْرِيلَ لَهُ عَقْلٌ^٩

١ ثلاث رسائل ص ١٨ واللاحق نوع من الثياب سداه حرير ولحمته غير حرير،
والشَّكْرِيَّة جمع شاكري معرب « جاكِر » وهي بالعامرية بمعنى الأجير
٢ الحيوان ٥ : ٥٢ ٣ أبو عيسى هو جبريل بن يحيى بن جويرجس بن يحيى بن
النصراني كان طبيباً لأرشيد

فقلت الرَّاحُ نُعْجِي فقال كثيرها قتلُ
رأيتُ طسائعَ الانسا ن أربعة هي الأصلُ
فأربعة لأربعة لكل طبيعة رطلُ

وبعد ، فقد كان أكل من اليهودية والصراية نفاقة ، وقد تسرب إلى
المسلمين شيء منها ، فلما حاول بيان ذلك .

اليهودية : — أهم مسع للثقافة اليهودية التوراة ، وقد ذكرت في القرآن
الكريم ، ووصفت بأنها كتاب من كتب الله المبرلة « إِنَّا أَنْزَلْنَاهَا التَّوْرَةَ
فِيهَا هُدًى وَنُورٌ » وورد فيه أَب عدي أنى بعدُ مُصدِّقاً لما في التوراة
« وَفَقَّسْنَا عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ بَعْضَ إِنْشَاءِ مَا تَبَيَّنَ يَدِيهِ مِنَ التَّوْرَةِ ،
وَأَتَيْنَاهُ الْإِسْحَاقَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ، وَمُصَدِّقاً لِمَا تَبَيَّنَ يَدِيهِ مِنَ التَّوْرَةِ ،
وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ » ، وقد نص القرآن على بعض أحكام وردت
في التوراة « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ
وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَالْسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ »
وأشهر في الأحاديث كذلك إلى التوراة ، وذكر فيها بعض أحكامها .

من ذلك ما روى أبو داود عن ابن عمر ، قال أنى نهر من اليهود هذه عو
رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القف ، فأناهم في باب المدراس ، فقالوا :
يا أبا القاسم ؛ ان رجلاً مابرى بامرأة فاحكم ، فوصعوا لرسول الله صلى الله
عليه وسلم وسادة فجلس عليها ، ثم قال انبوى بالتوراة فأنى بها ، وربع
الوسادة من تحته ، ووضع التوراة عليها ثم قال : آمب بك ومن أركك ،
ثم قال انبوى بأعلى منك ، فأنى بهى شات ، ثم ذكر قصة الرحم^١
وقد احتلب أبطار المسلمين إلى التوراة على أفعال ثلاثة ، وهال قوم :

١ اظر كذلك البخارى في باب الواحد وباب الاعصام وباب العسير

إيهابها كلها أو أكثرها مدلة معبرة، ليس هي التوراة التي أمرها الله على موسى. وتعرض هؤلاء لتناقضها وتكذيب بعضها لبعض^١. وذهبت طائفة أخرى من أئمة الخلدت والفقه والكلام إلى أن التديل وقع في التأويل لا في البريل، وهذا مذهب البحارى، قال في صحيحه: «يجزفون السكليم عن مواضعه، يربلون وليس أحد يربل لفظ كتاب من كتب الله تعالى ولكسهم يتأولونه على غير تأويله، وهذا هو ما احتشاه الرارى في تفسيره ومن حجة هؤلاء أن التوراة قد طبقت مشارق الأرض ومعارفها، ولا يعلم عدد نسخها إلا الله، ومن الممتنع أن يقع التواطؤ على التديل والتعير في جميع تلك النسخ، بحيث لا يبقى في الأرض نسخة إلا مدله معبرة، والعيبر على مباح واحد وهذا ما يحمله العقل ويشهد بطلانه، فالوا قد بنى الله تعالى لديه عليه السلام محمداً على اليهود بها «فَلْ فَأْتُوا بِالْتَّوْرَةِ فَإِنَّهُمَا إِنْ كُتِبَتْ صَادِقِينَ» الخ وذهبت طائفة ثالثة، إلى أنه قد ريد فيها، وعشر ألفاظ يسيرة، وليكن أكبرها ناق على ما أرل عليه، والسديل في يسير منها حداً ومن احتار هذا القول اس تسمة في كتابه: الخواب الصحيح لمن ندل دس المسيح، ومثل لبالك بما جاء فيها: أن الله سبحانه وبعالى قال لآراهيم عليه السلام ادع ولذك تترك أو واحدك اصحاق «فاصحوا رادة مهم في لفظ التوراة، لأدله ذكروها^٢

وكلمة التوراة تستعملها المسلمون كثيراً للدلالة على كل الكتب المقدسة عند اليهود، ويشمل الربور وغيره، كما يستعملها اليهود أنفسهم أحياناً وكان للهود بحاب ذلك سن وبصانح وشروح، لم تعمل عن موسى عليه السلام كتابة، وإنما تدوول مقامها شهاهاً وبمب على تعاف الأحوال، ثم

١ من أسد من ذهب إلى هذا الرأي ابن حرم في كتابه الفصل في الملل والنحل وقد بحثه غلامفصلاً وأدال في الدليل على ما في التوراة التي بن أدسا م ابن فارح اله
٢ انظر ذلك مناولا في كتاباته اللهام لا ل العلم المحور ه س ٤١٥ و ١٠ وما

دوت بعد ، وهذا هو المسمى بالتلمود ، والتلمود محتكف فيه فيما بينهم ،
فهم من يقبله وهم طائفة الرثابين ، ومنهم من لا يقبله وهم طائفة القرائين .
فأما التوراة فالمعنى الدقيق خمسة أسفار ؛ السفر الأول سفر التكوين
أو الخلق ، وقد ذكر فيه خلق العالم ، وقصة آدم وحواء وأولادهما ، ونوح
والطوفان وتبليل الألسن ، ثم قصة إبراهيم عليه السلام وأسه اسحاق وابنه
يعقوب ويعيسو ، ثم قصة يوسف

والسفر الثانى يسمى الخروج - أى خروج اليهود من مصر - وفيه قصة
موسى من ولادته وتبعته ، وفرعون وحروج بنى اسرائيل من مصر ، وصعود
موسى الجبل وإسراء الله له الألواح

والسفر الثالث سفر اللاويين - أى الأحبار - وفيه حكم القرائين
والطهاره وما يحور أكله ، وغير ذلك من القرائين والحدود
والسفر الرابع سفر العدد ، بعصه فى الشرائع ، وبعصه فى أخبار موسى
وبنى اسرائيل فى التيه وقصه البقرة

والسفر الخامس سفر الشنيه - أى إعادة الناموس -

وفى العهد القديم عبر الوراة ، سفر يوشع وهو فى اسلياء بنى اسرائيل
على فلسطين ، ثم سفر القصة أى الحكام ، ثم أربعة أسفار الملوك الأول فى
أخبار سمویل أو سمویل وشاول أى طالوت ، والثانى فى ذكر داود ، والثالث
والرابع فى سليمان بن داود ومن ملك بنى اسرائيل من بعده .

وأما اليهود فمحموعه من المضافات الديانة الأولى ، مع شروح لرحال
الدين من الأحكام المعافاة ، فيه القوانين اليهودية من قانون عقوبات وقوانين
مدينة ، وبعبارة أخرى فيه تحديد العلاقات الدينية والدنيوية يسجل أفكار
اليهود فى حياتهم وتعاليمهم فى نحو الف عام وتمرر مرحاً تاماً نواحي الشعب
الحلقه سواحيهم الديانة

وقد جُمع التلمود في نحو ثلاثة قرون، اُنتدوا مجمعه في أوائل القرن الرابع للميلاد، وتم في نحو نهاية القرن السادس. ويسمى القسم الأول منه «الميشنا» Michna، وهو مجموعة أحكام استندت على العهد القديم، وقد كتبت باللغة العبرية الأولى. والقسم الثانى يسمى الحيمارة «Gemara» ويتضمن مباحثا لرتابهم - أى فقهاءهم - وقد كتبت باللغة الآرامية وحول هذه الكتب الدينية مسح كثير من الأدب اليهودى والقصاص، والتاريخ والشريع والأساطير.

وكان من اليهودية والوثنية اليونانية، وبين اليهودية والمسيحية راع شديد في الشرق، وخاصة في الاسكندرية - أهم مراكز الثقافة اليونانية - واضطر كثير من اليهود أن يتعلموا اللغة اليونانية ويحكموا بها. وكان هذا الراجح في نوع الحياة الاجتماعية وفي الثقافة وفي الدين، واضطر كثير من اليهود أن يبدلوا حياتهم وأطوارهم نحو الحياة اليونانية - كانوا يجرمون عتبان معاهد التمثيل تمثل فيها روائع يونانية. فشأ حيل جديد لا يرى في ذلك من بأس وهكذا. واضطروا أن يأخذوا بحط من الثقافة اليونانية، وواجهوا مشكلة جديدة وهى الى أى حد يقبلون تعاليم اليونان مع الاحتفاظ بأصول اليهودية؟ وكان من أشهر هؤلاء «فيلاو» الذى حاول أن يوفق بين المعتقدات الدينية اليهودية، وبين العلم اليونانى. فكان من ذلك يهودية مفلسة، لا هى يهودية صرفة ولا فلسفة صرفة. أو «سوفيلو» من أفلاطون والروافين، واستعمل المصطلحات الفلسفية. ولكنه استخدم ذلك كله لأحياء العاطفة الدينية، وبدليل الصعاب التى تواجهها اليهودية. وقد انتعش الكنيسة النصرانية بعد مموت اليهود إراء الفلسفة اليهودية، لأنهم واجهوا ما واجهه اليهود فلمهم^١

١ انظر الفصل الاى كى في العلامه من اليهوده والفلسفه اليونانيه في كتاب
The Language of Israel

وعلى الحملة فقد كان لليهود ثقافة دينية وأدبية وتاريخية وقانونية ، مرحت بعدُ بالثقافة اليونانية .

وقديماً تسربت الثقافة اليهودية إلى من حاورهم من العرب ؛ جاء في الحديث عن ابن عباس ، « كان هذا الحى - من الأنصار - وهم أهل وثن مع هذا الحى من اليهود وهم أهل كتاب ، فكانوا يرون لهم فصلاً عليهم في العلم » وكانوا يعتقدون بكثير من فعلهم ^١ ، وكان ذلك قبيل الاسلام كما يدل عليه تنمة الحديث

وكان بعض المسلمين في العصور الأولى يطلعون على الكتب الأخرى المأثلة ويتلونها ، روى ابن سعد في الطبقات أن أبا الحنبل وإسمه حيلان ابن قزوه ؛ كان يقرأ الكتب . وروى عن مسمونة بنت أبي الحنبل قالت كان أبى يقرأ القرآن في كل سبعة أيام ويحتم التوراة في سببه ، يقرأها بطراً ، فإذا كان يوم يحتمها حشيد لذلك ناس ، وكان يقول كان يقال برل عسد حتمها الرحمة ^٢

وفي الحديث عن أبى هريرة قال « كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها لأهل الاسلام بالعربية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تسكذبوهم ، وقلوا آمنا بالذى أرسل اليها ، وأرسلكم وإلهنا وإلهكم واحد » ^٣ ويروون عن وثب بن مسم أنه كان يقول « لقد قرأ ابن وسعين كتاباً ، كلها أرسل من السماء ، انما وسعون منها في الكتابات ، وفي أبهى الناس ، وعسروا لا يعلموا إلا قليل » ^٤ تسربت هذه الثقافة اليهودية إلى المسلمين من طرق أهمها : من دخل في

١ أخرجه أبو داود ٢ طاف ابن سعد جزء ٧ قسم أول من ١٦١
٣ وفي البخارى أصبأ حديث آخر خالف هذا وهو عن سؤال أهل الكتاب فانطروه
في باب شهادة أهل الكتاب ٤ ابن سعد ٥ ٣٩٧

الاسلام من اليهود، وخاصة مُسلمة الين؛ ككعب الأحبار، ووهب بن منبه وأمثالها. وقد دخل في الاسلام من اليهود كثيرون، كان منهم بعض الصيادين وبعض الساجين، وطلوا يتنابعون إلى عصرنا الذي نُورجه، وكان منهم محدثون ومنهم فصّاح ومنهم فراء، ومنهم أخباريون وأشهر من عرّفنا في عصرنا هذا من أصله يهودي: أبو عبيدة معمر بن المثنى - والآل نعرض لأنواع المعارف التي تأثرت باليهود

وأول ذلك تفسير القرآن ذلك أن القرآن الكريم والتوراة يعلمان كما رأيت - في إيراد بعض المسائل، خاصة في قصص الأنبياء ولكن للقرآن منحي يجاليف منحي التوراة، فانه يصر على مواضع العظة ولا يعرض لتفصيل حريّات المسائل، فهو لا يذكر - عالة - تاريخ الوقائع ولا أسماء اللدان التي حصلت فيها، ولا أسماء الأشخاص الذين حرب على يدهم بعض الحوادث، ولا يدخل في تفاصيل الحريّات انما يتخير ما يمس جوهر الموضوع وموضع العبرة - لأحد لذلك ملاحظة آدم، فقد ورد في القرآن الكريم في مواضع أطولها ما ورد في سورة البقرة منها: وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ، فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأُخْرِجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، وَأَسْكُنُ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرًّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ، فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْ هُنَّ قَوْمٌ فَمِنْهُمْ سَعَى هَذَا بَشَرًا فَلَا حُوفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

وهي من هذا أن القرآن لم يعرض لمساكن الجنة ولا أوع الشجرة التي هي آدم عن الأكل منها ولا من الحيوان الذي تقمصه الشيطان ليربطها ولا

ما كان من تفصيل الحِوَار بين الله تعالى وآدم ولا للبقعة التي طرد اليها آدم بعد خروجه من الجنة ، النخ . ولكن التوراة تعرضت لكل ذلك وأكثر منه فأبانت أن الجنة في عدن شرفاً ، وأن الشجرة التي هبها عنها كانت في وسط الجنة ، وأنها شجرة الحياة ، وأنها شجرة معرفة الخير والشر ، وأن الذي حاطب حواء هو الجنة ، ودكرت ما انتقم الله به من الجنة التي أعوتها بأن جعلها تسعى على بطها وتأكل التراب وانتقم من حواء تنعمها هي ولسلها في حَسَنائها النخ ، ثم المفسرون للقرآن يقولون عن مُسَلِّمة اليهود ما جاء في كتبهم ويصعبونه شروحاً فيحكي الطبري مثلاً عن وهب بن منبه أن هذه الشجرة كان لها ثمرة تأكله الملائكة لخلدهم ، فلما أراد إبليس أن يسترطها دخل في حوف الجنة ، وكانت للجنة أربع قوائم كأنها تحتية من أحسن دابة خلقها الله ، فلما دخلت الجنة الجنة خرج من حوفها إبليس ، فأخذ من الشجرة التي سمى الله عنها آدم وروحه النخ فلما أكل قال الله لحواء يا حواء أنت التي عررت عدى فاك لا تحملي حملاً إلا حملته كرهها فإدا أردت أن تصعي ما في بطنك أشرفي على الموت مراراً ، وقال للجنة أنت الذي دخل الملعون في حوفك حتى عرعدى ، ملعوناً أب لعة تتحول قوائمك في بطنك ، ولا يكن لك ررق إلا التراب ، النخ . وروى عن ابن عباس نحو هذه القصة ١ . وتقرأ تفسير الطبري على هذه الآيات فيتجلى لك بوضوح أنهم أخذوا ما في التوراة وشروحها ، والأحبار التي روي حوفاً ، ووضعوها تفسيراً لآيات القرآن الكريم وهم يروون ذلك عن وهب بن منبه بآراءه ، وعن إسرائيل عن أسباط عن السُّنِّي مره أخرى وهكذا فعلوا في كل ما ورد في القرآن من قصص وردت في التوراة ولم يكن

١ تفسير الطبري ١ ١٨٦ وما بعدها وقد روى الحافظ في الحواشي ٤ ٦٤ عن كتب الأحبار أنه قال مكتوب في التوراة أن حواء عوبت بعسر حصالب وأن آدم عوب بعسر حصالب وأن الجنة عوبت بعسر حصالب ثم ذكرها ، وشك الحافظ في ذلك لأنها ليست في التوراة وقال إن صحب الزوايا عن كتبها إنما كان يعني كتب اليهود جمعها

كل هؤلاء اليهود علماء باليهودية مدققين ، بل كان منهم عوام يعرفون - كما يقول ابن خلدون - ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ، وتساهل المفسرون في مثل ذلك وملئوا كتب التفسير بهذه المقولات^١ . وما زال هذه الاسرائيليات تسكن وتعمو ، حتى امتلأت بها الكتب أمثال قصص الأنبياء للشملي وعى المسلمون بقل تاريخ بن اسرائيل وأنبياهم كما فعل الطبري في تاريخه ، وكما فعل ابن قتيبة في كتابه المعارف وقد أثبت العلم أن كثيراً مما نقل من تاريخ بن اسرائيل غير صحيح ، مما يدل على أن الروايات التي نقلت كان كثير منها ينقل عن العوام وأشباههم ويحد ابن قتيبة يقارن بين ما يرويه وهب ابن منبه وبين ما في البوراة ، ويس أحيا ما بينهما من خلاف وكان اليهود أثر غير قليل في بعض المذاهب الاسلامية ، فإلى التأثير يروى عند الكلام على أحمد بن أبي داود أنه كان داعية إلى القول بحلق القرآن وعبره من مذاهب المعتزلة وأحد ذلك عن بشر المريسي ، وأحد نشر عن الخهم بن صفوان ، وأحد الخهم عن الجعد بن درهم وأحد الجعد عن أنان بن سمعان وأحد أنان عن طالب بن أحمد بن الأعمش وأحد طالب عن حمه .

ليد بن الأعمش اليهودي الذي سخر النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان لسيد يقول بحلق التوراة ، وأول من صنف في ذلك طالب و كان ردها فأهمل الرافضة^٢ .

وروى صاحب العمدة الفريديس الشعي أنه قال لما لك بن معاوية وأحدرك الأهواء المصلحة ، وشربها الرافضة ، فإيه يودهده الأمة ، يعصون الاسلام كما يعص اليهود المصريين ولم يدخلوا في الاسلام رغبة ولا رهبة من الله ، ولكن مقتاً بأهل الاسلام وبعياً عليهم ، وقد حرقتهم على بن أبي طالب . وذلك أن محبة الرافضة لمحبة اليهود قالت اليهود لا يكون المملك الا في آل داود ، وقالت الرافضة لا يكون المملك الا في آل علي بن أبي طالب ، وقال اليهود لا يكون

جهاد في سبيل الله حتى يحرر المسيح المنتظر ويبدأ من السماء ، وقالت
الرافضة لا جهاد في سبيل الله حتى يحرر المهدي ويرسل سبب من السماء
واليهود يؤخرون صلاة المعرب حتى تشتبك النجوم ، وكذلك الرافضة .
واليهود لا ترى الطلاق الثلاث شيئاً وكذا الرافضة ، واليهود لا ترى على
النساء عدّة وكذا الرافضة ، واليهود تستحل دم كل مسلم ، وكذلك الرافضة
واليهود حرقوا التوراة ، وكذلك الرافضة حرقت القرآن واليهود ينتقص
حبر بل وتقول هو عدونا من الملائكة ، وكذلك الرافضة تقول علط حبر بل
في الوحى الى محمد ترك على س أنى طالب ، واليهود لا تأكل لحم الحمر
وكذلك الرافضة الحج ،^١

واحده اليهود كثيراً من المسائل ويبحثوا عنها واحملوها فيها ، فقد بحثوا في
النسح ، وقالوا إن الشريعة لا تكون إلا واحدة ، وقد بدأت موسى وتمت
به ، فلا يجوز النسح لأن النسح في الأوامر تداء ولا يجوز البداء على الله
وتكلموا في التشبيه لأهم وحدوا النوراء بملوءة بألفاظ شعر بالشبهة
مثل الصورة والمسافهة والكلم جهراً والنزول على طور سماء والاستواء
على العرش وحوار الرؤية

وبعرضوا للرحمة أى رجوع بعض الأفراد الى الحياة بعد الموت ،
وحاجهم ذلك من أن عسر أأمانه الله مائه عام ثم بعنه وقالوا إنه مات
وسرح وقال بعضهم عاب وسرح^٢

وهذه الأقوال والخلافات كلها تسربت إلى المسلمين عن أسلم من اليهود ،
فأرأنا المسلمين يبحثون في حوار النسح في القرآن ، كما بحث اليهود في نسح
التوراة وذهب جمهور المسلمين الى حوار نسح الحكم دون النص ، وإلى أن

١ العدد ١ ٢٦٩

٢ حكى هذه الأقوال كلها عن اليهود الشهرستاني في الملل والنحل ص ٨٥ و ٨٦ فانظرها

ذلك وقع فعلا ، ويخالف في وقوعه أبو مسلم الأصمهاى . و يرى المسلمين في كتب أصول الفقه - عند الكلام على النسخ - يناقشون اليهود في رأيهم ، ويجادلونهم ويردون عليهم^١ مما يؤيد وجهة نظرا في أن اليهود هم السبب في إثارة هذه المسألة ، ورأينا بعض الشيعة يرى الداء الذى أسكره اليهود وأقدم من قال به المختار بن عبيد الذى كان يدعو لمحمد بن الحنفية ويقول الشهرستاني : « إنما صار الحمار الى الداء لانه كان يدعى علم ما يحدث من الأحوال اما نوحى نوحى اليه ، ولما رساله من قبل الامام وكان اذا وعد أحماله يكون شئ » وحدوث حادثة فان وافى كونه قوائمه جعله دليلا على صدق دعواه ، وإن لم يوافق قال قد بدا لكم وكان لا يفرق بين النسخ والداء فاذا حار النسخ في الأحكام حار الداء في الأحكام^٢ وقد اعتق كثير من الشيعة مذهب الداء وطبقوه في كثير من مسائلهم التاريخية وقال أحد أمتهم : لا يعبد الله بأحسن من القول بالداء ، لانه يفتح باب التوبة في طلب العفو من الله وكان اليهود أقوى المعارضين في الداء^٣

كذلك اسفل الى المسلمين ما دار بين اليهود في التشبيه فقد وصعت للبحث الآيات القرآنية التى تشعر بذلك مثل « يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » ، « الرِّحْمُ عَلَى الْعَرْشِ اسْمُوتَى » ، « وَاتَّقَى وَحْشَهُ رَبِّكَ ذُو الْحَاذِلِ وَالْإِيمُ كَرَامِ » الخ وما ورد في الحديث كقوله : « قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » وانهم المسلمين فيه أفساما أقوال قوم من السلف يؤمن بذلك ولا تعرض للتأويل بعد أن يعلم قطعاً أن الله لا يشبه شيئاً من المخلوقات ، وذهب جماعة من علاة الشيعة وجماعه من أصحاب الحديث الخشوية الى التشبيه ، وقالوا إنه يحور عليه

١ أطر أصول الحاشي ٢ ١٨٨

٢ الشهرستاني ٥٥ وجد المذهب كله الداء من ١٠

٣ أدار حكاية على زكريا في ١١ ، والأراف لله مودى

الانقال والبرول والصعود والاستقرار، النخ مخدوا في ذلك حدو اليهود في احتلالهم ويقول الشهر ستاني في الكلام على المنتبهة - امهم أجروا (الأحاديث الواردة في ذلك) على ما يتعارف في صفات الأحسام ، وردوا في الأحبار أكاذيب وصعواها، ونسوها الى النبي عليه السلام ، وأكثرها مقتبس من اليهود ، فان التشبه بهم طابع حتى قالوا (في الله تعالى) اشكك عيابه فعاد به الملائكة ، وبكى على طوفان نوح حتى رمدت عيابه ، وان العرش ليضط من تحته كأطيط الرحل الحديد . وروى المشبهة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ولقي ربي فصالحني وكافني ، ووضع يده بين كتفي حتى وجدت نزعاً بأمله اليه ، ويقول في موضع آخر : ولقد كان التشبه صراً حالصاً في اليهود لا في كلهم ، بل في القرائين منهم ، اد وحدوا في البوراة ألقاطاً كثيرة تدل على ذلك » ٢ .

وقال الشيعة - في الرحمة - على نحو ما قال اليهود ، قد كان عند اليهود أن النبي « الباس » صعد الى السماء وسعود فعبد الدين والقانون ، فقال ابن سبأ اليهودي - كما حكى ابن حزم - لما قيل على « لو أنتمونا بنماغة ألب مره ما صدمنا موته ، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً » وبمت هذه الفكرة عند الشيعة ، فقالوا كذلك في بعض الأئمة الذين احبهموا . ثم قالوا كذلك في المهدي المنظر

وترى من هذا أن كثير آ من المسائل الكلامية وغيرها كان مسعها اليهود ، وأنها هللت على قتال ما قالوا وحى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعس سنن من كان هـ - آكم شرراً بشير ودراعا ندراع ، حتى لو دخلوا حجر صب ، سجعوه فلما يا رسول الله اليهود والصارى ؟ قال في ! وكان بعض المتكلمين في العقائد من أصل يهودي كسر المريسي ، وله

آراء كثيرة انهمرد بها ، وكرهه الناس من أحلها حتى كادوا يقتلونه ، وكان من أشهر القائلين بحاق القرآن

وروى اس قتيلة « أن هرون الأعور بن موسى - أحد القراء - كان يهودياً ثم أسلم ، قال الأصمعي قال هرون كتب أقرأ أيدام بالعبرانية يعنى آدم ،^١ ودخلت كتب الأدب بصانح يهودية تروى عن أنبيائهم وصلحائهم ، كالذى روى أن شعناء قال لى إسرائيل « إن الدابة ترداد على كثرة الرابضة لدينا ، وقلوبكم لا ترداد على كثرة الموعظة إلا فسوة . إن الحسد اذا صلح كساه القليل من الطعام ، وإن القلب اذا صلح كساه قليل من الحكمة اكتم سراح أطلعاه الريح ، وكمن عابد أفسده العجب إياى إسرائيل اسمعوا فولى ، فان قائم الحكمة وسامعها شريكان ، وأولاهما بها من حققها بعمله ،^٢

وفد ذهب بعض الباحثين مثل الاستاد شوفان - الى أن بعض قصص ألف ليلة وليلة من أصل يهودى

وعلى كل حال ، فقد كانت هناك ثقافة يهودية ، بعضها صحيح علمياً وبعضها غير صحيح - بعضها أخذ عن أهل العلم بالكتاب ، وبعضها أخذ عن عوام اليهود ، وهذا ودالك بعدد ما الى المسلمين شىء غير قليل وتحادل اليهود والمسلمون ، كل يدعو الى دية ويقيم الحجة على صحته ، وقد حكى لنا الكتب الكثير من هذا الجدل ، من أفادها ما روى عن أوس بن بى فريضة ، فقد أسلمت امرأته ودعه أن يسلم فأبى وقال

دَعَمَنِى إِلَى الْإِسْلَامِ يَوْمَ لَقِيْتَهَا فَقُلْتُ لَهَا لَا تَلِى تَعَالَى تَهْودَى
فَحَضَّنُ عَلَى تَوْرَةِ مُوسَى وَدِينِهِ وَيَقُومُ لِعَمْرِى الدِّينِ دَسُّ مُحَمَّدٍ
كَلَامًا يَرَى أَنَّ الرَّشَادَةَ دِينُهُ وَمِنْ يَهْدِ أَبْوَابِ الْمَرَّاسِدِ تَرْسُدُ
وَكَالِدَى حِكْمَى الصُّغْدَى فِى الْعَيْبِ مِنْ مَافَقْتَهُ دَسُّ يَهُودَى وَمُسْلِمٌ يَقُولُ

الحبر^١ كل هذه المناقشات كانت تصطر كل جانب أن يكون على علم بدين
مناظره، يستمد منه حجته ويدفع به حجة خصمه وكان ذلك من أسباب
انتشار الثقافة بين

النصارى — كذلك ورد في القرآن الكريم آيات تشير إلى الانجيل «
وتعده كتاباً من كتب الله السماوية» ثُمَّ فَهَّمْنَا عَلَى آثَارِهِمْ رَسُولَنَا
وَفَهَّمْنَا بَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَأَنسَاهُ الْإِنجِيلَ » « إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى
ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ
الْقُدُّوسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا، وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ » « وَلَيَحْكُمَنَّ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَرْسَلَ اللَّهُ
فِيهِ » الخ وكان موقف المسلمين إزاء الانجيل واحتمالهم في صحته وتحريره
كاختلافهم في التوراة، بل ذهب ابن حزم وابن تيمية وغيرهما في عدم
الاعتراف بالانجيل الذي بين أيدينا إلى أكثر مما ذهبوا إليه في التوراة^٢.

على كل حال كان للنصرانية ثقافة دينية أهمها الانجيل، وما أحاط به من
شروح، وما راد عليه من قصص وأخبار، وقد تسرب ذلك كله إلى المسلمين
من طرق أهمها بشارى العرب، وقد كانت النصرانية انتشرت بين بعض فئاتهم،
ولا سيما قبيلة بلبس وبحران وكذلك من طريق من أسلمهم من البشارى
وبلبس هذا الأثر في كبير من النواحي، فأول ذلك تفسير القرآن.

ذلك أن القرآن الكريم اشتمل على مواضع وردت في الانجيل، كقصة
عيسى ومريم ومعجرات عيسى عليه السلام، وأسلوب القرآن — كما ذكرنا —
أسلوب موحر، يقتصر على موضع العظة، شاء المفسرون يتناولوا عن مؤلفه
اليهود والنصارى سروحاً لهذه الآيات — إن شئت فقل — فافقاً بتفسير سورة مريم

في الطيرى تحده ينقل شروحا كثيرة من الابطال وتفسيراته ، وما وضع
حولها ، ينقل ذلك عن وهب بن مسبه وعن أسباط وعن ابن حريج
وعن زكريا بن يحيى بن رائدة . وانظر كذلك تفسيره لقوله تعالى - في سورة
آل عمران - في تعداد معجرات عيسى عليه السلام « وَرَسُولًا إِلَى
بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ
كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفَخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ » الآية فيأتى ابن حريج
في تفسير الطائر بالحفاش ، وروى الطيرى عن ابن حنبل عن سبلية عن ابن
اسحق قصة في كهنة ذلك الى آخره ^١ ونصحه ذلك بعد حى رأينا القصص
الطويلة عن زكريا ويحيى بن زكريا ومريم وعيسى عليهم السلام والحواريين
وحديث المائدة في كتاب قصص الانبياء للثعالى ^٢ وأما
ذلك أدخل مسلبة النصارى أقوالا من الابطال دُست على أمهات احاديث

لرسول الله صلى الله عليه وسلم

وقد مثل الأساذ حولك زهير لما دخل على البصرية في الحديث بحديث
« ورحل تصدق بصدقة فأحماها حتى لا يعلم شيئا له ما تنفق يمينه » و حديث
قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم انكم سيرون بعدى أثره وأمورا سكروها
قالوا فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال أدوا إليهم جهنم وسلوا الله حكمكم « بعد أحد
بما ورد في الحبل متى » أعطوا ما تقصر لعصر وما لا لا ، وكذلك الامعان في
تفصيل المعراء على الأسماء ، فان هذا نظر بصري ، وقد ورد في الحديث ويدخل
فهره أمتي الحنة قبل أعضائها محسبا ثعام ، ومثل حديث « كونوا بها كالخمام »
فقد ورد مثله في الحبل مئ « ها أنا أرسلكم في وسط دثاب ، فكونوا حكيما
كالحيات ، وثسطاء كالخمام » وكذلك حديث أنى داود عن أنى الدرداء ، قال
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من اشتكى منك شيئا أو أشتكا

أح له فليقل ربنا الله الذى فى السماء تقدس اسمك ، أمرك فى السماء والأرض ، كما رحمتك فى السماء فاجعل رحمتك فى الأرض ، اعمر لنا حوينا وحطايانا أنت رب الطيبين ، أنزل رحمة من رحمتك ، وشفاء من شفائك على هذا الوجع فيبرؤ » فانه دعاء نصراني مشهور .

ونحن مع موافقتنا للأستاذ حولد زهير فى أن بعض الأقوال البصرانية دخلت فى الحديث ، ونسبنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لا بواقفه على كل ما قال ، ولا على نسبة كل الأحاديث التى ذكرها الى البصرانية ، فثلا بطرة تمثيل الفقير وتعظيمه ليست بصرانية محبة ، بكل الديانات الالهية - من يهودية وبصرانية واسلام - يرى هذا المظهر وطبعى لها أن تراه ، فمن أركان الأديان اتحاد المقياس العمل الصالح لا المال ، وهى مهاجم ما ألعب الناس من تقديرهم الانسان بعاه ، فالذين يرى أن العمل الصالح له قيمة الدأية سواء أفى من عى أو فقير ، بل طبعى أن يكون بعض الأعمال من الفقير أفضل - كالأعمال الخيرية المالية ، إذ تصحبه المغير أعظم ، فعند أن تكون ثوابها أعظم ، ومحمد رسول الله عفى عن العى ولم يشأ أن يكون عبأ ، وكان فى إمكانه أن يكونه ووردب فى القرآن بمسألة آيات تمجد الفقراء الصالحين « لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ ديارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ » « لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحْضِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا فِي الْأَرْضِ » واتحاد الاسلام والبصرانية فى مدح الفقير لا يدل على أحد الاسلام ذلك من البصرانية ، فالوا إن العرفى كان يفصل العى على الفقر ، فقد قال عروء س الوزد

دَعِيَ لِلْعَيْ أَسْعَى فَإِنْ رَأَيْتُ النَّاسَ شَرَّهُمْ فَقَمِر

ولكن قد قال عروء غيره وهو قَسْنُ بْنُ الْحَطِيمِ

عَيْ النَّسِ مَا عَمِرَتْ نَعَى وَفَقْرُ النَّسِ مَا عَمِرَتْ شَقَاؤُ

وليس في هذا ولا ذاك دليل على قولهم ، فكلامنا في الاسلام . والاسلام
 حكمه ما مدنا ، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ
 ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ، وَمَا أُعْطِيَ عَنْهُ مِنَ الْوَعْدِ وَمَا كُتِبَ ، ولكن من غير شك -
 روي في النصرانية واليهودية أخبار كثيرة ، وقصص عن العقراء وفصلهم ،
 أدخلها المسلمون في كتبهم كالذي روي في الاحياء ، أن المسيح صلى الله عليه
 وسلم مر في ساحته برجل بائس مات في عناية ، فأيقظه وقال : يا بائس قم فادكر الله
 تعالى ، فقال ما تريد مني إلى قد ترك الدنيا لأهلها فقال له فهم إدا ، ومر موسى
 عليه السلام برجل بائس على التراب وتحب رأسه لية ، ووجهه ولحيته في التراب
 وهو مبرر بعناية ، فقال يا رب عندك هذا في الدنيا صانع ! فأوحى الله تعالى
 اليه يا موسى أما علمت أني إذا نظرت إلى عبد وحيي كل شيء ويئت عنه الدنيا كلها ،
 وقال المسيح صلى الله عليه وسلم بسده يدخل العبي الخيمة ، وقال موسى عليه
 السلام يا رب من أحباؤك من خلقك حتى أحبهم لأهلك ؟ فقال كل فقير ! الب
 وظهر لما أن هذه الأخبار وأمثالها لو كانت حياة المسلمين بلون خاص ، فقد كان
 الاسلام في أصله يدعو إلى العمل في الحياه ، ولا يحب الرهبانية . وتقدر العمل
 من عمل ، عيأ كان أو فقيرا . ثم رأينا الاخبار إلى وردت بعدد من مثل
 ما حكى في الاحياء تحب على رعة حد منه ، هي الهرب من العبي ، وحب العادة ،
 وان ترك صاحبها العمل في الدنيا . هي رعه أسسه ما تكون بالرهبانية لم
 يعرفها كبرأ في الأيام الأولى من تاريخ الاسلام

روي أن رفة من الأشعريين كانوا في سفر ، فلما قدموا قالوا ما رأينا
 نارسول الله بعدك أفضل من فلان كان بصوم النهار ، فإذا رلنا فام من الليل
 حتى يرحل قال من كان يهتله ولا يكمله ! قالوا كلما قال كماكم أفضل منه
 وفي التاريخ عى مؤرخو المسلمين تاريخ الصاري ، وكان من أولهم في ذلك

اليقوني ، فقد ذكر في تاريخه مقتبسات من الانجيل . وفي تاريخ الطبري طرف من تاريخ النصارى ، ففيه خبر طائفة من الحواريين وخبر جرجيس وهو - كما يقول الطبري - عبد صالح من أهل فلسطين ، أدرك بقايا من حواريين عيسى وأطال في قصته . وفيه خبر أصحاب الكهف ، الخ . وكذلك فعل المسعودي . وقد خلطوا فيما كتبوه بين الأخبار الصحيحة . والأفايصص المتداولة على الألسنة ، كما فعلوا فيما نقلوا من تاريخ اليهود .

وغير هذا الذي ذكرنا كانت المناقشات الدينية بين المسلمين والنصارى ، فقد فتح المسلمون البلاد كالشام والعراق ، وكانت مملوءة بالنصارى فلما هدأت الحرب بالسيف بدأت الخصومة باللسان . كانت المسلمون يدعون الى الاسلام ، فيضطرونهم ذلك الى ذكر الحجج والبراهين على صحة هذا الدين ، فكان رؤساء النصارىة يبالغون بالحجج بحجج فنشأ من هذا جدل كثير ، وكثر ذلك في الدولة الأموية . وكان أكثر ما يكون في الشام ، اذ دمشق عاصمة الخلافة ، وفي الشام كثير من النصارى ، لأنها كانت في يد الرومان النصارى ، ولأن قصور الخلفاء الأمويين في دمشق كان فيها نصارى ، يتولون مناصب كبيرة - من ذلك ما حكى لنا عن يحيى الدمشقي ، فقد كان نصرانياً شديداً التمسك بنصرانيته ، وعمل هو وأبوه في قصر عبد الملك بن مروان وألف يحيى كتاباً للنصارى يدفع فيه دعوة المسلمين ، من أمثال ما جاء فيه : « اذا قال لك العربي ، ما تقول في المسيح ، فقل له . انه كلمة الله ، ثم لبسأل النصراني المسلم بمسمى المسيح في القرآن ، ولا يرض أن يكلم بشيء حتى يجيبه المسلم ، فانه سيضطر الى أن يقول كلمة الله ألقاها الى مريم وروح منه ، فان أجاب بذلك فاسأله : هل كلمة الله وروحه مخلوقة أو غير مخلوقة ؟ فان قال مخلوقة فايرد عليه بأن الله اذن كان ولم تكن له كلمة ولا روح قال يحيى . فان قلت ذلك فسيفهم العربي ، لأن من يرى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين . والمسلمون ردوا على هذا

الاعتراض بأن المراد بالكلمة أنه وحده كلمة الله وأمره، من غير واسطة كما قال «أَنْ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ حَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» وأما الروح فتستعمل بمعنى الرحمة، كقوله تعالى «وَأَيُّهُمْ رُوحٌ مِنْهُ»، وأن عيسى لما لم يكن من نطفة الأب، وإنما تكون من نعمة الملك وُصف بأنه روح، وقد سمي الله حبيباً روحاً، ولم يقل أحد فيه ما قالوا في عيسى، وقال الله في آدم (ويهب فيه من روحي) كما قال في عيسى وسمى القرآن روحاً فقال «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحَنَا مِنْ أَمْرِنَا»، الخ. قالوا وحده لا يرد اعتراض يحيى الدمشقي لأنه اعتراض وارد على فهم طاهر لفظ «كلمة» وروح على كل حال كان هناك حدال من المسلمين والصاري، وكان ذلك يضطر كلا لقراءة كتب الآخر، يستعين بها على تأليف حجة

وفي الفرق الإسلامية نجد طائفة المتألمين النصرانية، فقد تحدت الكنائس النصرانية مثلاً في حلول العذاب، وذهب آباء الكنييسة اليونانية إلى إنكار أبدية عذاب النار^١ ورأيا حسمهم بنصفه وان يقول أن الخنة والبار يعصيان ويهيأ لهما^٢.

ويذهب الأساقفة كرمير^٣ إلى أن فرقة المعتزلة نُسأت من النصرانية، لأن آباء الكنائس كانوا يتجادلون في حرية الإرادة، وأن الإنسان محور أو محور وبعبارة أخرى في مسألة القدر، كما كانوا يجادلون في صفات الله وقد سربت هذه العقائد إلى المعتزلة من طريق الصاري - بعد فتح المسلمين لاسلام - ومن أسهر من احتك بالمسلمين في ذلك العصر الأموي يحيى الدمشقي ومودور أبوكارا Abucara وقد تكلم يحيى في أن الله مصدر الخير. وقال أن الخير يصدر من الله كما يصدر الضوء من الشمس، فتكلم المعتزلة الأولون في القدر وفي صفات الله أحداً عن الصاري

ولسكى لا يرى هذا الرأى ، بل أرى أن مسألة القدر صدرت عن المسلمين
أهملهم ، وكان سبب ذلك أن القرآن الكريم وردت فيه آيات طاهرها الخبر
مثل قوله تعالى « وَلَا يَنْهَعُكُمْ تَعْصِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ
كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُعْزِلَكُمْ هُوَ رُؤُوسُكُمْ وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ » « أَفَمَنْ حَقَّ
عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتُمْ تُبْذَرُونَ فِي النَّارِ » « وَلَقَدْ تَعَنَّاهُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ
رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاحْتَبُوا الطَّاعُونَ فَهَسِبْتُمْ أَنْ هَدَى اللَّهُ وَمَنْهُمْ مَنْ
حَقَّقَ عَلَيْهِ الصَّالِكَةُ » « وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى » وبحسب
هذا آيات ظاهرة الاحتيار ، وأن الانسان مسئول عن عمله مثل « وَأَنْ هَذَا
صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَصَيَّرَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » « فَمَنْ
شَاءَ فَلْيُكْفِرْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُتَّقِ اللَّهَ » « وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ
يُكْمَلْ يَسْمَعِ اللَّهَ جِدَّ اللَّهِ عَمُورًا رَحِيمًا ، وَمَنْ يَكْسِبْ لِنَفْسِهِ فَإِنَّهَا
يَكْسِبُهَا عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا » ووردت أحداث كثيرة
تعرض للقدر ، وكان ذلك مل فتح المسلمين للشام والعراق ، مثل ما روى عن
حارث قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يؤمن أحد حتى يؤمن بالقدر
حيره وشيره وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ،
وعن علي قال « كما في حجارة يبيع العرب قد ، فأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
وبيده مخضرة فجعل يكتب بها الأرض ، ثم قال ما منكم من أحد الا وقد كتب
معهده من البار ومعهده من الجنة ، فقالوا يا رسول الله أفلا يسهل على كما ساء
فقال اعملوا بكل ما سئرا لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فيصير الى
عمل السعادة ، وأما من كان من أهل النجاة فيصير الى عمل النجاة ثم قرأ
« فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْخُسَى فَيَسُدُّ سِرَّهُ لِنَفْسِهِ »^١ وروى

١ امرأ في هذا كتاب شعاع العدل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والعلم لابن القيم

أن علياً - لما انصرف من صفين - قام إليه شيخ ، فقال أخبرنا عن سيرنا إلى الشام أكل نقصاء وقدر ؟ ، الخ ، إلى كثير من أمثال ذلك .

وبرى من هذا أن فكرة القصاص والقدر كانت عند المسلمين قديماً ، ويظهر أنها فكرة تحدث حول كل دين تهرساً ، وقد كانت في اليهودية والنصرانية والمجوسية ، فلم تكن لما ظهرت في الإسلام ، وكان شأنها شأن الديانات الأخرى عدت نصرايه الأصل ؟ بل تاريخ المعتزلة يدلنا على أن جدالهم مع محوس الفرس كان أكثر من جدالهم مع اليهود والنصارى ، وأن كثيراً من أصول مذهبهم وضع للرد على الفرس لا على النصارى ، وأكثر ردهم كان على الجهمية أصحاب جهم من صهيوان الخراساني الأصل ، لهذا يرى أن المعتزلة كانت تشأهم الأولى إسلامية محقة وإن تأثروا بعنصرهم من أهل الديانات الأخرى ، من ناحية أن هذه الديانات كانت تقترح على المعتزلة موضع البرال : فإذا قال المجوسى الذى دخل الإسلام بالتحسيم ، أو قال بالخير نزلها المعتزلة ولكنهم يسندون في حجاجهم على الإسلام والعقل ، أما بعد عصرهم الأول فهذا موضوع آخر سنتناوله عند الكلام في المعتزلة في العصر العباسي إن شاء الله

واسم الحدل بين المسلمين والنصارى في عصرنا العباسي ، وقد حكيت لنا الكتب منها الشيء الكثير كرسالة الخاطبة في الرد على النصارى ،^١ فهى تصور لنا ما كان يشبهه النصارى اليهود من شهاب ، وما كان يدفع به المسلمون تلك الشهاب كما يذكر لنا طرفاً من أحبار اليهود والنصارى ، والسبب الذى من أجله كانت العداوة بين المسلمين والنصارى أقل من العداوة بين المسلمين واليهود ، الخ - ونقول أيضاً أن عبد الله بن اسماعيل الهاشمي كتب رسالة إلى

١ وردت هذه الرسالة اختصاراً في رسائل الخاطبة على هامش السكائل ووردت أصول من ذلك في ترجمته ثلاث رسائل للخاطبة ونسب إلى نهرها وشيخ وكيل

عبد المسيح بن اسحق الكندي يدعوهم إلى الاسلام، فرد عليه عبد المسيح يدعوهم إلى النصرانية، وكان ذلك في عهد المأمون^١ وحكى الخاطى في الحيوان حدا لا كان منه وبين البصارى في الفرائى والدناخ^٢، إلى كثير من أمثال ذلك وكل هذا الخذل يدل على معرفة اليهود والبصارى لسكتب المسلمين بأحدون منها حججهم، ومعرفة المسلمين لسكتب اليهود والبصارى كذلك

وفي الأدب نسر بعض ما للنصرانية إلى الأدب العربى من وجوه عدة ١ - أن بعض الشعراء كانوا بصارى، فأدخلوا في شعرهم العربى شيئاً من النصرانية، وكان أوضح مثل لذلك في العصر الأموى «الأخطل»، فقد ورد في شعره أثر من النصرانية مثل قوله:

ولقد خلعت رب موسى حاهداً واليب دى الخرمات والاستار
وبكل مهيل عليه مسوخته دوى السماء مسوخته حار
لأحترن لاس الخلة مدهه ولأفدن بها إلى الأمصار
وبهول والصلب والفريان لأخلص إلى كتب حاصه - دون مصر -
بما يلبسهم حريته وبارمهم عاره^٣ وروى ابن الأثير أن الأخطل لما قال
لما رأونا والصلب طالعا ومار سرحس وسما ناعا
والخيل لا تحمل إلا دارعا وأنصروا رايانا لوامعا الخ
قال حرر

أه الصلب ومار سرحس بقى شمتاء داب مقابك مهورا^٤

١ ورد اسم الأسالة والأسارة البسا في كتاب الآثار الأده لا دوى، فاسد كلام عبد المسيح على دغ الصاعه للردى قرا للفر، وقال إن هذه الرسالة كتب حوا على كتاب عبد الله بن اسحق الخاطى ومداحت هذه الرسالة حقه رده الماروب إلى حـ أوربا ولكنا نذكر كل البك في أن هذه الرسالة كتبها هى منها إلى رآها المروى لأسباب ليس هنا وضع ذكرها

وقال أيضاً

يستصرون بماءٍ مريحٍ وابسه بعد الصليب ، وما لهم من ناصر
ولكن أثر الصراية في شعره قليل ، كما لا حظ الأستاذ « لاما س » بل
هو متأثر في أيامه بالاسلام أكثر من تأثره بالصراية كقوله
إلى حلفتُ ربّ الرافضات وما أصحى نكحة من حُجُب وأستار
وبالهدى إذا احمرت مدارعها في يوم نك وتشرق وتختار
وما يرمم من شمشط مُحالفة وما يثيب من غوب وأسكار
وقوله

وقد حلفتُ يساً عر كاديه بالله رب ستور اليب دى الحُجُب
وكل مؤف يتدر كان يحمله مُصرح بدماء البدن مُحَصَّب
وكذلك هو في حياته مضطرب من عادات من حوله من الصاري
والمسلمين ، فهو يشرب الخمر ويلق الصليب ، وهو يطلق امرأته ويروح
أحرى بل ويسرى

وفي العصر العباسي لم يستمر كثير من الصاري بالشعر العربي ، وعرف
مهم أبو قابوس قال العُمد « كان أبو قابوس الشاعر رجلاً نصرانياً من
أهل الحيرة » وكان مقطعاً إلى البرامكة مدحهم ويمجونه ، روى من شعره
قليل ، من ذلك أنه استسمح جعفر بن يحيى البرمكي يوماً بلبسه يوم العيد في
الكساية ، فقال من فضيدة

أنا الفصل لو أنصرتنا يوم عيدنا رأيت مُهاهاه لنا في الكنائس
فلا تُلّى من حُمة من حناكم ومن طلسان من حبار الطاليس

١ رعن العمد إذا أسرع في سره ، والمعنى العم يهتدى إلى الحرم ، والأشعث الذي شعر
رأسه أدم وأزود ، والذود جمع عوان وهي المرأة الضعيف والتي كان لها روح

ولكن - على العموم - شعراؤهم في عصرنا قليلون ، وليس لهم ذكر أثر في الشعر العربي ، ولم يكن لهم مثل الأحنف ، أو ما يقرب منه ^١ .

٢ - كان أكبر من ذلك أثرا ما نقل - من المواعظ - عن الرهبان في الأدبار ، وما نقل عن الكسب الصراية كالدي حكي أس فتنة ^٢ قال بعضهم أديب الشام هزرت بدثر حرمله وبه راهب كأن عينيّه عدلاً مرّاد ، وقلت ما بيكيك ؟ فقال يا مسلم ، أنكي على ما فرطت فيه من عمرى ، وعلى يوم مضى من أحلى لم يحسّ فيه عملى ^٣ قال ثم مررت بعد ذلك فسألت عنه فقالوا أسلم وعرا فقتل في بلاد الروم ^٤ ، ويقول أس فتنة أيضا قرأت في الإنجيل ولا تحبوا كسوركم في الأرض حيث يفسدها السوس والدود ، وحيث يفسد السراى ، ولكن احبوا كسوركم في السماء ، فانه حنت تكون كسوركم تكون قلوبكم ، الخ ^٥ وفي العقد الفرند ^٦ قال عيسى عليه السلام للجواريين لا تطروا في أعمال الناس كأنكم أرباب ، وانطروا في أعمالكم كأنكم عبيد فاعمال الناس رحلان مسلى ومعافى ، فارحموا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافية ^٧ ، ولوى رجل راهبا فقال يا راهب صف لنا الدنيا ، فقال الدنيا تحلى الأبدان وتحدّد الآمال وتبعد الأميّة وتقرّب الميّة ^٨ . الى كثير من أمثال ذلك

ومن عرب الأمر أن هذه الأدبار كاتب مسعا لسنتين مياقص أشد المياقص ، كاتب مسعا لرهد وورع وبعد عن الدنيا وسؤوها ، ومخطأ لحص رها والمسلمين ، يروون عن الرهبان أو لهم في الحرب من اللذات كالدي روم ^٩ وكاتب كذلك ما أح الخلد من السعراء والأبداء بحر حو الهما ، وتسدون هسّاها وسياها ، ويهولون في ذلك الهول الخاضع والشجر الخليل ذلك أن

١ أنظر مصاديق ذلك « كتاب شعراء الصراية بعد الاسلام » للذئ لوس شحو

٢ عون الأخبار ٢ ٢٩٧ ٣ عون ٢ ٢٧٠

٤ العدد ١ ٣٥٠ ٥ عدد ١ ٢٧١

الأديار كاب عالاً في أحمل المواضع ، وأحسبها هواء وأجملها مطراً ، تحيط
بها أنواع البساتين وتحمل فيها الأزهار والرياحين ، قال المُجْتَرِي :

مَا مُهْصِي لِنَابَةِ عَسَدٍ لَنِي وَالْمَعْيَى نَالِغَاتٍ مَعِي
رَلُوا رَنَوَةَ الْعِرَاقِ ارْتِدَاداً أَيْ أَرْضِ أَشْعَثُ دَاراً وَأُسْنَى
بِئْسَ دَيْرُ الْعَاقُولِ مُرْسَعٌ أَشْرَفُ مُجْتَلِئُهُ إِلَى دِرْ فُئِي
حَيْثُ بَاتَ الرَّيْتُونَ مِنْ هَوَاةِ الْحِجْلِ عَلَيْهِ وَرُقُ الْجَمَامِ تَعِي
وَشَاعَ عَدُّ الشُّعْرَاءِ مَا فِيهَا مِنْ حَمْرِ مَعْنَى ، وَشَرَابِ حَيْدِ مَصْبِي .

إِنَّ عَجْراً كَمَا يَكُونُ وَعَسْنَا أَنْ تُرَى صَاحِبِي فِي دِيرِ فُئِي
حَسَدًا رَوْصَهُ الْمُدَّتْ لِيلاً وَهَوَاهُ دَاكُ الْمُسْكُ رَدَّتَا
فَدَحَرَى السَّلْسِلُ بِالْمِسْكِ فِيهَا فَحَوَّهَ الدُّنْيَانِ دَنّاً وَدَنّاً

ويظهر أن الجُنَّازِينَ استعملوا شهرة الأديار بالشراب ، فأشبهوا حولها
الجنات ، قال ابن فضل الله العُزَمِيُّ ، وكاتب حول دير العذارى حانات
للخجارين وساتين ومسرهات ،^١ وكاتب نقام لبعض الأديار أعياد سبوتة ،
قال الخالدي في دير الكُتَّابِ ، وله عدد في وقت من السنة يخرج إليه حلاق
من البصري يسام ورجال للإقامة عنده وحاق من المسلمين للطر إليه والرهبة
فيه ، ويجمع إليه أهل الرقب والمُجْتَنِّانِ وتسمع به الأعاني وأنواع الملاحى .
وتدبح به الدنانخ وتشرب الخمر ،^٢

أعجم المُجْتَنِّانِ من الشعراء هذا كله ، فأشبهوا حول الأديار أدناً عرراً ،
وشعراً كبيراً ، هو من الماحضة الفسة تدبح بتمتع ، مثل قول ابن المعبر .
بِالسَّائِي نَالِغِطِرِهِ وَالْكُزَّ ح وَدَّرَ السَّوْسِي نَالَهُ عَوْدِي

كنت عدى أمدوحات من الحسة لكذا بعير حلود
أشرب الرايح وهي تشرب عقى وعلى داك كان قتل الولد
وقول آخر

ما برى الدتر، ماترى أسهل الديسر وقد صار وردة كالداه
لوراها النعم شق عله ما يرى من شقائق النعمان
وآخر

فمنما صورة في ريمة فس الله الذى صورها
رادها الناقش في تحسيتها فصل حسس إبه نصرها
وحبها لا شك عدى فتة وكذا هي عدى من نصرها
أنا للقس عليها حاسد لب عرى عمتا كسرهما

وسرب هذه العادة في كل الأقطار، فوجد شعراء العراق والشام ومصر
يشدون بالأديار ومن فيها وما فيها، وتقرأ كتاب الدارات للشاشي وهسالك
الأبصار لأن فصل الله العمرى فجعج من كره ما قبل من الشعر فيها وسكاهما،
وتراهم قد سلكوا في ذلك كل مسلك، وتفسوا كل من، وهم من مسهر ومخشم
وطريف مؤدب وحليع ماحس وهكذا كانت الأديار مصدراً لعمتين كان
الاس يسمعهما كثيراً في ذلك العصر نعمة حرية زاهدة، تدعو إلى الفرار
من الحياة وارتقاء الموت ونعمة مريحة لاهية، يدعو إلى احدياء الكأس إلى
آخر فطره من فطرا به، كل نوع على الور الذى يهواه، وكل يعنى على أملاه

كذلك نجد إلى المسلمين بعض عادات اليهود والنصارى الدينية، وقد اتحد
بعض المسلمين أعناد النصارى عيداً فيوم السعابين^١ عرف في العصر العباسي

١ السعابين ١٤٠٠ لاصارى قبل الفصح بأربع وع

وما بعده ، وقالت فيه الشعراء شعراً كثيراً من ذلك ما يقوله عند الله من
العباس من الفصل من الربيع

يا شادياً رآمَ اد مَرَّ في السَّعَابِ فتَلِي
يقولُ لي كَيفَ أَصِبحَتِ ، كَيفَ يُصْبِحُ مِثْلِي ؟
ويقول

يا ليله لَسَ لها صُبحٌ وموعداً لَسَ له بُحْبُحٌ
من شادِيٍّ مَرَّ على وَندِهِ السَّيلادُ والسَّلايُ والدَّيْخُ
وفي السَّعَابِ لو اِنَّ به وكان أَقصى الموعِدِ الصُّبحُ
فانَّه أَسْعَدَى على طالمٍ لم يَعرِ عَمَهُ الحودُ والشَّحُ
ويقول .

إِنَّ في القَلْبِ مِنَ الطَّيِّ كُلوْمٌ فدَعِ اللُّوْمَ فإنَّ اللُّوْمَ لَوُمٌ
حَسَدًا يَوْمُ السَّعَابِ وما يَلْبُ فيه منْ بَعِيٍّ لو يَدُومُ
أَن تَكُنْ أَعْظَمْتَ أُنْ هَمُّهُ فالذي رَكِبُ منْ سَدْلِي عَظِيمٌ
لَمْ أَكُنْ أَوَّلَ منْ سَنِّ الهوى فدَعِ اللُّوْمَ فدا دَارَ قَدَمٍ
ويقول

أَن كُنْتَ دَا طِبَ فداوِيَّ ولا تَلْمِ فاللُّوْمَ يَعْرِى
يا نَظْرَهُ أَهْبَ حوى فَاثَلَا منْ شادِيٍّ يَوْمَ السَّعَابِ ، الخ
ورى أن تسمية أن اتحاد المسلسل القصور مساحد كان تقليداً لليهود
والنصارى ، وروى في ذلك الأحاديث الكثيرة مثله أن من كان فيكم كانوا
يتحدون القصور مساحد ألا فلا يتحدوا القصور مساحد ، ويقول الشاعر

« وأكره أن يعظم مخلوق حتى يحمل فيه مسجداً مخافة الفسدة عليه وعلى من بعده من الناس »^١ وعدّد كثيراً من البدع التي أوجب علي ريادة القبور من أئمة الأئمة وإيقاد المصابيح والتوجه الدعاء نحو القبور، وحتم ذلك بقوله « وكل هذه الأشياء من البدع التي يصارع دين البصاري »^٢ وعلى الحملة، فطرة إلى هذا كله تريباً أن قد تسرّب إلى المسلمين - في العصر العباسي - شيء غير قليل من اليهودية والنصرانية في التفسير والحديث، والمذاهب الدينية والعادات والتقاليد، وأهمها كانتا عصرين من عناصر الثقافة العامة في ذلك العصر .

الاسلام — لنس من عرصاً - هنا - أن بين تعاليم الاسلام وما دعا اليه، وما أتى به من أصول وفروع؛ فوضع ذلك قد مر في آخر الاسلام، وأما عرصاً أن بين تاريخ الاسلام في العصر العباسي، فهو بموضوعه أليق. لنس من شك أن العباسيين لم يصنعوا كثيراً من البلدان والأقطار إلى رفعة المملكة الاسلامية، فحين اذا فاربها في ذلك بالدولة الأموية رأينا العهد الأموي أكثر فخراً، وأعظم بشراً للإسلام، ففتح السند ومجارتى وسمرقند إلى كاشغر، في حدود الصين ففتح الأندلس وكان الفاتحون - كما رأينا - فيهم الدعاه إلى الدن، وفيهم العلماء، فلم تكبر الفتح وحقاً سياسياً حرياً فقط، بل كان أيضاً تسراً للدعوة الاسلاميه، وعلماً لأصول الاسلام وفروعه، ووضعاً للنظم الاسلاميه وعلماً للغة العربيه وما إليها، وسع ذلك دخول عدد كبير من أهل البلاد المفتوحة في الاسلام، وكان أكثرهم

١ ابن تيمية في كاشفة الصراط الميم ص ١٦ وما بعدها

٢ ص ١٧٥ وقد عدد في هذا الكتاب أشياء كثيرة من العادات والتقاليد التي أحدثت عن أهل الكتاب والمجوس فارجع إلى ٣ روى عن المؤرخين أن العباسيين كان بدعهم من الحربه في عهد عمر بن الخطاب نحو ما، مليون درهم أو ١٢٠ مليوناً ففتح في عهد عبد الملك بن مروان إلى نحو ٥ مليوناً من كثرة دخول البعث في الاسلام

العباسيين أن يبقوا على التراث الذي ورثوه عن الأمويين ، ويحافظوا على وحدته ، فحجوا بعض الحجاج أولا وفشلوا أخيراً ، وعلى العموم لم يريدوا شيئاً يذكر من الأقطار الأحسنة على المملكة الإسلامية
ولكن - مع هذا - كان للعباسيين أثر كبير في دخول عدد عديد في الإسلام ، من اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم ، مما فتح في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين

وفي نظري أن العباسيين من حسبهم أصحاب السلطان وأولياء الأمر والقائضون على رمام الدولة ، بذلوا في هذا الباب جهداً أكثر من الخلفاء الأمويين - إذا استثنينا عمر بن عبد العزيز - فقد كان نشر الدعوة في العهد الأموي عمل قواد وعلما وأفراد متدينين أكثر منه عمل حكومة ، ولم يكن للخلفاء الأمويين - عالياً - مظهر ديني من هذا القبيل أما الخلفاء العباسيون فقد صنعوا صيغة دينية طاهرة . ونظر إليهم كأهم حماة الإسلام وكان أبو جعفر المنصور أكثر من أحاط الخلافة بالاحلال الديني ، وقوى من حرمة البيت العباسي ، لا من ناحية القوة المادية - فحسب - بل من ناحية القوة الروحية كذلك . وكان من أثر هذا أن الخلفاء العباسيين لما ضعف نفوذهم المادي ، وفقدوا السلطان على الرعية ، ولم يك شيء من القوة في أيديهم طلب هذه السلطة الروحية فيهم ، يسعها القواد والأمراء والوزراء وأصحاب السلطان المادي ، فيستجلبون رضى العامة باعلان رضى الخليفة عنهم وإمداده الروحي لهم ، ومن مظاهر ذلك في هذا العهد أن رأينا السعة للخلفاء تحاط بأنواع من المراسم والشعائر لم تكن معروفة ، ويؤكد اللمعة في الحرم ، وعلى شأن اجتماع أولى الحل والعقد ويحوز ذلك

صيغة الخلفاء العباسيين بهذه الصيغة جعلتهم ينفرون على الدين من بواحي مختلفة ، ويتدخلون في المسائل الدينية أكثر مما كان الأمويون - من ذلك أبا

برى المهدي - كما سبق - تتعقب الرابدة ، ويعين من يلي أمرهم ، ويعاقب من طهر مهم . ويبحث العلما على وضع الكتب في الرد عليهم ، ويسير من بعده من الحلفاء سيرته ، وذلك ما لم يعهده من قبل المهدي . وبرى الرسد يتصل بالقصة والعلما اتصالا لم يعرفه في العهد الأموي ، فلا يجد - مثلاً - قاصاً كان من الخليفة الأموي في القرب والاتصال ؛ ما كان أبو يوسف من الرشيد

و تصور أبو يوسف نظر الناس إلى الخليفة في عصره ، فيقول للرشيد في أول كتابه الخراج : « وإن الله عمه ورحمه وعموه جعل ولاء الأمر لحلفاء في أرضه ، وجعل لهم نوراً بصى للرعية ما أظلم عليهم من الأمور فيما بينهم ، ويبين ما اشتبه من الحقوق عليهم ، وقعد ابراهيم بن السنيّ أمام المأمون على ركبته ، فقال له المأمون تمكّن في قعودك ، فقال ابراهيم والله لا أصع قدر الخلافة ، ولا أحلس إلا حلو من العدد من ندى مولاه ١ »

ويقول البخاري للتوكل ويذكر حروجه يوم عيد الفطر .

أظهرت عرّ الملك فيه تحمّل
لحب يحاطّ الدين فيه ويضمر
حلما الجمال يسير فيه وقد عذب
عُدّد أسير بها التعديب الأكثر
والحلل صهلّ والفوارس تدعى
والسبب نابع والاسنة ترهر
والأرض حاسعه تملّ ثقلها
والجوّ معسكر الخواب أعبر
حتى طلعت صوّ وجهك فاحجب
لك الدجى واحجب ذلك العسر
وافسّ فك الباطرون فاصنع
نومي إلّاك بها وعن تطر
يحدون رؤيتك إلى فاروا بها
من أعبر الله التي لا شكفر
دكروا بطلعك التي فهتلوا
لما طلعت من الصفوف وكروا

حتى انتهت إلى المصلّى لا يسأ نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع لله لا يزهو ولا يتكبر
فلو أنّ مشتاقاً تكلف فوق ما في وسعه لمشي إليك المتبر
أيدت من فصل الخطاب بحكمة تنبى عن الحق المبين وتخير
ووقفت في برد النبي منذ كراً بالله تنذر تارة وتبشر
حتى لقد علم الجهول وأخلصت نفس المرؤى واهتدى المتخير
صلوا ورائك آخذين بعصمة من ربهم وبذمة لا تخفر

وكان من أثر ذلك نشاط الخلفاء في نشر الدعوة إلى الاسلام، مع ما كان من حمية الناس وحماستهم للدعوة، ولذلك رأينا كثيراً من أهل الملل الأخرى يدخلون في الاسلام أفواجا، ولم يكن السبب لدخولهم واحداً، فهناك من غير شك - أسباب لذلك متعددة .

فمنهم من كان يسلم اقتناعاً بالاسلام ، وإيماناً ببساطة عقيدته ويسرها وسهولة فهمها . فيكنى أن يقول الرجل ، لا اله الا الله محمد رسول الله ، ليعد مسلماً من غير مراسم ولا طقوس ، وفي أى مكان وعلى يد أى انسان .

وساعد على ذلك ما لاحظته الأستاذ أرنولد « من أن المذاهب النصرانية من يعاقبة ونساطرة وملكانية وغيرها ، كان بينها من العداء واصطهاد بعضها بعضاً أشد مما كان بين أهل دين ودين آخر . فليس عجيباً أن يهرب آلاف من هذا الاضطهاد والعذاب ، ويلجئوا إلى عقيدة سهلة هى عقيدة الوجدانية »^١ وقد عمل - مجد - في نشر الدعوة في ذلك العصر المتكلمون من المسلمين وعلى رأسهم المعتزلة ، ذلك أن هؤلاء المتكلمين هم الذين كانوا يبحثون في الاسلام ، ويعلمون آراءه وتعاليمه من طريق العقل ؛ على حين أن المحدثين

١ أمار Preaching of Islam لأرنولد ص ٦١ وما بعدها .

والمفسرين وأمثالهم كانوا يخدمون الاسلام من طريق النقل فاصطروا
المتكلمون تمثيلاً مع العقل أن يتسلحوا بكل ما يعينهم في سبيلهم ، فاستعملوا
بالمطلق اليوناني يصوعون في قوله قصاياهم ، وعرفوا آداب الحدل والمباطرة
وتقيدوا بقوانينها ، وفرؤا بعض كتب الفلسفة اليونانية فيذكر المرتضى « أن
النظام كان قد نظر في شيء من كتب الفلاسفة ، فلما وردت البصرة كان يرى
أنه قد أورد من لطف للكلام ما لم يسبق عليه إلى أي الحدل العلاف
قال فاطرت أنا الحدل في ذلك ، خيل إلى أنه لم يكن مشاعلاً قط إلا
به لتصرفه فيه وحذقه في المباطرة فيه ،^١ وبقول في موضع آخر : « إن جعفر
ابن يحيى الرميكي ذكر أرسططاليس فقال النظام قد نقض عليه كتابه ،
فقال جعفر كيف وأنب لا تحس أن نقرأه ؟ فقال أيما أحب إليك أن أقرأه
من أوله إلى آخره ، أم من آخره إلى أوله ؟ ثم اندفع يذكر شيئاً فشيئاً
وينقصه عليه فتعجب منه جعفر »^٢ ثم بطروا في كتب الديانات الأخرى
وتبحروا فيها فيقول المرتضى أيضاً « إن النظام كان يحفظ القرآن والاحتيل
وتفسيرها »^٣ ووصف رجل واصل من عطاء فقال « ليس أحد أعلم بكلام
عالية السعة ومعرفة الخوارج ، وبكلام الرابضة والذهنية والمرحمة وسائر
المخالفين والرد عليهم منه »^٤ وبعد أن أعد المتكلمون - وخاصة المعتزلة -
أنفسهم هذا الأعداد برلوا في المسدان وقاموا بعملين ، أحدهما أنهم
بارلوا الطوائف الأخرى الإسلامية المخالفة لهم بتبادلهم وردود عليهم ،
ويدعواهم إلى عقائدهم الخاصة فالمعتزلة تحارب المخبره ، والمعتزلة « ازل
الرافضة . تحادلوا جميعاً في الخبر والاحبار ، وفي صفات الله وفي التحسيم ،
وفي النواب والعقاب . وروب لسا الكتب السيئة الكثير من هذا
الحدل ، وليس هذا الموضع محلّه وثائهما ما رلهم لأهل الديانات الأخرى

من مجوس ويهود ونصارى ، ودعوتهم الى الاسلام . وكانت هذه الحركة عنيفة في عصرنا ، على أشد ما يكون من العنف ، مانوية يدعون الى دينهم ويظهرون محاسنه ، ويهاجمون الاسلام ويأتون بالحجج ، ويهود ونصارى كذلك . ولم يكن المحدثون وأمثالهم يستطيعون أن يقوموا بمناقضتهم ، اما الذين استطاعوا ذلك وانتدبوا أنفسهم للقيام به هم المتكلمون ، حتى المرتضى ، أن ملك السند طلب الى الرشيد أن يبعث اليه من يناظره في الدين فبعث الرشيد اليه قاضياً لا متكلياً - لأن الرشيد كان قد منع الجدل في الدين وحبس علماء الكلام - فانتدب ملك السند سُمَيَّاً ليجادل القاضى فسأل السمنى القاضى ، أخبرنى عن معبودك هل هو القادر ؟ قال نعم ، قال أفهو قادر على أن يخلق مثله ؟ فقال القاضى : هذه المسألة من علم الكلام ، وهو بدعة وأصحابنا ينكرونها . فقال السمنى للملك : قد كنت أعلمتك دينهم . وكتب ملك السند بذلك الى الرشيد فقامت فيامته وضاق صدره ، وقال أليس لهذا الدين من يناضل عنه ؟ قالوا بلى يا أمير المؤمنين ، هم الذين نهتهم عن الجدل في الدين ، وجماعة منهم في الحبس . فقال : أحضروهم فلما حضروا قال ما تقولون في هذه المسألة ؟ فقال صبي من بينهم : هذا السؤال بحال ، لأن المخلوق لا يكون إلا محدثاً ، والمحدث لا يكون مثل القديم ، فقد استحال أن يقال يقدر على أن يخلق مثله أو لا يقدر ، كما استحال أن يقال يقدر أن يكون عاجزاً أو جاهلاً ، فقال الرشيد : وجهوا اليه هذا الصبي ، فقالوا إنه لا يؤمن أن يسأله على غير هذا ، فقال اختاروا غيره ، فاختاروا معمر بن عباد السلمى (من شيوخ المعتزلة) فُسِمَ في الطريق ،^١

عرف المعتزلة المانوية واليهودية والنصرانية معرفة واسعة ، كما عرف علماء هؤلاء الطوائف الاسلام . وبذل كل فريق الجهد في الدعوة الى دينه والرد

على مخالفه فأسلم على يدهم كثيرون : يقول (المرتضى) انه أسلم على يد
أبي الهذيل العلاف - شيخ المعتزلة - أكثر من ثلاثة آلاف رجل ^١
ويقول ابن خلكان ، إن لآبي الهذيل كتاباً يعرف بميلاس ، وكان ميلاس ^٢
رجلاً مجوسياً فأسلم ، وكان سبب اسلامه أنه جمع بين أبي الهذيل المذكور ^٣
وجاعة من الثوبية فقطعهم ^٤ أبو الهذيل ، فأسلم ميلاس عند ذلك ^٥ ، وحكى
الملاحظ ، أن قساً نصرانياً راهن على أن الصليب الذي في عنقه من خشب
لا يحترق ، لأنه من العود الذي كان المسيح عليه السلام صلب عليه . وكاد يفتن
بذلك ناساً من غير أهل النظر حتى فطن له بعض المتكلمين ، فأتاهم بقطعة
عود تكون بكرمان ، فكانت أبقي على النار من صليبه ^٦ . وحكى المرتضى في
أماله ^٧ ، أن أبا الهذيل في حديثه بلغه أن رجلاً يهودياً قدم البصرة ، وقطع
جماعة من متكلميها ، فقال لعمه يا عم امض في إلى هذا اليهودي حتى أكله ،
والخ عليه في ذلك ، فذهب إليه وما زال به حتى أخفه ^٨ ، ويذكر ابن خلكان
أن واصلاً ألف فيما ألف كتاباً في الدعوة ، والظاهر أنه في الدعوة إلى
الاسلام ، أو الدعوة إلى مذهب الاعتزال . وقد رأينا قبل أن الملاحظ
يؤلف رسالة في النصارى ، يذكر حججهم ويرد عليها ويروى ابن النديم :
أن المأمون أرسل إلى يزدانبيخ - أحد رؤساء المانوية - فأحضره من
الرى - بعد أن أمنه - فقطعه المتكلمون . فقال له المأمون : أسلم
يا يزدانبيخ فلو لا ما أعطيناك إياك من الأمان لكان لنا ولك شأن ! فقال
له يزدانبيخ . نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول ، ولكنك

١ ص ٢٦

٢ يعنى ألزمهم الحجة وقد استعملت كلمة قطعهم في هذا المعنى كثيراً في ذلك العصر

٣ ابن خلكان ١ : ٦٨٥

٤ الخوان ٥ : ٩٥

٥ اطر الحكاية بطولها في أمالى المرتضى ١ : ١٢٤

من لا يبحر الناس على ترك مذهبهم فقال المأمون أجل ، وكل به حفصة
حرفاً عنه من العرواء ، وكان فصيحاً لساناً^١

ومحارب هؤلاء العقليين الذين يدعون إلى الاسلام - من طريق العقل
والحجج المنطقية - كان من يدعو إلى الاسلام من طريق السيرة
الطاهرة ، والخلق النبل ، والحياة الصالحة ، فكان داعياً من طريق المنزل .
ومن ذلك ما حكى ابن حبان « فبذل إليه أسلم يوم مات أحمد بن حنبل
عشرون ألفاً من البصري واليهود والمجوس »^٢ أو من طريق الوعظ
والنصوف . فأبو القاسم الحنيد يهف على حلقته في المسجد علام نصراني
ويسلم^٣ ، وبعد هذا العصر كان أبو الفرج الحوزي واعظاً مؤثراً وقد أسلم
على يده كثيرون

وكان الخلفاء العباسيون من أنشط الخلفاء للدعوة إلى الاسلام للصيغة
الدينية التي شرحناها قبل

وكان المأمون من أحرصهم على ذلك ، فحوله المتكلمون ، يدعون
إلى الاسلام وهو يحبه بشدة ، روى اللادري قال « لما استخلف
المأمون أعزى السعة وأشرؤسة ، ومن انتقص عليه من أهل فرقة ، الحدة
والخ عليهم بالحروب والعارات أيام مقامه بحراسان وبعد ذلك ، وكان
مع تربيته الحول بهم يكاسم بالدعاء إلى الاسلام والطاعة والتزيع
فهما . وقال « وكان المأمون - رحمه الله - يكتب إلى عماله على حراسان
في عرو من لم يكن على الطاعة والاسلام من أهل ما وراء البر ، ويوجه
رسالة فيرصون لمن رعب في الديوان وسمه بهم بالرسالة فادا
وردوا بانه سرفهم وأسى صلاتهم وأوراقهم ، ثم استخلف المعصم بالله

١ القصة - ١٣٨ ٢ حنبل ١ ٣ حنبل ١ ١٦٥

فكان على مثل ذلك حتى صار جل شهود عسكره من جند أهل ما وراء النهر من السعد والأشروسنة وأهل الشاش ، وغيرهم ، وحضر ملوكهم بابه وغلب الاسلام على من هناك »^١

وكان رجل من خراسان ، نصرانياً فأسلم فارتد ؛ فأمر المأمون بحمله الى بغداد ، فسأله ما الذى أوحشك من الاسلام ؟ فقال المرتد : أوحشنى ما رأيت من كثرة الاختلاف فى دينكم ! قال المأمون : فان لنا اختلافين ، أحدهما كالاختلاف فى الأذان وتكبير الجنائز والاختلافات فى التشهد وصلاة الأعياد وتكبير التشريق ، ووجوه القراءات . واختلاف وجوه الفتيا ، وما الى ذلك ، وليس هذا باختلاف اتما هو تخيير وتوسعة وتخفيف من المحنة فمن أذن مثنى وأقام فرادى ، لم يؤثم من أذن مثنى وأقام مثنى ، لا يتعارون ولا يتعابون ، أنت ترى ذلك عياناً ، وتشهد عليه بيانا . والاختلاف الآخر كنحو الاختلاف فى تأويل الآية من كتابنا ، وتأويل الحديث عن نبينا صلى الله عليه وسلم مع إجماعنا على أصل التنزيل ، واتفاقنا على عين الخبر ، فان كان الذى أوحشك هذا ، حتى أنكرت كتابنا ؛ فقد ينبغى أن يكون اللفظ بجميع ما فى التوراة والإنجيل متفقاً على تأويله كالاتفاق على تنزيله ، ولا يكون بين الملتين من اليهود والنصارى اختلاف فى شيء من التأويلات . . . ولو شاء الله أن ينزل كتبه ويجعل كلام أنبيائه ، وورثة رسله لا تحتاج الى تفسير لفعل ، ولكنا لم نر شيئاً - من الدين والدنيا - دُفع اليها على الكفاية . ولو كان الامر كذلك ل سقطت البلوى والمحنة ، وذهبت المسابقة والمنافسة . فرجع الرجل الى الاسلام فخر المأمون ساجداً لله ، ثم قال لأصحابه لا تبرؤوه فى يومه ريثما يعق اسلامه كيلا يقول

عدوه إنه يُسلم رَعةً ، ولا تَسَوًّا تصيدكم من ربه وبصرته وتأنيسه^١
على كل حال نشط الخلفاء العباسيون الأولون في الدعوة إلى الاسلام ،
ولكن هل أن كان مهم إكراه على الدخول في الاسلام ، كما رأينا في موقف
المأمون نحو برداسحب ، فقد اعترف بأن المأمون لا يجبر الناس على ترك
هداهم ، وأقره المأمون على قوله ، يقول الأستاذ « فَيَسْمُكُ » ومع أن
بصارى السرى كان يهل عددهم باستضافتهم الاسلام ، فقلَّ مهم من
أسلم كَرْهًا^٢ ،

نعم ، صدر من بعض الخلفاء في ذلك العصر من اشتد في معاملة
المسيحيين ، كالذي رواه الطبري في حوادث سنة ١٩١ فقد قال « إن الرشيد
أمر بهدم الكنائس بالثغور ، وكسب إلى السبدي بن شاهك بأمره بأحد
أهل الدمة — بمدينة السلام — بمخالفة همتهم هيئة المسلمين في لباسهم
وركوبهم^٣ ، ولكن هذا وأمثاله كان أثرًا من آثار سوء العلاقات السياسية
بين الدولة الإسلامية والمملكة البيزنطية ، لا أثرًا للتعاليم الدينية ، وإلا فلم
كان أمر الرشيد مختصًا بأهل الدمة في بغداد ، دون سائر الأقطار الإسلامية ؟
وطلت الأوامر بمخالفة الدمييين في لباسهم والشديد عليهم تنمو مع نمو سوء
العلاقات السياسية ، حتى بلغت أشدها في أيام الحروب الصليبية ، صدى لما
كان من معاملة الروم للمسلمين

كذلك لا ينكر أن بعض من أسلم إنما أسلم لبسيل الحياه والمصعب ،
كالذي كان من كاووس ملك أشروسه ، فانه لما عُتِبَ في الحرب أظهر
الاسلام ، وكذلك انه جيدر المعروف بالأفشين ، والذي مات في سجن
المعتصم لردفته كما أنما من قبل ؛ وحكى الخهشيارى أن الفصل من سبل (وكان

١ هـ ٥٠٠ م ٦ وورد الحكا : في البعد البريد مع خلاف في بعض ألفاظها

٣ طبري ١ ١٠٠

٢ Muslim Creed ص ٢٨

٤ أطر البلاد ص ٤٣٦ و ٤٣٧

مخوسيا) نقل ليحيى بن خالد البرمكي كتابا من الفارسية الى العربية ، فأعجب
بعمه ونحوه عبارته ، فقال له يحيى : إني أراك ذكياً وسليحاً مبدعاً رفيعاً ،
فأسلم ، حتى أخذ السبيل إلى إدمانك في أمورنا ، والاحسان اليك ، فقال
نعم ، أصلح الله الورير ، أسلم على يديك فقال له يحيى لا ، ودعا سلام
مولاه فقال حد يد هذا القتي وامض به الى جعفر وقل له يدخله على المأمون
- وكان المأمون في حجر جعفر - حتى يسلم على يديه ، ففعل وأسلم على يد المأمون^١
وهو الذي صار فيما بعد ورير المأمون ، والذي لقب بدي الراسس . كما أسلم
بعض الناس فراراً من الخرية ، حتى إن بعض الولاة كتب الى الحجاج^٢ إن
الجرارح قد انكسر ، وإن أهل الذمة قد أسلموا ، ولحقوا بالأمصار فأخذ
الحجاج مهم الحرية مع إسلامهم . وحمل قراء البصرة يكون لما يرون^٣ ٢
واسكن هذه الحرية لم يسكن بالمُرّهقة^٤ فهي لا تؤحد من المسلمين الذي
يُتصدق عليه ولا من أعصى لا حرفة له ولا عمل ، ولا من دمي يصدق
عليه ، ولا من المبرهن الدس في الديارات إذا لم يكونوا من أهل السار .
ولا تؤحد الحرية من الشيخ الكبير الذي لا يستطيع العمل ولا شيء له^٥ ٢
ويدفع العي ٤٨ درهما كل سنة ، ويدفع الوسط ٢٤ درهما ، والعمال والصناع
ويحرمهم ١٢ درهما^٦ وهذا مقدار محمل ، لا يدعو كثيرين أن يهربوا
من دينهم .

وكما أثر البصاري في المذاهب الاسلامية ، والعاداب - كما أسلفنا - أثر
المسلمون في البصاري ، فقد ظهر من البصاري رعات يظهر فيها أثر الاسلام
من ذلك أنه في القرن الثامن الميلادي أي في القرنين الثاني والثالث الهجريين ظهرت

١ الخراج لأبي يوسف

٢ ان الأثر ٤ ١٧٩

٣ الوراء ٢٨٧

٤ والدرهم نحو درثن مصرين ونصف درس

في سبتانيا (Septimania) ^١ حركة تدعو الى اذكاء الاعتراف أمام القسس، وأن ليس للقسس حق في ذلك، وأن يصرح الإنسان الى الله وحده في عهرا ما ارتكب من إثم، والاسلام ليس له قسيسون ورهبان وأحبار، فطبعي أن لا يكون فيه اعتراف ^٢

وكذلك كاتب حركة تدعو الى تحطيم الصُور والتماثيل الدينية « Iconoclasts » ذلك أنه في القرن الثامن والتاسع للميلاد أو القرن الثالث والرابع الهجري طهر مذهب نصراني يرفض بقدس الصور والتماثيل فقد أصدر الامبراطور الروماني « ليو » البالي أمراً سنة ٧٢٦ م يحرم فيه تقديس الصور والتماثيل، وأمر آخر سنة ٧٣٠ م، بعد الاتيان بهذا وثيقة . وكذلك كان قسطنطين الخامس وليو الرابع، على حين كان الباني حريجوري الثاني والثالث وحرمايوس بطريرك القسطنطينية والامراطورة اريبي من مؤيدي عبادة الصور، وحرى بين الطائفتين براع شديد لا محل لتفصيله وكل ما يريد أن يذكره أن بعض المؤرخين يدكروا أن الدعوة الى سد الصور والتماثيل كاتب متأثرة بالاسلام، ويقولون ان كلودئوس claudius أسقف توريس (الذي عين سنة ٨٢٨ م وحول ٢١٣ هجرية) والذي كان يحرق الصور والصلبان، ويهوى عن عبادتها في أسقفية، ولد وروى في الأندلس الاسلامية ^٣ - وكراهية الاسلام للماثل والصور معروفة روى البحارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر وقد سمرت سهوة لى بهرام فيه تماثيل، فلما رآه هتكو وناوَّ وجهه، وقال باعائنة أشد الناس عدائاً يوم القمامه الذين يصاهون بحلق الله، فالب فقطعاه فجلدا منه وساده أو وسادتين ^٤ والاحاديت في هذا الباب مسهيه كدلك وحدث طائفة من البصارى، شرب عقيدته الشك بما هرب

١ سبتانيا معالجه فرنسه ندعه في الحوب البرق لمرسا على البحر الأفس المتوسط

٢ ح ٢ ش ٣ ح ٤ الدوه النافعة من الآثار والفرام السبر

من الوحدة، وأكبر ألوهية المسيح عليه السلام^١

ومسألة أخرى كبرى الأهمية في عصرنا الذي بؤرحه تلك هي أن تصور كثير من المسلمين للإسلام في ذلك العصر يختلف عن تصور المسلمين له في العصور الأولى، حياة العرب الساذجة البسيطة السهلة تعتمد، والديانات المختلفة تسربت، والأعاجم الذين كانوا وثنيين أو مانويين أو يهوديين دخلوا في الإسلام ولم تنق رؤوسهم من كل ما علق بها من الديانات القديمة. وقد عاشوا في المديبات المركبة المعقدة، فطروا إلى الإسلام بعيونهم لا بالعين العربية الأولى وحي ما يقال إن الأمم وإن اختلفت دناً فكل أمة يختلف بطورها في تفاصيل دينها عن الأمم الأخرى، وهي تنظر إلى الدين من خلال تاريخها وطمها الاجتماعية، من خلال أديانها المتعاقبة ومن خلال لغاتها ونفائدها ومن خلال ثقافتها وتربيتها. إلى غير ذلك كل المسلمين يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولكن نظر العالم الواسع القامة إلى الإسلام عبر نظر العامي الخاغل، وكلاهما عبر نظر الصوفي، وهكذا بل نظر المسلمين من المصريين على وجه العموم - إلى الإسلام، يختلف في تفاصيله عن نظر اليهود المسلمين والأتراك المسلمين. لأن كل أمة تتناول عليها من العوامل ما يخالف غيرها، وذلك - من غير شك - حالف من أبطارهم وعقلياتهم، والناس كانوا ينظرون إلى الإسلام نظراً يختلف باختلاف العصور، نجد في ذلك ما رواه البخاري والترمذي عن أنس بن مالك الموفى سنة ٩٠ هـ قال «ما أعرف سناً بما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ول الصلاة» قال أنس صحتهم ما صحتهم فيها^٢، فأنس رضى الله عنه قد شاهد عصر النبي

^١ Hume's Christianity of Islam in Spans ١١٦

^٢ باب الاعتصام بالله

صلى الله عليه وسلم وعصر الأمويين ومع قرب العصرين لاحظ اختلاف الأنظار والأعمال ، وكيف اذا شاهد العباسيين ومن بعدهم قد كان الاسلام سهلاً يسيراً ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم . « إن هذا الدين يسر ، ولن تشدّد الدين أحدٌ الا غلبه » ويقول لا تشددوا على أنفسكم فتشدّد عليكم ، فان هوما شددوا على أنفسهم فتشدد عليهم ، فتلك تقاضاهم في الصوامع والديار ، رهاسه استدعوا ما كننا عليهم ^١ « ، وكان القاسم بن محمد تلبس الحر ، وسالم بن عبد الله تلبس الصوف ، وبغدادان في مسجد المدينة فلا يكره هذا على هذا ، ولا دا على هذا ^٢ ، وكان هناك رقة لبعض الصحابة في العلو في الدين ، فقاومها رسول الله صلى الله عليه وسلم كالذى كان بينه وبين عبد الله بن عمرو ، فقد نلعه أنه لا ينام ولا يُمطر ، ولا يؤدى حقوق أهله إنما كافي العادة فقال له رسول الله يا عبد الله إن لك في رسول الله أسوة حسنة فرسول الله يصوم ويمطر ويأكل اللحم ، ويؤدى الى أهله حقوقهم يا عبد الله إن لله عليك حقاً ، وإن لبدنك عليك حقاً وإن لأهلك عليك حقاً »

وبعد هذا رأينا تشدداً في دين ، وابتداعاً لتقاليد وعُلُوّاً في أواح محلّفاء ، منهم من تلبس الصوف ويأمره ومنهم من يعلو في الأكار على لانسبه قدم حماد بن سلمة البصريه ، فجاءه فرّقه الله حتى وعله ثاب صوف فقال له حماد دع عنك بصرائتك ^٣ وقال ابن السجّاك لأصحاب الصوف ، والله لئن كان لباسكم ومما لسرائركم فقد أحبتكم أن يظلع الناس عليها ، وإن كان مخالفاً لهدى هلكتم ، وكان بعض الموالى يتشدّد في الوصو والطهارة ، ويعلو في ذلك علواً لا يعرفه العرب فكان العرب كرهون منهم ذلك الى كثر من أمثال هذا

١ أخرجه أبو داود ٢ العهد الفر ١ ٢٥ ٣ العهد ١ ٢٥

٤ انظر له ٢ ٩١

وهناك ما هو أهم من هذا ، ذلك أن الناس في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبعده كانوا يقرأون القرآن أو يسمعونوه فيُسمعون بهمهم رُوحه ، فإن عنى علمائهم بشيء من وراء ذلك فما يوضح الآية من سبب للبرول ، أو استشهاد بأبيات من أشعار العرب تفسر لمطاع عربيا ، أو أسلوباً عامصاً . وأكثر ما روى لنا في الطبرى وغيره عن الصحابة في تفسير القرآن هو من هذا القبيل ، وما عرفنا في العصر الأول انجيار الصحابة الى مذاهب دينية وآراء في الملل والنحل . فلما كما في آخر العصر الأموى رأينا الكلام في الصدر ، ورأينا المتكلمين فيه يبطرون الى القرآن من خلال عقيدتهم ، فمن قال بالحزب أول كل آيات الاختيار ، ومن قال بالاختيار أول كل آيات الخبر وسال بعد ذلك السيل في العصر العباسى ، فصارت كل طائفة وأصحاب كل مذهب يبطرون اليه من خلال مذاهبهم . ولئن كان هذا الطرأفاد من ناحية الحداد بين المسلمين وغيرهم والدعوة الى الاسلام - كما بدا في موقف المعتزلة - فقد أساء ناصعاف الروح الدينية وما كانت روحه من احياء القلب أصبح علماء الكلام والمذاهب الدينية ، يبطرون الى القرآن من خلال الفلسفة اليونانية ، وذلك إن كان فيه مران عقلى وتوسيع لبعض مناحى الفكر ، ففيه إصعاف لقوة الروح وحماسة القلب ؛ سواء في ذلك المعتزلة والأشعرية والماتريدييه ، فكلهم استجدموا الأدلة اليونانية في العقائد الدينية ، وهى عبر الطريقة التى محاهها القرآن الكريم في الدعوة الى الدين ، لقد كادوا بعملهم هذا يهبطعون الفصل بين العقل والقلب و يمتنون الناحية العملية على حساب قوة العاطفة ، ان شئت فافرا - لاناب قدره الله - قوله تعالى « وأوحى ربك الى السجل أن ابجدى من الحساب ثبوتاً ومن الشجر ومما نعتشون ثم كل من كل » الثمرات فاستلكنى سئل ربك دُنياً يخرج من بطونها شراب بمصاف أوأنه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يعقلون » ثم أقرأ في

كتب علم الكلام - الحدك من الأشعرية والماتريدية في أن القدرة صفة أولية تتعلق وفق الإرادة ، بمعنى صحة صدور الأثر والتمسك من الترك كما يقول الماتريدية ، أو هي صفة تؤثر في المقدورات عدد تعلقها بها كما يقول الأشاعرة ، وهم من الفرق بين الممحين والرؤحين ! أهم عرص للقرآن الكريم أن يحيي الشعور ببيان علاقة الإنسان القوية بالله والعالم ، وأن يعمل على ذلك متعددة الحياة الروحية ، أما المتكلمون فأرادوا أن يصلوا إلى ذلك من طريق المطلق ، وشأن بين الطريقتين إحياء المطلق لا تملأ القلب حماسة ، ولا سمع في النفس حرارة إيمان ، إنما تفعل ذلك الحياة الروحية

لقد كثرت المذاهب والنحل في ذلك العصر كثرة مذهبه ، حتى يصعب فهم المأمور فيقول « وطائفة قد اتحد كل رجل منهم محاسناً ، اعتقد به رئاسة ، لعله يدعو إلى أن صرب من الدعة ثم لكل رجل منهم يعادى من حاله في الأمر الذي عقد به رئاسة بدعة ويشط بدمه ، وهو قد حاله من أمر الدس بما هو أعظم من ذلك ، إلا أن ذلك أمر لا رئاسة له فيه فسالمه عليه » الخ ، وتستعرض أسماء الفرق والمذاهب في كتاب الملل والنحل للسهرستاني فدهش لكبرتها واختلافاتها وهذه كلها كانت تظر إلى القرآن الكريم بعين مذهبه وتفسره بما تلائمها فالمعتزلي يطق القرآن على مذهبه في الاختيار والصفات والتحسين والتهجين ، و« يؤول ما لا » من ومدد ، وكذلك يفعل السني ، وذلك بخلاف كل الاختلاف عن طار المسلمين الأولين إلى القرآن كان القرآن يدعو إلى الإيمان من طريقين طريق النظر إلى العالم نفسه وطريق التاريخ . فهو يرى أن طار الإنسان إلى العالم يدعم إيمانه وتقوى يمهيه ، في الرياح والسحاب المسحر بين السماء والأرض ، والابل كيف حلفت والسماء كيف رجعت والحيال كيف يصد والأرض كيف سطحت آيات على الله ،

كما أن في الأحاديث التاريخية عن الأنبياء وأممهم ما يدعو الى الايمان ، وهذا النظر ساسب الناس على اختلافهم في استطاعة العالم والجاهل أن يبال الايمان من هذا الطريق ، والدعوة الى الحياة الروحية وحدها هي الدعوة التي يمكن أن توحه الى الناس كافة . فلما أطلع العلماء بالفلسفة اليونانية في العصر العباسي حولوا اتجاه القرآن نفسه الى نوع من الثقافة العقلية والبراهين المنطقية ، ودرسوا القرآن على النحو الذي يدرسون به الحساب والهندسة والهيئة ، فكان في ذلك إصرار بالدين من ناحية القلبية . ونتج عن ذلك تعقيد العقيدة الاسلامية السهلة السمحة ، حتى صار يمثلها تعاليم المتكلمين من معتزلة وأشعرية ، وأصبح أحياناً يمثلها العقائد السفسية ، ودنس السوسية ، وشعر بهذا القصد قوم من الصوفية المخلصين ، ودعوا الى الاسلام من مهجة الاول ، ولكن سرعان ما تحول بعضهم أيضاً إلى الفلسفة يستمد منها ، كما سنبينه ان شاء الله .

وكان كلما تعمق المسلمون في العلوم والفلسفة نظروا الى القرآن من حلالها ، فادا أتت آية في الرد والبرق شرحوها بكل ما وصل اليه علمهم في الطواهر الخوثة ، ، وإذا أتت آية في النجوم والسماء طبقوا ما علموا من علم الهيئة ، وإذا أتت اشارة في انة الى خبر أو اختيار عدّدوا مذاهب المتكلمين فيها ، وإذا أتت مسألة نحوثة أفاضوا في الخلافات النحوثة بين الصريين والكوفيين وعلى الخلة ، فقد كنسوا كل ما عرفوا من علوم حول الآنات الفرائية ، وصحح ذلك على توالى الأزمان ، كما ترى بعد في محسر الفجر الرارى ، فميه كل شيء وصل اليه المسلمون إلا شذأ واحداً ، هو شرح روح القرآن

ولكن إن كانت هذه نقطة ضعف في الفلسفة والعلوم من ناحية الدين

فقد كان لها فصل كبير من الناحية الدينية أيضاً ، ذلك أن الناس واحشوا
مشكله كبرى في العصر العباسى ، رأوا مدينيات عظيمة لأمم مختلفة ، ورئها
المملوك الاسلاميه ، ورأوا عادات مختلفة لأمم متعددة في جميع مناحى الحياه ،
ورأوا معاملات تجارية وسطا للأحوال الشخصيه تأثرت بديانات الأمم
المختلفة ، وهكذا في كل ناحيه من الواحى الاجتماعيه ، سواء كانت بواحى
اقتصاديه أم سياسيه أم قانونيه . ورأوا - من ناحيه أخرى - أن الاسلام
أنى بأصول يجب المحافظه عليها ، وأب فيه بصوص كذلك على حريات
يجب مراعاتها ، ولكن في كل عصر يحدث من الأفصيه والأحداث ما لم
يكى حدث من قبل ، ولم يرد فيه نص فكان أمام العلماء أن يطوروا باحدى
العينين الى فواعد الاسلام وبالعالميه ، وبالعين الأخرى الى المدينه العباسيه ، وما
حدث فيها من مظاهر وأحداث شتى ، وكان لابد من أن يطبقوا فواعد الاسلام
على تلك الأحداث - ولم يكن هذا بالأمر الهين - نعم عرست هذه
المشكله في تاريخ الاسلام من قبل العباسيين ، قد واحشها عمر بن الخطاب
رضى الله عنه ، بعد أن فجت الفصح ومُصّرت الأمصار ، ودخلت أُمم
مختلفه العقائد والنظم واللغات تحك حكم الاسلام ، وبذلك من الجهد هو
ومن حوله من العلماء ما لا يقدر ، وصرب مثلاً صالحاً ماى بأنى بعده ولذلك
نص المشترعون على العمل برأيه في كثير من نظام الفصح والجهاد والصرائب ،
وبصو ذلك ، وعدوه مثلمهم الذى يحتدى . وواجه هذه المشكله الأمويون ،
خشروا في نظام الدواوين والقود ونحوها ، فخطوا بذلك خطوه ثانية ولكن
المشكله أمام العباسيين كانت أعقد لأن دهشه الفتح قد رالب ، والأمم التى
دخلت في الاسلام استقرت وتسلكت جيلا جديداً ، ورث من آثانه وورث
من المسلمين ، والعباسيون - كما رأينا قبل - لم يشاهوا أن يعيشوا عيشه
سادحه كن فىلهم من الأمويين ، وتعلت العاصر الأخرى كالفرس ذات

الحصارة المركبة ، فكان من ذلك كله أن أرادوا أن يصعوا بطما كاملة شاملة ، وأن يواجها هذه المشاكل ويحلوها حلا نقواس ومبادئ ، لا تأمر حرئ ولا رأى فرعى . فأعانتهم العلوم فى ذلك العصر على هذا كله ، ولولا العلوم ما استطاعوا فرأنا أنا يوسف فى كتابه « الخراج » بصع النظام المالى لدولة الرشيد فيقرر نظام الأرض ومسحها ، وما تؤحد منها وكيف يكون ذلك ، ويضع نظام الضرائب عبر الأرض مما يحرج البحر ويحوى ، ويضع نظام الرى من الآبار والآبار . ويحد الأئمة الأربعة وعبر الأربعة يتجهدون فى وضع القواس من مالتة وحائنة وما يسمى بالأحوال الشخصية ، وعبر الفقههاء يصعون بطما إدارته كنظام الشرطة والحد والجيش ، وقد تتعارض نظم الفقهاء مع نظم الإداريين فسطر فى الوفاق بينهما ، ونوصع نظام البريد والمصانع والبحارة ويحوىها ، كل هذه حركات كانت فى الدولة العباسية نشطة قوية ، وكانت حاصعة فى مبادئها للعواعد الأساسية للإسلام . وبذلك نستطيع أن نقول إنه فى هذا العصر فُسَّ الإسلام وأصبح هو النظام لحكمومه مدّنة - بالمعنى العصرى - نعم كان هناك خروج عن الإسلام فى بعض التصرفات ، وكان هناك بعض فى سمد الأحكام القصائية ، وكان هناك نقص فى إعطاء الأحكام الفقهية سلطة القانون ، ولكن هذا لا ينقص ما ذكرنا من أن الروح العامة - فى الشرع ووضع النظم - كانت تنقيد بأصول الإسلام وأنه لولا اشتغال المسلمين بالعلم فى فروعه المختلفة ما كان يمكن ذلك وهذا الا - - سلام معانيه ونظم حكمه أطلَّ كل الأمم الإسلاميه على اختلاف أنواعها من آربن وساميين وحاميين يحصعون لسلطانه ، ويمرون فى نظامهم وقصائهم ومعاملاتهم على ما فس من أحكامهم ومن أجل هذا أحبد العروى من الأمم تتقلص ويحل محلها وحدة إسلامية . ومن أجل ذلك أنصأ كانت هذه الوحدة متجربة فى العصر العباسى أكثر مما كان

في العهد الأموي ، ودخل الاسلام في الحياة العامة وفي السياسة وفي الادارة ، وتأثر التشريع بعادات الناس ، وتأثرت عادات الناس بالتشريع .
كان الاسلام ديناً في مكة ، وكان ديناً وحكاماً في المدينة ، وكان ديناً وحكاماً ومدنية في بغداد وسائر المملكة الاسلامية في العصر العباسي . ولعل هذا من الأسباب التي دعت إلى دخول كثيرين في الاسلام في ذلك العصر ، فقد كان الناس يتنفسون اسلاماً أينما حلوا ، في الببت ، في الشارع ، في المحكمة ، في المعاملات التجارية ، في الضرائب ، في التعليم ، في كل مرافق الحياة .

وبعد فقد كان للاسلام ثقافة واسعة من تفسير للقرآن واشتغال بالحديث وتشريع الأحكام ، ولكن محل ذلك كله الكلام في الحركة العلمية إن شاء الله .

الفصل السادس

امتزاج الثقافات

هذه الثقافات التي ذكرنا من فارسية وهندية ، ويونانية وعربية ومن
يهودية وبصراية واسلام ، التقت كلها في العراق في عصرنا الذي نؤرخه .
ولكن كل ثقافة في أول أمرها كانت تشق لنفسها حدوداً حاصراً بها بمتار
بلونه وطعمه ، ثم لم تلت الا قليلاً حتى تلاقت ، وكوّنت ميراً أعطيها نصيب
فيه حدوداً مختلفة الألوان والطعوم ، مختلفة العناصر

والعلاء - على اختلاف أنواعهم - لم يكونوا كلهم يسيبسون ماء الهر
الاعظم ، ولا يدوقون طعمه ، وكان منهم من يخرج الى نادية العراق يردُّ
الحدود العري صافياً قبل أن تذكره الحصارة ، يستقي منه ما شاء أن يستقي ،
ويعود الى الحصر وقد تروى عما استساعه من ماء يعيش عليه ولا يشرب الا
منه ، وإذا استسقى فلا تسقى الا منه . أولئك أمثال الأصمعي الذي حفظ - كما
يقولون - اثني عشر ألف أرحورة من أراحيب العرب ، وحفظ الكثير من قصائدهم
وبوادعهم ولعنتهم ، وتخصص لذلك يؤلف فيه ويعلم في المسند ويحاضر الحلما
والولاء وأمثالهم . وكأني رنّد الأناضلي الذي يجيد بواذر اللغة وعريبها .
وكما داراؤه وحلّف الأحمر والمفصل الصبي وأني عمر والنسائي ومحمد
ابن سلام الحنفي ، هؤلاء كانوا لا يعجزهم الا الحدود العري ، يرحلون
الله ويأخذون منه ، وينقلون في وائله ، ويروون شعره ولعنه وأدبه ،
ويقصون بواذره مهما نهت ، ويحشون كل شيء له . ثم يذهبون الى العراق
يعلمون عن مائه ، وينشرون بعدوته وصفائه ، فان عرض لهم ماء من حدول

آخر عافوه واستكروهو ونجته نفوسهم ،
ومهم من كان لا يحب الا الحدول اليوناني ، يتعلم كتبه ولغته ، ويستلهم
مؤلفاته ، ولا يرى العمل الا فيه ، ولا الحكمة الا صادرة عنه ومقتبسة منه ،
كاطباء السريان في ذلك العصر ، وهكذا

ومن الناس من يستقي من حدولين ، يرد هذا مرة وذاك مرة ، حتى إذا
علَّ ومَلَّ مَلَأَ منهما كلَّ آنثته ، وعاد فرح العنصرين وكوّن منهما شيئاً
جديداً يستسعه الناس فيفتخون به وسطعونه ؛ كالذي فعل أبو عبيدة
مُعَمرُ بنُ النخعي وهو مؤنَّى فارسي ، اطلع على آداب الفرس وأحبارها وملوكها
وحكامها ومحاسنها ومساوئها ، وعرف أخبار العرب وآئنها ولغتها وأقاصيصها
وحقائقها وحرافاتها ، وروى أيام العرب الى يتناقلها المؤرّخون الى اليوم
فكان واسع الاطلاع في الأدبين - العربي والفارسي - وكان يجلس الى الناس
فيحدث بأخبار هؤلاء وهؤلاء ، ويقارن بين معاصر العرب ومعاصر الفرس ،
ويؤلف الكتب في هذا وفي ذاك ، يؤلف في « فضائل الفرس » و « مآثر
العرب » ومثالبهم فطَّلَعَ على الناس شفايف في وعاء واحد ، فسكره من
تعصّب للعرب ، ورأوا ماءه ليس صافياً ، ولا طعمه بالذي أئتمروا واعبادوا
الزّيّ به وأحبه من يبرع الى الفرس كالمؤصلي وأبي نواس ، ومن يمسح
صدره بكل علم وحر ، ويرى الحكمة صاله المؤمن ينسُدُّها حجب
وحدها كالحاحط

ومهم من شقف أكثر من ثقافتين ، وتأدب بأكثر من أدبين كما
سيأتي بيانه

وفي الحق ، أن الحدول العربي كاد يكون مستقي مستقي الناس جميعاً ، إذا نحن
استتبنا طائفة من السريانيين الذين يتفقهون بالثقافة اليونانية ، أو الخوس
الذين تأدّبون بالأدب الفارسية ، ويديون بالديانة الزردشتية وأمثالهم ،

أما غير هؤلاء فكأنوا يأخذون بحظ من الجدول العربي قل أو أكثر ، ذلك لأن الدولة الساسية عربية محلفاتها ولعنها وديها ، ودوله الأدب عربية ، ولا يحيا فيها إلا ما كان عربياً ، فاضطر كل دى أدب وكل دى علم ، وكل دى لعه أن يعلم اللغة العربية ، يصوع فيها أفكاره وأدبه وعلمه فمن تسجر في العلوم اليونانية وحب أن يُجرح ما علم إلى اللغة العربية ومن تأدب بالأدب الفارسي فلا قيمة له إلا أن يجرح أدبه باللغة العربية وإذا كان رياضياً هدياً ، أو طبيباً هدياً فليس له خطوة إلا أن يعرب ما علم وهكذا لذلك كان هذا الجدول مورداً عاماً للأدباء والعلماء ، وكان من ذلك أن قوماً وفروا جهدهم له ، بتسجرون منه ولا يستقون إلا منه وفوماً تسجروا في غيره ، ولكن اضطروا إلى وروده وفوروده ، تستعيون مائة على إساعة ما عندهم للناس .

* * *

وهما يعترصا سؤال لا بد منه ، وهى أى أنواع الثقافات كان أكثر أراً وأشد نفوذاً وأقوى سلطاناً ، الثقافة العربية بما لها من لغة وأدب ودين ؟ أم الثقافة الفارسية بما لها من نظام وأدب ؟ أم الثقافة اليونانية بما لها من علم وفلسفة ؟ وإن سئب وصعب السؤال بهذه الصيغة أى الثقافات كان أكثر تأثيراً في الثقافة العربية ، أ الثقافة الفارسية ، أم الثقافة اليونانية ؟ نعم ، كلما الثقافة من لوب الثقافة العربية بلون ما كان يكون لولاهما ، ولكن أى اللواتي كان راءها باصراً ، وأهما كان صعباً شاحاً

ذلك سؤال عويص ، ولكن يظهر لي أن أسد طريق ألا نحيط إحاطة مطلقة ، وأن نقول ان كل ثقافة من هذه الثقافات كانت لها « منطقة نفوذ » ، لا تكاد تراحمها فيها الثقافات الأخرى ، فالعلوم الرياضية من حساب وحبر وهندسة وفلك وطب وما إليه وفلسفه وما إليها كانت منطقة النفوذ

اليوناني ، تراحمها فيها الثقافة الهندية ، ولكن مراحمه غير عيفة . فأساس هذه الأشياء كلها عند المسلمين هو الأساس اليوناني - وإن كان بعض أركانها هندية - والمسيح الذي انتع في هذه العاوم مذهب يوناني في منطق وطريقة تأليفه ، وما علق عليه من شروح وكتب هذه العلوم عليها مسحة خاصة هي غير المسحة الأدبية ، وهي غير المسحة الجغرافية والتاريخية ، هي مسحة يونانية بحته ، لأنها تأثرت كل الأثر بما ترحم من اليونان ، وطالت حافظة لشكلها ، حتى بعد أن ألف المسلمون فيها وقد بدأت الرياضة الهندية والملك الهندي تدخل في ثابا ما ألف المسلمون في هذه العاوم ، ولكنهم ما لبثت أن دانت .

أما الأدب فلم يتأثر كثيراً بالأدب اليوناني ، وهذا طاهر فيما ألف من الكتب في هذا العصر ، فمذهبها عرب لا يصل نسب إلى المذهب اليوناني ، فلا أثر للترتيب المنطقي فيه ولا ترى وحدة للكتابات ولا للآب ، كما رأينا في كتاب الكامل للهرد ، وكما يرى في البيان والتبيين للحافظ ، إنما هي حريثات جمع حيثما اتفق ، هي أشبه بسمر العلماء في المجالس فأما موضوع واحد يرتب فيه كل ما يراد أن يقال وتسلسل أفكاره ، وسلبك آله إلى يائه بالتدريج ، كما يفعل العقل اليوناني ، فذلك ما لا نجد في كتب الأدب العربي .

هذا من ناحية الشكل ، وأما من ناحية الموضوع ، فإن ما فيها من أدب شيرقي فارسي أو هندي أكثر مما فيها من أثر يوناني ، وفيها الحكم عن أردشير ورجهر أكثر مما عن أفلاطون وأرسطو ، وفيها نظام الحكم الفارسي لا نظام الحكم اليوناني ، وفيها تصور للعدل وطبقات الناس ، كما يتصوره الفرس وفيها توقيعات الملوك وقصصهم مع رعيتهم على النحو الفارسي لا النحو اليوناني ، وعلى الحملة معود الفرس في الأدب أكثر من

يهود اليونان ، وقد حاولنا فيما سبق بيان السبب في ذلك
وما يحث التنده له أن كثيراً من حاملي لواء الأدب في ذلك العصر ، من
شعراء وكتاب كانوا من أصل فارسي من ناحية الآيونين معاً أو أحدهما ثم
تعلّموا اللغة العربية وحذقوها فكان تحديدهم للأدب مديناً للفرس
والعرب معاً ، فأدخلوا على الأدب العربي عناصر جديدة لم تكن
الفارسي يحتج تشبيهات جديدة لم يستعملها العرب ، وأبو الغناهيم رعم الشعر
الديني والسائق اليه من الموالى ، وأبو نواس المتخصص في الجمر وما إليه ، والفاخر
للناس باباً من الهجاء لم يأنحوه من قبل هو نصف فارسي وكذلك الشأن في
الكثبات وما أدخلوا من أسلوب ، كاس المقفع وسهل بن هارون ، كل
هؤلاء كانوا من أصل فارسي أو ما يقرب منه مما أنتجوه من غير شك - نتاج
للأصل الفارسي والثقافة العربية ، ومولّد للحياة الاجتماعية التي كان يعيشها
العراق - وقل أن نجد من هؤلاء الأدياء من كان من أصل رومي ، يتلون
بلون الروم ويتشقق ثقافتهم ، وإذا كان الأدب العباسي أساساً كبيراً من
أسس الأدب حري الناس بعد على مواله وحدوا حدوده وإذا كان من ساهم
في هذا الأساس هم الفرس لا اليونان ، أمكننا أن نستنتج أن يهود اليونان
في الأدب العربي ضعيف

ثم من الحق أن يهود العرب في أدهم - وخاصة في شعرهم -
كان أقوى من أي يهود آخر ، فقد ظل الشعر حافظاً لأورانه الجاهلية
وقالده إلى عصرنا هذا ، ولم تستطع أمة يهودها مهما عظم أن تحوله .
وكل ما قلنا من أثر فارسي ، فاما كان في بعض العناصر - التي نصف في القالب -
لا في القالب نفسه ، وأبو نواس يحاول أن يخرج على الجاهليين ، ويقول :
صَعَهُ الطَّائِلُ بِأَلَعَهُ الْهَلْمُ فَأَحْتَمِلْ صِمَاتِكَ لِأَمَةِ الْكَرَمِ
ولكنه - مع هذا - لا يستطيع أن يتحرر من قيوده ، ولو فعل لما فرى

ولا سمع. ويصف الخاطى شعور الناس به في عصره - نحو الشعر الجاهلى والراث الجاهلى، فيقول « لهم يصلونه على الشعر الاسلامى، وهم به أكثر ولو عا، وأشد تقديرًا، ويقول « لهم يعدون حاتمًا أحوذ العرب، ولو كان الأمر معوضاً الى تقدير الرأى لسكان ينبغى لعالم من صصعة أن يكون من المشهورين بالحدود، دون هرم وحاتم فإن رعب أن عالماً كان اسلامياً، وكان حاتم في الجاهلية، والناس بمآثر العرب في الجاهلية أشد كلفاً فقد صدق، « ويقول « أن أيام الاسلام ورحالها لم تكن أكبر في العوس، وأحل في الصدور من رجال الجاهلية مع قرب العهد. ومع الاسلام الذى شملهم، وحمله الله تعالى أولى بهم من أرحامهم، كل هذا جعل تأثير الأدب الجاهلى في الأدب الاسلامى شديداً فوقاً، وجعل الاسلاميين يحدون حدوده ولا يخرجون - كثيراً - عن قيوده فلئن كانت الثقافات الأجنبية في العلوم واصحة الأثر فأثرها في الأدب حفيف، ولو كان شديداً قوياً لأدحوا على محور الشعر الجاهلية محوراً فارسية او يونانية ولتحرروا أحياناً من العافية، ولأدحوا صرب الشعر القصصى والمثلى ولرسخوا طريقة حديده لمج القصيدة، فلم يتقيدوا سكاء أطلال ولا وفوف على ديار، ولهجروا العزل الطويل يدخلون به على مدح الممدوح ولعلوا كثيراً من أمثال ذلك والحدث ثورة في الشعر والأدب، فقلته نقلة جديدة كما حدثت في العلوم - نعم، حدثت تغير من دخول بعض الفنون الشعرية، واصطاعها بصنع الحياة الاجتماعية ونحو ذلك، ولكنه تغير حفيف، لا يكاد يرى الا بالمخبر - كما طب العرب في الجاهلية وطب حيين من الحق ومحيي شوع من فرق اوكم بين طر العربى إلى الانواء والحدوم وطر يوجب ان لم يكن ماروى من فقه عن ابن مسعود وما روى عن محمد بن الحسن، ونحو

أنى الأسود الدؤلى كما يروون ويحوسدونه . ولكمك لا تجد هذه المسافات الواسعة بين الشعر الجاهلى والشعر الاسلامى والعباسى .

وعلى الجملة فقد كاتب نواحى التأثير ومصادره ومقداره مختلفة اختلافاً كبيراً وعلى أشد ما يكون من دقة ، إن أب حاولت أن تعبر عن ذلك بأرقام حائتك فونتك ، ولم تجد شيئاً لذلك كل ما تستطيع أن تقوله ان طبيعة الثقافة اليونانية عقلية منطقية ، تحاول أن تجعل لكل شىء معدمات ونتائج . وهذا الصرب تحلى عند المسلمين فى الرياضيات والفلسفة وما لهما ، وأنت هذه الأشياء فى العهد العباسى ومواضعها الحالية - تقرئاً - فكان من السهل أن يصعب بالصعوبة اليونانية من غير كبير مراوحة ، وطبيعة الثقافة الفارسية على ما وصلت إليها فلسفة عملية ، من حكم يصاغ حول العدل والظلم ونظام الحكم ، ويحوى ذلك نمازاه فى الأدب الكبير والصغير لاس المقفع ، لئس فيها مجال كبير للظلمات كما هو الشأن عند اليونان ، ولكن محارب عليه تحرب فصاع فى قالب حكمة أو مثل . وهذا الروع استساعه العرب فى أدهم لانه أشبه بأمنالهم ، وطبيعة الثقافة الهندية مريح من حكمة ، كالتى فلسا فى الفرس تتجلى فى مثل كلمة ودمة ، ومن نظريات فلسفة وروايات كالتى عند اليونان ، ولكن يلاحظ البروى أنهم لا يجيدون بعلاها ، ولا البرهان عليها - كما يفعل اليونان - وطبيعة الثقافة العربية الأدبية لسانه ، أين سىء فيها حاملها الغنى ، وأنها نب البذمة وندحة السليفة ووليدة الفطره ، وهذا هو السبب فيما حكى الجاحظ ، اذ يقول : وقد نقلت كتب الهند وترجم حكم اليونان ، وحوت آداب الفرس ، فبعضها ارداد حساً وبعضها ما انقص شيئاً . ولو حولت حكمة العرب لطل ذلك المعجز الذى هو الورل . مع أنهم لو حولوها لم يحدوا فى معانيها شيئاً لم تذكره العجم فى كتبهم ، التى وصفت لمعانيهم وفطنتهم وحكمهم ، وسبب ذلك أن أسهل شىء فى الترجمة

المعاني المحددة، وأصعب شيء حمال الأسلوب، وإذا كانت طبيعة الأدب العربي ما بنا كان ثقله أصعب فعل، وكان أداؤه بلغة غير اللغة العربية داهياً سهجته، مصعباً لجماله.

عمل على نشر نتائج هذه الطائعات المختلفة قوم مختلفون فوراء العباسيين ومن تحا محوهم يؤيدون الثقافة الفارسية، ومدرسة حنّيسا نور وما تفرع منها تؤيد الثقافة اليونانية، والعرب والأدباء وعلماء اللغة والنحو يؤيدون الثقافة العربية، وأطباء الهند يؤيدون الثقافة الهندية، وقد نشر هؤلاء جميعاً في الجوهرة الثقافات المختلفة، يتفهم كل منها حسب ميوله واستعداده وبوع تعليمه، وكان الوزراء والكتّاب أكثر الناس ثقافة فارسية عربية، وكان أطباء القصور الساطرة أكثرهم ثقافة يونانية عربية، وكان المتكلمون - على ما يظهر - أكثرهم ثقافة من كل نوع، مهول الخاطئ. والمتكلمون يريدون أن يعلموا كل شيء. وبأن الله ذلك^٢

وفي الحق، إن المتكلمين كانوا أكبر عامل من عوامل المرح بين الثقافات المختلفة، من نواح متعددة فقد كانوا بطبيعة موقعهم الذي شرحناه قبل من دعوة إلى الاسلام مضطرين أن يطلعوا على الأديان الأخرى. من محوسية ويهودية وبصراية وكانت اليهودية والنصرانية قد تساحبت بالفلسفة اليونانية والمناطق اليونانية. فاضطر المتكلمون أن يتسلحوا بنفس سلاحهم، فكانوا أول من أدخل الفلسفة اليونانية في الاسلام، وكان المتكلمون حلقة الاتصال بين من قبلهم من المسلمين الذين وهوا عند نصوص القرآن والحديث ومن من أتى بعدهم من فلاسفة المسلمين كالفارابي وابن سينا وابن رشد، وكان موقفهم حديثاً لأنهم سلكوا عن طريق السلف وتعرضوا لمسائل كثيرة

لم يتعرض لها من قبلهم فقام في وحوهم طمقة المحافظين، وعلى رأسهم رجال الحديث، وكانت حرب عوان نشرها عند الكلام في المتكلمين إن شاء الله كذلك كانوا صلة بين الفلسفة اليونانية والأدب فقد تنقفوا ثقافة يونانية - كما رأوا - وشقفوا ثقافة عربية من لغة وأدب، ومرحوا الأثنين مرحاً تاماً. رأوا معاني يونانية وأسماء يونانية، فوضعوا لها كلمات عربية. كما أنهم - لدعوتهم إلى الاسلام - مضطرون أن يتحروا حيز الألفاظ وحيز التعبيرات، فربوا على الخطأ والبلاغة، ووضعوا أسسها كما وضعوا أساس آداب البحث والمطابقة، قال الحافظ: كان كبار المتكلمين ورؤساء الطائرين فوق أكثر الخطأ، وأبلغ من كثير من الدعاة، وهم تحيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني، وهم اشتتوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطالحوا على تسميته ما لم يكن له في لغة العرب اسم فصاروا في ذلك سلباً لكل حلف، وقدوة لكل تابع، ولذلك قالوا العَرَص والحوهر وأيس وليس، ورفقوا بين الضلال والتلاشي، ودكروا التَّهْدِيَّة والهَوِيَّة والمَاهِيَّة، وأشابه ذلك، وقدموا معاني للأدباء والشعراء لم تكن معروفة من قبل، كما قدموا لهم

تعبيرات لم تكن يقول أبو نواس
تَكَلُّمٌ عَنِ إِذْرَاكِ تَحْصِيلِهِ
عُشْرٌ أَوْ هَامِ الصَّنَائِرِ
تَنْسَبُ الْإِلْسُنُ مِنْ وَصْفِهِ
إِلَى مَدَى عَجْرِ وَتَقْصِيرِ

ويقول

تَسَارَعَ الْأَحْدَاثُ التَّهْدِيَّةَ فَاشْتَبَاهَا
إِثْنَانِ لَا فَضْلَ لِلْمَعْمُولِ بَيْنَهُمَا
حَلَقًا وَحُلَقًا كَمَا قَدْ السَّرَاكَانِ
مَعِيَاهُمَا وَاحِدٌ وَالْعِدَّةُ اثْنَانِ

ويقول

كَمْ الشَّيْءَاتِ فِيهِ لَنَا
كَكُمُومِ الْبَارِ فِي حَتَرِهِ

ويقول أبو تمام :

جَهْمِيَّةُ الْأَوْصَافِ إِلَّا أَنَّهُمْ فِدْلَقُوهَا جَوْهَرَ الْأَشْيَاءِ
وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ حُمَيْدٍ :

قَدْ فَلَسْتُ بِالْعَدْلِ وَلَكِنِّي عَدَلْتُ فِي الْحُبِّ عَنِ الْعَدْلِ
فَقُلْتُ بِالْإِجْبَارِ مُسْتَغْفِرًا لِلَّهِ مِنْ قَوْلِي وَمِنْ فَعْلِي
وَيَقُولُ ابْنُ الرُّومِيِّ :

مَا عَذُرُ مُعْتَرِئِي مُوسِرٍ مَنَعَتْ كَفَّاهُ مُعْتَرِئِيَّا مِنْهُ صَفْدًا
أَيُّ عَمِّ الْقَدَرِ الْمَخْزُومِ يَبْسُطُهُ إِنْ قَالَ ذَلِكَ فَقَدْ حَلَّ الَّذِي عَقْدًا
وَيَقُولُ النَّاشِئُ يَفْتَخِرُ بِالْكَلَامِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ :

وَنَحْنُ أَنْاسٌ يُعْرِفُ النَّاسَ قَضَلْنَا بِالسُّكْنَا زَيْلَتِ صَدُورُ الْمُجْتَافِلِ
نُيِّرُ وَجْهَهُ الْحَقِّ عِنْدَ جَوَابِنَا إِذَا أَظْلَمَتْ بَوْمًا وَجْهَهُ الْمَسَائِلِ
صَمَمْتَنَا فَلَمْ نُنْرِكْ مَقَالًا إِصَامَتِ وَقَضَلْنَا فَلَمْ تَنْرِكْ مَقَالًا لِقَائِلِ
وَيَقُولُ أَبُو نَوَاسٍ :

وَذَاتُ خَذِّ مَوْرَدٍ قُوْهِيسَةُ الْمُتَجَرِّدِ
تَأْمَلُ الْعَيْنُ مِنْهَا مُحَاسِنَاتُ لَيْسَ تَنْفُذِ
قَبْضَتُهَا قَدْ تَنَاهَى وَبَعْضُهَا يَقُولُكَ
وَالْحُسْنُ فِي كُلِّ عَضْرِ مِنْهَا مَعَادُ مَرْدَدِ
وَيَقُولُ :

تَرَكْتُ قَلْبِي قَلِيلًا مِنَ الْقَلِيلِ أَقْلًا
بَكَادُ لَا يَتَجَرَّرَا أَقْلٌ فِي اللَّفْظِ مِنْ لَا
إِلَى كَثِيرٍ مِنْ أَمْثَالِ ذَلِكَ .

وعلى الجملة كان المتكلمون صلة لأشياء مختلفة ، كانوا صلة بين الأديان بعضها وبعض ، وصلة بين الفلسفة والدين ، وصلة بين الفلسفة والأدب . فلو قلنا إن المتكلمين كانوا من أظهر القائمين بعملية المزج لم نبعد عن الصواب .

ولئن كان المتكلمون هم الصلة بين اليونان والمسلمين ، فقد كان الفرس المتعربون صلة بين الفرس والعرب ، مزجوا ما نشئوا عليه من أدب فارسي بما تعلموا من أدب عربي ، مزجوا القصة الفارسية بالقصة العربية كما في ألف ليلة وليلة ، وغيره ، ومزجوا الحكم الفارسية والتشبيهات الفارسية بالحكم والتشبيهات العربية . « كان كسرى أنوشروان مشتهراً بالزرجس ، وكان يقول : هو ياقوت أصفر بين در أبيض ، على زمرذ أخضر » فيقول الشعر العربي :

وياقوتة صفراء في رأس درة مركة في قائم من زبرجد
كان بقايا الطل في جنباتها بقية دمع فوق خلد مورد
وكان أردشير بن بابك يصف الورد ، ويقول : « هو در أبيض ، وياقوتة أحمر ، على كرسى زبرجد أخضر ، توسطه شذور من ذهب ، أصفر ، له رقة الخز ونفحات العطر » فيقول محمد بن عبد الله بن طاهر :

كأنهم يواقيت يطيف بها زمرذ وسطه شذر من الذهب
فأشرب على منظر مستظرف حسن من حرفة مرة كالجمز في اللهب
ويضع الفرس الأساطير فينحو العرب نحوهم ، فقول العرب في العنقاء يشبه قول الفرس في « سيمرغ » ومن أساطير الفرس أن مسكن السيمرغ على الشجرة التي تقي كل البذور ، وهي في المحيط الواسع على مقربة من شجرة الخلد : تجتمع عليها البذور التي أنتجتها النباتات كلها

١ طول السنة ١

ولا تزال تدنقل الأسطورة بين العرب ، حتى يدخلها الهيرورابادى فى القاموس المحيط فيقول : والحرائر الحالدات ، ويقال لها حرائر السعادة ست حرائر فى البحر المحيط من جهة المغرب ، منها يتندى المبحمون بأحد أطوال الدلاد بنت فيها كل فاكهة شرقية وعربية وريحان وورد ، وكل حب من غير أن يعرس أو يررع ،^٢ ويقرأ القارىء الشاهنامه ، وما فيها من أساطير فتوحى اليه بمقارنات ومشابهات بينها وبين الأساطير العربية لا تكاد تحصى . كأنسطوره ، اردهاك ، وهو روح شيريه فى الأساطير الآرية ، وفى الأنستاق هو شيطان يجمع ماء السحاب أن يبرل إلى الأرض ، وعند الفرس ملك ظلم حار يمثّل فيه الشر كله .

وتتحول الكلمة فى العربية إلى الصحاك ، ويرعمون أنه عرى من المين ويفتحونه أو نواس فى قصيده إلى يفجر فيها بقعطان على برار فقول وكان ممّا الصحاك يعمده السحاب والظير فى مسارها^٣ ويقول صاحب القاموس والصحاك رجل ملك الأرض ، وكانت أمه حية

فلحق بالحن ، الخ

وينقل مذهب تاسع الأرواح من الهند ، فينتشر فى العراق ، ويدعو إليه علاة الشيعة ونامك الحرثى وأصحابه

وهكذا تترج فى العراق كل الثقافات ، وتتناول كل الآراء ، وتعرض كل الآداب ويروى الأعاني ، أنه كان فى مسجد البصرة حلقة قوم من أهل الحدل يتصايحون فى المقالات والجميع فيها ، ويحاجهم حلقة للشعر والآدب

١ انظر الشاهنامه والنوعى علمها ص ٥٦ ٢ القاموس مادة ح زر

٣ انظر ملهات الشاهنامه ص ٢٥ وما بعدها ، والمجلد الحى .

وهكذا وكان الدين يمحرون هذه الخلفاء من أحاسن مختلفة، وديانات
مختلفة وآراء مختلفة، وكانوا يتلافون في المسجد وفي المنازل، وفي قصور
الولاة والخلفاء، ويتجادلون ويتجادلون، يشرح الحافظ صاحبها إلى المسجد
لطلب الحديث، ويلتقي بعدد من أسحق وسلمونه، ويلقي الصرافى
والهوى ويحادثهما، ويلقي السدوى العربى فيأخذ عنه يتبادل أصحاب
الديانات فيجئ كل ما ورد في كتبه عن خلق العالم، ويتجادلون في رؤية الله
هل تكون أولا تكون؟ وفي صفات الله هل هي رائدة على الذات أولا؟
على حين يتجادل الآخرون في أى الأمم خير، وتتعب هذا العرب وهذا
للعم، وغير هؤلاء في لغة وفي أدب، ويقارن العلماء بين اللغات المختلفة
والآداب المختلفة فكان من هذا كله حركة عقيمة، لم تدع نوعا من المذاهب
والأديان واللغات والآداب يعيش وحده، بل لم تدع حرما من الإحرام إلا
مرحته بأحرار أخرى حتى صعب على الباحث أن يرد الأشياء إلى أصولها، ولم
تكن هذه العملية كعملية مرح الزيب بالماء، يعود كل عنصر ملتصقا مع بوعه
معارفا لغيره، ولكنه كامتزاج السكر بالماء، أو بهجات الأزهار بالهواء، تمتزج
فتنقأ أبدأ، وتلتاق فلا تفرق أبدأ وكذلك كانت الثقافات، التقت في
هذا العصر فكان أول بلاى، وصارت على بوالى العصور أشد تلاقيا،
وأكثر امزاجا.

وكان للإسلام أثر كبير في هذا الامتزاج، فإن من أسلم من الأمم
الأخرى - وأغنى الخاصة - رأى أن لا يكمل دينه، ولا يقوى إيمانه إلا إذا قرأ
القرآن ودرسه. فكان ذلك يدعوهم إلى تعلم العربية والسيف آدابها، وبذلك
يجمع بين ثقافة القومية وثقافة العربية. وفي هذا مرح - على الأقل - لثقافتين،
وجمع بين عقلين. فكثير من الفرس تعلموا، وكثير من الروم والهند
تعلموا، وكثير من الأساط تعلموا ومعنى تعلمهم أنهم أسسجوا رؤسهم

والسنتهم لثقافة عربية ، تتراوح مع ما نشئوا فيه وشعوا عليه ، وأسجروا
صدورهم للاسلام ليحل محل دين ولدوا عليه ، وعاشوا حيا في شعائره
وتقاليده كل هذا وذلك كان سببا في التراوح والانتاح ، ومن أجل هذا
لا تكاد ترى في هذا العصر ثقافة مدسدة أو دينية عاشت وحدها في عرلة
عما حولها ، بل كان كل مؤثرا متأثرا ، وفاعلا قابلا ، وان احتلعت - فيما
بها - في مقدار واعلمها وانفعالها ، وبوحي تأثيرها وأثرها

وبعد ، فان نحن أردنا أن نحار من يمثل هذه الثقافات بمرحلة لا يحد حبراً
من الحاحط واس قبلة وأبي حسنة الديوري كل واسع الاطلاع عرير
العلم ، كثير التأليف ، بال خطأ وافرأ من بواحي العلوم المحملة ، أولهم رعيم
المكلمين من المعتزلة ، وثانيهم رعيم أهل السنة ، وثالثهم رعيم علماء السات
كل أديب وعالم ولعوى ومؤرخ وعلى الخلة - كانوا هم ثلاثتهم - دائرة
معارف - رماهم ، نستطيع اذا ألمنا بكتبهم أن نعرف أى نبي من العلم كان
في عصرهم وأى نبي لم يكن وهم مع هذا كله محتلهون تمام الاختلاف
طعما ودوقا وروحاً وعقلية وبناراً الى الحياه ، كما سيتضح عند الكلام فيهم
ولسنا نريد أن توسع في تاريخ حياتهم ، ولا تحليل كل كسهم ، ولا
الاحاطة بكل بواحيهم ، وذلك ما لا نسع كتاب كذا - واما تتكلم من
الساحية التي قصدنا اليها حسب وهى أنهم يمثلون الثقافات بمرحلة وحاوول
العلم بحتمعة ويختار من كتبهم أدلها على ذلك العرص ، وأوقاها لهذا المقصد.
الحاحط - هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكسائي ، والأرجح
أنه كسائي بالولاء . لا كسائي صليبة فقريب الحاحط - وهو نموس بن
المرزج - بقول الحاحط حال أُمى ، وكان حد الحاحط أسود يقال له فرارة ،
وكان حاملا لعمر بن قلع الكسائي ، وقد اختلف في تاريخ مولده ولكسهم

يكادون يتعمقون على تاريخ وفاته وهو ٢٥٥ هـ وأنه عُمر نحو ٩٦ عاماً فيكون
ميلاده حول سنة ١٥٩ هـ ولد بالبصرة وأحد اللغة والأدب عن أبي عبيدة
والأصمعي وأبي زيد الأنصاري . وأحد الجوّ عن الأحفش . وأحد الكلام
عن الطام وكان يذهب إلى مرند البصرة يأخذ عن العرب شفاهاً وأولع
بالمرأة فقالوا أنه لم يقع بيده كتاب إلا استوفى قراءته كأنما ما كان . وكان
يكتري دكاكين الوراقين ، ويبيع فيها للمطرب ثقّف الثقافة العربية من المرند .
ومن علمائها أمثال الأصمعي وأبي زيد وأنتله الثقافة اليونانية من طريق علماء
الكلام ومشافهه الحسن بن اسحق وسنمونه وأمثالهما وحقق الثقافة الفارسية
من كتاب المقفع وأحده عن أبي عبيدة ، وتوسّع في التفاهات كلها بما كل
يقرأ من الكتب كلها ولد في خلافة المهدي ، وكان صبيّاً في خلافة الهادي .
وأبوه خلافة الرشيد وهو شاب ، وشاهد الصراع بين الأميين والمأمون ، وكان
ناصحاً وقت سلطنة المعتزلة في عصر المأمون ، واتصل بما كان في أيامه من
حركه عليه وفلسفية في كل ذلك شاهد سلطان العرس وعلمتهم ، وشاهد في
أيام المعتصم سطوة الترك ، وحلولهم محل الفرس ، كما شاهد دولة الواثق
وسيرة المعتصم والمأمون في مناصره الاعتزال ، وحصر دولة المتوكل
وفداهم المعتزلة وأطّل دولتهم ومروا عليه دولة المنصور والمستعين
والمعتزلة وهو يعاني العالج والقرص ، إلى أن مات في خلافة المهتدي بالله .
قارن الخاط تاريخ من كامل ، وهو زهر الدولة العباسية ، وقال أن نعلم
أحد من أحداثها ما نعلم الخاط أحسن يؤس العقراء فقد نشأ فقيراً ، حتى
يحصى من رآه نبيح الخبر والسبك نسبة ، ويحاط العلماء على اختلاف
مداهم ومناحيهم ثم يكون كاداً وهماً فقيراً ، وعرف ثقافته الكتاب
ودعائهم ويعتني بما ألف ، فتكون له صيغة تنسب إليه ، ويقبى مالا ونبشاً يحرق
فيه رزع شجر الأراك ، ويعبى بأنواعه حتى يختار لتركيبتها أهدر البحار .

ويقتنى من العميد من سبق أن خدم الملوك^١ ويتصل بالوزراء أمثال محمد بن عبد الملك الزيات ، ويتنقل في البلاد فيعيش في بغداد زمناً ، ويرحل الى دهشوق وانطاكية . كل هذا أورثه نوعاً من الثقافة قيمياً ، ليس من نوع ما يؤخذ من الكتب والدفاتر ، أورثه معرفة بطبائع الناس وأخلاقهم ، وطرق معاشهم وفضائلهم ووراثتهم . وكان الجاحظ على استعداد تام لهذا النوع من الثقافة فقال منه حظاً وافراً - وكما كان حسن الاستعداد في الاخذ منه ، كان كذلك في العطاء ، فمن أكبر ما يمتاز به كتيبه أنه يأخذ بيدك ليطالعك على الحياة الاجتماعية ، ويجعلك تلبسها وتذوقها - على قلة الكتاب الذين يعنون بهذه الناحية - فإذا أنت قرأت « الكامل » أو « أمالي القالي » أو « عيون الأخبار » لم تحس فيه شيئاً من ذلك . ومن أجل هذا كانت كتب الجاحظ أغزر مصدر لدارس الحياة الاجتماعية في عصره .

كُتِبَ الجاحظ في كل موضوع تقريباً من الملعين الى بنى هاشم ، ومن اللصوص الى الذئاب ، ومن الكلام في صفات الله تعالى الى القيان ، ومن القضاة والولاة الى أمهات الاولاد ، ومن الامامة الى الحور والعُور . فان نحن قلنا إن كتيبه « دائرة معارف » لزمانه ، غير مرتبة على أحرف الهجاء ، ولا على أى أساس . كان ذلك صواباً . وللجاحظ أسلوب يمتاز به ، ولا ينسب الا اليه . هو أسلوب الجاحظ ، تظهر فيه شخصيته ظهوراً تاماً ، حتى نستطيع من غير كثير عناه أن نعرف أى الكتب له وأيها ليست له . هو في تأليفه أنيس محاضر ، تحرر من قيود كثيرة تقيد بها علماء عصره ، تحرر من التزام الجد وثقل الغموض الذى كرهه من أستاذه الاخفش ، فهو دائماً يخطط جداً بهزل ، ويسينك اللقمة الجافة بكثير من الحلوى ، ويجد حتى اذا أعدك للبكاء رماك بنادرة تمنع منها في الضحك ، ويأخذ بيدك حتى اذا كنت

١ هذه الحقائق مأخوذة من كتابه الجوان في مواضع شتى

في أصعب موضوع وأعمق قرار قفز بك لجأه الى السماء، وحدثك حديثاً خفيفاً أنسك جهدك وعناءك، قال المسعودي: «ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً منه...» وكتب الجاحظ مع انحرافه المشهور تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان، لأنه نظمها أحسن نظم، ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ، وكان اذا تخوف ملل القارىء وسامة السامع خرج من جد إلى هزل، ومن حكمة بليغة الى نادرة ظريفة^١ كما تحرر من طريقة العلماء، في قصر نفسه على الموضوع الذي يتكلم فيه. فالجاحظ لا يؤمن بذلك، وأنت عرضة لأن تجد في كتبه أدق الموضوعات وأجهاها في آتفه العناوين وأسخفها. غلبت عليه النزعة الأدبية في كل ما كتب حتى في الحيوان، فهو يتخير خير الألفاظ وأحسن التعبيرات ويفر سريعاً من التحقيق العلى الى مناحى الأدب من شعراً أو حكمة أو نادرة. ألف في مواضيع المتكلمين مثل: كتاب خاق القرآن، وكتاب في الرد على المشبهة، وكتاب في الرد على النصارى، وكتاب الاعتزال، وكتاب الإمامة، الخ. وكتب في موضوعات سياسية تاريخية ككتاب العرب والموالي، وكتاب العرب والعجم، ورسالة في فضائل الأتراك - بمناسبة دخول الأتراك في جند المعتصم - وكتاب السودان والبيضان، وكتاب الصرحاء والهجناء، الخ. وألف في الأخلاق التي كان يشعر بها في عصره وطبقات الناس فألف كتاب البخلاء، والسلطان وأخلاق أهله، وكتاب الجوارى، والחסد والمحسود، والنساء، والاخوان، والحزم والعزم، والأمل والمأمول، والاستبداد والمشاورة في الحروب، والقضاة والولاة، وغش الصناعات الخ.

وألف في النبات كتاب الزرع والنخل، وألف في الحيوان كتاب الاسد والذئب وكتاب البغل وكتاب الحيوان.

وفي كل هذه الكتب - كما يدل على ذلك ما بين أيدينا منها - مرح العلم بالآداب ، ولم يتصر على ذكر البراهين المنطقية ، بل استعان بالتاريخ والشعر ، وبما يعرف من أحداث ، وما حرب هو نفسه من تحاريف ومرح ما تعلم بما قرأ ، بما سمع ، بما شاهد ، بما حرب كما مرج الشعر الجاهلي بالشعر الاسلامي ، بعلم أرسطو ، بطب جالينوس كما مرج آي القرآن الكريم بأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم برأى الطبيعيين والدهريين ، بالمبودية والنصرانية ، برأى الرزدشيين والمناوئيين . وفي الحق أن هذا كله مريح عسر الحضم ، لولا ما حظي به من أسلوب سيمح فصفاص ونفس مريحة بغير كل التقدير البادرة الحلوة ، والمهكاة العذبة

وبعد ، شعر كشته التي يظهر فيها هذا الافتراح واصحاً فرباً كتاب البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان

كتاب البيان والتبيين — هو كتاب في الأدب من آخر ما ألفه الجاحظ^١ . مختارات من الأدب من آية قرآسية أو حديث أو شعر أو حكمه أو حطة ، مبروكة بما له من آراء في مسائل عدة . ويدكر بأقرب أن الكتاب سبعان^٢ أو ثمانية والثانية أصح وأحود^٣ ، ولست أدري أية السحيتين هي التي في أيدينا .

بدأه بالتعود من العبي ، وساق الأشعار في دمه وحكاية موسى عليه السلام في طلبه من الله تعالى أن يحل عقدة من لسانه ليفهموا قوامه ، وانتقل إلى فصاحة اللسان وعمتها ، والعبي وردائه ، وعاب التشديق والتعظيم والتفصيل على العبي المتريد والحصر المتكلف ، واستطرد من ذلك إلى فصاحة

١ من الأدلة على ذلك أنه لم يشر إليه في كتابه في أول الحيوان مع أن كتاب الحيوان من آخر كتبه بأنواعه كما عاهد من كتابه وأنه ألفه وهو من سن وقد أشار في كتابه إلى كتابه الحيوان مما يدل على أنه ألفه بعده ١٧٣٣ و ١٣٨

واصل من عطاء شيخ المعتزلة وثبته في الراء ، وانه كان يقول القمع بدل البر
وحره ذلك إلى الكلام في أن البر أفصح أو القمع ، وانتقل منه إلى اختلاف
لغات العرب في استعمال الألفاظ فقسله تستعمل عرفة وأخرى عِلِّيَّة وهكذا ،
ثم رجع إلى اصل وما كان منه ومن نشار ، وذكر فصائد في مدح المعتزلة ،
وإذا كان اصل الشئ ، فقد عقب ذلك بالكلام على اللثة والحروف التي بدلتها
اللثة والتي لا بدلتها ، واستطرد من اللثة إلى عيوب اللسان على العموم من
فأفاه وتممة ، ثم ما يعرض للحطيط من تحفة وسيله ، وربط ذلك بالخطاة
والخطباء من القائل المختلف ، وعدد كثيراً منهم ومن الخطباء الشعراء وكان
أحد الخطباء الذين ذكرهم في كلامه صغير يخرج من موضع ثماياه ، فخره ذلك إلى
الكلام في الأسان وعلاقتها بالخطاة ، والحدال في أن سقوط الأسان كلها أقل
غيباً للحطيط أو سقوط بعضها ، ثم انتقل من ذلك إلى الكلام في الألفاظ المتناوئة
والحروف المتناوئة ، وأسببه ذلك إلى الكلام في اللكسة ، وعد قوم من اللكساء ،
وبذلك تم الباب الأول ويعطون ما القول لو سرنا معه في الكتاب كله
بشع حطاه وبرصد اشتغالاته ، وحسبنا أن نذكر هذا مثلاً بين العوصى في
تأليفه ، ولا تظن أن موضوعاً من هذه الموضوعات التي ذكرنا قد فرغ من
الكلام فيه ، فسترى في ثمايا الكتاب الرجوع إليه مرة بعد مرة

بعد ذلك عقد باباً للبيان ، وبنياً في ذكر ناس من النعا والخطباء والأنبياء
والفهاء والأمراء ، من لا يكاد نسكت مع قلة الخطأ والزال . ثم فصلاً عرص
فيه للاعانة ما هي وبنياً في اللسان وبنياً في الصمت ، وأنوياً أخرى في الشعر
والخطب ، ثم بنياً في الأسجاع من الكلام ، ثم عاد إلى الخطباء واللباء وبنياً
قبائلهم وأسمائهم ، وبنياً في أسماء السكتان والحكام والخطباء والعلماء من
فحطاب وقال في أول الجزء الثاني إنه أراد أن يرد على التسعوية في طعيمهم
على حطباء العرب ، ولكسبه أحب أن يصدر هذا الجزء بكلام من كلام رسول

رب العالمين والسلف المتقدمين ، والجملة من التابعين واسترسل في مختار من الحديث والخطب والحكم والألغاز ، وتكلم فيه في اللحن والحقق والمجانين وكتب وصايا ونوادر لبعض الأعراب ، حتى أتم الجزء الثاني ، فاذا جاء الجزء الثالث فأوله كتاب العصا في الرد على الشعوية . ثم كتاب في الزهد تكلم فيه على النساك وكلامهم وأخلاقهم ومواعظهم ، ثم باب في دعاء الصالحين والسلف المتقدمين ، ودعاء الأعراب ، ثم مقطعات من نوادر الأعراب وأشعارهم .

وفي كل فصل من فصول الكتاب فوضى لا تضبط ، واستطرد لا يحد . والحق أن الجاحظ مسئول عن الفوضى التي تسود كتب الأدب العربي ، فقد جرت على منواله ، وحذت حذوه فالمرء تلميذه قد تأثر به في تأليفه ، والكتب التي ألفت بعد كميون الأخبار والعقد الفريد فيها شيء من روح الجاحظ وإن دخلها شيء من الترتيب والنويب . ذلك أنا نرى أن الكتب التي ألفت في العصر العباسي الأول كانت أساس التأليف ، وهي التي حددت نوع القالب الذي يصب فيه العلم ، فكتب سيبويه في النحو حدد الطريقة التي يتبعها النحاة في التأليف ، وكل ما عملوا بعده أن أوضحوا أو بسطوا أو اختصروا . وكتب محمد بن الحسن الشيباني حددت طريقة التأليف في الفقه ، وكتب المنطق الأولى هي التي سارت عليها كتب المنطق الأخيرة ، ولما كان كتاب البيان والتبيين أول كتاب ألفت في الأدب على هذا النحو كان أثره في الأدب كأثر هؤلاء الذين ذكرنا في علومهم ، وكان الجاحظ مسئولاً عما فيها من نقص وعيب . وأوضح شيء من آثار الجاحظ في كتب الأدب إذا قورنت بالعلوم الأخرى الفوضى وكثرة المزايع . ويجوز يصل إلى الفحش أحياناً ، ولسنا نريد أن نحمل الجاحظ كل مسئولية في هذا فقد تكون طبيعة الأدب نفسها داعية إلى ذلك ولكن بما لا شك فيه أن الجاحظ كبير الأثر ، ولو كان قد وضع الأساس غيره لكان قد تشكل الأدب شكلاً آخر .

والذى يهبها هما مطهر امتزاج الثقافات فى هذا الكتاب ، والحق أن
للتقافة العربية فيه المطهر الأكر ، والسبب فى ذلك أن الكتاب كتاب أدب
وفد أسا قبل أن أثر تلك الثقافات فى الأدب أقل منها فى العلوم ومع هذا
خط الثقافات الأخرى فى هذا الكتاب عبر قليل ، اضطر اليه وهو يقارن
بين آراء الأمم فى تعريف البلاغة فبول « قيل للمارسى ما البلاغة ؟ قال معرفة
الفصل والوصل ، وقيل لليوانى ما البلاغة ؟ قال تصحيح الأقسام واختيار
الكلام ، وقيل للرومى (الرومانى) ما البلاغة ؟ قال حسن الاقصاء عند
الدهاء والعراة يوم الاطالة ، وقيل للهدى ما البلاغة ؟ قال وصوح الدلالة
وانسار الفرص وحسن الاشاره ،^١ وينقل صحيفة عن اليهود فى البلاغة
وشروطها^٢ وينقل عن فى الصارى الشروط التى يجب أن تتوافر فمن
يبحار حائلياً^٣ وينقل أن كسرى أنوشىرا قال لبرخهر أى الأشياء خير
للبراهمي ؟ قال عقل يعاس به ، فإن فإن لم يكن له عقل قال فاحواو يسترون
عليه ، فإن فإن لم يكن له احواو قال فإن يتحب به الى الناس ، فإن فإن لم يكن
له مال ، فإن فعى صامت قال فإن لم تكن له ذلك قال فوث مريخ^٤ وينقل عن
المسيح ابن مريم أنه سئل من محالس ؟ قال من يرد فى عليكم منطقة ، وتد كركم
الله رؤيته ، ورسعكم فى الآخرة عمله ، ويحكى أن المسيح من يقوم بكون فقال
ما لهؤلاء سكون ؟ قالوا يحافون ديوهم ، قال اتركوها يعمر لكم^٥ ويحكى
أسطورة الخطباء الذين تكلموا عند الاسكندر لما مات^٦ ويقارن بين
مقدرة العرب على الخطابة ومقدرة الفرس والبرنج . ويحكى أن للفرس كتاباً
فى صناعة البلاغة وأن لليوان « منطقة » يعرف به السقم من الصحة والخطأ
من الصواب وأن لليهود كتاباً فى الحكم والاسرار من قرأها عرف عور تلك

النَّشْرَ وَمَا يَعْرِشُونَ ، ، وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ
وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ، وَإِنَّ الدِّينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ
احْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسُدُّهُمْ الدِّثَانُ سُدَّتْ لَهُ سُبُلُ مَقَدُّوهُ هُ صَعْفُ الطَّالِبِ
وَالْمُظْلُوبِ مَا قَدَّرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ إِنْ اللَّهُ لَمَوْىَّ عَزِيزٌ ، ، أَفَلَا يَنْظُرُونَ
إِلَى الْأَيْلِ كَيْفَ خَلَقَتْ ، ، إِنْ اللَّهُ لَا يَسْتَجِيبُ أَنْ يُصْرَبَ مِثْلًا مَا تَعْوَصَّة
فَمَا هِيَ قَبْهَا ، إِلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ ، وَنَسَمْتُ سُوْرَ مِنَ الْقُرْآنِ بِأَسْمَاءِ بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ ،
كَسُوْرَةِ الْبَقَرَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحِلِّ وَالْبَلِّ وَالْفِيلِ وَنَسَبْتُ إِلَى الْإِمَامِ عَلَى وَصْفِهِ
الْبَدْعَ لِلطَّائِفِ وَدَلَالَتِهِ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَمَا فِي شِكِّ مَنْ صَحَّحَ نَسَبَهَا إِلَيْهِ
وَاتَّجَهَ الْمَعْتَرِلَةُ فِي الْعَصْرِ الْعَاسِي هَذَا الْإِتِّجَاهُ ، وَأَحَادٍ فِيهِ قِيلَ الْخَاطِطُ يَنْشُرُ
الْمُعْتَمِرَ ، أَحَدُ رِعْمَاءِ الْمَعْتَرِلَةِ وَمَا قَالَ فِي ذَلِكَ قَصِيدَتَانِ طَوِيلَتَانِ تَقَعُ
أَحَدَاهُمَا فِي سِتِّينَ بَيْتًا وَالْآخَرَى فِي سَبْعِينَ ، وَقَدْ أَوْرَدَهُمَا الْخَاطِطُ فِي كِتَابِهِ
الْحَيَوَانَاتِ وَشَرَحَهُمَا شَرْحًا مَطْوًلًا ، مِنْ أَحَدِي الْقَصِيدَتَيْنِ قَوْلُهُ

تَبَارَكَ اللَّهُ وَسُبْحَانَهُ مِنْ بَدَائِهِ النِّعِ وَالصَّرِّ
مَنْ خَلَقَهُ فِي رِزْقِهِ كُنَاهُمْ الدِّمْحُ وَالنَّدَقُ وَالْعُفْرُ ٢
وَسَاكُنُ الْجَوِّ إِذَا مَا عَلَا فِيهِ وَمِنْ مَسْكَنِهِ الْقَفْرُ
وَالصَّدْعُ الْأَعْصَمُ فِي شَتَاهِ قِيَّةِ مَسْكَنِهَا الْوَعْرُ ٣
وَالْحَيَّةُ الصَّمَاءُ فِي حُجْرِهَا وَالنَّبْلُ الرَّائِعُ وَالْدَّرُ ٤
وَهَقْلَةُ تَرْتَاغُ مِنْ طَلَبِهَا لَهَا عِرَارٌ وَلَهَا رَمْرُ ٥

١ الحيوان ٩٢ وما بعدها ٢ الدغ ذكر الصنع والبدل شبه الرعل والعمر ولا
الأرويه وهي الأئ من الأوعال ٣ الصدع الشاب من الأوعال ، والحقه . الآن العذبة
٤ المنفل الذي من العام أو الطلم والحقه الأئ منها
٥ الرمل هو العلب

تَلَسَّمُ الْمَرَوْ عَلَى شَمَوَةٍ وَحَبَّ شَيْءٌ عِنْدَهَا الْجَمْرُ^١
وظيفية^٢ تَخْضِمُ فِي حَنْظَلٍ وَعَقْرَبُ يُعْجِبُهَا السَّمْرُ
والقصيدتان على هذا النمط يذكر خصائص الحيوان، ويستخرج منه
الحكمة، يعجب من جرادة تخرق من الصفا، ومن خففس تحبس بالروث
ويقتلها الورد

وحكمة^٣ يُبَصِّرُهَا عَاقِلٌ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهَا سِتْرُ^٤
ثم يمرج في آخر القصيدة على مهاجمة خصومه من أباضية وراعية
وغيرهم، ويعيهم بأن لا تنفع الحكمة فيهم، والقصيدة الأخرى رائية مكسورة
على نمطها. وقد أخذ الجاحظ هاتين القصيدتين عن بشر بن المعتز، وقد عاصره
زمناً، ويظهر أنهما أوحتا إليه أن يؤلف كتاباً في الحيوان من هذه الناحية.
ولكن الجاحظ لا يصبر على موضوع واحد فإدا تكلم في شيء خرج منه إلى
أشياء كما لا يصبر على الجد، فسرعان ما يخرج منه إلى الهزل. ولذلك صيغ
الموضوع بصيغته الخاصة فاستطرد لا إلى حد، وأخرج الموضوع من عظة
واعتبار إلى معلومات واسعة في الحيوان وغير الحيوان، علمية أحياناً وأدبية
أحياناً. وكان هزله فيه من أغرب الهزل، فال موضوع جد كل الهمد تتشعب له
النفس ويذعن له القلب، وتثور له العاطفة الدينية كما تشعر إذا قرأت الآيات
السابقة أو وصف الطاووس أو قصيدتي بشر، ولكن هذا الجلال يضيع
تماماً في كتاب الحيوان. ويتلون بلون الجاحظ العجيب فيخرج شيئاً آخر
غير العظة وغير العبرة، فيه ألوان الخرباء وفيه روايات مختلفة، مأساة ومهزلة،
وفيه السكلام على الخصيان بجانب فوائد الكتاب، وفي السكلام على الخصيان
معلومات قيمة نادرة ربما لا تعثر عليها في كتاب آخر من الناحية التاريخية
والاجتماعية وبجانها لذع وإحماض وفكاهة ومجون مكشوف، وكل هذا

١ المرو: حجارة بيض برافة تسكون فيها النار وتقدح منها

مزج مزجاً غريباً ، وهكذا شأنه في كل موضوع .

وقد ذكر الجاحظ نفسه في كتاب الحيوان طريقة تأليفه في عدة مواضع فهو يقول « متى خرج (القارئ) من آى القرآن صار الى الأثر ، ومتى خرج من أثر صار الى خبر ، ثم يخرج من الخبر الى الشعر ، ومن الشعر الى نوادر ، ومن النوادر الى حكم عقلية ومقاييس شداد ، ثم لا يترك هذا الباب ولعله أن يكون أثقل ، والملا للاله أسرع حتى يفضي به الى مزج وفكاهة والى سخف وخرافة ، ولست أراه سخفاً »^١ ويقول « انى أوشح هذا الكتاب بنوادر من ضروب الشعر ، وضروب الأحاديث ليخرج قارئه من باب الى باب ، ومن شكل الى شكل فاني رأيت الأسماح تمل الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة اذا طال ذلك عليها ، واذا كانت الاوائل قد سارت في صغار الكتب هذه السيرة ، كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح ، وما غابتنا من ذلك كله إلا أن تستفيدوا خبيراً »^٢ ويأسف لسلوكه هذه السيل ، ويعترف بعيبها ولكنه يقول إنه اضطر الى ذلك اضطراراً فيقول « وسنذكر قبل ذكرنا لهذا الباب أبواباً من الشعر طريفة ، تصلح للمذاكرة وتبعث على النشاط . . . ولولا سوء ظنى بمن يظهر التماس العلم في هذا الزمان ويظهر اصطناع الكتب في هذا الدهر لما احتجت الى مداراتهم واستمالتهم ، وترقيق نفوسهم وتشجيع قلوبهم - مع فوائد هذا الكتاب - الى هذه الرياضة الطويلة والى كثرة هذا الاعتذار ، حتى كأن الذى أفيده إياهم أستفيدهم منهم ، وحتى كأن رغبتى في صلاحهم رغبة من رغب في دنياهم »^٣ ويعترف بأنه عانى في هذه الطريقة أكثر مما يعانى لو كتب كتاباً في موضوع واحد من غير استطراد « ولو كنت تكلفت كتاباً في طوله وعدد ألفاظه ومعانيه ، ثم كان من كتب العرض والجوهر والطرفة والتوليد والمداخلة والغرائز والنحاز لكان أسهل

وأقصر أياماً وأسرع فراغاً، لأنى كنت لا أفرغ فيه إلى تلمظ الإشعار وتببع الأمثال واستخراج الآى من القرآن والحجج من الرواية، مع تفرق هذه الأمور فى الكتب وتباعد ما بين الأشكال، فان وجدت فيه خلا من اضطراب لفظ ومن سوء تأليف ومن تقطيع نظام... فلا تنكر بعد أن صورت لك حالى التى ابتدأت عليها كتابى، ولو لا ما أرجو من عون الله على إتمامه اذ كنت لم أتمس به إلا أفهامك مواقف الحجج لله وتصاريه تديره والذى أودع أصناف خلقه من أصناف حكمته لما تعرضت لهذا المكروه^١

ومصادر الكتاب كثيرة فأى من القرآن أو التوراة أو الانجيل، وحديث وخبر تلقاه من الرواة، وشعر عربى كثير وأمثال مضروبة وكتب عديدة قرأها فى فنون شتى، ومحادثة لمن يثق بهم من أطباء وتجار وذوى حرف، وتجارب يجرّبها بنفسه فى الحيوان والنبات، وسفر وسباح لمن قد مارس الأسفار وركب البحار وسكن الصحارى وسلك الوديان، وهذا - من غير شك - يدل على سعة اطلاع قل أن يكون له نظير.

والحق أن عقله كان قوياً قل أن يقبل خرافة، بل هو يهزأ بمن يقبلها، ثم هو فى كثير من الأحيان يقف عن الاعتقاد حتى يجرّب، ويشك ويدعو الى الشك حتى تثبت صحة النظرية، ويستغرب القارىء من صحة منطقته وسبقه إلى نظرات فى منهج البحث لم تعرف إلا فى العصر الحديث، كقوله: «اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها لتعرف بها موضع اليقين، والحالات الموجبة لها. وتعلم الشك فى المشكوك فيه تعلمها، فلو لم يكن ذلك الا تعرف التوقف ثم التثبت لقد كان ذلك مما يحتاج اليه^٢ كما أنه سبق الى اتجاهات قيمة فيما يسمى الآن سيكولوجية الحيوان، فهو يراقب نداء الديك بالليل ويبحث: هل اذا كان فى قرية وحده يصبح أولاً؟ ليعلم هل تصيح الديكة

بالتجارب أو بطبعها ، ويراقب الدجاج هل تكثر أفرانها إذا كثرت عديدها
أو تقل ؟ ويلاحظ الكلب ملاحظة دقيقة ليعلم مقدار ذكائه ووجوه تنبهه
والفروق الدقيقة بين أصنافها إلى كثير من أمثال ذلك .

وبعد ، فظهر امتزاج الثقافات المختلفة في الحيوان أبين منها في البيان
والتيبين ، وذلك يرجع الى موضوعه والى مسلكه في تأليفه ، والى علاقاته
المتشعبة بأولى العلم والصناعات والطبقات من كل نوع .

من أهم العناصر التي اعتمد عليها في كتابه هذا كتب أرسطو ، وقد عُرف
عن أرسطو أنه ألف في موضوعات عديدة في حياة الحيوان ، وكان مشغولاً
بهذا العلم ودراسته ، حتى أحصى المتأخرون ما كان يعرفه أرسطو من أنواع
الحيوان ، فوجدوه نحواً من خمسمائة نوع . ومع أنه لم يرتبها الترتيب العصري
فقد كان له فضل السبق في وضع هذا العلم الذي لم يكن مؤسساً من قبله . وقد
وصلت هذه الكتب الى العرب ، ونقلت الى العربية فيما نقل ، فيقول ابن النديم
« إن كتاب الحيوان لأرسطو تسع عشرة مقالة نقله ابن البطريق ...
وليقول لاوس اختصار لهذا الكتاب ... وقد ابتدأ أبو علي بن زرعة بنقله
الى العربي وتصحيحه »^١ .

ولكن يظهر أن العرب في هذا الكتاب - كما هو الشأن في غيره - لم يميزوا
بدقة بين ما هو لأرسطو حقاً وما ليس له - على كل حال وقع الكتاب في يد
الجاحظ وفراءه ، وكان مصدراً كبيراً من مصادره . وإذا نقل منه فكثيراً ما يسمى
أرسطو « صاحب المنطق » وقد يصرح باسمه ، وقد نقل عنه في هذا الكتاب
عشرات المرات - وكان موقف الجاحظ تجاه أرسطو موقفاً بديعاً ، فلم يُصَبِّحْ
أمامه بشمال الفسك كما أصيب في أكثر الأحيان ابن سينا وغيره من فلاسفة
الشرق والغرب ، وإنما وضعه في الخبز يمتحنه ويجربه ، فقد نقل عن أرسطو أن

إنك العصفير أطول أعماراً وأن ذكورها لا تعيش إلا سنة ١. وانتقده بأنه لم يأت بدليل على ذلك ، وكيف يستطيع أن يأتى بدليل جازم والعصفير قد تسكون في المزارع ، والميازب مملوءة بها وببيضها وفراخها ، والناس القريون منها لم يروا عصفوراً قط ميتاً ولو قال أرسطو وأمثاله بذلك على جهة التقريب والظن لم يلبهم أحد من العلماء . والأمور المقرّبة غير الأمور الموجبة ، فينبغي أن يعرفوا فضل ما بين الواجب والمقرب ، وفرق ما بين الدليل وشبه الدليل ٢. وبقول : وقال صاحب المنطق ويكون بالبلده التي تسمى باليونانية «طباقون» حية صغيرة شديدة اللدغ إلا أن تعالج بحجر يخرج من بعض قبور قدماء الملوك - قال الجاحظ - ولم أفهم هذا ولم كان ذلك ؟ ٣.

وأحياناً يقارن بين قول أرسطو في الموضوع وما ورد فيه من شعر جاهلي أو إسلامي ، وبفاضل بينهما ويحكم عقله وتارة ينصر أرسطو وتارة ينصر العرب. وتارة يكذبهما معاً ، فيقول : زعم صاحب المنطق أن قد ظهرت حية لها رأسان فسألت أعرابياً عن ذلك فزعم أن ذلك حق ، فقلت له فن أي جهة الرأسين تسعى ؟ ومن أيهما تأكل وتعض ؟ فقال فأما السعى فلا تسعى . ولكنّها تسعى الى حاجتها بالقلب كما يتقلب الصبيان على الرمل ، وأما الأكل فإنها تعشى بقم وتتغذى بقم ، وأما العض فإنها تعض برأسها معاً - فإذا به أكتب البرية ١ ، ٤. ومثل ذلك في الكتاب كثير ، فهو يعرض لما عرف عن اليونان وما ورد في الموضوع من شعر العرب وقصصهم وأساطيرهم ، وما عرف عن الأمم الأخرى ، ويمزج كل ذلك مزجاً تاماً ، ويعرضه بأسلوبه الجذاب ومبالغته المألوفة .

ولا يظن ظان أن الكتاب - وقد سمي الحيوان - قد اقتصر على الكلام في الحيوان بل لا نبعد إذا نحن قلنا أن ما فيه عن الحيوان أقل مما فيه عن غيره . فقد

استغرق الجزء الأول والثاني من الكتاب الكلام في الكلب والديك والمفاضة بينهما ، واحتجاج صاحب الكلب للكلب والديك للديك ، ويستوفى كل ما قبل في ذلك من آية أو حديث أو شعر أو قول لصاحب المنطق أو قصة أو أسطورة ، كاتخاذ الجن السكالب مأوى لها والكلب ، واعتقاد العرب أن دم الأشراف يشقى منه الخ ، ولكنه في كل ذلك يخرج عن الكلب والديك الى موضوعات لا تخطر على البال ، فتراه في أثناء ذلك يتكلم في الامامة والشيعية والشعر وأثره في القبيلة يرفعها ويضعها ، الخ .

اتصل الجاحظ باليونان من كتبهم ومن طريق المتكلمين ، فعرف أرسطو كما ببنا ونقل عن أفليمون صاحب الفراسة في الكلام في الحمام^١ ونقل عن جالينوس فيما يصلح له لحم الضب^٢ وفي معارف البهائم والطيور^٣ ويذكر أن كتب المنطق وكتب أفلاطون لا يفهمها العربي البليغ^٤ ويظهر أن ثقافته اليونانية اتسعت بمجالسته لكثير من المثقفين بها ، فقد كان يتحدث الى سلبويه وابن ماسويه^٥ والى حنين بن اسحاق^٦ والى شمشون الطليبي^٧ واتصل بالفرس وعرف الكثير عنهم ، فينقل عن ابن المقفع ويتكلم في أساطيرهم ويعقد كلاماً طويلاً يذكر فيه نيرانهم ، ويحكى عن المانوية والزنادقة وكتبهم وعبادتهم ، ويحكى عن اليهود والنصارى ، ويذكر شياً أثارها بعضهم حول آيات من القرآن الكريم مثل آيات الشهب وبرد عليهم .

وعلى الجملة فكتاب الحيوان معرض لسلك الثقافات ، عربية ويونانية وفارسية وهندية ، ومعرض للثقافات الدينية من مانوية وزردشتية ودهرية ويهودية ونصرانية وإسلام ، ولو ذكرنا ما قاله في كل ثقافة ورددناه الى أصله لا سنغرق منا كتاباً كاملاً ، فلنكتف بهذا القدر للدلالة على ما نقول ، ونختتم

٤٥ : ١ ٤	١٠ : ٧ ٣	١٧ : ٦ ٢	٨٧ و ٨٣ : ٣ ١
٢ : ٣ ٧	١٠٨ : ٥ ٦	١١٧ : ١ ٥	

قولنا بالشروط الى يشترطها الحاحظ لمن يكون له الرئاسة في العلم ، وقد حققها هو في نفسه ، فقد رأى أن العالم من يحسن من كلام الدين بقدر ما يحسن من كلام الفلسفة ، والمصيب هو الذي يجمع بين تحقيق التوحيد واعطاء الطائعات حقائقها من الأعمال^١

٥٥٦

وحاجب الحاحظ عالمان آخرا ن يمثلان معه كل معارف العصر ، كما يمثلون أنواعا بحملته العلوم والألوان من الامتزاجات بين الثقافات ، أحدهما من فتيحة الديبوري ، والآخر أبو حنيفة الديبوري
ابن قتيلة فأما ابن قتيلة فهو أبو محمد عبد الله بن مسلم ، أصله فارسي من مرو ، وترى في تعداد وتولي القضاء بديور فوسب الها ، ثم كان معلما سععداد وعاش من سنة ٢١٣ الى سنة ٢٧٦ هـ فهو قد عاصر الحاحظ حرمأ طويلا من عمره ، وكان يكرهه كما يدل على ذلك بقده للحاحظ الذي أورده في كتابه « بأويل مختلف الحديث » فسد اتهمه بأنه يدكر جميع المصارى على المسلمين بأقوى مما يدكر الرد عليهم ، وإن كتمه مائت المصاحيك والعش يريد بذلك استئالة الأحداث وشراب البئد ، وأنه يسهرى بالحديث كدكره كد الحوت وقرن الشيطان وذكر الحمر الاسود ، وأنه كان أبص فسوده المشركون وقد كان يحب أن يبيضه المسلمون حين أسلموا ! وأنه كذاب يصعب الحديث وينصر الباطل^٢ والظاهر أن سب النزاع احتلاف الطبعيتين واحتلاف المذهبين ، والاحاحظ مزاح حفيف الروح مهذار واسع العقل متصرف ، واس فتية حد^٣ فاص ، عليه وقار القضاء ، يمرح أحيانا ولكن ليس له حمة روح الحاحظ ، ثم الحاحظ معترلى من المتكلمين واس فتية من أهل السنة — كما يحكى ابن يمه — والنزاع بين الطائفتين شديد طويل وشخصية الحاحظ في كتمه

أقوى ، فهو لا يخرج ما علم إلا مهضوما ، قد أسبغ عليه من نفسه ومن لسانه . وابن قتيبة واسع الاطلاع في غير شخصية قوية - كما يظهر لى - يعرف كثيراً ويجمع كثيراً ويؤلف كثيراً ، وقد يكون في ذلك قريباً من الجاحظ ، وكل ما وصلنا من تأليفه يدلنا على أنه عالم أديب ، اتصل بنواح كثيرة من العلم من لغة ونحو وأدب وشعر وحديث وفقه وتاريخ ومذاهب دينية ، ولكنه يفهم من التأليف أنه يجمع ، ويجمع عن سعة اطلاع ، ويختار ما يجمع ، من غير أن يظهر نفسه فيما يجمع . فإذا حاول أن يبدي شخصيته اضطرب كالذى كان في كلامه في الشهوية ، ينقص في موضع ما أبرمه في آخر ، كما لاحظ ذلك صاحب العقد الفريد ، وميزة أخرى يمتاز بها الجاحظ ، وهى أنه في جميع ما يكتب بمس الحياة الاجتماعية في عصره وينغلغل في ثنائياها ، ولا يستحي أن يضرب مثلاً ما عبداً فما فوقه ، يتحدث عن التجار والحوار ، وراعى الغنم ، ويستخرج منهم علماً أو تجربة ويحكىها ويعلق عليها ، أما ابن قتيبة فليس له شيء من هذه الناحية ، لأن هذا الباب لا ينبجح إلا في يد قوية كيد الجاحظ . ولو تعرض لها ابن قتيبة لفشل .

على كل حال علم ابن قتيبة كثير وتأليفه غزيرة ومتعددة النواحي ولكن ما يهنا هنا هو مظهر الثقافات المختلفة في كتبه . ولعل أدلها على ذلك كتاب عيون الأخبار .

عيون الأخبار : - كتاب في المختار من الأدب ، قسمه الى عشرة كتب كل كتاب كتاب : كتاب السلطان ، والحرب والسودد والطبايع ، والأخلاق المذمومة ، والعلم والبيان والزهد ، والاخوان ، والحوار ، والطعام والنساء .

وقد تبع الجاحظ في الاتيان بما يضحك خوف الملل ، فقال : « ولم أخله

١ أنظر ترجمته وكتبه في مقدمة كتاب الميسر والقداح ومقدمة الجزء الرابع من عيون الأخبار

مع ذلك من نادرة طريقة ، وفطنة لطيفة ، وكلمة معجبة وأخرى مضحكة ...
لأرواح بذلك عن القارىء من كد الجد وانعاب الحق ، فان الأذن بحاجة
والنفس حمصة ^١ ولكنه يحس أنه سينتقد على ذلك من وسطه المتزمت فيعتذر
بأنه بما يترخص فيه ، كذلك يعتذر عن أن الكتاب لم يكن في القرآن ولا في السنة
ولا شرائع الدين وعلم الحلال والحرام ، بأنه دال على معالي الأمور ومرشد
للكريم الأخلاق ، زاجر عن الدناءة ناه عن القبيح ، فالشعور الديني والخلق
متملك له مسير له في تأليفه ، فهو ان تكلم في الدنيا وشؤونها فقد أودع فيه طرفاً
من محاسن كلام الزهاد في الدنيا ، وذكر لخطائهم وزوالها وانتقائها حتى
يستوجب بذلك الأجر ، بل رضى من النعمة بالسلامة ، ومأل أن الله يمحو
ببعض بعضاً ، ويغفر بخير شراً ، ويحذف هزلاً .

والحق أنه نقل التأليف في الأدب نقلة جديدة من حيث الترتيب وقلة
الاستطراد وتعهد ذلك في كتابه وفخر به فقال : « وقرنت الباب بشكله ،
والخبر بمثله ، والكلمة بأختها ليسهل على المتعلم علمها وعلى الدارس حفظها » ^٢
ويذكر أنه وضع كتاب الطبائع والأخلاق بعسد كتاب السؤدد لأنه
مقارب له ، وقد التزم ذلك فقل أن يخرج عن موضوعه في غير مشاكلة
وتقارب ، فهو بذلك - من حيث منهج التأليف - أرقى من البيان والتبيين والكامل
وقد تعرض في أول الكتاب لمصادره فقال : « انه تلقت ما فيه عن فوqe
في السن والمعرفة ، وعن جلسائه واخوانه . ومن كتب الأعاجم وسيرهم
وبلاغات الكتاب في فصول من كتبهم ، ولم يستكف أن يأخذ عن الحديث
سناً لحداثته ، ولا عن الصغير قدراً لحساسته ، ولا عن الأئمة (الوكلاء) لجهلها
فضلاً عن غيرها ، ولم يتحرج أن يأخذ العلم عن غير مسلم ، فان يزرى بالحق
أن تسمعه من المشركين ، ولا بالصريحة أن تستبطن من الكاشحين .

واذ كان الكتاب أكثر ترتيباً كان مزج الثقافات فيه أكثر وضوحاً
فكما كان يضم الشيء إلى مثله كان يضم ثقافة أمة في شيء خاص إلى ثقافته الأمة
الأخرى فيه . فهو إذا ذكر السؤدد عن العرب ذكر السؤدد عن العجم ، فهو
يذكر السؤدد في نظر الأحنف بن قيس وغيره من سادات العرب ، وينقل عن
كتاب للهندي السؤدد . ويذكر رأى بعض العرب في أسباب السرور فيقول :
قال قتبية بن مسلم لخصين بن المنذر ما السرور ؟ قال امرأة حسناء ، ودار قوراء ،
وفرس مرتبط بالفناء .

وقيل لعبد الملك بن الأهمم ما السرور ؟ فقال رفع الأولياء ، وحط الأعداء ،
وطول البقاء مع القديرة والتماء . ثم ينقل رأى الفضل بن سهل الفارسي في
السرور أو يقول : توقيع جائز ، وأمر نافذ . ورأى أنى نواس - نصف الفارسي -
إذ يقول : لَأَسْمَا الْعَيْشُ سَمَاعٌ وَمُسَدَّامٌ وَنِدَامٌ
فَإِذَا فَاتَكَ هَذَا فَعَلَى الْعَيْشِ السَّلَامُ

وينقل عن المسيح عليه السلام قوله لأصحابه : إذ اتخذكم الناس رؤوساً
فكونوا أذناً . ثم ينقل عن كتب العجم علامة الأحرار أن يُلقوا بما
يُحبون ويحرموا ، أحب إليهم أن يُلسقوا بما يكرهون ويُعْطوا ، ثم ينقل
عن أردشير وعن ابن المقفع في كلیلة ودمنة ، وعن أنوشروان وعن استشهاد
جعفر البرمكي بفعل أبرويز ويقول : «أعلنت أن ناووس أبرويز أمدح لأبرويز
من شعر زهير لآل سنان ؟ »^١ وهكذا فهو يتعرض للعرب والعجم والهند
ويعرض آراءهم وأقوالهم بانظم مما يفعل الجاحظ .

كذلك يمثل كتابه ما ذهبنا إليه قبل « من مناطق النفوذ » فمجن إذا استعرضنا
- في عبون الأخبار - كتاب السلطان وسيرته والمشاورة رأيناه يكثر النقل عن

١ قال ذلك لما رأى الأصمعي يعطى الكثير ويعيش عيش سوء

المرس والهدى ، مما يدل على أن الأدب العربى فى هذا الباب أكثر تأثره
بماتين الأمتين وراءه فى باب القصص والأحكام والشهادات والطلم قل أن
يقبل عنهما ، إنما يقبل عن العرب وأحكام الاسلام ، وإذا تكلم فى الرهد فيكاد
يكون الفصل الأول كله نقلا عن اليهودية والنصرانية ، وفى باب الطعام عقد
فصلا للبياه والأشربة نقل فيه عن الأطباء وعن الملاحاة النبطية ، وعن
ابن ماسويه ، وعقد فصلا للأنجيمات وما شاكلها ومصار الأطعمة وما فيها
والسنان وحصانها وسائر الخاضع وكاتب فصولا عن الحيوان ونقل عن
أرسطو وغيره . والثقافة اليونانية فى كل هذه الفصول عالية تنابعة

ثم هو رجل دنى من رؤساء أهل السنة ، وكان لذلك مثقفا ثقافة دينية
واسعة ولم تقتصر ثقافته على الاسلام ، بل مرأ الورا والايحيل وأكثر
النقل منهما ، فهو يهل كإبراهيم وموسى عنه وعن التوراة والايحيل ويقول
قرأت فى التوراة وقرأت فى الايحيل ، ونقل دعاء للمسيح ودعاء لدواود ودعاء
ليوسف عليهم السلام ، ونقل أخبارا عن الرهان كما يقبل أخباريت عن
رسول الله وعن الصحابة والتابعين والراشدين من المسلمين

وعلى الجملة فثقافة ابن قتادة واسعة كل السعة ، ومظهر امتزاج الثقافات
فيه - مدينة كاتب أو دينية - مظهر حلى واصح

أبو حنيفة الديورى : - ثالث ثلاثة مثقفوا ثقافة عليه وأدبيه واسعة
وليس بأفاهم وإن كان حظه من الشهرة فى عصورنا الأخيرة دونه ، هو
أحمد بن داود بن ورد ، ولد بديور ، ولم يعلم تاريخ ولادته وإن كان يرجح
أنها فى العشرى الأولى من القرن الثالث الهجرى ' وأحد الجوع عن ابن
السيك وأبيه فى الكوفة ، وفى سنة ٢٣٥ هـ كان فى أصغرها رصد الكواكب
ويصح بانح رصده ، ومات على الراح نحو سنة ٢٨٢ هـ كانت معارفه واسعة

١ انظر ترجمته فى رآره المعارف الاسلامية ومعجم الأدباء ، ومنه الوعاء وجرائه الأدب

في رواح مختلفة ، في التاريخ — وقد وصل الياسمه كتاب « الأحبار الطوال »
وفيه معلومات عن علاقة العرب بالفرس ولا تحدها في غيره — وكان — كما
يقول يافوت — نحوياً ، لغوياً ، مهندساً ، منجماً ، حاسباً ، راوية ، ثقة فيما
يرويه ويحكىه

كان يقرر الحاحط في نلأعته ، ويختلف الناس أهمها أبلغ ، ويتجاكون الى
أنى ساعد السيرافى فيقول « أبو حنيفة أكثر نذاره وأوسعنا (الحاحط)
أكثر حلاوه ومعاى أنى عثمان لائطة النفس ، سهله فى السمع ، ولقط
أنى حنيفة أعذب وأعرب وأدخل فى أساليب العرب »^١ ويعنه أبو حيان
الوحيدى أحد ثلاثة لو اتمع النملان على تقر يطهم ومدحهم ونشر فصائلهم
— فى أحلافهم وعلمهم ومصفاتهم — ما ناعوا آخر ما يستحقه كل منهم الحاحط
وأبو حنيفة ، وأبو زيد البلخى ، ويصفه بأنه من نوادر الرجال ، جمع بين حكمة
الفلاسفة وبيان العرب ، له فى كل من سابق وقدم ، ورواء وحكم
ويظهر أن ثقافته اليونانية والهندية كانت أوسع منها فى صاحبيه الحاحط
واس قتيبة ، وعليه الرابى يكمل بقصصهما يدل على ذلك تأليفه فى الفلك
والجساب والخبر والمقابلة ونوادر الخبر والقبلة والروال والكسوف والنحت
فى حساب الهند

اشتهر المكتاتة فى الساب ، وربما كان كتابه فيه أظهر شىء فى المرح .
ومع الأسف لم يصلنا كتابه هذا ولكن نقل منه الكثير فى المختصر لاس
سده ، وفى مفردات ابن السطار ، ولم يقتصر فيه على سادات العرب بل
ذكر سادات تنسب فى الأقطار الأخرى ، وجمع بين ما روى لغويو العرب
فى السات وما كتب عنه فى الأهم الأخرى واستعان بنلأعته على حسن وصفه
فهو يقول — مثلاً — الحرأمرى عتشة طويلة العيدان ، صغيرة الورق ، حراد المره

طية الريح لها نور كنور البتفسج، وهو كما ترى وصف دقيق ويقول ويقال للموضع الذي يجعل فيه الزرع إذا حصد الأندر واليدر والمرء بد والجوخان والمسطح وهو سوادى عرب والجرين وجمعه الجرثن والأجرنة، فتراه يدخل كلمات عرب ويقول: وإذا تناوب أهل الجوخان، فاجتمعوا مرة عندها ومرة عندها وتعاونوا على الدباس فإن أهل اليمن يسمون ذلك القاء، ونوبة كل واحد قاهته، وذلك كالطاعة له عليهم، لأنه تناوب قد ألزمه أنفسهم، فهو واجب لبعضهم على بعض، فتراه يعرف العادات المختلفة في البقاع ويصف الشعير في أما كنبه المختلفة، فالشعير العربي والشعير العراقي والشعير الحبشي. ويصف نباتات لها أسماء غير عربية كالسبسة والكراوية^١ ويقول الكمون ليس من نبات بلاد العرب، وهكذا كان ذا نظر واسع وخبرة دقيقة في النباتات عربية وغير عربية، وكان أساساً من أسس اللغة أمدها في النبات وما إليه بالفاظ جديدة، وحدد أفاظها القديمة.

كذلك له كتاب في الأنواء إلا أنه قصيره على ما كان للعرب من العلم بها كما يدل على ذلك الجزء الذي نقله عنه ابن سيدة في المخصص^٢

ولعلك ترى معنى بعد أن هذا العصر كان بوتقة صهرت فيها عناصر الثقافات المختلفة، أو مصباً لجدول متعددة المجرى مختلفة المنابع، وأن العلماء كانوا مظاهر تختلف باختلاف مصادرها، فما أشبه حجل الجبال بألوان صخورها، وعلى أعراقها تجري الجياد، وأنهم كلهم كانوا يجرون في عنان^٣ فأورثونا ثروة علمية وأدبية متعددة النواحي، نصفها في الباب التالي إن شاء الله

١ جزء ٩ ص ١٠ وما بعدها ٢ الدان: العوط

تم الجزء الأول ويليه الجزء الثاني من ضحي الاسلام
وفيه بابان باب في وصف الحركة العلمية وآخر في المذاهب الدينية

اهم الاحداث في ذلك العصر

أهم الاحداث	التاريخ المجبرى	التاريخ الميلادى	بدء السنة الهجرية
قيام الدولة العباسية وخلافة السفاح	١٣٢	٧٤٩	٢٠ أغسطس
خلافة أبى جعفر المنصور	١٣٦	٧٥٣	٧ يولية
قتل ابن الملقع	١٤٥	٧٦٢	١ أبريل
موت عمرو بن عبيد المعتزلى	١٤٤	٧٦١	١١ أبريل
تأسيس بغداد	١٤٥	٧٦٢	١ أبريل
موت جعفر الصادق	١٤٨	٧٦٥	٢٧ فبراير
موت الى خنيفة	١٥٠	٧٧٣	٦ فبراير
موت الأوزاعى	١٥٧	٧٦٧	٢١ نوفمبر
خلافة المهدي	١٥٨	٧٧٤	١١ نوفمبر
موت سفيان الثورى وابراهيم بن ادعم	١٦١	٧٧٧	٩ أكتوبر
موت داود الظاهرى	١٦٥	٧٨١	٢٦ أغسطس
قتل بشار بن برد على الزندقة	١٦٧	٦٨٣	٥ أغسطس
خلافة الهادى	١٦٩	٧٨٥	١٤ يولية
خلافة هرون الرشيد	١٧٠	٧٨٦	٣ يولية
تأسيس الدولة الادريسية فى مراکش	١٧٢	٧٨٨	١١ يونية
موت مالك بن أنس	١٧٩	٧٩٥	٢٧ مارس
موت أبى يوسف القاضى	١٨٢	٧٩٨	٢٢ فبراير
نكبة البرامكة	١٨٧	٨٠٢	٣٠ ديسمبر
موت محمد بن الحسن	١٨٩	٨٠٤	٨ ديسمبر
خلافة الأمين	١٩٣	٨٠٨	٢٥ أكتوبر
خلافة المأمون	١٩٨	٨١٣	١ سبتمبر

أهم الاحداث	التاريخ الهجرى	التاريخ الميلادى	بدء السنة الهجرية
موت معروف الكرخى	٢٠٠	٨١٥	١١ اغسطس
موت الشافعى	٢٠٤	٨١٩	٢٨ يولية
موت أبى عبيدة	٢٠٨	٨٢٣	١٦ مايو
قول المأمون بخلق القرآن	٢١٢	٨٢٧	٢ ابريل
خلافة المعتصم	٢١٨	٨٢٣	٢٧ يناير
انتقال عاصمة الخلافة من بغداد الى سامرا	٢١٩	٨٢٤	١٦ يناير
موت أبى الهذيل العلاف المعتزلى	٢٢٦	٨٤٠	٣١ اكتوبر
استمرار حجة خلق القرآن	٢١٨-٢٣٤	٨٢٣-٨٤٨	
خلافة الواثق	٢٢٧	٨٤١	٢١ اكتوبر
موت بشر الحافى الصوفى	»	»	»
موت النظام المعتزلى	٢٣١	٨٤٥	٧ سبتمبر
خلافة المتوكل	٢٣٢	٨٤٦	٢٨ اغسطس
الامر بدمم القول بخلق القرآن	٢٣٤	٨٤٨	٥ اغسطس
موت احمد بن ابى دواد	٢٤٠	٨٥٤	٢ يونية
موت احمد بن حنبل	٢٤١	٨٥٥	٢٢ مايو
موت الحارث المحاسبى	٢٤٣	٨٥٧	٣٠ ابريل
موت ذى النون المصرى	٢٤٥	٨٥٩	٨ ابريل
خلافة المنتصر	٢٤٧	٨٦١	١٧ مارس
خلافة المستعين	٢٤٨	٨٦٢	٧ مارس
خلافة المعتز	٢٥٢	٨٦٦	٢٢ يناير
خلافة المهتدى	٢٥٥	٨٦٨	١ يناير
موت الجاحظ	»	»	»



CALL No. ۲۹۶۵۹ ACC. NO. ۱۸۷۲۴
 AUTHOR امام
 TITLE مغنی الایمان

1220 ۶۲۱۹ ۱۸۷۲۴ ۲۹۶۵۹
۶۲۱۹

Date	Date	No.	Date	No.
۲۲.۰۷.۰۶	۲۲.۰۷.۰۶	۶۷۳۵		



MAULANA AZAD LIBRARY
 ALIGARH MUSLIM UNIVERSITY

RULES:-

- 1 The book must be returned on the date stamped above.
- 2 A fine of **Re. 1-00** per volume per day shall be charged for text-book and **10 Paise** per volume per day for general books kept over-due.

Wave
/